

CA  
297.09  
M94 HA  
C.2

٤٩٤٧

حَضْرَةُ الْإِسْلَامِ

فِي

تَلَا الْإِسْلَامِ

تَالَيْتُ

جَمِيلٌ مِنَ الْمَدِينَةِ

39072

طَبْعَتَانِيَّة

عَلَى نَفَقَةِ جَرِيدَةِ الْبَلَدِ

﴿ حقوق إعادة الطبع محفوظة للمؤلف ﴾

( مصر سنة ١٣٢٣ سنة ١٩٠٥ بمطبعة المؤيد )

الحمد لله

هذه رسائل وصفت فيها عصرًا من عصور الإسلام قد أشرق به نور العلم . وجرت فيه أعمالٌ عظيمة قام بها رجالٌ كبراء ملأوا العالم بآثار جلالهم . وجعلت الكلام فيها لرحالة فارسي طوَّفته معظم البلدان الإسلامية في المئة الثانية للهجرة . وطوَّفته مناصب الدولة برعاية البرامكة الى أن نكبهم الرشيد كما تراه في موضعه من الكتاب فكان في النفس ومن عزم بعض خلاني على أن أبقى الحديث على لسانه الى خلافة المأمون لوصف ما هو حقيق فيه بتجميل الإسلام من علم وحلم وعفاف . غير اني كنت أحرص على التاريخ من أن أدخل فيه حكاية لا يحل جيدها صواب . ولا يرجع باسمنادها الى كتاب . اذا أبقيت للفرس مراتبهم بدولة العباسيين بعد نكبة البرامكة . لاني أوجبت على نفسي أن أذكر الحقائق كما كانت واقتضى أن تكون . غير واصف الاشياء الا بصورها ولا ممثلاً الحوادث والاخبار الا بما كان معلقاً في الخواطر جارياً على أذهان أهل ذلك الزمان . ولذلك لما أتيت على الاسباب التي عظمت المسلمين ونهضت بهم الى فتوح العالم أعرضت عن

ذكر ما دعاهم من بعد الى التواني والامحطاط . كما انى وقفت فيما  
وصفت من علومهم على حد الخبر المجرد من غير أن أتبع في آدابهم آثار  
الحكمة التي اقتبسوها من يونان . ولا أن أتقصي الغاية التي وصلوا اليها  
من الفنون والصناعات بما لا يخفى من حدوث ذلك كله بعد الرحلة وما  
وجب على في تأليفها من النظر الى عصر الرشيد لا الى ما بعده من الايام  
وقد اتخذت في الكتاب شواهد الاسناد للدلالة على ما وقع في  
حديث الرحلة من الموافقة لما بين أيدينا من كتب الاقدمين . واني  
لأرجو أن ينفع اخواني بما أروم لهم من الخير . والله أسأل أن يرشدني  
واياهم الى الصواب وهو حسبنا ونعم الوكيل

هذا نص ما كتبه في مقدمة الطبعة الاولى لهذا الكتاب وقد  
بدالى بعد ذلك وابعض افاضل المسلمين ضعف في بعض الروايات التي  
كنت عولت عليها وتحريف في ذكر بعض الوقائع الاسلامية يرجع  
عنه الى السند الذي أخذت عنه فازم أن أرجع الى صفحات الكتاب  
بشيء من التهذيب والتنقيح وتبديل الروايات الضعيفة بما هو أصح  
وأثبت عند أئمة النقل واني أشكر ادارة جريدة المؤيد الغراء التي ساعدتني  
في مراجعاتي بما ورد في هذه الرسائل من آداب الدين والملة قبل الشروع  
في هذه الطبعة الجديدة . فكان من راء ذلك تهذيب تكفل بزيادة  
قبول الكتاب عند خاصة المسلمين وعلمائهم ونفى عنه ما كان يؤخذ  
عليه من بعض الاسناد الضعيف

فجاء الكتاب والحمد لله بعد هذا كاه روضة المطالع . وعمدة العالم  
والمتعلم والمراجع . وصح أن يؤخذ للدرس . كما ينتهي لتنزيه النفس . وقد  
عقدت النية اجابة لرغبة علماء المسلمين ممن تفضواوا با-تحسان هذا  
الكتاب على متابعة سرد التاريخ الاسلامي في شكل هذه السلسلة من  
الروايات . وتنسيقها في مثل هذا السمط من درر الآيات البيئات . والله  
يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وهو  
ولي التوفيق والمهادى الى أقوم طريق  
جميل مدور



فهرست

كتاب حضارة الاسلام

في

دار السلام

الرسالة الاولى ( كتبت في النهروان سنة ١٥٦ للهجرة )

قدومي الى العراق . ابتداء حديث الرحالة . يذكر قدومه الى العراق . ولقائه

١

بعض علمائها

ذكر البصرة وأما كنها المشهورة . وفيه وصف عمران البصرة . ووصف أهلها

٤

على طلب العلم

العرب البادية وتنف من أخبارهم . وفيه ذكر طبائع العربان وكرمهم

وعفافهم وأنفة نفوسهم واستسكانهم عن طاعة الملوك . وان الفرس والروم

٩

لم يتغلبوا الا على المتمصرين من العرب

الانفصال عن البصرة ولمعة من اخبار الحجاج . وفيه ذكر مدينة واسط

وتنف من أخبار الحجاج . وانه قوم ملك أمية في العراق والحرمين بمن

١٦

معه من جنود الشام

المرور بمدائن كسرى انوشروان . وفيه وصف ابوان كسرى . وتخطئة

الخليفة أبي جعفر في تخريبه . وان حفظ الاثر الجميل لجميل أثر للملك

٢١

الغالين

الرسالة الثانية ( كتبت في بغداد سنة ١٥٧ )

- مقامي في دار السلام . يذكر الرحالة قدومه الى بغداد . والتفائه بالخليفة  
في بعض المساجد مصليا . ونزوله ضيفا على القاضي أبي يوسف ٢٤  
ذكر شيء من محاسن الزوراء . فيه وصف بغداد واقليمها وعمراتها .  
وبلوغ اهلها من السعة ما لم يتباهه الامم المترفة من قبلهم ٢٧  
النصرانية في الاسلام . وفيه صفاء المسلمين مع انصارى . وتقريب أبي  
جعفر بعضهم في طلب الهارين من ملوك امية . وان استخدامهم في الدولة  
لا يضر الاسلام ٣٢  
تقربني من رجال الدولة . يذكر الرحالة تقربه من البرامكة وآل المهلب  
وامراء شيان . ودخوله على معن بن زائدة . وما جرى من الحديث  
بحضرة عن ابي مسلم الخراساني . وانه ما نكب ابا مسلم الا ميله مع اهل البيت ٣٧  
لمعة من اخبار ابي جعفر . وفيه انه يقدم الموالي في مراتب الدولة خوفاً  
من ميل العرب مع اهل البيت . ويمسك يده عن العطاء ليقعد الناس عن  
الخروج عليه في دعوتهم ٤٢  
ذكر الفتوح وان العدل هو الذي حفظها للمسلمين . وفيه ذكر النبي  
صلى الله عليه وسلم . وحفظ الخلفاء الراشدين سنته . ودخول الناس افواجا  
في دين الاسلام . وان العدل هو الذي فتح الدنيا للمسلمين . وان  
النصارى كانوا يشاركونهم ببعض غزواتهم ٤٦

الرسالة الثالثة . ( كتبت في بغداد سنة ١٥٨ )

لقاتني ولي العهد وحظوتي لديه . يذكر الرحالة السبب الذي قر به من المهدي



وهو ولي عهد . وانعام المهدي عليه بضبعة في السواد ودار في بغداد

٥٩

تسرف على دجلة

في تأديبي الاميرين وما توالى على من نعمة بنى العباس . وفيه ان

المهدي أقامه على ولديه موسى وهرون مؤدباً . وان الرشيد أشد من

٥٦

الهادي حرصاً على طلب العلم

بقية من أخبار أبي جعفر . وفيه سهر الخليفة على تدبير المملكة .

وصلاح الدولة بخالد البرمكي . وان قتله العلويين ظلم واقع عليه وعلى آله

٦٠

من بعده عاره وجزاؤه

في ركوب الخليفة الى الحج . وفيه وصف موكب . وركوبه في البردة

٦٥

واختام والقضيب . ومصير الامر بقبابه الى المهدي ابنه

في ذكر من لقيته من الشعراء . وفيه طرف من أخبار بشار ومروان

ابن أبي حفصة وأبي العتاهية وأبي دلالة وابن المولى والسيد الحميري

٦٩

وأشجع السلمي وذكر شيء من أياتهم

الرسالة الرابعة ( من بغداد سنة ١٦١ وكان

الرحالة على أهبة السفر الى خراسان )

جلوس المهدي على دست الخلافة . يذكر الرحالة شهوده ببيعة المهدي .

وان الخلافة صارت اليه بحيلة الربيع الذي أوهم الناس لما أودى أبو

٧٧

جعفر بأنه حي لم يمت فأجابوه الى البيعة مكرهين

سياسة المهدي وخلعه عيسى ابن عمه عن الولاية . وفيه ذكر ما تر

المهدي وحامه . ووضع ديوان المظالم . ورفع الكسور والمون . واستأثرت

- الناس بالاحسان اليهم . وردّه الضياع المقبوضة عنهم . ثم خلعه ابن عمه  
 ٨١ بغداد عن ولاية العهد
- ظهور المهدي بمنصرة العلم . وفيه اجلاله العلم والدين . واتخاذاه لاهل  
 الادب مجالس يعرضون فيها بضاعتهم من فن أو علم أو صناعة ثم يجيزهم  
 ٨٨ على ذلك بما وسعت يده من الكرم
- ولوع المهدي بمزاولة الصيد . وفيه ان المهدي قد جمع الى خلافة الملة  
 ٩٤ ابهة الملك . وانه يخرج الى الصيد في العدد الثمينة والمواكب النبيلة
- في تمة أخبار المهدي ورسالتى الى خراسان . وفيه ذكر حج المهدي .  
 وبنائه الكعبة . وفتح يده في عطاء أهل الحرمين . وسياسته مع أهل  
 البيت ثم ظهور المقنع في خراسان يدعى الربوية ويستغوي الخلق . وبعثة  
 ٩٨ الرحالة الى مرو لمقاومة دعوته

الرسالة الخامسة . ( كتبت في بغداد سنة ١٨١ والحديث

فيها تابع لرسالة كتبت في خراسان ولم تطبع هنا )

- طرف من أخبار المهدي والهادي . وفيه يذكر الرحالة عوده الى بغداد  
 بعد طول الغيبة عنها . وما حدث به من أخبار المهدي والهادي الى أن  
 ١٠٣ صارت الخلافة الى الرشيد
- جمال بغداد بالرشيد والبرامكة . وفيه اقامة الرشيد أبهة الملك .  
 واسترسال أهله بالدمعة والنعيم . وان البرامكة وأولادهم زينة الملوك  
 ١٠٨ ترّف البغاددة وانعاسهم بطيبات العيش . وفيه ذكر تجارهم مع جميع  
 الامم . واجتماع محاسن الدنيا عندهم . واقامة النحاسين سوقاً لبيع



١١٤ الجواري في مدينتهم . ولامعة من أخبار المخشبين  
دخولى على هرون الرشيد . يذكر الرحالة مالتى من أنس الرشيد به .  
وما وجد بنفسه من الاضطراب فى تقديم المأمون على الامين بالولاية

١١٨ مع ان بنى هاشم مائلون الى الامين .  
الموازنة بين الرشيد وأبى جعفر . وفيه ان الرشيد من فضلاء الملوك  
وعقلائهم . وانه أصاح من جده المنصور سياسة . يقيم فى الرعية سلطانه  
بسياسة الرفق انساعاً بالجميل وتقرباً من الخير . فحلم لا ظلم وورفق ولا عنف  
البرامكة نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها . وفيه ان الدولة قائمة  
بيحيى البرمكى . وان اصدار الامور الى الفضل وجعفر . وان التواد

١٢٨ الذى بين الرشيد وجعفر لم يكن مثله بين أخوين  
صلاح التجارة والمعاملة . وفيه كلام عن السكة . وما وجب على الرشيد  
من تقديرها بعد ان تفاحش الغش فى التجارة . وما كان فى نيته من فتح

١٣٦ البحر عند السويس لوصول البحر الرومى ببحر القلزم  
زينة الدولة بالعلم والادب . وفيه ذكر محاسن دولة الرشيد . وانه اجتمع

يبابه من العلماء والادباء والشعراء ما لم يجتمع على باب خليفة غيره قط  
وان زينة مجالسه ثلاثة أبو نواس والاصمعى واسحق السديم . كلهم  
امام فى الادب ولكن غلب على أبى نواس الشعر وعلى اسحق الغناء  
وعلى الاصمعى النوادر والاشعار

١٤٢

الرسالة السادسة ( كتبت فى بغداد سنة ١٨٥ )

بيت الرشيد . وفيه صلاح الرشيد وتقواه . وذكر مواليه وجواريه  
وترف ذويه . وذكر المأمون من أولاده . وتعلق أمور بيته بمسمرور

١٥١ العبد . وصنع زبيدة زوجه أعمالاً يتباهى بها الملوك  
جمال البرامكة وانفجارهم بالسكرم . وفيه مساماة دورهم دور الرشيد  
في البهاء والاشراق . وقصد المؤمنين اليهم من أبعد الآفاق . وذهاب

١٦١ كرمهم مثلاً في سعة العطاء والانفاق

الدولة في خلافة الرشيد . وفيه ان دولة الرشيد أوسع دول الخلفاء رقة

مملكة . وانه يغالب الروم ويركب عليهم سيف الاسلام ليس طمعاً فيما  
يحملون اليه من الجزية ولكن لتعزيز الملة والدولة . وان السياسة التي

١٧١ أتعبت خاطره كانت متجهة الى اذلال العلويين في المغرب

عمران بيت المال . وفيه ذكر المحمول من عين وورق وأمتعة الى بيت

١٧٨ المال . وتدوين الخراج في الدفاتر لايجاد الموازنة في دخل الدولة وخرجها

مجلس الغناء بدار الرشيد . وفيه خبر الخلاف الذي وقع بين ابراهيم بن

المهدى واسحق التميمي في صناعة الاصوات . وان هذه المناظرة داعية

١٨٣ الى الاجادة في الغناء

### الرسالة السابعة ( كتبت في بغداد سنة ١٨٥ )

في ذكر آداب العرب . وفيه يذكر الرجاله شهوده مجالس الادباء والشعراء

بدار الرشيد . وتعريب البرامكة كتب الفلاسفة من قوم يونان . وبلوغ

العرب الغاية التي يروونها من علم أو أدب أو صناعة في أقصر مدة من

١٩٩ الزمان . وان مثلهم في سرعة تحصيل العلوم مثلهم في سرعة فتوح البلدان

الطب والاطباء . وفيه ان النصاري برعوا المسلمين في الطب . وتقدموا

٢٠٣ عليهم بذلك في دور الخلافة

النجماء وعلم الافلاك . وفيه ان الفرس برعوا العرب في علم النجماء وان

المقرب لهم في الاسلام الخليفة أبو جعفر . وان أحمد النهاوندي صور

الدنيا للرشيد

٢٠٧

الحديث وعلوم الشرع . وفيه ان الحديث هو العلم الذي صبت اليه أفئدة

المسلمين . وان مالكا أصح الناس حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم

٢٠٧

في تدوين اللغة . وفيه ان اللغة انما قيدت اضطرارا الى تفسير القرآن .

وان السابق الى تدوينها هو الخليل بن احمد . وان أهل الوبر يحافظون على

قوام اللسان العربي . وان كلام السوقة وألفاظ المعربين داخلة في لغة الحضارة ٢١٥

الشعر في البداوة . وفيه ملكة العربان في قول الشعر . ونظر في المعلقات

السبع . واجادة الشعراء في ذكر الربوع والاطلال ووشة الديار الى

حيث يقف حد البلاغة

٢١٩

الشعر في الحضارة . وفيه ان الشعر في الحضرة أرق منه في البداوة . وان

ازمته في الاسلام ثلاثة زمن عبد الملك وشعراؤه جرير والنرزدق

والاخطل . وزمن المنصور وشعراؤه من تقدم ذكرهم . وزمن البرامكة

٢٢٦

والشعر في أبي نواس وابي العتاهية

الغناء وتحريره واصلاحه . وفيه تمييز الاصوات . وذكر من كان اصل

الغناء عند العرب . ومكانة ابراهيم الموصلي وابنه اسحق من هذه الصناعة ٢٣٦

لمعة في علوم الفلسفة عند العرب . وفيه اشارة الى ما حصله العرب من

العلوم الرياضية . والعلوم المنطقية . والعلوم الطبيعية . والعلوم الالهية وذكر

٢٤٣

ما لهم فيها من تعريب أو تأليف

أدب السير والحكايات . وفيه ثناء جميل على كتاب كليله ودمنة . ونظرة

في كتاب الف ليلة وليلة وتعريبه عن الفارسية. وتصرف النساخ به وأنه  
٢٥٠ من اطرف الكتب التي وضعت في غالب الدهر  
تدوين الاخبار وايام الناس . وفيه ان ايام العرب كانت محفوظة في الشعر  
أو متاقلة على الالسنه بطريق الاسناد الى ان تسطرت بالكتب في  
٢٦٠ زمن الخلفاء

الرسالة الثامنة ( كتبت في بحر تونس سنة ١٨٦ )

بعدي انصراف الرحالة من بلاد الروم )

رسالتي الى قيصر الروم . وفيه ذكر الطاف الرشيد الى قيصر الروم . وان  
الرحالة هو الذي حملها اليه . وبلغه ما يريد الرشيد من موافقته على بنى  
٢٦٥ أمية لينزع الاندلس من ايديهم

المروور بالكوفة وبلاد الشام . وفيه ذكر مسير الرحالة الى الكوفة .  
وحب الكوفيين لاهل البيت . وشيء من محاسن الشام وانها بلاد مباركة  
٢٧٠ من الله ولكن غلب على أهلها الشقاق فغابهم الامم على مملكتهم  
وصف دمشق وانها بهجة البلدان . وفيه ان دمشق ماء ونماء . وان  
أهلها أحسن الناس خلقا وخلقًا . وذكر تف من أخبار بنى أمية حدث  
٢٧٥ بها الرحالة مغنية كانت للوليد بن يزيد

جامع الوليد المعروف بالجامع الاموى . وفيه ان الوليد بن عبد الملك  
عوض النصارى عن نصف الكنيسة التي كانت موضع هذا الجامع بعدة  
كنائس صالحهم عليها . وانه استقدم لبنائه صناع الروم . وأقام فيه العمدان  
المجزعة وصوّر على الحيطان المدن والاشجار والازهار . واتخذ فيه قناديل  
الذهب وصيره نزهة العالم

- المرور ببلبك وركوب البحر من بيروت . وفيه وصف آثار بلبك  
وانها من بناء الروم لامن بناء سليمان . وقد رفعوها بالحيل الهندسية والقوة  
الآدمية وتصدوا منها المعجزة ليظهروا ضخامة ملكهم لاهل المشرق .  
٢٨٨ وفيه كلام على بيروت وانها مدينة العلم والحكمة  
لقاء القيصر والمنصرف من الرسالة . وفيه بيان عادات الفرنج واندثار  
علومهم في ذلك الوقت الا ما حفظه الرهبان في ديورتهم . وذكر لقاء  
القيصر . وان خطره يتوافق مع خاطر جعفر البرمكي في العدول عن  
مناجزة الامويين  
٢٩٤

الرسالة التاسعة ( كتبت في المشاعر المباركة سنة ١٨٦ )

- المرور بتونس من بلاد المغرب . وفيه خبر الاغالبية في تونس واستقواء  
اهل البيت في المنرب . وذكر القرآن الذي كتبه عثمان بمحض من الصحابة ٣٠٣  
في ذكر الاسكندرية . ومما اش انصاري فيها من الرغد . واختلاطهم مع  
المسلمين . وجهرهم بالانجيل واخراج آياتهم الى الاسواق  
٣٠٧ الديار المصرية والنيل . وفيه وصف البلاد . وعمارها بالناس ووسمها بأسياب  
الكسب وما يفيض عاينها النيل من الخير والبركة  
٣١٢ في وصف الاهرام . وفيه صفة الاهرام . وبنائها لحوذ الفراعنة الذين  
كانوا يقولون بالرجمة الى هذه الدار . وان مشوهادليل على نعلم الفراعنة  
وانتداد أمرهم على الرعية  
٣١٧ الى عيداب فجدة فالبلد الحرام . وفيه اجتياز الرحالة بأرض مصر الى  
عيداب في طرف البر . وما كان من احتياله لاستصحاب الماء في الصحراء  
٣٢١

في ذكر المشاعر المباركة ، وفيه وصف مكة المكرمة ، وتبرك الرحالة

٣٢٨

بوفادته على البيت الحرام ، وذكر ما أحدث فيه من البناء

موافاة الرشيد بالمدينة ، وفيه وصف المدينة المنورة وما حوت من

٣٣٤

المشاهد الكريمة والآثار المباركة

الرشيد والبرامكة في مكة ، وفيه تجرول الرشيد على البرامكة بحجة

الفضل بن الربيع الذي أوغر صدره عليهم من العداوة . ومناعة الرشيد

لجعفر حتى لا يتبته الى ما يريد به من المكروه ، وابعاده الرحالة عن

٣٣٩

البرامكة في رسالة بعث بها الى الرقة .

الرسالة العاشرة ( كتبت في بغداد سنة ١٨٧ للهجرة )

أصبت بسادة كانوا عيوناً بهم نسقى اذا انقطع الغمام . وفيه رجوع

الرحالة متخفياً الى بغداد . وقتل جعفر البرمكي ... وطلب الرشيد

٣٤٤

الرحالة لينكب به

وقوع التواني في الدولة بعد نسكبة البرامكة . وفيه عم الخطب في الدولة

بعد نكبتهم . ومصير الامر بعدهم الى رجال لاعزمة عندهم ولا عزيمة .

٣٥٢

واتفاق الناس صدعاً واحداً في لوم الرشيد على قتلهم

فيما يتحدث به الناس من أسباب الرشيد بالبرامكة . وفيه يذكر

الرحالة مدار على السنة العوام من سبب نكبتهم . وان خبر العباسية

اخت الرشيد مع جعفر لاصحة له . ولكنه ردة على من ينكر وقوعه

من حيث شرف العباسية وتزيهها عن جعفر بأنه كان في الامكان حدوته



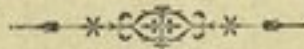
وان هولم يحدث . ويذكر أنه مانكب البرامكة الامياهم مع أهل البيت ٣٦١  
خاتمة الكتاب . يختم الرحالة حديثه بنظرة عامة في الاسلام وانحيازه الى

دول ثلاث كبيرة « العلوية والعباسية والاموية »

ثم ينظر في أحوال العباسيين ويذكر حياتهم ومكايدهم الى خلافة الرشيد  
ويقول ان دولتهم تحتاج الى رجال عقلاء يدبرون سياستها ويدبرون  
أمرها . وانها اذا سقطت في يد خائفة قليل الخبرة بأموار الملك لاتقوم

٣٦٨ لها قائمة بعد ذلك . وهذا آخر الكتاب

٣٧٣ جدول الكتب المسند اليها حديث الرحالة



1

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

✽ الرسالة الاولى ✽

( قدومى الى العراق )

أثبتت مدينة السلام في السنة السادسة والخمسين بعد المائة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم لأتخرج في الفقه على لسان الشريعة يعقوب ابن ابراهيم بن خنيس الانصارى ( ١ ) وكان خليلاً لأبي رحمه الله على صفاء بينهما لم يكن بين اثنين فركبت البحر من هرمز في ربح رخاء زجت مركبنا الى البحرين فأطراف العراق أهناً تزجية فلما حاذينا الساحل مما يلي البصرة طلعت علينا ريح عاصف وانحدر بنا الموج الى منعرج في البر من البحر كله رمال ومهاوى ماء فبتنا ليلنا فيه على أشد ما يكون من الخوف الى أن طلع الفجر فأقبلت علينا من صدر البحر سفينة حملتنا الى عبّادان وأرست بنا على مطل من خشبات تنتهى المراكب اليها ولا تتجاوزها خوفاً من الجزر ( ٢ ) لثلاثا تلحق بالارض وتغوص في الطين الذي يأتي دجلة به ( ٣ ) في انسيابه وهذا البحر في

( ١ ) هو أبو يوسف القاضي ( ٢ ) المسعودى ١ \* ٥٠ ( ٣ ) تقويم البلدان ٣٠٩

مسامحة العراق شديد على السفر ولا يحمد منه الا عمران سواحله بالناس  
لما فيها من مغاصات (١) الدر والياقوت والعقيق والبادبيج وغير ذلك  
وهي باب واسع لطلاب الرزق وللغواصين عليها أخبار غريبة فيما سمعت  
حتى قيل انهم يشقون آذانهم للتنفس ويجعلون في آنفهم القطن  
ويصطنعون وجوها من الدبل كاشاقيص ويدهنون أبدانهم بالسواد  
خوفاً من أن يتلعمهم دواب البحر ويصيحون عند الغوص مثل الكلاب  
لتغيرها عنهم فاذا بلغوا القمر عصر وا دهناً يضيء منه البحر ليروا الاصداف  
التي يتولد فيها اللؤلؤ وتكون مدفونة في أرض البحر رملاً كانت أو طيناً. ومما  
يزعمون (٢) في هذا اللؤلؤ أن تولده من مطر نيسان اذ تسكون الصدفه  
مفتوحة على وجه الماء فتقع عليها القطرات فتتربي فيها درر ارائقة الصفاء  
ولما أخذت نصيباً من الاستراحة انتقلت على سفين الى البصرة  
ونزلت بها في موضع (٣) يعرف بسكة بني سمرة بازاء دار الهيثم بن  
معاوية أميرها. وقد طاب لي فيها المقام بما وجدت من ائتناس أهلها  
الى الغريب حتى ينسى في جوارهم أهله (٤) بما يأنس عندهم من  
مظاهر الانس والمودة ووجدت لهم صبراً على طلب العلم يتخذون المكاتب  
(٥) لأولادهم وحلق العلم لأدبائهم وتشدد اليهم رحال الطلب من جميع  
الوجوه لان لهم من الأدب المكان الذي لا يرقى غير أني لم أر فيهم الا

(١) ابن خردادبه ٦١ والمسعودي ١٠ \* ٥٢ (٢) الدميري والقزويني والقرماني

(٣) ياقوت ٦٤٤ \* ١ (٤) ابن بطوطة ٢ \* ١٠ (٥) الابشيبي ١ \* ١٧٧

وهن البنية سقيمها وأصفر اللون كاسفه (١) وذلك ناشئ فيهم من  
عفونة الماء ووقوع إقليمهم في مهاب الرياح المختلفة التي تتبدل في اليوم  
الواحد ألوانا وضروبا فيجبرون على لبس القمصان مرة والمبطنات أخرى  
ولذلك سميت مدينتهم بالرغناء أنشد الفرزدق (٢)

لولا أبو مالك المرجو نائله \* ما كانت البصرة الرغناء لي ووطنا

وقد لقيت فيها جماعة كثيرة من الادباء مثل عبد الكريم بن أبي العوجاء  
والمؤرّج السدوسي الراوية والحسن بن هانيء الشاعر (٣) والنضر بن  
شميل تلميذ اخليل بن أحمد وواصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن  
البصرى لمخالفة في المذهب ثم سمي الناس ممن ذهب مذهبه بالمعتزلة (٤)  
لذلك وشهدت حلقة عتبة النحوي وأبي زيد الانصاري ويونس النحوي  
وله أعظم (٥) حلقة في البصرة من حلق علماءها وسمعت الحديث عن  
سفيان بن شعبة الثوري وشعبة بن الحجاج العتكي غير أني ما اصطفت منهم  
لمحادثات الأدب الا اخليل بن أحمد لاني وجدته أوسعهم عقلاً (٦)  
وأحضرهم روية لا يساميه في علو الخاطر الأ صالح بن عبد القدوس الشاعر  
ولكني تحاميت مجلسه لما يتهم به من الانحراف عن السنة (٧) وان  
كنت لا أبخس عقله حقه من التعظيم . وقد سمعت أنه يجهد نفسه في طلب

(١) الاغانى ١٧\*٧٨ (٢) ابن بطوطة ٢\*١٦٦ (٣) هو أبو نواس ذكر

الاجانى ٦\*١٧٩ أنه كان مقبياً بالبصرة في صباه (٤) المستطرف ١\*١٢٦

(٥) العقد ٣\*١٣٧ (٦) ابن خلكان ١\*٢١١ (٧) الاغانى ١٣\*١٥

الدنيا والتماس السعة منها ثم لا يحصل على القليل الا بعدد عصب الريق  
وفي قوله

لو يرزقون الناس حسب عقولهم \* أليت أكثر من ترى يصدق  
إشارة الى ما هو فيه وأن النعمة واقعة الى غير أهلها بخلاف الخليل  
ابن أحمد فانه متقلل من الدنيا راض منها باليسير والملوك تبذل له المال  
(١) ولا يقبل منهم شيئاً مع مكانه من الحاجة اليه . وقد اشتهر فضله  
بين الناس بعلم العروض وضعه على دوائر خمس تتجزأ منها الابحار الخمسة  
عشر غير أن سموه في العلم لا ينفرد بأدب الشعر وحده اذ له في اللغة كتاب  
سماه العين وأودعه من عيون العلم (٢) ما هو زينة وفخر لدولة الاسلام

( ذكر البصرة وأما كنها المشهورة )

ولقد ظننت البصرة لاول وهلة أنها ليست بالمفرطة الكبر فلما  
طفت في ساحاتها . وتجولت في أرباضها ومحلاتها . بدالى أنها متسعة البقعة  
كشيرة العمران . قل أن يكون بها موضع غفلا من العمارة خلوا  
من السكان . ومبانيها على الغالب من اللبن الا ما كان من المسجد الجامع  
فانه مبنى بالصخر والجص على أتم احكام وأبداع صناعة وأول من بناه  
عتبة بن غزوان أقامه من القصباء لاجل أن ينزعه متى شاء ثم يعيد  
اقامته فلما جاء أبو موسى الاشعري بناه باللبن وطلى جدرانها بالاصباغ . ثم

(١) الشريشى ٢٦٨\*٢ والابشهى ١٦٨\*١ (٢) المقدمة ٥٠٢ وابن خلكان ٢٤٣\*

جاء زياد فزاد فيه السقيفة التي في مقدم المسجد (١) وحمل اليه العمدان  
 المزخرقة من الالهواز ورفع جدرانه بالحجر والجص (٢) ثم لم تزل عناية  
 الولاة به من بعده الى أن تمت زينته وكثرت له الوقوف الواسعة . وفيه  
 اليوم قاض يفرض النفقات ويحكم في مائتي درهم وعشرين دينارا فما  
 دونها (٣) تخفيفاً عن الدواوين التي تنظر فيما هو فوق ذلك من قضايا الناس  
 ثم سرت من هذا الجامع الى مسجد علي عليه السلام واذا صحنه  
 مفروش بالحصباء الحمراء وله أوقاف جزيلة مما وقف له الفرس ومن يقول  
 بخلافة أهل البيت وهم يجتمعون فيه ويتبركون بزاره كان وعيد أبي  
 جعفر لم يجد منهم تقوساً راجعة الى غرضه فيما أوجد من الفرقة بين العلوية  
 والعباسية . ووجدت في بعض مقاصيره مصحفاً عليه أثر دابغ مثل الدم  
 الجاف يقال انه المصحف الذي كان يقرأ فيه عثمان حين قتل (٤) وبعد أن  
 قضيت زيارته المباركة تجولت في أسواق المدينة فرأيت التجارة فيها على  
 أحسن ما يكون من الرواج ولا غرو فان هي الا فرضة العراق والشام  
 وخراسان وما اليها من البلدان العالية مما يكسبها حسن الموقع بحيث  
 لا يصدر شيء من هذه البلدان ولا يرد اليها الا من البصرة (٥) ولذلك  
 استفحل فيها العمران وكثرت بها المصانع والصنائع الى أن صارت واسطة  
 العرب وقبة الاسلام .

(١) الاغانى ١٧\*٢٨ (٢) ياقوت ١\*٦٤٢ (٣) المسوردي ١٢٣ (٤) ابن

بطوطة ٢\*١٠ (٥) المسعودي والقزويني

٦٩

ومما يذكر عن بنائها ما حدثني به الهيثم أميرها أن المسلمين افتقروا  
 في صدر الدولة الى منزل ينزلون به واذا دهمهم عدو لجأوا اليه واعتصموا  
 به فبعث عمر رضى الله عنه عتبة بن غزوان المقدم ذكره وأوعز اليه أن  
 ارتد لنا موضعا في جهة العراق قريبا من المرعى والماء والمحتطب فكتب له  
 من البصرة انى وجدت أرضا كثيرة القضة في طرف البر الى الريف  
 ودونها منافع فيها ماء وفيها قصباء (١) فكتب اليه عمر أن ينزلها بمن معه  
 فوقع تمصيرها في السنة الخامسة عشرة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم.  
 ولما جلست الى الخليل العالم الامثل ودار بيننا الحديث على أيام  
 الناس الأول أخبرنى ان البصرة انما اختطها العرب نكاية بالفرس لتحويل  
 التجارة من سواحلهم اليها وذلك أنهم لما صالت منهم الاجناد واتسعت بين  
 أيديهم أحبوا أن يبنوا هذه المدينة فرضة لجميع المشرق فقشت  
 العمارة فيها ببرهة يسيرة حتى غصت بالناس على ما رحبت أرجاؤها.  
 يقال انه كان فيها من مقاتلة العرب لا يام زياد ثمانون ألفا (٢) وأخبرنى  
 الهيثم أن أهلها يبلغون اليوم خمسمائة ألف من الرجال بدليل المال الذى  
 فرقه فيهم أبو جعفر وكان ألف ألف درهم ما أصاب الرأس منهم  
 الا درهمين (٣)

وتبعد البصرة عن عبادان حيث الشاطيء نحو ساعة زمانية وعندها

(١) ياقوت وابن حوقل ١٥٩ (٢) ياقوت ١٠١ (٣) الشريشى ٤٣٧\*٢



تختلط مياه دجلة والفرات (١) وتصب في البحر الملح بعد أن تفقد عذوبتها لان المد يأتي الى ما فوق البصرة بأميال فاذا امتزج به ماء دجلة صار ملحاً (٢) ولقد يخال الرائي لاول وقوع المد أن البلاد صارت غديراً كما وقع لحمزة بن عبد الله أمير البصرة لعهد ابن الزبير وقد ركب يوماً الى الفيض فقال ان هذا الغدير ان رفقوا به يكفهم صيفتهم هذه فلما كان بعد ذلك ركب اليه فوافقه جازراً فقال قد رأيتك ذات يوم فظننت أن لن يكفهم فقال له الاحنف بن قيس أيها الاميران هذا الماء يأتينا ثم يفيض عنا ثم يعود فنجل حمزة وعاب عليه الشعراء ذلك في أبيات لهم يعرفها عامة الناس .  
ولقد تصفحت في البصرة كثيراً من قصورها المشرفة واستقرت  
أما كنها المشهورة بما وعيت عنها من الانباء وأحسن ما استظرفت منها  
قصر لمحمد بن سليمان الهاشمي (٣) وهو أوفر بني العباس مالا وأعطاهم  
لشاعر نوالا تغل ضياعه كل يوم مائة ألف درهم (٤) وقد بناه على بعض  
الانهار واستفرغ في زينته جهده واتخذ في جنانه المهبي والغزلان والنعام  
وأشوع السباع والطيور المفردة فجمع فيه محاسن الحضارة والبداءة وفيه  
يقول الشعراء .

زُرُّ وادي القصر نعم القصر والوادي      في منزل حاضران شئت أوبادي  
ترقى به السفن والظلمان حاضرة      والضب والنون والملآح والحادي

(١) المقدمة ٥٥ (٢) القزويني والاصطخري والمسعودي (٣) ياقوت

(٤) المسعودي

الى آخر الايات

وأما القصور التي بقيت بعد أربابها فانها كثيرة في البصرة شاهدت منها  
 قصراً لأوس بن ثعلبة (١) الذي ولي العراق وخراسان في دولة الامويين  
 وهو قريب من المربد (٢) وعليه قباب مرفوعة يفص الجوّ بها صعودا  
 ومن حوله خمائل رائقة كأنّ الايام تزيدها جدة ونضارة . وتلبسها من  
 الخضرة حلة معطارة . والله ابن أبي عيينة حيث يقول في وصفها هذه الايات  
 بفرس كأبكار الجوارى وتربة كأن تراها ماء ورد على مسك  
 يذكرك في الفردوس طورا فأرعوى وطورا يواتيني الى القصف والهتك  
 وسرب من الغزلان يرتعن حوله كما استلّ منظوم من الدرّ من سلك  
 وورقاء تحسكي الموصلي اذا غدت بتغريدها أحجب بها وبمن تحسكي  
 فياطيب ذلك القصر قصراً ونزهة بأفيح سهل غير وعر ولا ضنك  
 وشاهدت قصر الاحنف بن قيس (٣) المقدم ذكره في رحبة المنجاب (٤)  
 وداراً لأنس بن مالك (٥) خادم النبي صلى الله عليه وسلم واوئانا للزبير  
 ابن العوام (٦) تنزله التجار وأرباب الاموال وأصحاب الجهات من البحرين  
 وغيرهم وآخر لعبيد الله بن زياد يسمى البيضاء (٧) وهو بمقربة من  
 الموضع الذي خطب فيه أبو هذيل خطبته البتراء (٨) التي أخذت بقلوب البصريين

(١) الاغانى ٣٦\*٣٣ وياقوت (٢) الاغانى ١٠\*١٣ (٣) الاغانى ١٧\*٥٦  
 (٤) محلة ذكرها الاغانى ١٢\*٦٣ (٥) ياقوت ٤\*١٠٩ (٦) المقدمة ١٧٨ والمسعودى  
 ١\*٣٣٣ (٧) القزوينى ٢٠٦ (٨) سميت بذلك لانه لم يفتحها بالحمد لله والثناء عليه

وقد تداعت جدرانها فلم يبق منه الا أثر دارس ورسم شاخص .  
( العرب البادية وتنف من أخبارهم )

ولقد أتيت مربد البصرة عن طريق المهالبة (١) فسكة المربد (٢)  
فاذا هو ساحة كبيرة تنوخ فيها الجمال . وتحط بها الرحال . وتعلق فيها  
الاشعار التي يتناشدها العربان في أيام من الشهر معلومة يكون لهم بها  
مجالس ويبيعون ويشترون (٣) وهناك موضع يقال له شمس الوزانين  
وفيه مسجد صغير يعرف بمسجد الانصار (٤) قد طلى بالاصباغ ولم ترفع  
صوامعه الا قليلا ووجدت صحراء البصرة من وراء المربد وعرة مرملة  
لا يفرد عليها طير ولا ينبت فيها شجر غير النخيل لتفقدان الماء فيها  
وخيرات البصرة تردها من الأبله وهي مدينة عامرة بالناس خصبة  
الجناب كريمة البقعة يشقها جدول من دجلة ولا تحترق أشعة الشمس  
أرضها لالتفاف شجرها بعضه على بعض وفي مرساها مجتمع كثير من  
مراكب الهند والصين لان الريح فيها واسع لاهل التجارة . وأما النخيل  
المتصل فيما بينها الى البصرة فأعلى الصحراء فانه كسب وافر للناس يقال  
ان ثمنه يعدل (٥) ما يحمل الى بيت المال من كافة الاقاليم .

والى ما وراء المربد في ظاهر البصرة عربان من عامر (٦) وقيس

(١) الاتليدى ١٠٧ (٢) الاغانى ١٢\*٦٤ (٣) تقويم البلدان ٣٠٩

والاغانى ٥٠٧ (٤) الاغانى ١٧\*١٨ (٥) ياقوت ١\*٦٥٠ (٦) فى الاغانى

١٩٣\*٤ أن جماعة منهم نزلوا بظاهر البصرة قريباً من ذلك الوقت

عيلان كنت أختلف الى أحيانهم وأيت ليالى عندهم وآكل من ثريدهم  
 وأشرب من ألبان نوقهم وأجلس على الوبر والانطاع . وأعى أحاديثهم  
 بأقبال واستمتاع . وأشهد حلق القصاص فيما يحدثون به من أيام العرب  
 وأخبارهم فوجدتهم يتفاخرون بتأليف الخطب وقول الشعر والسيف  
 والضيف ولا يهنئون الا بفلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنتج  
 وعلمت من أخبارهم أنهم لا يأتون الفحشاء بل يعاقبون الزناة بالقتل (١)  
 ولا يباشرون من النساء الا من حلت لهم من أهلها حتى لقد يكرهون  
 تزويج اثنين قد انشرت أخبارهما بالحب (٢) وذكر هؤلاء القصاص أن  
 جميلما سأله خلأنه أن ما عملت مع بثينة طول تلك الايام قال كنت  
 أمتع عيني من وجهها وسمعي من حديثها ولم أمد إليها يداً غير مرة واحدة  
 أخذت يدها ورفعتها الى صدرى لتشعر بخفقان قلبي (٣) وهذا خبر  
 ينقلونه عن أكابر الرواة فأحييت أن أكتبه اليك ليدلك على ما وضعه  
 الله في صدورهم من نبل الهمة وعتاف النفس .

وقد بقى في خاطري ذكر عذب لاجتماعي بهؤلاء العربان وقد  
 طاب لي الجلوس الى قيس عيلان أكثر منه الى بني عامر لاني وجدت  
 فيهم بياناً وفصاحة (٤) غير أنهم لم يلبثوا في البصرة الا قليلا حتى شالت  
 نعماتهم فصرت أتوجه الى بني عامر وعرفت بالمقام بينهم كثيراً من خلال

(١) تزيين الاسواق (٢) الاغانى ١٢\*١٠ وتزيين الاسواق ٦٤\*١

(٣) تزيين الاسواق ٩\*٢ (٤) الاغانى ٥٣\*٣

العرب المحمودة وقد أعظمت رواج الادب بينهم والكتابة عندهم  
 مفقودة ( ١ ) غير أنهم يجرون على قواعد اللغة في أشعارهم ومهم أوراقهم  
 بما ليس في الامكان أصح منه ولهم في كلامهم من الامثال الحكمية  
 مالا يجده في كثير من أمم العلم والحضارة فيمرق الكلام من أفواههم  
 مروق السهم من الوتر كما يقولون وهم أصح الناس أبداً لأن الظعن كفيل  
 لهم بطيب الرياح التي لا تخبث الا مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات  
 ( ٢ ) ولأن طعامهم اللبن والتمر والقليل من اللحم مع ما يمارسون من  
 الرياضة بعيد عن أن يجلب على أبدانهم العلل ( ٣ ) وأكثرهم من  
 صلابة الجسم والنشاط بحيث يلحقون الخيل والحمر او حشية عدوا فلقد  
 سمعت من يحدث عن تأبط شاذ انه كان اذا جاع نظر في السهل الى  
 الظباء فانتقى لنفسه أسمها ثم يجري خلفه فلا يفوته حتى يأخذه ويذبحه  
 بسيفه ( ٤ ) وربما حدث الرواة بكثير من أمثال هذا الخبر عن الشنفرى  
 وعمر بن براق وغيرهما من العدائين

( ١ ) أى عند عربان البادية لانه يعرف ان المتصمرين كانوا يكتبون قديماً  
 بالحروف الفهلوية التي كانت تستعملها الفرس ثم صاروا يكتبون قبيل الرسالة بالحروف  
 الحميرية الى أن استبدلوها بالكتابة الكوفية في صدر الاسلام ويقال ان أيوب الصديق  
 أما كتب حديثه بلسان العرب اه ( ٢ ) المسعودى والمقدمة ( ٣ ) قال في  
 العقد الفريد لأمر ما طالت أعمار الرهبان . وصحت أبدان العربان . وما  
 لذلك علة الا التخفف من الزاد ( ٤ ) الاغانى ١٢ \* ٤٩

ووجدت لهم من الصفات الحسان التي تحدثها فيهم شهامة النفس  
 ما ليس يجتمع في غيرهم من الامم اجتماعه فيهم بنفس كل أحد فيهم يحمون  
 الذمار . ويمنعون الجار . ولا يغمضون على الذل كما هو معروف عنهم في  
 الاشعار . فلأن يموتوا قتلا تحت ظلال السيوف . أحب اليهم من البقاء  
 في ربة الذل والجنوف . يقول عمرو بن كلثوم من أصحاب المعلقات .

ذاما الملك سام الناس خسفاً أيدنا أن نقر الخسف فينا

الى غير ذلك من الايات المعروفة وهم يفون بالقول من غير أن يكتبوا على  
 نفوسهم العهود ويأخذون بثأرهم أخذاً شديداً وذلك ناشئ فيهم من بعدهم  
 عن القضاء لانهم لو كانوا يعانون الاحكام لفسد البأس فيهم وذهبت  
 المنعة منهم (١) ولكن ذلك قد يدعوهم الى التفاني على غير علة الا  
 الحصول على الرخيص مما يبذلون في سبيله من النفيس كآثارهم لاجل امرأة  
 أو فرس أو بعير قتالا يستمر أعواماً طوالاً بين عشائهم حتى اذا أراد  
 الله تعالى أن يدركهم بلطفه الشامل نهاهم عن القتال في الاشهر الحرم  
 فنقص فيهم من القتل ما يقع في أربعة شهور من القتال والله رؤوف  
 بالمومنين وهو العليم الحكيم لا رب سواه .

وأكرم ما وجدت فيهم من المحامد الموصوفة الكرم والسماحة  
 حتى أنهم ليضيفون نزلاءهم ضيافةً يوجبونها على أنفسهم ولو كان النزلاء  
 قتلة آبائهم (٢) وربما توسعوا في أدب الضيافة الى أن يكون بهم بشاشة

(١) المقدمة ١٠٩ (٢) الاغانى والالتيدى

عند قدوم الضيف وغصة عند ارتحاله كما يقول عاصم بن وائل من شعرائهم  
 وانا لنقرى الضيف قبل نزوله ونشبعه بالبشر من وجه ضاحك  
 ولقد كنت أسمع عن كرمهم أحاديث لم أنقلها عن جانب الثقة  
 والاعتبار . فلما نزلت بجوارهم تحققتهم بالمشاهدة والاختبار . ووجدت  
 أن كلهم كريم حتى لقد يكون السخاء تسعة فيهم وواحد في الناس (١)  
 ومن زعم ان حاتم الطائي أكرم العرب فقد ظالمهم جميعاً . وظنى بأخذهم  
 في هذه الضيافة الواجبة أنه أمر طبيعي عندهم لان الراحل منهم قد  
 يفوز في الصلاة أياما طويلا على جهد من العطش وسعار من الجوع فاذا  
 انتهى الى خباء مضروب وراه أهله بمكانه من العناء والاعياء قروه وعلقوا  
 مطيته وأوقدوا له نارا يصطلي بها من كلب البرد كما يقولون حتى اذا  
 أصابهم في ظعنهم مثل هذا العنت الشديد يتلقاهم أهل الخيام على السعة  
 من الضيافة

قال حسان بن ثابت يتהלل بذكر المكرمات .

واني لمعط ما وجدت وقائل لموقد نارى ليلة الريح أوقد  
 وكان الكرم ينتهي بهم الى أن يقوم لعشائهم منادى في الاسواق  
 ينادى في الناس هل من جائع فنطعمه أو خائف فنؤمنه أو راحل فنحمله .  
 وهذا أحسن ما يكون من محامد النفس الكريمة . ولست أقول الا أنه  
 كانت لهم في مناقضة هذه المحاسن مساو كثيرة في الجاهلية فلما نزل

كتاب الله روض أخلاقهم المستهجنة وصرف عنهم المكروه من العادات  
فقد نقلت لاخبار السالفة انهم كانوا في جاهليتهم يتزوجون بنساء آبائهم  
(١) ويكرهون إماءهم على البغاء (٢) ويألفون غير ذلك من العوائد  
الخشنة التي ذهبت بمجيء الاسلام .

وانما اضطر العرب الى سكنى البادية وتخير بقاعها على الايام بحسب  
أحوالها من الصلاح لانهم وجدوا في قفار قد تراكت عليها الرمال المحرقة  
وما كانت تنبت لهم حباً ولا بقلاً وكانت آبارهم تغيض في حمارة القيظ  
على بُعد قمرها فكانوا يظعنون لورود غيرها من المناهل في أصقاع يكون  
بها خضرة من الكلاً وتظهر للعين ما بين حولها من الرمال المنبسطة  
كأنها جزر في بحر تسير في مناحيه الجمال كما تسير السفن على ظهر الماء  
ولكن ليس ذلك الا القليل في جانب الكثير من رمالهم المحرقة . ثم ان  
الله تعالى أوجد لهم الابل (٣) والسائمة فكانوا يرتادون لها الماء فيما  
اتسع لهم من مجالات البادية فكان سكناهم في الوبر بما تقدم من الاسباب  
أمراً طبيعياً ولو أنهم نزلوا الامصار ورفعوا بيوتهم من الحجارة لما اتسمت  
من حولهم المزارع والمسارح لحيواناتهم (٤) فضلاً عن كونهم يرون

---

(١) الاغانى ١\*١٠ (٢) العقد الفريد ٣\*٢ (٣) الابل سفين العربان  
وهم يفتنون بالبانها ويكتسون بأوبارها ويستدفنون بوقيد أبارها وقد أوجد الله  
في قوائمنا لنا فوق القدم يطوى على الرمل ولا يفرز فيه مثل حوافر الدواب ليكون  
لها اقتدار على طرق الرمال (٤) المقدمة ١٠٥



الابنية والتحويط حصرا لهم الرجال (١) وحبسا لما في الفرائض من حب الاستقلال . فهم لا يصبرون على الضيم والحرية عندهم أفضل ما أعطاهم الله يبذلون نفوسهم ونفائسهم دون تقريرها لأنفسهم فانا لانجد في أحاديث النقلة أن أمة استعبدتهم في غابر الدهر قط فهذه السككدان والسريان واليونان والروم والفرس وآل ساسان قد ملكوا العالم الا العربان وكان في نفس الاسكندر الرومي أن يدعوهم الى طاعته بعد أن تم له الغلب على المشرق غير أن المنية عاجلته قبل الاقدام على هذا التغير فرزق بموته سلامة من الاخفاق حتى لا يقال عنه وهو الملك المنصور انه توجهت عليه هزيمة اذ لست أشك أنه لو أقدم على العربان لما ثبت له جند عليهم في تلك المجالات التي يتوغلون فيها ويبيتون في أمن من العدو وان كثير .

ولقد لقيت من هؤلاء العربان فتى تلوح عليه النجابة والفظانة فذكرت له أن في لقائه الملوك سبيلا الى نوال العلي والمكرمات فاخبرني أنه نزل الزوراء لاول ما بناها أبو جعفر ولكن لم يمض الا القليل حتى مل العمران ومال به الشوق الي ربوع العربان . وأنشدني وهو منصرف

ليت تخفق الارواح فيه      أحب الي من قصر منيف

ولبس عباءة وتقر عيني      أحب الي من لبس الشفوف

والايات لقتاة من العرب صارت الى معاوية بن أبي سفيان ثم لم تطب

تسأ بالمقام عنده فرجعت الى البادية بعدما أنشأت الايات التي أنشدنيها هذا  
الغلام . فسبحان من قسم المعاش بين الاجيال . وركب في قوسهم  
طباعاً على الاميال . لاله الا هو ذو الاكرام والجلال .

( الانفصال عن البصرة ولمعة من أخبار الحجاج )

كان مقامى في البصرة شهراً وثمانية أيام ولما طويت بساط الإقامة  
تهيأ لى أن أصعد على دجلة سفراً (١) يخفف عنى مشقة الركوب على ظهور  
المطايا فدفعت حمولى الى الربان وانفصلت عن البصرة لاول هده من  
الليل حتى اذا طلع النهار كنا في متوسط بطاح مفروشة بالنخيل على مد  
البصر وفيها خيام لبطون من تميم (٢) وشيبان (٣) قد ضربوها على  
مرتفعات من ذلك السهل فكان نأملى بمنازلهم مع ما أعلمه من شدة  
تعلقهم بعيش البداوة يمثل لى من بعد ارتحالهم رفاقاً لهم من الشعراء قد  
وقفوا بالميس الى هذه الاطلال وبكوا عهوداً مضت لهم فى زمان الانس  
ما بين هذه الربوع .

ولما كان بعد أيام طلعت علينا سموم يكاد يأخذ حرها بالنفس وكدنا  
أن ننكص على الاعقاب لاختلاف الريح فرأى الربان أن ينزل الملاحون  
الى البر ويربطوا المركب بامراس يجرونها بها من عدوة النهر ريثما يحصل  
الفرج ومضى الليل كله من غير أن تكتحل عيناي بنوم من شدة الحر

(١) المسعودى ٢ \* ٢٣٩ ، ٢ فى الاغانى ٩ \* ٧٨ أنهم كانوا يجتمعون بجوار

البصرة (٣) تزيين الاسواق ٢ \* ٧

الى أيام عشرة لم نزل بها في مغالبة الريح ومقاساة عنها الشديد الى أن  
وصلنا الى مدينة واسط (١)

هذه المدينة في فضاء من الارض طيبة الاقليم والنسيم غير أن الحر  
غالب عليها لاقبال الرياح اليها من جهة الرمال المتراكبة على هضابها (٢)  
ومبانيها من الاحكام بمكان سام ولا سيما القصر الذي بناه الحجاج (٣)  
وهو باق الى زماننا هذا وهو سنة ست وخمسين بعد المائة والناس يسمونه  
الخضراء وله قبة مشهورة في مباني الاسلام حتى قيل انه ما بنى لاحد  
قبل الحجاج مثلها (٤) وفيه أحواض كثيرة يرقى اليها ماء دجلة وأعظمها  
حوض من الرخام الاخضر في مجلس به سرير مذهب (٥) يقال انه كان  
مقعدا للحجاج في مجالسه العامة وهذا القصر بهج مزخرف بأنواع الزينة  
لان النفقة عليه وعلى الجامع الذي بجواره بلغت نحواً من أربعين الف  
الف درهم (٦) ولكنه سمج في عيني بما ورد على خاطري عند مرآه  
من قبائح الحجاج فكأنه بيت قد رفعت جدرانها على دعائم الظلم  
والاعتساف .

وبقيت في واسط ثلاثة أيام لاخلاف الريح ولكن على كره من  
النفس لاني كنت أراها بعين الماقت لها . ونزلت بها في فندق علي شاطي

(١) تقويم البلدان ٣٠٧ (٢) التزويني ٣٢٠ (٣) المسعودي ٢ \* ١٨٣

وهو يقول انه كان باقياً لايامه (٤) المسعودي ٢ \* ١١٥ (٥) الابشهي ١ \* ٦٣

(٦) ياقوت ٤ \* ٨٨٧

النهر حيث الجسر المقام من سفن وأمامه ساحة تباع فيها الخيول ويكون بها سوق في أيام معلومة من السنة يأتيها العربان بما يريدون يبعه من الخيل الجياد التي يحتفظون بها احتفاظ الآباء بالبنين (١) فانهم لا يتخلون عنها بالقليل ولا بالكثير من المال واذا سألتهم يبعها منك بأعلى الاثمان فانت مردود في سؤالك يقولون لك هذه منجاتنا من العدو واذا أطلقنا لها العنان طبقت الآفاق بأسرع من ملح البصر .

ولم تزل هذه السوق مقامة في واسط منذ بنيت الى هذه الغاية لانها كانت في أول هذه المائة من أعمار بلدان العراق بما خصها الله من خصب التربة وكثرة الخيرات فلما وقع بها الطاعون الجارف منذ أربعين سنة (٢) ونزلت بالناس السنون وأخذتهم المجاعات أتى عليها الخراب والانحلال وتجافي الناس عن سكنها بما توالى عليها من الفتن التي وقعت في صدر هذه الدولة الى أن استقر فيها السلم وبعد عهدها من الوباء فسارع أرباب التجارة الى استيطانها لما يتسنى لهم فيها من قرب المواصلة والمناولة الآن منها الى الزوراء خمسين فرسخا ومنها الى البصرة خمسين أيضا ومنها الى الاهواز مثل ذلك وظنى أنها سميت بواسط لهذا السبب وهو توسطها في العراق .

وقد اتفق لي قبل الاتصال عنها أني لقيت فيها شيخا كان أبوه خادما عند الحجاج حاسبه الله تعالى فحدثني من أخباره بما تنفطر منه الفائدة

(١) تزيين الاسواق (٢) ابن الاثير ٥ \* ٧١

رحمة لأهل البيت وأصحابهم لانه كان يقتل منهم جزاءاً على التهمة الى أن بلغ عدد الذين قتلهم صبراً مائة ألف وعشرين ألفاً وكان في السجن عند ما أهلكه الله أكثر من خمسين ألفاً يرسفون في سلاسل الحديد ولا ذنب لهم الا حبههم لاهل البيت وكانت الناس لا يامه اذا تلاقوا في المجالس والمساجد والاسواق يتساءلون من قتل البارحة ومن صلب ومن قطع وقد تفاحش ظلمه في الخراج بحيث ان الامراء بعده كانوا يستنكفون عن ولاية الخراج خوفاً (١) من نقص الخراج اذا خففوا ضرائبهم ومكوسه أو الاستمرار على ظلم الناس اذا راموا جباية ما كان يحمله الى الخليفة من المال (٢)

وقد رسم لي هذا الشيخ صورته بأنه كان قوی البنية مائلاً الى السمن ولا يزال العرق متصبباً على جبينه وصدغيه من تحت قلنسوة قد أحاطها

(١) ابن الاثير ٩٥٥ (٢) كان ملوك بني أمية يعرفون من الحجاج جورهم واعتسافه ولكن لم يكن في كنفانهم سهم أشد منه نكايه على العدو فلم يرق لهم استبداله بغيره وان ثقل أمره على الرعية . وفي مروج الذهب أنه لما وفد على الوليد بن عبد الملك كان عليه درع وكنانة وقوس عربية وقد تفضل الخليفة في غلالة فجاهت جارية وسارت الوليد ومضت ثم عادت فسارته ثم انصرفت فقال الوليد للحجاج أئدرى ما قالت هذه يا أبا محمد قال لا والله قال بعثها الى ابنة عمي أم البنين تقول ما مجالستك لهذا الاعرابي المتسلح في السلاح وأنت في غلالة فأرسلت اليها انه الحجاج فراعى ذلك وقالت والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق اه

بعمامة خضراء (١) وكانت له مهابة تقصم ظهر الوافد عليه . وكان شديد  
 التهويل في خطبه واذا صعد المنبر تلقع بمطرفه ثم تكلم رويداً رويداً فلا  
 يكاد يسمع حتى يتزايد في الكلام فيخرج يده من مطرفه ثم يزجر الزجرة  
 فيقرع بها من في أقصى المسجد .

قال وكان يحدثني أبي أنه كان يجلدنزة (٢) في سفك الدماء وارتكاب  
 أمور لم يقدم عليها غيره ولم يسبقه اليها سواه ولما أرسله عبد الملك بن  
 مروان الى العراق ليوطىء له المنابر خرج كمش الازار وغلب الناس بقوة  
 الرجال لا بالسياسة والرأى لان جنوده كانوا من الشام (٣) وهم على  
 غرض الامويين مخالفون لاهل البيت فلما أوجدتهم بين أعدائهم لم ير  
 منهم الا نفوساً مستتقلة راجعة الى رأيه في كل أمر ونهى فحملهم على  
 منازلة مكة المسكرمة من هذا الوجه ولم ينفك عن ضربها حتى استسلم اليه  
 أهلها بعد أن تصدع جدار البيت الحرام فأقام ملك بنى أمية على هذا الظلم  
 وقومه لهم خمسين سنة من بعده الى أن أراد الله بانقرض دولتهم في المشرق  
 هذا نتف يسير من أخبار هذا الظالم الفاشم وقد رأيت تناقل الحديث  
 عنه في أفواه الواسطيين كتناقل الحديث في مجالس البصريين عن زياد  
 ابن أبيه وكلاهما قد أذاق العراق من الهوان والقهر ما لم يسبق اليه أحد  
 من البغاة الظالمين وهما وان كان لهما فضل في تدبير ماخولا من الولاية  
 الا أن لزياد فضلاً في بلاغة الكلام التي شهد له بها أكبر الرجال وضبطه

البلاد بأهل البلاد أنفسهم أعظم من فضل الحجاج الذي ماغلب العراقيين  
الا بأهل الشام وما قوم ملكه الا بالسيف البائر . والجبروت القاهر .

( المرور بمدائن كسرى أنوشروان )

كان انفصالنا عن مدينة الحجاج في ليل رطيب قد انفتق سبحانه عن  
القمر فقضينا جزءاً كبيراً منه بالسمر حتى اذا اسفر الصباح كنا في محاذة  
قصر يقال له الرمان ( ١ ) ومن حوله خيام مضروبة للعربان فوق ذلك من  
تسمى موقع الاستعمار من الدنيا في نعيم الحضارة وشقاء البداوة اذ كانت  
الاضداد منها على هذا الوجه فلما يقع عليها النظر في وقت واحد وكان  
يلوح لنا في صدر السهل الى آخر النهار بناء عظيم أخبرت أنه من جملة  
المنابر التي أقامها الحجاج بينه وبين قزوين ( ٢ ) وهي اذ ذاك آخر الثغور  
حتى اذا ظهر فيها الخوارج دخنت بالنهار فدخنت المناظر كلها أو اوقدت  
بها في الليل نار فاستوقدت المناظر فيعلم ذلك .

ولم نزل نحترق عباب دجلة يوماً بعد آخر حتى جزنا جبل والنعمانية  
ثم الماطر مما يلي كلوا اذا ( ٣ ) وأقبلنا على المدائن مع طلوع الفجر فنزلت  
الى البر أتفرج على الايوان الذي بناه كسرى أنوشروان . فاذا هو في غاية  
العظم ونهاية الاتقان . يبلغ طوله نحواً من مائة ذراع وعرضه نحواً من  
نصف ذلك وقدرت في ارتفاعه أكثر من ثمانين ذراعاً وليس في مباني

( ١ ) ابن خلكان ٤٧١\*١ وياقوت ٨١٤\*٢ ( ٢ ) ياقوت ٨٨٦\*٤

( ٣ ) المسعودي ٢٢٩\*٢

الآجر ما هو أبهى منه وقلما يوجد فيه موضع غملا من رسم أو نقش أو  
 كتابة وهو يعد من العجائب ويشهد لما اقتدر عليه الفرس في عهد  
 الأكاسرة الذين جبوا معظم الدنيا حتى صار يضرب المثل بما جمع من  
 الضخامة والاحكام ولا يرى فيه اليوم من الآثار الجليلة الا صور آلهة  
 جبارة . وسباع كاسرة . ومشاهد حروب يفوز بها كسرى الخير أنوشروان  
 (١) وأما آنية القصر وزخارفه المنقولة وما كان فيه من المتاع الثمين فقد  
 فقدت بعد الفتح وبلغ المحمول منها الى بيت المال ألف ألف دينار من الذهب .  
 وجملة القول ان شأنه في الفخامة والاتقان مما يحير الاذهان على ان  
 الايام قد أهوت عليه بمول الفناء الذي ليس في طاقة الطين اتقاؤه ثم زاد  
 على ذلك كله ان أبا جعفر لما ابتنى الزوراء حمل من آجره جانبا كبيرا على  
 بعد الشقة وعظم النفقة فعارضه خالد بن برمك رعاه الله وقال يرغبه في  
 حفظ ذلك الاثريا أمير المؤمنين لا تفعل واركه ما تلا يستدل به على اقتدار آبائك  
 الذين سلبوا ملك أهل هذا الايوان فاتهمه الخليفة في النصيحة وقال أخذته  
 النعرة للفرس وأبي الا تعصب لقومه فوالله لا صر عنه قريبا ثم شرع في  
 هدمه وأخذ له الفوس وصب عليه الخلل وحماه بالنار حتى اذا أدركه العجز  
 وخاف الفضيحة بعث الى خالد يستشيره في التجافي عن الهدم فقال يا أمير

(١) ذكر ذلك البخري في وصف الايوان حيث يقول

والمنايا موانل وأنوشروا \* ن يزجي الصفوف تحت الدرّفس

والدرّفس الراية



المؤمنين قد كنت أرى أن لانهدمه فأما اذ فملت فاني أرى أن تستمر على ذلك لئلا يقال عجز سلطان العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم فمرفها المنصور وأقصر عن هدمه ولكن بعد أن قوض جانباً من هذا الأثر الجليل .  
ولما وقفت بالايوان كانت الشمس لأول طلوعها وعلى تلك الدمن ندى يتلألاً ما بين الاوكار التي تجنح اليها طيور الخراب فقعدت أتأمل ما كان عليه ربّ هذا القصر من العزة وعظم القدر وكيف أخنى عليه الدهر فأخذتني لذلك عبرة من مشاهدة الآثار الباقيات وتذكرت نظم شاعر يقول هذه الايات .

أيها الشامت المعير بالدهر أنت المبرأ الموفور  
أم لديك العهد الوثيق من الايام بل أنت جاهل مغرور  
من رأيت المنون خلدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير  
أين كسرى خير الملوك أنوشروان أم أين قبله سابور  
وبنوا الاصفرا الكرام ملوك الروم لم يبق منهم مذكور  
وأخو الخضر اذ بناه واذ دجلة تجبى اليه والخابور  
شاده مرمرًا وجلله كل سافل لطيور في ذراه وكور  
لم يهبه ريب المنون فباد الملك عنه فبابه مهجور  
وقد كان لمراى هذه الآثار تأثير في الخاطر لا يبرح منه العمر وكان اقلاءنا  
عنها قبيل الظهر ونحن على ستة فراسخ (١) من دار السلام وقد فرغت

من تقييد هذه الرسالة في آخر يوم من رمضان أرانا الله بركته بمنه  
وكرمه ونحن قد جزنا موضعا يعرف بالنهروان (١) وصرنا على مطل من  
الزوراء أم البلدان ،

( مقامى فى دار السلام )

اتفق وصولى الى دار السلام فى عيد الفطر قبيل العتمة وهى تلمع  
بالانوار ويتصاعد من المسبحين بحمد الله والمقدسين له نعمات تؤوبها معهم  
أرجاء المدينة وتمذر المسير على مركبنا تجاه باب البصرة (٢) أو كاد  
لازدحام الزوارق المشتبكة فى هذا المكان وهى مطيئة بأبهى الاصباغ  
والالوان . مرصعة بانوار القناديل الحسان . حتى كان دجلة فى الزوراء .  
أشبه بالمجرة فى كبد السماء . ثم تقدمت بنا المركب حتى وقفت بمقربة  
من الجسر وعلى مطل من قصور الخلافة التى كانت تتلأأ بضوء الشان (٣)  
فركبت البر فى الموضع المعروف بجزيرة العباس (٤) وقد غص بجموع  
من الناس قد لبسوا الطيالس السود تشبها بملوك هذه الدولة الذين  
اتخذوا السواد فى شعار الخلافة حزنا على شهدائهم من أهل البيت ونيا  
على بنى أمية فى قتلهم وشاهدت جماعة قد اتخذوا بدل العائم فلانس  
طوالا مصنوعة من القصب والورق ملبسة بالسواد أيضا وبدل الدروع  
دراعيات مكتوبا عليها بين كتفى الرجل « فسيكفيكم الله وهو السميع

(١) ابن خلكان ١ \* ١٩٦ (٢) هو باب من أبواب بغداد (٣) الاغانى

٤ \* ١٨٩ (٤) فى المسعودى ان السفن الواردة من البصرة تقف فى بغداد بهذا الموضع

العليم « أخبرني (١) بعض من لقيته في تلك الليلة أن أبا جعفر هو الذي أحب أن تزيى حوزته بهذا الشكل من اللباس منذ ثلاث سنين .  
ولما تجولت في المدينة أخذت، عن قطعة (٢) أبي عيسى الهاشمي الى محلة يقال لها الميدان (٣) ومنها الى الشارع الكبير المعروف بشارع أبي جعفر (٤) فوجدته كاحسن وأحفل ما يكون من الشوارع وله السيادة عليها بأمرين الاول اتساعه الى أربعين ذراعا (٥) وان كان يشاركه فيه غيره والثاني طوله من دار الخلافة الى محلة باب الشام (٦) على استقامة ليس في الامكان أصح منها فلما صرت فيه استقبلت في دور اخلافة زينة كضوء الشمس قد اتخذت على القبة الخضراء (٧) التي رفعها أبو جعفر الى علو يزيد عن ثمانين ذراعا يشرف منها على جهات المدينة وما بجوارها من البساتين كما أنه عني بتجميلها بالرسوم العجيبة ليكون منها الدلالة على سعة ملكه والشهاد. باقتداره على عظام الاعمال فكانت تظهر زينتها في تلك الليلة وهي مرتفعة في النضاء كأنها اكليل من نور قد تدلى على قصر السلام.

ثم اني أقبلت في صدر هذا الشارع على مسجد جامع عليه ازدحام فلت اليه فاذا برجال متمنطقين بالسيوف يرجعون الناس ويجعلون ممرا

(١) ابن الاثير ٥ \* ٢٤٥ والاعاني ٥ \* ٩٥ (٢) ذكرها ياقوت (٣) الاغاني

٢٠ \* ٦٦ (٤) ابن خلكان ١ \* ٣٠ (٥) ابن الاثير ٥ وابن خلدون ١ (٦)

ذكرها ابن خلكان وابن الاثير (٧) المسعودي والقزويني

بين جموعهم ووراءهم رجل طويل (١) أسمر نحيف خفيف العارضين  
 معرق الوجه ناطق العينين عليه ثياب سود من الخز وقلنسوة مطوقة  
 بوبر (٢) أسود من الاوبار الغالية الثمن وفي وجهه مهابة الملوك وجلالتهم  
 فعرفت أنه الخليفة أبو جعفر على غير ما تدل عليه حاشيته اذ الشمس  
 لا تخفى وان سئرت ثم لم أزل أتبعه بالعين حتى تواري بين الجموع وركب  
 بغلة (٣) عليها حليّة خفيفة من الفضة وكان لجامها في يد حاجب من  
 حجاب الخليفة .

ثم دخلت المسجد وعلى المنبر خطيب له بيان وفصاحة يقال له  
 الحجاج بن أرطاة (٤) وعلى مقربة منه قراء سبعة يتلون الايات من  
 القرآن الي مائة آية من مواضع متفرقة وسور مختلفة فلما فرغوا من  
 تلاوتهم تطايرت اليه رقع في مسائل الفقه فأجاب عنها بكلام أمضى من  
 المرفه وحدث عن البحر في بعد النور وقرب المقترف وعهدي بمن لقيته  
 من الخطباء أني ما سمعتهم الا وتمنيت أن يسكتوا مخافة أن يخطئوا ما عدا  
 هذا الفقيه الذي كان يواتيه الكلام ويتابعه حتى اذا فرغ من جوابه على  
 هذه الرقع اندفع في تفسير كتاب الله وايراد الحديث عن النبي صلى  
 الله عليه وسلم الى أن أخذ في سرد الآي المقروآت فأتى بها على نسق  
 القراءة من غير تقديم ولا تأخير حتى انتهى الى آخر آية وهي قوله تعالى

(١) العقد الفريد (٢) ابن عون وذكر ابن جبير أنه رأى الخليفة بغداد وعليه  
 قلنسوة ذات وبر (٣) ابن خلدون (٤) ذكر في العقد الفريد انه ولي القضاء لابن جعفر

« في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه (١) الآية فتمق خطبة يذكر بها المؤمنين قافية سجعاتها الالف اللينة واللام ترداداً لموقف الآية « الآصال » حتى أرسلت العيون، لخنية الله عبراتها (٢) .

ولم زل في المسجد مع القوم بين قراءة وتسبيح إلى ما بعد العشاء الآخرة فخرجت التمس موضعاً أبيت فيه بقية الليل لعل أجد في النوم راحة تعوض عليّ بعض ما أخذ مني السفر فارشدت إلى خان لطيف ينزله الغرباء من أهل التجارات وغيرهم فلما كان الصباح بكرت إلى استاذي أبي يوسف ومنزله على نهر عيسى (٣) في قنطرة الزياتين (٤) بمقربة من دور الخلافة فتلقاني بالماطفة والايانس وأبي الاضيافتي عنده في جناح أفردته لي من داره وهو يؤمنني بلوغ ما أرتجيه من خدمة الدولة إذ لا يعدم قومنا محلاً في مراتبها والوزارة في يد خالد بن برمك أميرنا . واني إلى هذا اليوم أخرج في الفقه عليه وقد وجدت عنده من العقل والعلم ما يندر مثله في صدور الرجال .

( ذكر شيء من محاسن الزوراء )

ولقد اكبرت من الزوراء رواج سوقها بالتجارة واشتباك أحيائها

(١) سورة النور (٢) من رحلة ابن جبير (٣) ابن حوقل ١٦٥ ويقول المسعودي ١ \* ٤٧ أنه يأخذ من الفرات وفي ابن خلكان ١ \* ٧٤٠ أنه يأتي بغداد من جهة الانبار و ١ \* ١٠١ أنه بجوار قنطرة الزياتين (٤) الاغانى ٣ \* ١٨٢ وابن خلكان ١ \* ٢٨٣

بالعمارة في مدة عشر سنين حتى جمعت من أسباب العمران ما لا يكون في مدينة بنيت من قديم الزمان ووجدتها من لطف الهواء وطيب الاقليم على ما ليس أجود منه في مدن العراق وفيها ما تشتهي النفس وتلد العين وأسواقها في نهاية من الاحتمال قد جمعت بالكرخ أخلاطا من التجار (١) والصناعات الاسواق الصاغة منها فانه منفرد بجماعتنا الفرس وقد بلغوا من الاجادة في صناعتهم الغاية بحيث يرصعون الزجاج بالجوهر ويكتبون عليه بالذهب المجسم ويصنعون للملوك أقداحا (٢) تقيد الابصار حسنا واشراقا . ويتخذون على الجمادات صوراً يحكمون صناعتها بالرسم الى مماثلة المماثل وقد رأيت من ذلك جاما قد صورت عليه طيور تطير (٢) ومن فوقها عقاب ينقض عليها وهي تهوى في النضاء للتخلص منه ولكن بهيمة تملك النفس وتستوقف الطرف . والى طرف هذه السوق مما يلي سوقة غالب (٣) جماعة من البنائين يبنون الدكاكين لارباب التجارة باشارة من السلطان الذي أمر بتحويل الاسواق الى الكرخ (٤) ليعبد أخلاط الناس عن جواره .

أما دور المدينة فانها متخذة على هندسة الفرس وصنائعهم (٥)

(١) الاغانى ٩ \* ٣٣ و ١٨ \* ٦ (٢) الاغانى ٤ \* ١٨٩ (٣) فى الحصرى \* ٣٥ هذا الشعر لابى نواس . تدار علينا الراح فى عسجدية . حبتها بانواع التصاوير فارس الاغانى ٣ \* ٢٧ (٤) ذكره ابن خلكان فى محلة الكرخ ١ \* ٢٤ فى ابن الاثير \* ٦ \* ٩٩ ان بين الكرخ ومدينة المنصور سورا يفصل بينهما ثم ان العمارة امتدت من وراء الكرخ حتى صار الكرخ فى جوف بغداد (٥) المقدمة ٣١٣

ومثال ما بنت الروم في الشام أو حيث كانوا ينزلون من البلاد وهي  
 مجللة كلساو مرفوعة على طابقين (١) ومبنى بالآجر ما ارتفع منها عن  
 الأرض وبالجر ما تماسها دفعا للماء في أوان السيل (٢) أن يبلغ الطين  
 ويتمكن منه ومنهم من يقوى الآجر بالقصبا والخلفاء وينغمسه بالحص  
 (٣) حتى يصير يابسا وتكون له رنة كرنة الحجر الصلد اذا صاصل .  
 وليس لدور العوام أسوار تحيط بمنازلهم وإنما تطل نوافذها على الشوارع  
 (٤) بحيث اذا ارتفع المار على حجر أو على دابة تيسر له ان ينظر من  
 بداخل البيت (٥) أما دور الممولين من أهل اليسار فانها ثلاثة أقسام  
 يجمعها سور واحد وهي مقاصير الحرم وحجرات الخدم ومجالس السلام .  
 وفي ساحاتها جنات تزرع فيها البقول والرياحين والرمان وسائر الفاكهة  
 حتى تكون روحا وريحانا واسترواحا للنفس وعلى جدرانها وسقوفها  
 نقوش في رسم ملون أو فسيفساء من ذهب وعلى دوائر الابواب والقمريات  
 وبرادات (٦) الدور كتابة يتخذونها من الزجاج (٧) الملون  
 ويحوطنها بخشب أسود من البنوس وغيره ثم يعلقون عليها رسوما من  
 النحاس تمثل غصونا وثمارا وأزهارا وأشكالا فيها كل غريبة من الابداع  
 فتمتلى العين ارتياحا من النظر الى اشراقها . واني ليمعجني من جمال

(١) يستدل على ذلك من الاغاني ٢ \* ٧٣ و ٣ \* ٣١ (٢) ذكر الاغاني

٩ \* ١٤٤ وقوع سيل بغداد (٣) ابن خلدون ٣ \* ١٩٧ (٤) الاغاني ١٧ \* ٤٩

(٥) الاغاني ٥ \* ٣٨ (٦) الاغاني ١٧ \* ١٢٩ (٧) القزويني ١٢٧

مبانيهم مايتأثقون بزينتته من الخارج أيضا فان القباب التي يرفعونها من فوق السطوح على عمدان قد دقت أمثال الرماح ليخيل للرائي اليها أنها لاتستند على شيء وكأنما هي معلقة في الهواء .

ولما كان الحر يشتد وهجه في الزوراء وينتقر اهلها الى رطوبة الماء . افتتار النفس الى الهواء . قل أن يخلو سوق من أسواقهم أو بنية من مبانيهم من سقاية يجرى بها ماء دجلة ( ١ ) ولذلك لايسير فيها الرجل الا محفوف بالشجر الزاهر والرياحين ( ٢ ) التي يتغنى بوصفها الشعراء . وهذا دليل على أن الزوراء كلهما ماء ونماء . ولاهلها في اقامة الاحواض عناية تامة فيرفعون عليها عمدا مزخرفة من الرخام ويعقدون من فوقها أبوابا منقوشة بآيات من الذهب ( ٣ ) وما يدها النقوش الظرفية والرسوم التي تفر بها العيون . فتوسعوا من اتخاذها للضرورة الى المغالاة بزينتها على سبيل الترف والترفة واذا اشتد عليهم الحر اتخذوا أسرابا تحت الارض وأقاموا فيها بالنهار ليكسروا الحر كما يقولون ( ٤ ) .

ولقد عظمت عناية أبي جعفر بهذه المدينة حتى انه اتفق عليها نحو من أربعة آلاف دينار في بناء السورين اللذين يحيطانها والمسجد الجامع ودور الخلافة والمجالس التي عمدتها فوق أبواب السور الخارجي

(١) المقدمة ١٠٥ و ٣٥٧ والاعاني والاتيدي (٢) ياقوت ١ ٦٨٧ (٣)

الاتيدي ٢٢٦ (٤) من ابن خلكان



من طاقاتها المعقودة وهي أربعة أولها باب خراسان ويسمى باب الدولة  
 لاقبال الدولة العباسية من خراسان . والثاني باب الكوفة وهو تلقاء  
 الكوفة . والثالث باب الشام وهو من ناحية الغرب . والرابع باب البصرة  
 وهو بمقربة من دجلة . وقد حمل إليها أبوابها من واسط والشام (١)  
 والكوفة على بعد الشقة والمشقة . واتخذ الابواب الداخلة مزورة عن  
 الابواب الخارجة (٢) ولذلك سميت المدينة بالزوراء .

ثم ان تناهى جمالها بما شاد فيها الامراء من المباني التي تقف عندها  
 الغاية في الفخامة والاشراق ولا سيما ما كان من المساجد المزخرفة فانها  
 لكثيرة (٣) في الزوراء أتت منها على زيارة مسجد في قنطرة الصراة (٤)  
 ومسجد بناه عبد الله بن حرب في الموضع (٥) المعروف بالحريية . ومسجد  
 أقامه أمير من آل قحطبة في شارع المحرم (٦) وآخر بنته الخيزران زوج  
 ولي العهد في الخيزرانية (٧) وهو فائق الحسن وفيه أكثر من ثلاثمائة  
 قنديل من الفضة والذهب وصحنه من حجارة سود شديدة البصيص  
 تصف الاشخاص كالمراة وعلى حيطانه صور تقافيج وثمار وغصون تخيل

(١) ابن الاثير ٥ \* ٢٣١ (٢) تقويم البلدان ٣٠٣ (٣) ذكر القرماني وغيره  
 انه كان بغداد ثلاثون ألف مسجد وعشرة آلاف حمام (٤) موضع ببغداد ذكره  
 ابن الاثير ٦ \* ١١٧ (٥) ذكره ابن خلكان ١ \* ٢٣ وياقوت ٤ \* ٥٨٦  
 والمسعودي ٢ \* ٢٤٠ و ٣٨٨ (٦) ذكره الاغانى ٥ \* ١٢٦ (٧) ذكره ابن  
 الاثير ٦ \* ١٠١

للوافد على المسجد انه بين شجر زاه زاهر . في روض باه باهر . ورأيت  
العملة قد تقلدوا فيها رسوم الاعاجم على أنسجتهم حتى جاءت الحجارة توهم  
الرأى أنها بسط حملت من طبرستان ولا فرق بينها الا فرق ما بين الصوف  
والحجر وليس في مساجد الزوراء مثله في الزينة الا مسجد بناه أبو جعفر  
في شارع دجيل (١) مما يلي باب الانبار (٢) والمسجد الجامع الذي بجوار  
دور الخلافة .

( النصرانية في الاسلام )

وقد جمعت الزوراء أخلاطا من الامم على اختلاف الاجيال .  
وتباعد المشارب والاميال . واكثرهم سيّد وأمير في قومه ولا سيما أهل  
الشام (٣) ممن أدرك الامويين في دمشق وقد انبسط لديهم النعيم وبلغت  
مدينتهم من السعة والرخاء ما لم تبلغه مدينة في ذلك العهد قط فما أحسبهم الا  
أعرق الناس بالحضارة لانهم يتقلبون بالمال الذي صار اليهم من أبي العباس  
على وجه السياسة عند ما قارع مروان بن محمد على الخلافة حتى اذا تم له  
الغلب عليه أجزل صلة المنضوين منهم اليه حيث فرق فيهم جميع المال الذي  
وجده في خزائن الامويين .

أما أمم النصرانية فاني لم أجد فيهم السعة التي وجدتتها عند المسلمين .

(١) ذكره ابن خلكان ١ \* ٤٩٨ (٢) ذكره ابن الاثير ٦ \* ٩٨ والمسعودي  
٢ \* ٢٤٠ والمستطرف ١ \* ٢٨٩ (٣) يقول في المقدمة ٣٢٣ ليس على وجه  
الارض أحضر من أهل الشام والعراق ومصر

وقد كان العهد الذي أخذه عليهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه حقيقاً بان يقصدهم عن الولاية والامارة كما أنه يقضى بوجوب التضييق عليهم وحرمانهم الاستمتاع من الرفعة التي يتمتع بها المسلمون على سعة من الملك فقد اشترط عليهم عمر في هذا العهد أن لا يحدثوا في مدائنهم ولا فيما حوالها كنيسة ولا ديراً ولا قلية ولا صومعة راهب وأن ينزلوا من مرّ بهم من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم بها وأنهم لا يؤوون في منازلهم جاسوساً ولا يظهرن شرعهم ولا يدعون اليه أحداً ويقومون للمسلمين في مجالسهم إذا أرادوا الجلوس ولا يتشبهون بهم في شيء من ملابسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا طيلسان ولا نعلين ولا يتكلمون بكلامهم ولا يركبون السروج ولا يتقلدون السيوف ولا يتخذون شيئاً من السلاح ولا يحملونه معهم ولا ينقشون على خواتمهم بالعربية ولا يبيعون الخمر وأن يجزوا مقدم رؤسهم ويشدوا الزنار على أوساطهم ولا يظهرن صلبانهم (١) ولا كتبهم في شيء من أسواق المسلمين ولا يضربوا بالناقوس في كنائسهم الا ضرباً خفيفاً

(١) كان اظهار الصلبان محظوراً على النصراني في صدر الاسلام ولكن لم يبق في نفوس المسلمين من بعد ذلك استكفاف عن شيء من عاداتهم بل لهم من ذكر الديورة والرهبان والصلبان ما هو مشهور في أشعارهم بصدر الدولة العباسية نفسها مثل هذين البيتين المذكورين في الاغانى ١٧\*١٢٩\*

تتقى بحسن جيد غزال \* و صليب مفضض أنوس  
كم لثمت الصليب في الحيد منها \* كهلال مكلل بشموس

ولا يرفعوا أصواتهم مع موتاهم ولا يتخذوا من الرقيق ماجرى عليه  
 سهام المسلمين ولا يشتروا من سباياهم ولا يتطاموا على منازلهم ولا يضربوا  
 مسلماً عمداً إلى آخر العهد (١) الذي قصد منه تقرير ضعفتهم فيما يجاور  
 مكة والمدينة والحجاز وغيرها من البلدان التي كانت مهدياً للإسلام  
 ومستقراً للدولة

ثم انه لما عم الإسلام وتوطد له الملك العظيم الذي لا كفاء له رأى  
 بعض الأئمة أن تتوسع الدولة من تقرير السيادة عليهم إلى معاملتهم بالتحقير  
 كمثل أن يكون في رقابهم خاتم من نحاس أو رصاص وأن ترفض (٢)  
 في الأحكام شهادتهم وأن لا يبدؤوا بالسلام والكلام ولا يعزوا مسلماً في  
 ماتم (٣) ولا يشاركوه في فرح ولا يركبوا المطايا في الأزقة إلا من شق  
 واحد (٤) أي أن تكون رجلاهم من ناحية واحدة وأن يلجؤوا إلى أضيق  
 الطرق في مسيرهم ويكون في عنق المرأة خاتم تدخل به الحمام ويكون  
 أحد خفيها أسود والآخر أبيض إلى غير ذلك . غير أن ما وجدته الامويون  
 قبلهم من العلم وأبو جعفر من المروءة هو الذي جعل الخلقاء يتسامحون  
 في أمرهم ويزيلون عنهم من معاملة العنف ما يكون ذلة عليهم الاقصاءهم  
 عن الولاية والتزام زيهم (٥) - فيما كانوا التمييزهم عن المسلمين فانهم استبدلوا  
 ذلك بتقريبهم اليهم واتخاذ ندمانهم (٦) منهم حتى ارتفعت حالهم في

(١) ذكره الابشي ١٣٦\*١ (٢) المستطرف ٣٠٣\*١ (٣) العقد

الفريد ٤٢\*٢ (٤) ابن عابدين ٤٢٢\*٣ (٥) المحاضرة ٦٨\*١ (٦) الاغانى ١٥١\*٦

الدولة . وهذا أعده لهم من صلاح النظر في السياسة لان حفظ الدولة  
للمسلمين لا يحصل الا بأحد أمرين إما بعرض الناس كلهم على الاسلام .  
وإما باستمالة أهل الذمة الى اللسان العربي ليكون فيهم لغتهم ولهجتهم  
السالكة حتى يألفوا عادات المسلمين وتنقطع مواصلتهم مع الروم على  
تمامى الايام . فأما اذ اختار الخلفاء الراشدون في زمن الفتح والجهاد  
سلوك الامر الاول الذى لم يجردوا في ذلك الوقت أضمن منه لحفظ  
المسلمين والاسلام فلم يبق للخلفاء من بعدهم وهم في زمن السلم والسلام  
الا أن ياتزموا سياسة الرفق التى هى مدعاة لائتلاف الصدور . ومصرفه  
للفتن عن الصدور . وذريعة الى تعظيم الاسلام بمشاركة أهل الادب  
من النصارى في بعض سياساته وأعماله وهم الذين عرفتهم حملة العلم وعرفت  
لهم البلغاء الاولين . والخطباء المقدمين . والشعراء المجيدين والاطباء  
النطاسيين والمنجمين والراصدىين . فهذا قس بن ساعدة . والبراق بن  
روحان . وحاتم الطائى . وامرؤ القيس وعدى بن زيد وأميه بن أبى الصلت  
وأبو زيد وغيرهم قد انتهت اليهم بلاغة الشعر والخطابة ولم يزل العلماء من  
أهل ملتهم يتناولون الحكمة من الموضع الذى ماسما اليه غيرهم الى أن  
عم الاسلام فحمل في المشرق ذكرهم على انقطاعهم عن محاضرة أهل العلم  
من أرباب الدولة وكانت منزلتهم من الضعة مارأيت في العهود التى أخذها  
عليهم عمر بن الخطاب ليبدل لهم الامان . فلما تقسم ملوك بنى أميه فى حاجاتهم  
وأوسعوا لهم في مجالسهم ظهرت لهم فى العلم براعة كذى قبل وقالوا

الشعر الذي فضلو فيه غيرهم من أهل زمانهم ولما أنشد القطاميَّ عبد الملك  
ابن مروان قصيدته التي يقول فيها .

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل (١)  
لم يتمالك من أن يقول لعمرى هذا هو الشعر الصحيح . وقال حماد  
الراوية حين سئل عن الاخطل ما تسألوني عن رجل حبَّب الى شعره  
النصرانية (٢) وقد نبغ الكثير منهم في جميع الفنون والصناعات ولاسيما  
في علوم الرسم والهندسة ولما ابنتي الوليد بن عبد الملك جامعه  
المعروف بالجامع الاموي الكبير وجه رسله في طلبهم من جميع النواحي  
والامصار وكذلك لما بنى أبو جعفر مدينته استقدم منهم ما ينيف عن  
خمسين ألفا (٣) من الصنائع وفي هذا القدر كفاية لما نروم اثباته من أنهم  
يزينون الدولة بما عندهم من الادب والصناعة ،

ولا يقعن في تفسك أن الاسلام تذهب محاسنه باستمتاع أهل  
الذمة من السمة وذهاب التضييق الذي وقع عليهم في صدر الملة فانما  
أخذهم الخلفاء الراشدون بالشدّة ليتمكن الاسلام من البلاد والعباد فأما  
اذ استفحل الى هذه الغاية فلم يبق ثمت حاجة الى هذا التضييق الذي ريم  
به قهر النصرانية لتعزيز موضعه من السلطان . وعندى أن الامم المقهورة  
كلما عظم شأنها زاد ذلك في عظمة الدولة القاهرة لها ولأن يكون غلبنا

(١) قال في العقد الفريد ١\*٣٤١ ان البيت قد سار مثلا (٢) الاغانى

(٣) المسعودى ١٩٤\*٢

لامة ساد فيها العمران خير من أن تغلب أمة قد طمس عليها الجهل والخشونة  
والله يقضى بما يشاء في أمر العباد . وهو ولى التوفيق والرشاد . لا رب سواه .

( في تقرى من رجال الدولة )

ولقد لقيت في الزوراء جماعة من الامراء المقدمين في الدولة غير  
أنى انقطعت الى خدمة ملوكنا البرامكة ولازمت بابهم في البكور والرواح  
اذ كانوا أصحاب فضل وجمال ومروءة وعفاف . وقد وقع بيننا من المودة  
ما ضمنى وياهم في أوثق حبال الانس والائتلاف . وتقرت بكفالتهم  
الى معن بن زائدة الشيباني وروح بن حاتم المهلبى وهما أعظم رجال الدولة  
بعدهم وكنت الى آل المهلب اكثر منى تقربا الى شيبان (١) وان كانوا  
جميعا على خلاف غرضنا من الميل مع أهل البيت الا أن معنًا كان على  
مخافة البرامكة والانحراف عنهم من حيث تقدمهم فى مراتب الدولة وهم  
أغراب عن العرب وذلك لم يكن فى آل المهلب فانهم كانوا مع البرامكة  
على خلطة ومودة واتصال .

وأقرب الامراء مكانا من الخليفة هو خالد وزيرنا لقيامه بثقل الدعوة  
فى خراسان من قبل أبى مسلم الخراسانى . وهو من أولاد الملوك لم يبلغ  
أحد مبلغه فى رأيه وعلمه وبأسه وجوده وجميع خلاله (٢) والمنصور  
لا يبرم أمرا الا بمشورته ولا يركن فى أعماله الى أحد سواه اللهم الا فى

( ١ ) يقول ابن الاثير ٥١\*٦ ان شيبان كانوا مع البرامكة على انحراف

( ٢ ) ابن خلكان ٣٦١\*٢ والمسعودى ٢٢٢\*٢

سياسته مع العلويين فانها كانت جارية على البغض لهم والجور عليهم مع أن  
 خالدًا ميال اليهم منذ أخذ في الدعوة الامامية بخراسان وهي اذ ذاك لهم  
 وللعباسيين جميعا. أما المهلبيون فانهم من عطاء العرب ومن لهم الرأي  
 المقدم عندهم والامرة المطاعة عليهم وقد كانوا هم وآل قحطبة من القواد  
 الذين نصرروا العباسيين على بني أمية ثم انضافوا الى جملة أبي جعفر بعد الفرقة  
 بينه وبين العلوية رغبة عن الأئمة من أهل البيت فقدمهم أبو جعفر في  
 المراتب من هذا الوجه حتى انصرفت اليهم الوجوه وانطلقت الاسن في  
 مدحهم بالقصائد التي تعظم عن أن يقال مثلها في الخلفاء أنفسهم كقول  
 المغيرة بن حنبل

أمسى العباد لعمري لا غياث لهم      إلا المهلب بعد الله والمطر  
 هذا يذود ويحمي عن ديارهم      وذا يمش به الانعام والشجر  
 وأنا معن فانه أمير شيبان كلهم      وقد اجتمعت فيه جميع خلال العرب  
 الحسان الا أنه غلب عليه الجود مقرونا بحلم يتحير في نعتة اللسان .  
 وشيبان من بيوتات العرب في قريش وهم أربعة بيوت بعد بيت بني  
 هاشم وهي بيت قيس . وبيت تميم . وبيت شيبان . وبيت اليمن (١) وقد  
 كان معن على مخالفة العباسيين لأول ظهور دعواتهم وأبلى مع بني  
 مروان بلاء حسنا فلما انقرضت دولتهم طلبه أبو جعفر طلبا شديدا وجعل



لمن يأتيه به مالا جزئيا فلم يضفر به لانه كان مقيدا في البادية كما يقال (١)

(١) قد وقع لمعن أيام كان يطلبه أبو جعفر ظريفة أحييت أن أذكرها ههنا  
لنكتة فكاهية تدل على كرم العرب وأنفة نفوسهم والكلام فيها لمعن يقول  
كنت قد اضطررت لشدة الطلب الى أن أقيم في الشمس حتى لوحت وجهي  
وخفت عارضي ولحيتي فلبست حبة صوف عريضة وركبت جملا من الجمال الثقالة  
لأمضي الى البادية فأقيم بها فلما خرجت من باب حرب تبغني أسود متقلدا سيفا  
حتى اذا غبت عن الحرس قبض على خطام بعيري فأناخه وقبض علي فقلت له مالك  
قال أنت طلبة أمير المؤمنين قلت ومن أنا حتى يطلبني أمير المؤمنين قال أنت معن  
ابن زائدة فقلت يا هذا اتق الله أين أنا من معن قال دع هذا عنك فاني والله لأعرف  
بك منك قلت ان كانت القضية كما تقول فهذا جوهر حملته معي يفي بأضعاف ما بذله  
أمير المؤمنين لمن جاءه بي فخذوه ولا تسفك دمي قال هاته فأخرجته اليه فنظر اليه  
ساعة وقال صدقت فيما تذكر عن ثمنه ولست قابله حتى أسألك عن شيء فان صدقتني  
اطلقتك فقلت له قل قال ان الناس قد وصفوك بالجود فاخبرني هل وهبت قط مالك  
كله قلت لا قال فنصفه قلت لا قال فثلثه فربعه فخمسه حتى بلغ العشر فاستحييت  
وقلت أظن أني قد فعلت هذا فقال ما أراك فعلته . أنا والله راجل ورزقي من أمير  
المؤمنين عشرون درهما في الشهر وهذا الجوهر قيمته عشرة آلاف دينار وقد وهبته  
لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس لتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك  
فلا تعجبك نفسك وانحقر بعد هذا كل شيء تفعله ولا تتوقف عن مكرمة قط ثم  
رمى العتد في حجرى وترك خطام البعير وانصرف فقلت يا هذا والله قد فضحتني  
ولسفك دمي أهون علي مما فعلت فخذ ما دفعت اليك فاني عنه لغني فضحك ثم قال  
أردت أن تكذبني في مقالى والله لا آخذه ولا آخذ بمعروف ثمننا ومضى فوالله لاند  
طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن يحبى به ماشاء فما عرفت له خبرا وكان الارض  
ابتلته . ابن خلكان ٢ \* ١٦٠ والاعاني ٩ \* ٤٣ وعجائب المخلوقات ٣٠٩

ثم انه رجع الي الهاشمية (١) مثلثا ووافق يوم وصوله قيسام الراوندية على الخليفة في الاسواق وقد قاتلوه الى أن ضاق به الخناق فيكان معن يجد في ذلك اليوم وسيلة لهلاك أبي جعفر بانضمامه الى العدو بعد أن بدت له مقاتله ولكن أبت مروءته الا أن يكون الحلم في نفسه طبيعة تجله عن مطامع الاخساء فأعلن السيف دونه حتى كشف عنه سواد العدو . فلما عرفه أبو جعفر طابت عليه نفسه وجعل له الولاية ومكّنه من خزائن المال .

ولقد دخلت على هذا الامير مرة واحدة فأصعبته بين حرس على رأسه وحفدة بين يديه (٢) وفي حضرته جماعة من الادباء الندمان قد تعارضوا حديث الشيعة في خراسان . وأخذوا يتناقلون خبرها من غير نقد ولا امعان . فضل عنهم سر السياسة فيها الا رجلا من شيبان بليغ الفطنة يقال له محمد بن الحسن الشيباني وهو بسيط اللسان اذا تكلم خيل لسامعه أن القرآن نزل بلغته (٣) فكان يرى لنكبة أبي مسلم رحمه الله السبب الذي لم يفطن له أحد من هؤلاء الجلاّس فانه لم يتحقق لدى ما يذكرون من أن الخليفة قد نكبه لما كان من سبقه اياه الى الحج ولا لادعائه أنه من ولد العباس ولا لتصدير اسمه قبل اسم الخليفة في الكتب التي كان يبعث بها اليه ولا لافراطه في القتل الكثير وانما نكب أبا مسلم ما كان من ميله مع أهل البيت وامداده اياهم بالرأى فيما يدبرونه لا امر

(١) كان يقسم فيها المنصور قبل بناء بغداد (٢) الابشهي ٣٠٩\*٢

والاتليدي ١٠٩ (٣) أبو الفداء ١٩٢ وابن خلكان ٦٤٧\*١ والحبيس ٣٣٣\*٢

أنفسهم حتى اذا علم الخليفة منه ذلك وخاف من فتنة صماء تعصف ريحها في الدولة استقدمه الى المدائن وفي نفسه أن ينكب به على غرة وكان أبو مسلم على حذر من ذلك كما ظهر من كتاب له الى أبي جعفر ومما كان من استصحابه للجنود في سيره اليه ولكن طلع عليه وهو بين يدي الخليفة جماعة من حيث لا يدري فاعتوروه بالسيوف وممن يعلم هذا كله ولكن لا يقوله اجلالاً لامير المؤمنين .

وأما ما يقولون من انه خامل السلالة فليس ذلك الا من باب التدليس لموافقة أرباب الدولة على أهوائهم على أنه لو صح ادعاؤهم لما منع من أن تكون به خصال لا ترى في عامة ناس فانك لتعلم انه ملك خراسان (١) وهو ابن تسع عشرة سنة وأبدى من السياسة وهو بذلك العمر ما عجز عن تدبير مثله الحكماء وكان ثبت الجنان اذا جاءته الفتوحات العظام لم يغلب عليه السرور واذا نزلت به الحوادث الفادحة لم يظهر فيه اكتئاب (٢) وكان أقل الملوك طمعاً (٣) وأبعدهم بين الناس شهرة حتى كان اذا حجج هربت العربان من وجهه ولم يبق في المناهل منهم أحد لما كانوا يعرفون من شدة بأسه ودهائه وهو أكبر ملوك الاسلام . والرجال عندي ثلاثة وهم الذين قاموا بانشاء الدول . الاسكندر الرومي . وأردشير الفارسي . وأبو مسلم الخراساني .

( ذكر ) صاحب العقد الفريد ١٢١\*١ أنه ربما جرى عليه لقب أمير

المؤمنين (٢) ابن خلکان ٣٩٨\*١ (٣) أبو الفرج ٢١٦

( لمعة من أخبار أبي جعفر )

ومن المقربين الى أبي جعفر غير من لقينته من الامراء المتقدم ذكرهم  
الربيع بن يونس حاجبه ومولاه وهو حظيّ عنده ومكين لديه من حيث  
انه مقدم على الموالي وهم المقدمون في هذه الدولة لبلائهم مع يزيد بن  
المهلب على ملوك بني أمية بجرجان (١) وما اليها من البلدان . ولا استمرار أبي  
جعفر على تقديمهم في الرياسة تحفظا على نفسه من العرب الذين يميلون مع  
أهل البيت وهو يجد عليهم أشد مما يجد على بني أمية ولو استطاع  
أن يستأصل سلالتهم الطاهرة والعياذ بالله لفعل بهم أشد مما فعل  
بالامويين الذين كان يضربهم بالعصى حتى يموتوا ثم يمد عليهم بساطا  
يأكل عليه ويقول وهو يسمع أنيهم من تحت البساط اني لم آكل أكلة  
أهنأ من هذه الاكلة (٢) .

فوجد أكرمك الله أن أبا جعفر لم يقدم الاغراب (٣) في مراتب  
الدولة الا بما هو مطبوع في نفسه من التيقظ والسهر كما تجد أنه ما أبناه  
مدينته الا اخوف من أهل الكوفة أن يفسدوا جنده ويحملوهم على  
مناصرة أهل البيت فجمع المنجمين لذلك ولم يباشر بناءها الا بعد  
ما علمه نوبخت بسلامتها من الاعداء ولما فشت فيها العماره وجمعت  
أخلاق الناس خاف قيام العدو عليه فقتل الدروب بالليل (٤) وأقام

(١) الاغانى ٢١\*٩ (٢) السيوطى والفخرى والقناوى ٢٠٣ والاغانى

٩٤\*٤ (٣) ابن الاثير ٨\*٦ (٤) الاغانى ٣٤\*٧

عليها الحراس وحوّل الاسواق الى جهة الكرخ كما تقدم حتى لا يبقى  
 بجوارده من لا يأمن ناحيتهم وشرع قومه يقولون ان رسول الروم أشار بذلك  
 اليه وقد سأله لما وفد عليه كيف وجدت بلدنا أيها الرسول (١)  
 فقال اني رأيت أعز على الطالب من بيض الانوق بيد أني رأيت الغريب  
 يطرقه ويبيت فيه وربما كان فيهم العين والجاوس . وهذا كلام فيه  
 بعض المرية عندي لان من أبناء الخوف مدينة حاطها بسور بل سورين  
 (٢) وأدارها بخندق بعيد المهوى غنى بما في نفسه من الخوف عن أن  
 يخوفه أحد كيد العيون ومحالهم

ثم انا لنجد له هذا اليتقط في البخل الذي ليس هو فيه عن لؤم (٣) يغفل  
 يده عن الخير لانه وصل أعمامه بعشرة آلاف ألف درهم لكل واحد ألف  
 ألف درهم (٤) وهو أول خليفة وصل بأمثال هذه الهبات وانما أمسك  
 يده عن العطاء مخافة أن يقع ماله في يد المتربصين به من المخالفين كما أنه  
 أقل من أعطية الجند ليأمن عصيانهم (٥) واستغناءهم عنه كأنه يعمل بالمثل  
 السائر الذي يتول جوع كلبك يتبعك (٦) والافانا لا ترى هباته واقعة  
 الا على من هو خلو من الاغراض السياسية من أهل العلم والادب وان

(١) ابن الاثير ٢٣١\*٥ (٢) ابو الفوج ٢١٩ والمسعودي ٣٨٧\*٢  
 (٣) الفخرى ١٨٨ وأمر البخل في أبي جعفر معروف ومتفق عليه (٤)  
 المسعودي ١٩٤\*٢ والمستطرف ٢٠٠\*١ (٥) في ابن الاثير ٥\*٦ ان المنصور  
 عرض جنده في السلاح وهو لابس درعا وبيضة (٦) الفخرى ٦٩

كان لا يتعدى هذا العطاء الى الكرم بما نعلم من خروج ( ١ ) الشعراء في أيامه من الحضرة الى غير وجهة يسترفدون بها صلواتهم .

وأما دلائل تخوفه من ولاية الاقاليم فكونه يذكي عليهم العيون ويتدارك عزلهم من قبل أن ترسخ في الامارة قدمهم ثم يستولى على ما يصل اليه من أموالهم ويجعله في بيت سماه بيت مال المظالم ( ٢ ) حتى يقعدهم عن القيام عليه في ثورة أو مخالفة وليس ذلك حبا في جمع المال وادخاره كما يزعم كثير من الناس لانه لولا بخل عن رأى له في السياسة لما حنق على معن حين جاد بماله على أهل اليمن ليسهل من أمرهم ما حزن ( ٣ ) كما أنه لو طمع في حفظ هذه الاموال المقتضية لما أوصى ابنه بردها الى أربابها في كلام من الوصية يقول فيه ( ٤ ) انى لأحضك يوم تدركنى الوفاة أن تدع من أخذت ماله وترده عليه فانك ستحمد بذلك اليهم ولكن اياك أن تعود الى توليتهم المناصب لانى مارأيت الوفاء طبيعة الا في الموائى والاغراب

ثم انه طمع من هذه السياسة الى أن يأخذ التجارة بالشدة ويضرب عليها المكوس ثقيلًا على التجار فوضع على الحوانيت خراجا ( ٥ ) لم يسبق

( ١ ) الاغانى ١٣\*٩١ وفى العقد الفريد ١\*١٢٢ أن حاجب الخليفة قال له أن الشعراء يبابك وهم كثيرون طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم ( ٢ ) ابن الاثير ٦\*١١ ( ٣ ) ابن الاثير ٦\*٩ ( ٤ ) الفخرى ١٨٧ وابن الاثير ٦\*١٢ ( ٥ ) المقرئى

له عهد في الاسلام وربما أعطى ماله بالربا (١) حتى يأمن ضيق تجارتهم  
عليهم بهذه المزاحمة من غير ما رحمة له أرادها بأهل الزراعة بدفع الخراج  
ورقا على الخنطة والشعير وتصويره عليهم مقاسمة (٢) تسهلا عليهم في تأدية  
الخراج اذا لم يكن بين أيديهم مال يحملونه فكان له في ذلك مأثرة تستنطق  
الافواه بالثناء وان كانت بعيدة عن رفع الفساد الذي يعم الامصار بضرب  
المكوس على التجارة .

هذا نزر يسير من أخبار أبي جعفر وفيه دلالة قاطعة على الخوف  
الذي يدعو الى التيقظ والناس يقولون انه صالح النظر في السياسة وربما  
جارتهم على ذلك فيما هو آخذ بتدبير أمره غير ان صلاح النظر عندي  
ما لا يكون فيه خروج عن العدل والافان حبس النفس الزكية محمد بن  
عبد الله بن حسن بن الحسين رضى الله عنهم وقتل أخيه ابراهيم بن عبد  
الله وكلاهما براء من الذنوب لمن أقبح الظلم ولست أرى لابي جعفر فيما  
وقع له من الظفر بهما على سبيل الاتفاق وجهها تطمئن به نفسه لان فشل  
العلويين الى هذا اليوم انما نشأ عن تفرق دعواتهم على أغراض لم تجمعهم  
غاية واحدة في جميع البلدان بل كان بعضهم منقطعاً عن بعض وكان  
كل واحد منهم منفردا الى نفسه فيما يطلبونه من ثار شهدائهم المشرفين عليهم  
صلوات الله ورضوانه فغلبهم أبو جعفر من هذا الوجه وظفر بالواحد  
منهم بعد الآخر كما كان شأن الامويين في مقاتلتهم من ذى قبل ولوانهم

جمعوا دعواتهم الى الوحدة وأثاروا العراق وخراسان والحجاز في غرض واحد كما فعل أبو مسلم رحمه الله في اظهار الدعوة الامامية لاعاد الله اليهم الخلافة التي غلبهم عليها الامويون وهم الذين عرفت لهم الفضائل التي لا يستطيع المكابرون من أعدائهم (١) انكارها والله يوعى ملكه من يشاء وهو العليم الحكيم لا شريك له .

( ذكر الفتوح وأن العدل هو الذي حفظها للمسلمين )

وما حدثني لسان الشريعة بهذه الاخبار وافق قوله ما في نفوسنا من التنسر على أهل البيت لضياح حقوقهم وقد كنت استزدته الحديث عن أخبار العرب وأيامهم فحدثني عن فتوح الاسلام خيرا أحببت أن أسرده اليك في هذا الكتاب . وأسلك فيه سبيل الاطناب . ليكون فخرا للاعراب . باقيا الى منتهى الاحقاب . فان الله تعالى لما أراد أن ينشر فيهم رحمته بعث اليهم رسولا منهم عزيزا عليه ومعه كتاب من الله ناطق بالهدى ودين الحق ليجيرهم من الملمات التي وقعت فيها جاهليتهم لمخالفتهم سياسة الشرع وتباين عقائدهم في الدين اذ لم يكن منهم الموحد

( ١ ) قال عمر بن عبد العزيز من ملوك بني أمية ان الذين حولنا لو يعلمون من على ما نعلم لتفرقوا عنا الى اولاده . ابن الاثير ١٧٥٥ وكذلك الحجاج بن يوسف جلس يوما يعطى الناس على بلائهم فقام رجل يطلب العطاء وكان من قلة الحسين بن علي رضي الله عنه فلما علم الحجاج ذلك قال له انك لا تجتمع أنت وهو في مكان واحد ثم أخرجه ولم يعطه شيئا . ابن الاثير ٤ \* ٢٣٩



المقر بالخالق المصدق بالبعث الموقن بالثواب في الآخرة الا نفر قليل  
 (١) فجمع بالرسالة كلمتهم ونزع الكعبية من يد الجاهلية الذين وضعوا  
 بها تماثيل آلهة (٢) غير الاله الواجب الوجود من يهد الله فهو المهتد  
 ومن يضل فلن نجد له ولياً مرشداً. (٣)

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مأموراً في بدء رسالته بأن يدعو  
 العرب الى الاسلام ثم جاءه الوحي بدعوة الناس كافة اليه فلما قبض صلى  
 الله عليه وسلم وهو مشكور سعيه مرفوع منزلته انتقضت نفوس العرب  
 وبتوا في موقف التردد ساعة يخفون أن يدخلوا في ولاية أحد من بعده  
 يطلق يده في الامر بما يشاء وعهدهم قريب من الجاهلية في تباين الأميال  
 والاهواء فلما رأوا من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم بعدهم عن الاغراض  
 النفسانية والتماسهم من الخلافة السلوك في سنة الله ورسوله دون شئ آخر  
 من حاجات الدنيا الا هداية الناس اجتمعوا على كتاب الله أمة واحدة في  
 دين وسياسة حتى غلبوا الملوك على أمرهم وابتزوا الاعاجم سلطانهم وحازوا  
 معظم العالم في شرق وغرب .

وانما صال المسلمون كالسباع . وشدوا على الحصون والقلاع . وتراموا  
 على ممالك الحضرة . واقتحموا المشاق والغرر . بما حضهم عليه الكتاب من  
 الجهاد وما رغبوا في نيئه من غنائم البلاد . ولأن المائت منهم في ساحة  
 الحملات . شهيد له في دار الخلد جنات . وعدهم الله تعالى ذلك بقوله « ومن

(١) المسعودى ٢٣٩٥١ (٢) المقدمة ٣١١ (٣) سورة الكهف

يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله» (١) فلما انتدبهم أبو بكر رضى الله عنه الى فتوح الشام أقبلوا بنسأهم (٢) وولدهم ويوتهم وماشيتهم وسائر ما يملكون وعلى وجوههم سمات الفرح والابتهاج (٣) كأنما النصر مستقر في النفوس صرفا بغير مزاج. ويقال ان الشيوخ الفانية قد قدموا مع أولادهم ليطأوا الارض التي وعدهم النبي صلى الله عليه وسلم حتى اذا رآهم أبو بكر ابتدرهم بالسؤال أن لم أقبلتم ومعناه يزيد على كلامه بأن ليس لكم عزم ولا فيكم بقية فقالوا قدمنا يا خليفة الرسول رغبة في ثواب الله وحباً في فاكهة الشام واستعدابا لمائه الزلال (٤) فتفأل منهم بالخير وقال ان ربكم يعطى النصر العزيز لمن يشاء. فاذا كان هذا عزم المسان واقدامهم فما الظن ببسالة الفتيان الذين هم ضراب السيوف (٥) وشراب الختوف. فان تنظرا الى ما تعرف لهم من الاشعار. ويروى عنهم من الاخبار. تجرد أنهم لا يبتغون بغير الكفاح الفخار. وتستدل على أن قوتهم في مهاجمة الديار أشد من عدوتمعه القلاع والاسوار.

ومن المعلوم أن الفتوح الاسلامية لم ينفرد العرب المسلمون بمباشرتها الا بمعاونة عربان النصرانية من قبائل تغلب وتنوخ ووائل وغيرهم

(١) سورة النساء (٢) ياقوت ٣٢٤٥٤ (٣) المقدمة ٢٣٢ (٤) الواقدي

(٥) ذكر الطرطوشي ١٧٣ أن من فرسان المسلمين من ضرب عدوه بسيفه فقطع البيضة الحديدية التي على رأسه

ولكن من غير أن يكون لهم مال للمسلمين من القيادة والامارة وإنما طلبوا تسريحهم معهم الى القتال لانهم أهل وطن واحد ولهم عادات بينهم مألوفة وقد طعموا في نوال الغنائم التي يصيبونها من البلدان بعد ما وصفت لهم صناعة الروم والآلى الهند وكنوز الفرس وخيرات مصر وطيبات الشام حتى اذا امتزجوا بالمسلمين ردحا من الدهر دانت منهم جماعة بالاسلام اما حبا في الدين واما طمعا في الغنائم التي لا ينالون منها بقدر ما يناله المسلمون وقد كانت قسمة الفارس المسلم في بعض الغزوات ثلاثين ألفا من الذهب (١). وربما كان في أهل الاعواز من المسلمين شيء من هذا الطمع الذي كان يدفعهم الى طلب الغنائم تحت القتل اذ كنا نجد الكثير منهم بعد ذلك اذا أصابوا حظا من المال وبسطوا جوانبهم على مهاد الدعة والرخاء لم تدفعهم النخوة الى مثل الاعمال التي ظهرت منهم في صدر الاسلام.

ومما حفظ هذه الفتوح للمسلمين أن البلدان التي دخلت في حوزتهم لم تبسد اشارة ثورة ولا أمانة فتنة لانها كانت قبل ذلك في سلطان الفرس أو الروم فكان لديها سواء أحكمها كسرى أم أمير المؤمنين . وربما مالت الى عمال الخلفاء أكثر من ميلها الى عمال الروم لما وجدت قبلهم من وفور العدل والقيام على مراعاة العهود مما أمر به الخلفاء الراشدون رضی الله عنهم وحرصوا على التشبث به حتى لقد عزلوا خالد

ابن الوليد عن الامارة من أجل أنه أراد أن ينقض الامان الذي أعطاه أبو عبيدة المعروف بأمين الامة لاهل دمشق اذ دخل مدينتهم صلحا بينما كان خالد يدخلها بالسيف . وأمثال هذه الرعاية المنصفة كثيرة في سير الخلفاء وكانوا اذا أوصوا عمالهم باستعمال العدل والاحتراس من المعصية والاستنكاف من القتل الكثير قالوا لهم « انه لولا ذلك لم تكن لنا بالاعاجم قوة اذ كان عددنا دون عددهم وعدتنا دون عدتهم فان استويننا في المعصية كان لهم الفضل علينا بالقوة والآت نصبر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا » فيظهر لك انه انما عم الاسلام بما عدل الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم في زمن الفتح وما أوجد الله فيهم من حسن السيرة التي ذهبت فضائلها مثلا بين الناس حتى أن الخلق الكثير من الاعاجم كانوا يدينون بالاسلام على بعد الديار وليس ذلك الا لما يسمعونه من عدل الخلفاء وعفاف أنفسهم . فلمعمرى انه لولا انقلاب خلافة الملة الى ملك فسد في يد الأمويين لما بعد أن يم الاسلام العالم بأسره والله تعالى أعلم بالغيب وله في قضائه حكمة تعالت عن أن يدركها العباد .

هذا هو السر في اتساع الفتوح وحفظها في يد المسلمين والاعاجم يعلمون ذلك ولكنهم يقولون ان الاسلام غلب أمم الامنية عندها ولا نظام للملكها فقوى عليها . وهذا مردود من وجوه كثيرة ولا سيما ان فارس كانت من أضخم الدول سلطانا وأبعدها في الحكمة أعراقا فلم يصعب عليه منالها كما لم يعسر عليه غلب الروم في الشام وهم بمكان من المدينة

لا يرام . ولست أقول الا أنه لما نشأ الاسلام كانت القياصرة في تلاش  
 وانحلال . وكانت الفرس يزقهم ظلم العمال . فكان ذلك داعيا الى انتزاع  
 ملكهم من غير أن يناله اخفاق قد تحاماه الخلائف الاولون بجهدهم وهم  
 بمكانهم من صلاح الرأي وحكمة السياسة . فلم تهزم للاسلام راية في  
 أيامهم الى أن ذهبت الخلافة من بيت علي عليه السلام فذهبت سداجة  
 الملة وانقلب أمر الامة من الخلافة الى الملك كما قال النبي صلى الله عليه  
 وسلم ( الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تصير ملكا عضوضا ) والله في خلقه  
 شؤون وهو يتدّر الليل والنهار .

وكان الفراغ من تقييد هذه الرسالة في أول يوم من رجب من  
 السنة السابعة والخمسين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرفة على صاحبها  
 أشرف السلام وأزكى التحية .

﴿ لقائي وليّ العهد وحظوتي لديه ﴾

هذا كتاب اليك أبدأ فيه بذكر لقائي وليّ العهد فانا لقي بعض  
 الايام . ونحن جلوس الى فقيه الاسلام . اذ دخل علينا البيت خادم من  
 خدم الخليفة فتخوف الفقيه من شيء لم أدر ماهو . وكذلك الناس يغشاهم  
 الخوف والانتباض كلما دخل عليهم خادم الخليفة على غير موعد ( ١ )  
 فقال له أبو يوسف سبق وهمي الى انك تطلبني لامر جليل قال أجل ان  
 الامير يدعوك الساعة اليه لامر أقلقه الليل كله ولم يجرفني خاطر أحد من

( ١ ) هو أمر معروف في الحكايات وكتب التاريخ

العلماء التصرف في وجه يكون به كشف الغمة وتحقيق المسئول فدعا  
خالد بن برمك اليه فقال له عليك بتلاميذ ابى حنيفة وما فيهم أحنظ لعلمه  
من أبى يوسف ( ١ ) .

فلما سمع ذلك طابت نفسه وذهب ما كان يجده من الخوف ولم يلبث  
أن استوضح هذا الخادم الخبر فأعلمه أن الامير حنق على الخيزران أم  
أولاده ليلا وقال لها في سورة الغضب أنت طالق ثلاثا ان بت الليلة في  
مملكة أبى فلما سكن غضبه ووجد لها براء من التهمة راعه أمر الطلاق  
فاستدعى الاعيان والفقهاء فلم يكن عندهم ما يرجوه من الافتاء الذى يطيب  
له نفسا ففكر يوسف برهة فلم يفتح الله عليه بشيء .

وكنت في ذلك الوقت أجيل الفكرة في امر الخيزران وأذكر  
مآثرها في الدولة وذلك المسجد الذى زينته به الزوراء فوقع في نفسى  
ما يكشف هذه المهمة فقلت لابي يوسف ان المساجد بيوت عبادة الله تعالى  
ولا تدخل في ملك أحد فلو بات الامير فيها الليلة ما حسبتة بيت في  
مملكه ابيه فما كدت أنتهى من كلامى حتى كاد ينخلع من ثيابه لشدة  
الفرح وهو يقول لقد ظننت والله ان أعمال الفكرة في مثل هذا التخلص  
الجميل . جهد من غير تحصيل . وعناء للنفس ليس له من سبيل ، فأما اذ  
ابتدعت هذا الرأى الميمون فعلى عهد الله لا ذكرك عند الامير ليقربك  
اليه بما انت اهله من الخير ثم خرج وأنا أحسب للامير مسرة عظيمة مما

رزقني الحظ استنباطه ليكون في حل من يمينه ومبرة له من قسمه .  
 فلم تكن الا ساعة حتى عاد الى نصير ذلك الحاجب قائلا ( ١ )  
 أجب الامير فقلت لساعتي أمثل الامر فلما صرت في باب الدار وجدت  
 جماعة من الغلمان قد أعدوا لي بغلة فارهة من مطايا الامير مجللة  
 بالديباج عليها حلية من الفضة فركبت وسار الغلمان بين يدي حتى وصلنا  
 الى دور الخلافة وقد كان أخبرني نصير عما جرى بين الامير وأبي يوسف  
 من الحديث وانه لما مثل بين يديه كاد ألا يقبل عليه بالاستفتاء ظنا منه أن  
 لا يكون من فتواه جدوى « وانالفاء وأولادهم يسدؤون الناس بالكلام  
 وليس للناس أن يفتحوه معهم » ( ٢ ) فلما استطلعه رأيه فيما أهمه من الامر  
 وذكر له الرأي الذي تقدمت به اليه غلب عليه السرور حتى كاد لا يستقر  
 به المجلس من القيام والقعود ثم سأله ذلك من معقوله أم من منقوله فقال  
 له أبو يوسف لا والله وانما قائل هذا صديق لي من أبناء الفرس وأخذ  
 يذكرني عنده بما استطاع من جميل الكلام .

فلما أقبلنا على دور الخلافة جزنا باب السور الكبير وسلطنا ممرآ  
 مفروشا بالحصباء الحمراء تحيط به حدائق القصر وجنان قد اتخذ فيها  
 أحواض يتصوب منها الماء وعليها عمد من الرخام تعلق قبايا مغطاة بالرسوم  
 الموسومة بماء الذهب . ورأينا في طرف هذه الجنان صنعا يرفعون ( ٣ )

( ١ ) ذكره الاغانى ٥٧\*٣ والعقد الفريد ٩٩\*٢ ( ٢ ) ابن خلكان

٣١\*١ ( ٣ ) الاغانى وابن الاثير ٥\*٦

قصر اسماء أبو جعفر قصر الخلد (١) وأضافه الى قصر السلام (٢) الذي يسكنه في هذه الايام فانهينا من هذا الممر الى باب القصر وهو معقود تحت القبة التي كانت مزينة في عيد الفطر وهي علم الزوراء ومأثرة بني العباس فلما جاوزناه انهينا الى دار مسورة بالعمدان وبها مقاصير منجدة أرضها وحيطانها بالارمني (٣) وفي أطرافها دهليز ينبعث اليه الضوء من شمسيات قد اتخذت في قباب بديعة الشكل حافلة الزينة فجزناه فاذا نحن في دار أفصح من الدار الاولى ولها باب عليه مسامير من الفضة والذهب (٤) وفيها كثير من العمدان التي يوجه الخلفاء عنايتهم الى تزينتها بالرسوم والاكثر منها فيما يبنون من القصور حتى اني عدت في صحن من صحن دور الخلافة سبعا وأربعين سارية ولو أن ثمانين غلاما وقفوا وراءها مارآهم من هو في صدر الدار .

ثم انهينا من هذا الدهليز الى سلم من الرخام ينتهي بالراقى (٥) عليه الى مجلس الامير وناهيك به مجلسا قد فرش بالرخام المجزّع وبين كل رخامة قضيب من الذهب يشد بعضها الى بعض (٦) وقد اتخذ فرشه من الديباج والبسط الطبرية (٧) عليها أبيات (٨) في مدح الامير وفيه كراسي

(١) القزويني ٢١٠ (٢) الاغانى ٤٥٥٩ والسيوطي (٣) الاغانى ١٧٣\*٥ والاتليدي ٢٢٦ (٤) الاتليدي ١٤٦ (٥) في الاغانى ٧٨\*٦ ما يشير الى أن قصور الخلافة طابق فوق طابق (٦) الاغانى ١٦٦ \* ٥ (٧) المسعودي ٨٢\*٢ والاغانى ٥٩\*٥ و١٢٨ (٨) الكتابة على البسط المذكورة في الاغانى ٨٦ \* ٥



مرصعة باصداق اللؤلؤ وعليها جماعة من الاعيان خافتون كانّ علي  
رؤسهم الطير (١) وفي صدرهم الامير جالسا في قبة قد اتخذ لها فرشاً  
مبطناً بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب والابريسم (٢) واذا به أسمر  
طويل القامة معتدل الخلق مليح الشكل جمع الشعر بعينه اليمنى نكتة  
بياض وعلى رأسه خصى واقف بالمظلة وهو من الخدام المقربين الى  
السلطان وأهل بيته ومن يستميلهم الناس بالمال الكثير ليدكروهم عنده  
أو يخاطبوه في حاجاتهم

فلما أقبلت على المجلس غلبني البهر من جلالة المهدي فسلمت عليه  
بالامارة فردّ عليّ السلام بخفض الجناح وأظهر ما حسب لي عليه من المنة  
وقال لي انه يأنس بي ويحب أن يصير الي تأديب ولديه موسى وهارون  
لما بلغه عني من العقل فدنوت من كرسیه وقبلت الارض بين يديه وقلت  
له في موقف الشكر على جزيل ما أولاني من النعمة انك قد جعلت لي  
بهذا شرفاً لم ينله أحد قبلي من العلماء فقال لي أحسن الله عنا جزاءك فما  
الكثير من فعلنا بك بجزاء لليسير من حقك (٣) ثم انه دعا أبان بن  
صدقة كاتبه فوقف بين يديه (٤) فقال له اكتب له بدارنا على دجلة  
وأقطعه من ضياعنا الخاصة ما تقيمه غلته على السعة ثم أمر لابي يوسف  
بخمسين ألف درهم معجلة (٥) وكان هذا أول اتصالي بولي العهد أصلحه

(١) الفخرى ٥ (٢) المسعودي ١ \* ٢٣٤ (٣) الاغانى ٩ \* ٣٠ (٤)

المسعودي ١٨٢ \* ٢ (٥) الاغانى ٣ \* ٩٥

الله وتولى عنى مكافأته بما هو واسع من الجميل .

( في تأديبي الاميرين وما تولى على من نعمة بنى العباس )

ولما اتصل هذا الخبر بالخيزران وقد كانت في دار لها تسمى باساس (١) عادت الى دور الخلافة في موكب عظيم من الغلمان المزينة والخيل عليها القطوع من الديباج والحلية الثقيلة من النضضة حتى تظهر ما عندها من الابهة مع تقرير موضعها من السلطان . وأقام الامير في ذلك اليوم مأدبة صرف في زخرفتها وسمعه وجلس فيها لعطاء قريش (٢) وسائر الناس حتى امتلأت المدينة باسباب المسرة والافراح ثم جاءني من لدن الامير من ينطلق بي الى الدار التي وهبني على دجلة فاذا هي مشيدة على أساطين رفيعة وحنايا مقوسة وقباب مخرمة ولها روشن (٣) بديع الحسن يشرف على دجلة وما وراءها من الرصافة وفيها من السدلات والأستار الحريرية والبسط الديباجية والقائم النحاسية المنزلة والآنية المزخرفة والخزائن (٤) المجزعة ما ليس مثله الا في أمتعة الملوك وجلسأهم مما (٥) يتكرمون به عليهم في سبيل الهبات حتى لقد كانت الاوتاد التي تدق بجانب الباب ليلق فيها الداخل (٦) ما ثقل عليه من ثيابه متخذة من العاج الاصفر وعليها رسوم منزلة بالذهب تمثل ثماراً تجتني بالابصار لحسنها ولقرط ما أبدع فيها الممثل من الصناعة .

(١) المسعودي ٢ \* ١٩٦ (٢) الاغانى ٧ \* ٩ (٣) الاغانى ٥ \* ١٠ (٤) الاغانى

١٠٩ \* ٥ (٥) الاغانى ٥ \* ٤٠ (٦) الاغانى ٤ \* ٥٢

ثم جاءني من لدن الخيزران خادمان للمهدى لم تكن نوبتهما (١) في ذلك اليوم بملازمة بابه ووضعما بين يديّ انايين من الذهب في أحدهما منشور (٢) بضبعة في السواد وفي الآخر مخنقة في وسطها جندارة عن يمينها ويسارها أربع يواقيت وأربع زمردات وما بينها من شذور الذهب (٣) ثم جاءني وصيف آخر للمهدى اكرمه الله يحمل الى رقعة بالضبعة التي سبق لي بها العطاء وهي في السواد من جوار الحيرة يقال لها العمرية (٤) ثم بعده وصيف لأم المهدي وهي بنت منصور الحميرية ومعه اناء من ذهب قد انتثرت عليه اللآلي (٥) ثم وفد للغالية أخته ومعهم جام (٦) فيه دنائير وخاتم من العقيق قد رسمت فيه أم القرآن ولكن بأحرف صغيرة لاتبصرها العيون المجردة وذلك أحسبه من محاسن الاشياء التي لاتكون الا عند الملوك فهطلت على النعمة غيثا من الذهب وليس ذلك الا لأني وجدت منصرفا في القول حلّ تلك اليمين

وأخذت من ذلك اليوم في تأديب الاميرين موسى وهرون بما أحب أبوهما وأوصاني به يحيى بن خالد وزيرنا ولكن كنت الى الصغير أميل مني الى الكبير بما وجدت من انصبابه الى المطالعة (٧) واعتباره بأقوال الحكماء ووددت أن يكون هو السابق في الولادة لتكون له

(١) الاغانى ١٨٤\*٣ (٢) المستطرف ٢٤٣\*١ (٣) الاغانى ٣٦\*٧

(٤) ذكرها الاغانى ١٠٣\*٩ (٥) ١٣٣\*٦ (٦) ابن خلكان ٤٥٥\*٢

(٧) الفخرى ٢٣٠

حقوق الولاية قبل أخيه بما هو جدير به من تعبير البلاد . وتقويم العباد .  
لاني رأيت الكبير صعب المرام شكس الاخلاق وقد عرفت ذلك ذات  
يوم من أمر لم يتدبر معناه فلما استطلعت فيه رأيه حرد على وطار طأثره من  
الغيظ فحفظت له ذلك وأخذت أشغله من العلم السهل بما لا يحتاج الى  
كبير مطالعة ولا الى تكلف عناية به فسر لذلك وأوسعني عما بدر منه في  
وقت الحدة اعتذارا . فعرفت من ذلك انه صعب المرام (١) وأن من توفاه  
وعرف أخلاقه دخل في رضاه ومن فتح فاه فاتفق له أن يفتحه بغير  
مايهواه اطرحه وأقصاه (٢) وهذا كما ترى خالق غير محمود في أولاد الملوك  
الذين يتجافون عن الحكماء والوعاظ الى تقريب من يداهنهم بالثناء على  
ماليس فيهم من الخلال فان ذلك دايمل واضح على بعد الخزم منهم  
وضعف البصيرة عندهم .

أما هرون رعاه الله فاني عرفت فيه من الرقة واللطافة وسجية  
الحلم ما أعظم في عيني منزله ولم أرى في أولاد الملوك أجمل منه خلقا وخلقاً  
وفيه مماثلة للفضل بن يحيى بن خالد في الصورة وهما في سن واحد  
ونشأة واحدة حتى أنهما تبادلا لبن الرضاعة من ثدى واحد (٣)  
فكانت أم الفضل ترضع هرون والخيزران ترضع الفضل وهو أبيض

(١) المسعودى ٢٠٢\*٢ (٢) الاغانى ١٦\*٥ (٣) ابن الاثير ٣٩٥\*٦

وأبو الفدا ٥٥٢ وفي الفخرى ان من بعض ما قيل في مديح الفضل بن يحيى قولهم .

كنى لك فخرا أن أكرم حرة \* غدتك بئدى والخليفة واحد

( ١ ) اللون واسع العينين على الجبهة . منطوي على خير وصلاح وسلامة قلب واذا تألم من أمر لم يستفزه الغضب ولا يزيد على هاه هاه (٢) كلمة غيظ واحدة وأنا أشرف بتأديبه (٣) الى هذا اليوم وهو سنة ثمان وخمسين بعد المائة وقد أتى عليه من العمر أربعة عشر عاما أصلحه الله ووقفه الي مابه صلاح الملة والدولة بمن الله وكرمه .

ولست اكنم عنك انه لما صارت اليّ نعمة بنى العباس تحدث الناس بها كثيرا في الحضرة وأحدثت في النفوس غصصا يثيرها الاشفاق على دولتهم من المهدي أن يجري على سنة أبيه في تقديم الاغراب عليهم في المراتب الي أن تخلو منهم مناصب الدولة غير أن ما يخافونه من هذا الامر لا يتعدى الي غير مصالحهم الخاصة فانما يعظم الاسلام بانضمامنا وجميع المسلمين اليه في غرض واحد حتى تشتد صولته ويروج فيه سوق الادب

( ١ ) العقد الفريد ٥٤٥٣ والخميس ٣٣١\*٢ ( ٢ ) الاغانى ٦٦\*٥ ( ٣ )

قال في مروج الذهب انه لما أسلم المهدي ولديه الهادي والرشيد الي المؤدب أو عز اليه ان يصير يده عليهما مبسوطة وطاعته منهما واجبة وأن يقرئهما القرآن ويعرفهما الآثار . ويرويهما الاشعار . ويعلمهما السنن ويبين لهما فضل الحكماء في مواضعهم ويصبرهما بمواقع الكلام ويمتعهما الضحك الا في أوقاته ويأخذها بتعظيم الامراء من بنى هاشم ورفع مجالس القواد وأن لا تمر به ساعة الا وهو يغتم فيها فائدة يفيدها من غير أن يقسو عليهما فيميت ذهنهما ولا يتوسع في مساحتها فيستحلبا الفراغ ويألفاه وأن يقوّمهما ما استطاع بالقرب والملاينة فان أياها فعليه بالشدّة والغلظة .

بما يوجد له العجم من فوائد العلم ومحاسن الصناعات ولو أن الخليفة لم  
 يقدمنا لهذه الغاية لم يكن له مع ما سبق من خوفه من الامويين الا أن  
 يتجافى عن العرب ويقصدهم عن المراتب الى أن ترسخ في قبائلهم دولته  
 من غير حاجة الى قتل المسلمين بالمسلمين في فتن صعب لا يرجوها بلوغ  
 أمنيته وانما رزق من السياسة الحكيمة في تقديم الاغراب واستمالتهم الى  
 غرضه حتى يستظهر بهم على تقويم ملكه بما يظهر في نفسه وهو محروس  
 برجالهم من الجبروت الذي لا يتمس الى تمكين مهايته من المخالفين له سواء  
 كدأبه في الانقطاع عن اللهو ( ١ ) وبعده من البهرجة التي تبعده عن  
 شعائر الملة وتوجسه من الناس ريبة يتهم فيها كثيرا من أهل بيته أنفسهم  
 وتجافيه عن الجلّاس والندماء الا على ستارة يضر بها فيما بينه وبينهم على بعد  
 اربعين ذراعا ( ٢ ) الى امور غيرها تدل على أن مثله في التيقظ مثل الذين  
 يستقلون بالملك على غير استرضاء الناس ثم يمر بهم زمانهم في أشد ما يكون  
 من الخوف والريبة .

( بقية من أخبار أبي جعفر )

وقد عرفت بترددى الى دور الخلافة كثيرا من أخبار أبي جعفر  
 وسياسته فوجدته ينظر ( ٣ ) في أحكام الدولة وأمور العمال دون أن يدع

( ١ ) الحميس والعقد الفريد وابن الاثير ٨٦٦ والفخرى ١٨٧ ( ٢ )

السيوطى ( ٣ ) ابن الاثير ١٠٦٦

لنفسه فرصة يستريح فيها من الاعمال فاذا طلع النهار جلس في ايوانه ونظر في حال الامة وعزل الولاة الذين يرييه منهم مخالفته ونصب (١) من يعرف فيه الامانة وتظهر منه النجابة والفتانة مكانهم لا يزال آخذاً في ذلك بما يروم من اذلال المخالفين له الى قبيل الظهر فاذا تناول الغداء عاد الى النظر في المصالح والاهتمام بأمر الجند فاذا صلى العصر جلس لاهل بيته وفاوض أعمامه وغيرهم فاذا صلى العشاء نظر في كتب العمال مما تجمع في النهار وشاور (٢) من يركن اليه من سماره تلك عادته من يوم ولي الخلافة .

وان تذكر رعاك الله ما وصفته لك من نحوه في الرسالة السالفة ثم تضيف الى ذلك ما أنا ذا كر لك من سهره على تدبير المملكة تتمثل لك صورته بما هو مطبوع فيها من آثار المجاهدة العظيمة التي أفنى عليها عمره وطال منها عناؤه فان أيامه قد انقضت بين مخالفة الامة له والتيث الجند عليه حتى اقتضت الحال أن يوجد الفرقة فيهم بين مضر وربيعة والخراسانية (٣) ليملك البعض بالذي هو واجد على البعض الآخر فتري أن مالتى من تصاريف الزمان هو الذى جعله على سوء ظن من الرعية فهو لا يركن في أموره الا الى وزيرنا خالد أعزه الله ولولاه ما استوى له الملك بين تغلب الاكراد (٤) في فارس وظهور الخوارج فيما اليها من البلدان .

وقد علمت مما تقدم اليك من الكلام أن البرامكة يميلون بطبعهم

(١) الماوردى ١٣٧ (٢) المسعودي ١٨٤\*٢ (٣) ابن الاثير ٢٣٩\*٥

(٤) ابن خلكان ١٤٩\*١

مع أولاد علي عليه السلام فلما بعد خالد عن الحضرة لحرب الاكراد (١)  
 تمادى أبو جعفر مع وزيره أبي أيوب المورياتي (٢) في سياسته مع أهل  
 البيت من القتل والعنف وجاء بالنفس الزكية وأخيه ابراهيم وقتلها على حنق  
 كثير من أهل بيته عليه ولا سيما عمه عبدالله الذي غلب بني أمية في الشام  
 فأنه لما أحس منه بالانحراف أسكنه في قصر بني أساسه على الملح حتى اذا دجا  
 الليل أرسل الماء حوله فذاب الملح وسقط البيت عليه (٣) وهذا من الامور  
 التي يتناقلها الناس عنه بسوء الاحدوث كما يتناقلون ذكر قتله لابي مسلم داغية  
 الامامية في خراسان كلاهما من القواد الذين غلبوا الامويين واقاموا ملكه  
 في فارس فالعراق فخراسان فما بين المسجد الاقصى الى البلد الحرام . ولقد  
 فاوضت ابا يوسف يوما في هذا الشأن فحدثني عن جبروت أبي جعفر  
 بعد أن ذكر قتله (٤) الكثير للخلق وتقوم ملكه بسفك الدماء . أن  
 سلامة أمة لما حملت به رأت في منامها كأن سبعا خرج من قبلها فأقعى  
 وزار فأقبلت عليه السباع من كل ناحية . وكلما انتهى اليه سبع سجد له (٥)  
 فصح تعبير منامها بما يراد من معنى الملك والظفر والسبع وان كان بمكان  
 من القوة فانه أقرب الى الغدر منه الى سلامة الطوية .

ولقد دخلت علي أبي جعفر مرة واحدة بعد رجوعه من الحيرة وهي

(١) ابن الاثير ٢٣٦٥ و ٦٠٦ (٢) المسعودي ١٨٢\*٢ (٣) الفخرى

١٩٨ وابن الاثير ٢٣٥\*٥ والمستطرف ٩٦\*١ (٤) الخميس ٤٢٣\*٢

(٥) المسعودي



المدينة التي يقصدها (١) حين يشتد عليه الحر في الزوراء اذ ليس في جوارها ما يصاح لسكنى الملوك غيرها (٢) فلما اذن للناس بالدخول عليه صحبت لسان الشريعة ابا يوسف فأصبناه في مجلس من الامراء وفيهم شاعر مقرب اليه يقال له ابو دلامة وهو يدنيه ويضحك منه على بيتين من الشعر (٣) قالهما في استهجان الزي الذي عم استعماله في لباس الخواص والعوام كما تقدم كأنهم في كتابة الآية بين أكتافهم ينبذون كتاب الله وراء ظهورهم (٤) فلما ادينا فروض السلام أمرنا بالجلوس وقال لي بعد أن قمنا بالواجب من اجلاله اني رأيتكم « يريد القرس » أهل وفاء (٥) وفضانة فوليتكم المناصب في دولتنا ولم أر بني مروان قد انتبهوا لذلك ولا تكفوا العناية في تجميل الدولة بانتفاعهم من آداب العجم فقد كان عبد الملك جباراً لا يبالي بما يصنع وكان سليمان همه بطنه وفرجه ثم أفضى أمرهم الى اولادهم المترفين فكان همهم الشهوات وركوب الملمات من معاصي الله عزوجل جهلاً منهم باستدراجه وأماناً منهم لمسكره مع اطراحهم صيانة اخلافة واستخفافهم بحق الرياسة .

فلما ذكر ذلك عنهم جعل يضرب الارض بمخصرة كانت في يده فوقع على بنى أمية ممن حضر المجلس قذف شديد يرومون به موافقة

(١) وفي ابن الاثير ٦\*٥٥ ان الرشيد سكنها أيضا برهة من الزمان (٢)

الاغاني ٢\*١٢٥ (٣) اليتان هما قوله

وكننا نرجى من امام زيادة . فجاد بطول زاده في القلانس . تراها على هام الرجال كأنها

دنان يهود جللت بالبرانس . (٤) العقد الفريد ١\*٩٨ (٥) ابن الاثير ٦\*١٢

السلطان وقالوا انهم كانوا يعاقرون الخمر ويظلمون العباد حقوقهم  
ويستحلون أخذ أموالهم بغير استحقاق ويكافون اهل القرى اذا خرجوا  
الى الصيد بما لا طاقة لهم به من الضرب والاهانة ولا يقنعهم ذلك حتى  
يحطموا زرعهم في طاب دراج قيمته نصف درهم ثم انتقل بعضهم من  
هذا القذف الى ان يحث الخليفة على تتبع الهارين منهم في جميع الوجوه  
وسمعت من انشده هذين البيتين المشهورين اللذين قالهما سديف لابي  
العباس لما تم له الغلب عليهم .

لا يفرنك ما ترى من رجال      ان تحت الضلوع داء دويآ  
فضع السيف وارفع السوط حتى      لا ترى فوق ظهرها أمويآ

فامتلاً وجه الخليفة غضبا وقال لعمرى ان الامويين اهل مظالم قد غمطوا  
النعمة واستحلوا ما حرم الله عليهم فحوى نجههم وثل عرشهم والله فيهم (١)  
نقمة ساتبعها فيهم حيث لقيت منهم عاتيا فعجبت من مظاهرتة بهذا الكلام  
وبين يديه كثير من الذين يتقربون اليه بالتدليس والمحال . وانا لا اقول ان  
الامويين منزهون عن هذا الطعن ولا عن أشد منه ولكنى أرى انهم لو لم  
يكونوا حقيقين بمثله لرماهم كثير من هؤلاء الجلائس بأنكى منه تقربا من  
السلطان فيما يجب من القدح في اعدائه وكان ذلك اول ما لقيت أبا جعفر  
ثم لم اره بعد ذلك لانه ركب (٢) الى مواطن الحج المباركة شرفها الله  
بكرمه واحسانه .

(١) ابن الاثير ١٦٧\*٥ والقزوينى ١٦ (٢) ابن الاثير ١٦\*٦

﴿ في ركوب الخليفة الى الحج ﴾

كان لخروج الخليفة الى الموسم موكب ليس أحفل منه في مواكب الملوك فقد أقبل أهل المدينة الى باب الكوفة ( ١ ) حيث اجتمع من النافرين الى الحج الشريف من العراقيين والخراسانيين والفرس وغيرهم مالا يحصى عدده الا الله وكلهم مجهز ابلة وكسوته وقربه وخرثية وطعامه وهو الاخبصة اليابسة والخشنكاج والاقراص المعجونة باللبن والسكر والكمك المنضد والفواكه اليابسة وغيرها من طعام الحاج ( ٢ ) ومعهم قطعة من الجند تحوطهم ( ٣ ) في نزولهم وارتحالهم وفي طليعتهم هوادج تظللها قباب من الديباج الخوص بالذهب ( ٤ ) وفيها يقيم الامير المولى على الحجاج وله في إمارته النظر في أمور عشرة وهي أن يجمع الحجاج في مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا فيخاف عليهم اتوانى . وأن يرتبهم في المسير ليعرف كل منزله ويألف مكانه اذا أناخوا في بلد . وأن يرفق بهم في المسير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم ولا يضل عنه منقطعهم . وأن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها . ويتجاني أوعرها وأجسدبها . وأن يرتاد لهم المياه اذا قلت والمراعى اذا انقطعت وأن يحرسهم اذا نزلوا ويحوطهم اذا رحلوا . وأن يمنع عنهم من يصدّهم عن المسير بجهاد لا بمال . وأن يصلح بين المتشاجرين لانهم يكونون تحت ولايته كأهل مدينة تحت ولاية

( ١ ) هو من ابواب بغداد ( ٢ ) المسعودى ٥٦٢ ( ٣ ) الاغانى ٦٤٩

( ٤ ) ابو الفداء ١٥٧

رئيسهم . وأن يؤدب خائنهم ويأزم الناس آدابهم . وأن يراعى فوات الوقت فلا يخشى عليهم ضيقه لأنهم اذا لم يصلوا عرفة في يوم عرفة ما بين زوال الشمس الى طلوع الفجر فقد فاتهم الحج (١)

ولما صارت الشمس على ارتفاع قامة وقد غصت بالناس بالمواقف وضائق بهم الساحات ضرب البوق ايذانا بركوب الخليفة ثم لم يلبث أن أقبل مرتعاً على فيل أبيض قد استرسلت عليه الفضة (٢) في الحلية الثقيلة وهو جالس في هودج (٣) منزل بالاصداق اللامعة وعلى القبة أستار من الديباج يتخللها رسوم من الذهب وفي يده قضيب الخلافة وفي الاخرى الخاتم وعليه جبة وشى (٤) من فوقها بردة خضراء للنبي صلى الله عليه وسلم وهي غير البردة التي كانت لملوك بني أمية يلقونها على أكتافهم في جلوسهم وركوبهم لانها فقدت بفقدان الخلافة منهم وكان قد اشتراها معاوية من آل زهير بن أبي سلمى بأربعين ألف درهم (٥) وانما هذه البردة هي التي أعطاها النبي صلى الله عليه وسلم لاهل الابل لتبقى عندهم بركة فاشتراها أبو جعفر بثلاثمائة دينار (٦) واتخذها في شعار الخلافة موضع البردة التي كانت عند الامويين . وأما الفيلة فانه لم يسبق أحد من ملوك العرب الى اتخاذها في المواكب وقد أخبرني نصير ذلك الخادم الذي مضى في هذه الرسالة ذكره أنه انما اتخذها مركبا له لما كان من تعظيم الملوك

(١) المسوردي ١٨٧ (٢) المقدمة ١٤ (٣) الكشكول (٤) كذا

في العقد الفريد ١٥٦٥٣ (٥) أبو الفداء ١٥٦٥١ (٦) السيوطي

السائفة اياها واقتنائهم لها واعدادها للحروب والزينة في الاعياد وغيرها  
اذ كانت أوطاً مراكب الملوكة وأمهدا (١) . وكان يصحب ابا جعفر  
جماعة من الامراء ورجال بيت الخلافة ووراءهم الابل التي يظعن بها حريمه  
واهل بيته وفيهم موسى ابن المهديّ حاجا (٢) ومعهم حرس خاص بهم  
يحملون الرايات السود .

فلما وصل موكبهم الى موقف الحجاج ارتفعت اصواتهم بالدعاء  
وعلا ضجيجهم بالتكبير والتهليل فكان الواجب يستشعر من عزة  
الاسلام مالا يخالج النفس أعظم منه اذ ليس من فروض العبادة ما تظهر  
فيه ابهة الدولة غير حج البيت الحرام فلما وقف الامراء والعظماء الى وداع  
الخليفة اوصاهم بالسهر على الرعية (٣) وأن يسألوا الله له النعمة ويوفقه  
مطائبهم ويلهمه الرأفة بهم . ثم انه عزم على ولي العهد ان يصحبه الى قصر  
عبدويه على مسيرة يومين (٤) من الحضرة لتم له الخلوة به على انفراد  
اذ كان يحسب من هذا الموسم اتيان مالا مرد له وقد كان يرى في منامه  
كأن نجوم ما هوي من السماء (٥) فيتشاءم من ذلك . فلما تفخ البوق ايدانا بالنفير  
زحف الحجاج كالبحر المتسلاطم الأبواب . كان سفنه الركاب . وشرعها  
الظلائل المرفوعة والقباب . وفي مقدمتهم هودج الخليفة قد امع ذهبه  
وقصبه كأنه الشمس تشرق على الناس نورا من جلال الخلافة .

(١) المسعودي ١٨٥\*١ (٢) ابن الاثير ١٣\*٦ (٣) السيوطي (٤) أبو الفرج

٢٢٠ (٥) ابن الاثير ٦\*٦

ولما كان بعد ذلك عاد المهدي الى الحضرة وشرع في مباشرة الاحكام على الوجه الذي يريده أبوه حتى كأنما نحن اليوم في ولايته أشبه بنا في ولاية أبيه الا فيما يصير الينا من العطاء الذي لم تتعوده من أبي جعفر وأما ما سوى ذلك من أمور السياسة فلم يكن له الا أن يقتفي فيها أثره وقد أوصاه وهو يودعه في قصر عبدويه الوصية التي هي من أحسن ما أوصى الملوك به أولادهم في السياسة بدأ فيها بتحريضه (١) على سكن الزوراء وان لا يستبدل بها غيرها وان يظهر كرامة أهل بيته (٢) ويحسن الى مواليه ويستكثر منهم ولا سيما أهل خراسان اذ كانوا شيعتهم وأنصارهم ومن لا تخرج محبتهم من قلوبهم (٣) وأن لا يستعين باحد من بني سليم (خوفا من ميلهم مع أهل البيت) وأن يحفظ النبي صلى الله عليه وسلم في أمته ويلزم حدود الله والآدميين ويعف عن البغي الذي لا حاجة به اليه مع ما خلفه له من المال وأن يشحن الثغور ويضبط الاطراف ويعد الكراع والرجال ويسيء الظن بالعمال وأن لا يدخل النساء في امره (٤) ولا ينام الا وهو مستيقظ الى آخر ما أطل به في هذه الوصية التي ذهبت مثلا بين وصايا الملوك

(١) ابن الاثير ٧٦٦ و ابو الفداء ٧٦٢ (٢) ابو الفرج ٢٢٠ (٣) العقد

الفريد (٤) الفخرى ٤٨

( في ذكر من لقينه من الشعراء )

يحسن بي في ختام هذه الرسالة أن اذكر لك عن الشعراء الذين زهت بهم دولة أبي جعفر ما ورد على الخاطر الفاتر ولكن بايجاز يدل على موضعهم من الاجادة في مذاهبهم دون اطناب ينتهي الى مالا تسعه الصحف من ذكر أياتهم ونواديرهم . فأبدأ منهم بذكر بشار بن برد البصرى وهو ضرير قد لقينه في مجالس البرامكة (١) لاول قدومى الى الزوراء وكان خالد أعزه الله قد أحب أن يطلق على اسم الزائر ويبطل عنى اسم السائل الذى كان ينعت به الغرباء في ذلك الوقت (٢) لقوله لى انى والله لا أحب اسم السائل الا لطلاب الاحسان وأرفع قدر الكريم عن أن يسمى به أمثال هؤلاء المؤمنين لان فيهم الاحرار والاشراف ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدبا ولكننا نسميهم الزوار فوجد بشار لنفسه نصيبا من كلام الوزير فأطلق لسانه في الانشاد بما دل على سرعة خاطره الى النظم وسرعة تصرفه في فنون الشعر .

وقد رويت لبشار هذا الشاعر نحواً من مائة قصيدة ورأيت له في اكثرها ابتداء يرفعه الى مساماة المقدمين من شعراء العرب فلقد سمعت من لا أحصى من الرواة يقولون أحسن الناس ابتداء في الجاهلية امرؤ القيس حيث يقول ( ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى ) وحيث يقول ( قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ) وفي الاسلام القطامى حيث يقول

( ١ ) الاغانى ٣٦\*٣ ( ٢ ) الاغانى ٣٦\*٣ الوطواط ٢٤٩ والفخرى ١٨٥

( أنا محيوك فاسلم أيها الطال ) ومن المسلمين بشار حيث يقول .  
 أبي طلال بالجزع أن يتكلما وما ذا عليه لو أجاب متيما  
 وبالقرع آثار بقين وباللوى ملاهى لا يعرفن الا توها  
 ووجدت له من جمال التشبيه ما يجز البصراء عن الاتيان بأفضل منه  
 وفي قوله .

كان مثار النقع فوق رؤسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه  
 سمو لم يعل عليه أحد من المتقدمين ولا المتأخرين وهذا من الغريب  
 الذي لم يسمع بمثله عن أحد من العميان لان قولهم منحصر في الزهد  
 والمديح والهجاء وما يتصرفون به من أبوابها بخلاف هذا الشاعر فانه  
 يتوسع منها الى سائر المذاهب من غير أن يقع في الانحطاط الذي لا يؤمن  
 على من يدخل نفسه فيما هو غريب عنه من الوقوع به وان كان المتبادر  
 الى العقل أن يكون بعيدا عن تصور الحسن والاشراق فما هو الا أغزل  
 الشعراء (١) حيث يقول :

أنا والله أشتهى سحر عينيك وأخشى مصارع العشاق  
 وهذا أحسبه من المواهب الطبيعية والملكات النفسانية ولذلك أقدمه  
 على جميع الشعراء من هذا الوجه الذي يجله عن التكلف ولا أجد فيه من  
 انتقاد عيب (٢) بشعره الا استرساله في الهجاء واختلاقه بعضاً من الالفاظ

(١) الاغانى ٤٩\*٦ وابن خلكان ١٢٥\*١ (٢) الاغانى ٤١\*٣ و ٥٣ و ٧٣

وابن خلكان ٢٥٢\*٢ وابن الاثير ٢٧\*٦



التي يحتاج اليها لقيام أبياته على القافية من غير أن ترد في لغات العرب .  
ولقيت من الشعراء المتقدمين مروان بن أبي حفصة وهو منقطع في  
شعره الى مديح معن بن زائدة (١) لانه كناه مؤنة الاستمطاء من غيره  
ولما أتى في بعض مديحه له على ذكر بلائه في حرب الراوندية بقوله .

مازلت يوم الهاشمية معلنا بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حوزته وكنت وقاه من وقع كل مهتدوسنان

أعطاه مائة ألف درهم وذلك أعظم ما أعطى الملوك من الجوائز حتى أن  
أبا جعفر لما علم بذلك اكبره وقال في سبيل التعجب من سماحة معن لله  
دره من أعرابي ما أهون عليه ما يعز على الرجال وأهل الحرم (٢)

وقد انتهت بلاغة هذا الشاعر الى القصيدة اللامية التي يقول فيها

مادحا هذا الامير .

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسود لهم في غيل خفان أشبل

هم يمنعون الجار حتى كأنهم لجارهم بين السماكين منزل

الى أن يقول .

تجنب لاني القول حتى كأنه حرام عليه قول لا حين يسأل

تشابه يوماء علينا فاشكلا فلانحن ندرى أي يوميه أفضل

أيوم نداد الغمر أم يوم بأسه وما منهما الا أغر محجل

(١) الاغانى ٤٤\*٩ (٢) المسعودى ١٨٣\*٢ والاغانى ٤٤\*٩ وابن

خلكان ١٦٠\*٢ والمستطرف ٧٣\*١

ولكني سمعت من يقول انه رفعها في حول كامل (١) فقالها في اربعة اشهر  
وانتحلها في اربعة وعرضها في اربعة فجاءت كأنها السحر الحلال (٢) يعجز  
عن مثلها الشعراء ولكن هذا يدل على ان علمه اكثر من عقله وان الشعر  
عنده صناعة ينال نفسه منها عناء شديد وانما يجب من الشعراء سرعة الخاطر  
الى النظم كمثل ما نعلم عن العرب ان قولهم الشعر ارتجالا في المجالس والاسواق.  
ومن كلام مروان .

طرتك زائرة فحى خيالها      بيضاء تخطط بالجمال دلالها (٣)  
قادت فؤادك فاستقادومثلها      قاد القلوب الى الصبا فأمالها

وممن لقيته من شعراء هذه الدولة ابو اسحق اسماعيل « من قبيلة عنزة (٤) »  
ويعرف بابي العتاهية وهو من المطبوعين المجيدين يقول المائة والمائة والخمسين  
يتتا في اليوم الواحد حتى ليس الي الاحاطة بجميع شعره من سبيل وله  
كلام لم يسبق اليه احد (٥) كقوله .

الناس في غفلاتهم      ورحى المنية تطحن

وله من بعض كلام (٦)

لا تأمن الدنيا على غدرها      كم غدرت قبل بامثالها  
أجمعت الناس على ذمها      وما أرى منهم لها تاركا

(١) الاغانى ٩\*٤ (٢) ابن خلكان ١٣١\*٢ (٣) في العقد الفريد

. بيضاء تنشر بالحاء دلالها . (٤) الاغانى ٣\*١٢٧ (٥) الاغانى والعقد الفريد

١\*٣٧٤ (٦) المسعودى ٢\*٢١٨

وهو يأخذ في ذلك على أسلوب سهل يروم أن تفهمه العامة وترضى به  
الخاصة وان كان منحطاً عن لغة الاولين في فصاحة الالفاظ الا أن تصرفه  
في الشعر مقصود على وصف الآخرة (١) ولم أحفظ له من المديح  
غير بيتين قالهما في عمر بن العلاء .

ان المطايا تشتكيك لانها • قطعت اليك بسابسا ورمالا  
فاذا وردن بنا وردن خفائفا • واذا صدرن بنا صدرن ثقالا  
وهذا أحسن ما يقال فيمن يتوسع بالكرم الى حد الممدوح اذ لا يخفى أن  
وراءه من المديح ما يترك البلاد والعباد والحيوانات العجم ناطقة بما  
له من الجميل .

ولقيت منهم أبا دلامة زند بن الجون وهو من الشعراء المجيدين لكنه  
قد أضاع شعره في استعطاء أبي جعفر وهو بمكانه من الامساك كما علمت  
وقد قال في الثناء عليه .

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم • قوم لقيلا فعدوا يا آل عباس  
ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلكم • الى السماء فأنتم اكرم الناس  
وهذا كلام يسمو به الى جمال الشعر ويملك العقول بما أودعه من وصف  
السعادة التي صورها مخفوفة بالنور ولكن قد ضاع تأثيره في النفوس  
يبعد الممدوح عن محاسن الكرم التي يروم ان تكون فيه بما يتحبه لنفسه  
من الصلة . وقد وجدت أبيات هذا الشاعر محلاة بالخلاعة كما أنى وجدته

يتوسع فيها الى المجون (١) وكثيراً ما كنت ألقاه في مجالس المهالبة يلتمس نصيبه من عطاهم بما يتصرف به من الهزل والمزاح .

ومن الشعراء المجيدين محمد بن المولى الاعرابي لقيته في مجالس المهالبة مرة واحدة وقد قصدهم من البادية وقال فيهم المدائح الرانة فأجزلوا عطيته من المال وقد حفظت له من جملة أبيات يقولها في مديح روح بن حاتم من أمراءهم (٢)

انى لأرجوان لقيتك سالماً \* أن لأعالج بعدك الاسفارا  
وكان روح عند ما أنشده اياه قد غلبته الاريحية فأمر بافراغ المال عليه حتى  
تثقل به فقلت للامير ما أنت الامن يقول فيه زهير .

تراه اذا ماجثته متهللاً \* كأنك تعطيه الذى أنت سائله  
فقال والله لأن أعطى أحب الي من أن أمدح . ولا بن المولى كلام يقرب  
أن يكون مثل أقوال الجاهليين لمقامه في مواضعهم من البادية بعيداً عن  
حضارة الامصار ومن شعره في النسيب .

أحنّ الى ليلي وقد شطت النوى      بليلى كما حنّ اليراع المثقّب  
تقربت ليلي كي تثيب فزادنى      بعداً أعلى بعد إليها التقرب  
( وقوله )

وأبكى فلا ليلي بكت من صباية      الي ولا ليلي لذى الود تبذل

(١) ابن خلكان ٢٧١\*١ والاغانى ١٣٢\*٩ والمستطرف ٤\*٢ والشريشى

٢٦\*٢ (٢) الاغانى ٩٠\*٣

وكان الحسن بن زيد رضي الله عنه وهو عامل على المدينة (١) قد دعاه وأغاظ له وقال أنشيب في حرم المسلمين وتنشد ذلك في المحافل والمساجد ظاهراً فقال امرأتى طالق ثلاثاً ان كانت ليلى الا قوسى هذه ذكرتها على سبيل التشبيب لان القريض لا يحسن الا بالنسيب . على أنى وجدت شعره الى فصاحة البداوة أقرب منه الى حلاوة الحضارة وفي قوله .

سلا دار ليلى هل تبين فتنتق      وأنى ترد القول بيداء سملق  
عفها الديار الدامسات مع البلى      باذيالها والرائح المتعبق  
بكل شآيب من الماء خلفها      شآيب ماء مزنها متألق

ما يبعد تناوله على سكان الامصار الذين ينقطع عنهم بمحاضرة اهل البادية وانما يدخلون في لسانهم كلام السوق (٢) والفاظ الاعاجم الذين يخاطبونهم في أسفارهم وتجاراتهم حتى تصبح لغتهم في أشد المباينة للسان العربان . وممن لقيته من الشعراء المجيدين السيد الحميرى وهو من الواقفية القائلين بالامام المنتظر (٣) يأتى في شعره على غرضه في السياسة ويفرط في سب أصحاب النبي (٤) صلى الله عليه وسلم ممن كان يرغب عن آل البيت وربما وقع عليه من الناس تجاف عن شعره من هذا الجنس الا انه ليس لاحد من الشعراء ماله من عذوبة الالفاظ وجودة السبك ورونق

(١) ابن الاثير ٢٤٣\*٥ (٢) يقول فى الاغانى ١٧٣\*٣ ان الالفاظ السوقية لا تمنع أن تكون القصيدة جيدة (٣) العقد الفريد ٢٦٦\*١ والمقدمة ١٧٣ وذكره المسعودي ٨٠\*٢ وسمى شيعته بالكيسانية (٤) ابو الفداء ١٥\*٢

الشعر وطلاوته . وقد جمعني معه الى هذا اليوم اكثر من مجلس ووجدته  
 حسن الكلام جميل الخطاب اذا تحدث بين القوم أعطى كل رجل في  
 مجلسه نصيبه من حديثه ( ١ ) وله في النسيب كلام رقيق فمن ذلك قوله  
 ولما رأتنى خشية البين موجعا      اكفكف منى أدمعا يبضها درر  
 أشارت باطراف اليّ ودمعها      كنظم جمان خاه السلك فانتثر  
 ومن الشعراء المقدمين أشجع بن عمرو السلمى ( ٢ ) وقد نزل الشعر  
 في صدره موهبة من الله فانهضت به قيس لذلك اذ لم يكن بها في الاسلام  
 شاعر قبله وانما كان الشعر في ربيعة واليمن فلما نجم اشجع وقال الشعر  
 افتخرت به قيس على العرب ( ٣ ) ومما أستحسنه من نظمه سهولة القول  
 التي لا يعانى الى البراعة فيها تكلفا وقد حفظت له في مديح ولى العهد  
 يبتين من جيد الشعر وهما قوله ( ٤ )

وعلى عدوك يا ابن عم محمد      رصدان ضوء الصبح والاضلام  
 فاذا تنبه رعته واذا غفا      سلّت عليه سيوفك الاحلام  
 هذا ما أذكره عن شعراء هذه الدولة بوجه الاختصار وقد رأيتهم  
 يتسابقون الى ابتكار المعاني الحسان من غير أن ينتحلوا مذاهب من  
 تقدمهم في عصور الجاهلية الا فيما كان أقل من النادر ( ٥ ) وحتى لو أنا

( ١ ) الاغانى ٣\*٧ ( ٢ ) الاغانى ١٥\*١٠٨ ( ٣ ) الاغانى ١٧\*٣٠ ( ٤ )

اليتان قبالا في هرون الرشيد ( ٥ ) انظر ابن خلكان ١\*١٠٢ والاعانى

٤٩\*٣ و١٤٨\*٥ و١٧٨\*٥ والحصرى ٢\*١٦٧

رأينا لهم ما سبقوا اليه لما صحح أن نتهمهم بالانتحال لأن العقول قد تتوافق وتتوارد وان كان المتقدمون من الجاهلية أشرف منهم لفظا فانهم لألطف منهم صنعا واكثر من المعاني حضا . وهؤلاء هم أشعر العرب قد اجتمعوا في الزوراء الا ابن هرمة وسلم الخاسر وكلاهما شاعر مجيد أيضا الا أن آياتهما لم تصل الى فلم أعلق أخبارهما في هذا الكتاب .

وقد كتبت هذه الرسالة في منتصف ذى الحجة من السنة الثانية والخمسين بعد المائة من هجرة نبينا المكرم والله المسؤول في توفيقنا الى السداد وهدايتنا الى الرشاد . بمنه تعالى وكرمه .

#### ﴿ الرسالة الرابعة ﴾

( جلوس المهدي على دست الخلافة )

أفتتح هذه الرسالة اليك بذكر جلوس المهدي على دست الخلافة عند وصول الخبر بوفاة أبي جعفر وقد كان لذلك يوم عظيم في الحضرة والاسلام كله لأن العقلاء من اهل السياسة كانوا يرون زوال الخلافة عن ولد العباس الى الائمة من أهل البيت أو تعذر مصيرها الى المهدي والمشايخ من أهل هاشم حاضرون فجرى الامر على خلاف المظنون بحيلة علمتها من البرامكة سرا لم تنكشف للناس الى هذا اليوم . وذلك أنه لما أودى أبو جعفر غفر الله له كتم الربيع موته الى الصباح عمن كان معه في الحج واستدعى عيسى بن علي عمه وعيسى بن موسى ولي العهد بعد

المهديّ وجماعة من القواد والامراء وتقدم اليهم بأمره فيما كان يزعم أن  
يجددوا البيعة لابنه من غير أن يعلمهم بوفاته فلم يتجرأ أحد على مخالفة  
الامر ظنا منهم بصدوره من السلطان . ولو أنهم علموا بوفاته ما تأسرعو الى  
تجديد بيعتهم لابنه . فلما بلغ مراده ولم يبق له غرض من كتمان موته  
دخل عليه كمن لا يعلم أمراً مما نزل به ثم خرج اليهم مشقوق الجيب با كيا  
ينعى وفاته فلم يكن فيهم الا من أخذت عليه البيعة وركب رجال المهدي الى  
مكة وبايعوا أهل الحل والعقد من أهلها (١) فصارت الخلافة الى المهدي بهذه  
الحيلة التي تعاب على الربيع من وجه الظلم وان كان فيها حقن لدماء المسلمين .  
وكانت وفاة أبي جعفر في بئر ميمون مع السحر لست خلون من  
ذي الحجة وهو محرم بظاهر مكة (٢) ولذلك دفن مكشوف الرأس دون  
أحد غيره من الخلفاء لان النبي صلى الله عليه وسلم منع المحرم من لبس  
القمص والعائم والبرانس (٣) وغير ذلك من أنواع الخيط وحفر له أهله  
مائة حفرة بين الحجون وبئر ميمون (٤) ليعموا على الناس ثم دفنوه في  
غيرها . ووجه الربيع منارة (٥) اخادم الى الحضرة بالبيعة وأمره بالسرعة  
خوفاً من أمر يحدث في الاسلام فجاءها في أحد عشر يوماً (٦) من مكة .  
وقد كنت في مجلس هرون الرشيد حين سمعت الجلبة في مقاصير

(١) ابن الاثير ١٣\*٦ (٢) ابن الاثير ٨\*٦ (٣) الزرقاني ١٤٨\*٢

(٤) الخميس والعقد الفريد ٥٣\*٣ (٥) المسعودي ١٩٤\*٢ (٦)



الحرم فاستعلمت عن الخبر فنبئت أن أبا جعفر قد مات فأسرعت إلى منازل  
البرامكة لأشهد مجلسهم في ذلك الوقت فأخبرني نافذ أحد الحجاب أن  
المهديّ قد دعاهم إليه فنزلت إلى السوق فلقيت أستاذي أبا يوسف سبها  
حاميا فأبنت له ما أنا تائق إليه من حضور البيعة فأشار إليّ بالبقاء معه إلى  
قبيل الظهر وهو الوقت الذي يجتمع فيه أهل الحل والعقد لمبايعة المهديّ .  
فلما سرنا إلى دور الخلافة رأينا الساحات غاصة بجماهير الناس فوجدنا  
باب السوربين ازدحام تضيق منه الأتفاس حتى انتهينا إلى باب القبة الخضراء  
فجاوزنا الحجاب إلى المجلس الذي تقام فيه البيعة فاذا به قد جمع الأمراء من  
بنو العباس وجملة القواد والاعيان وأهل البيوتات الأميرية مثل البرامكة  
عزهم الله وآل المهلب وآل طاهر وآل قحطبة وآل نوبخت وغيرهم . وكان  
المهديّ مستويا على عرش مكلل بالؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر وعلى  
رأسه قبة تتدلى منها أستار من الديباج (١) وعلى يمينه ويساره غلامان قد التحفا  
بالذهب ووقفنا بمظلمتين من الريش الأسود مرفوعتين على رمحين مكسوين  
بعروق من الذهب قد نزل فيها الياقوت والزبرجد والفيروز ودونهما  
بنو هاشم على وسائد قد ثنيت لهم (٢) ولباسهم خز أسود وكذلك كان لباس  
المهديّ وكانت عليه الطرحة وعلى كتفه بردة النبي صلى الله عليه وسلم التي  
استصحبها أبو جعفر إلى الحج وفي يده القضيب وفي الأخرى خاتم الخلافة .  
وكان على يمين العرش منبر مزخرف بأنواع الزينة والجواهر والديباج

قد وقف به كاتب المهدي في خلافة أبيه (١) أبو عبد الله معاوية بن عبد الله الأشعري وهو الكاتب المشهور بالبلاغة قد اتخذه وزيرا (٢) له في سياسة الملك . وكان سلامان الأبرش حاجبه واقفا على بعض مرقاة (٣) هذا المنبر بالبيعة التي جاء بها منارة من مكة وتحت يد الخليفة أمير من البرامكة (٤) قد أخذ في يده البيعة على أمراء الحضرة الذين لم يروا الا متابعة الناس بعد أن بايعت مكة والمدينة وبايع القواد والوزراء واكابر المسلمين .

وكانت عادة الناس في مثل هذا الموقف أن يبدؤا الخليفة بتعزيتة في أبيه ثم يبنون به بجلوسه على تخت الخلافة فلما أخذوا في تعزية المهدي خلعوا قلائدهم ونبذوها وراء ظهورهم لان الخلفاء لا يعزون بالعمائم (٥) ثم وقف وزيره أبو عبد الله يبايعه عن المسلمين ولفظ البيعة قوله (٦) انا بايع سيدنا ومولانا الامام المفترض الطاعة على جميع الانام ابا عبد الله محمد بن عبد الله المنصور على كتاب الله وسنة نبيه واجتهاد أمير المؤمنين وأن لا خايقة سواه . ثم بايعه كل من حضر المجلس حتى لم يكن يسمع الا دعاء له وتنويه باسم بني العباس .

تم تناول الوزير منشورا كتبه الربيع عن لسان أبي جعفر استنهاضا

(١) الفخرى ٢١٥ (٢) الاغانى ٤٦٠\*٣ العقد الفريد ٥٣\*٣ والمسعودى  
 ١٩٦\*٢ (٣) السيوطى (٤) يفهم من ابن الاثير ٦\*٦ أن خالدًا ويحيى كانا  
 غائبين عن بغداد لما توفى المنصور (٥) الاغانى ٩٧\*٩ (٦) السيوطى

للناس الى مبايعة المهدي (١) فتلاه على مسمع من الامراء وفيه يقول:  
 بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله المنصور أمير المؤمنين الى من خلف من  
 بني هاشم وشيعته في خراسان وعامة المسلمين . أما بعد فاني كتبت هذا  
 وأنا حي في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة . اقرأ عليكم  
 السلام وأسأل الله أن لا يفتنكم بعدي ولا يلبسكم شيعاً ولا يذيق بعضكم  
 بأس بعض وأوصيكم بمحمد ولي عهدكم وأذكركم البيعة له واستنهضكم  
 للوفاء بعهده واجتماع كلمتكم عليه فانما قوتكم تكون بالاجتماع الى  
 رأيه وقد أوصيته بكم وبالرافة عليكم والاحسان الى المسلمين والسلام .  
 فترقق الدمع في عيني المهدي (٢) ولم يتمكن من اطالة الخطبة التي يقولها  
 الخلاء لما غلب عليه من تأثير النفس فصرف الامراء وهم يدعون له بالسلامة .

﴿ سياسة المهدي وخلعه عيسى ابن عمه عن الولاية ﴾

ولما كان المساء أقيمت في المدينة زينة حافلة فصرفت العناية الى  
 تزيين مشرع الزوايا (٣) بالانوار لقربه من موضعي ليكون في ذلك قضاء  
 الواجب من شكر الخليفة على ما أولاني من الجميل ودفعت لالسنة الوشاة  
 عن السعاية بي اليه فيما استقر بنفوسنا من الميل مع أهل البيت وامتلات  
 الزوراء في تلك الايام من أرباب الملاحى ومما يعرضون من صور الطين

(١) ابن الاثير ١٢٠٦ (٢) الاسحاقى ٨٨ (٣) موضع ذكره ابن

التي يصنعونها للعب الصبيان في المواسم والاعياد (١) ولا أطيل لك الكلام على عادات العامة وسذاجتهم لأنها في جميع الأمم عامة ومتماثلة وإنما أخبرك بما عرفته للمهدي أصلحه الله من حسن السيرة التي يروم بها استبدال رعب الناس من ابيه ورغبتهم عنه بمحبتهم له وميلهم اليه فأقول . انه بعد ان اظهر من الابهة بافتتاح خلافته بما يعظم موضعه من السلطان صنع ابني هاشم وسائر قریش طعاما جاوز فيه الحد بسعة النفقة (٢) حتى انه أطعم الناس الطير وخبز السميد . وكان يحمل معه بدر الدراهم والدنانير في ركوبه فلا يتعرض له احد الا اعطاه (٣) فكان يخاف ارباب الدولة تقاد مافي بيت المال (٤) اذا استمر على هذا العطاء (٥) ولا سيما بعد أن نقص دخل الدولة برفعه المؤن والكسور وهو الامر الذي كان يفاوضني فيه أيام خلافة أبيه فان الناس في صدر الاسلام كانوا يؤدون مافي ايديهم للخراج من دراهم ودنانير مضروبة على وزن كسرى وقيصر لا يفرقون في الاوزان فلما ساد فيهم العمران وأفسدهم التجار والسيارفة صاروا يؤدون الدينار الطبري الذي هو اربعة دوانيق ويمسكون الوافي الذي هو مثقال فلما أمر زياد صار يطالب الوافي ثم أمر الحجاج فطلبه كذلك فلما صار الامر الى ابي جعفر ازال الخراج عن الحنطة والحبوب وصيره على الناس مقاسمة كما ذكرت لك في بعض رسائل السالفة ولكن من

(١) ابن حلكان نقلا عن كتاب احياء علوم الدين للغزالي (٢) الاغانى ٣\*٩٤

(٣) المسعودى ٢\*٤٠١ (٤) المسعودى ٢\*١٩٦ (٥) الحصرى والحميس ٢\*٣٣٠

غير ان يسقط الكسور فلما ولي المهدي قال معاذ الله أن أُلزم الناس ظلما  
في ذلك فقيل له ان اسقط امير المؤمنين هذا ذهب من امواله في السنة  
اثنا عشر الف الف درهم (١) فقال عليّ ان اقرر حقا وأزيل ظلما لأن  
العدل موفر للجباية كفيلا بعمران الامصار.

واقدم اعظمت للمهدي هذه المأثرة التي احسبها له من اجمل آثار  
العدل وأحسن سياسة الرفق فان لنا في سقوط الدول التي قامت في  
هذا المكان نفسه من النبط والكلدان وغيرهم مايدلنا على أن الظلم  
يقتل العباد والبلاد جميعا فانما كان غرض الناس من الاجتماع تحت لوأثمهم  
القيام بأعمال الزراعة والمقام في بلدان الخصب لما يتسع بين ايديهم من  
اسباب الكسب والارتزاق وقد تناسلوا في ظلال العدل وبلغوا من  
الكثرة فيما مضى من الزمن الغابر بحيث كانوا اذا اجتمعوا للحرب أو  
لغزوة بلغوا ألوف الالوف من الخلائق ثم لما غفلت الدولة عن مصالحتهم  
وأوقعت عليهم المكوس النادرة لسد ماعاها اليه مطالب الترف لم يبق  
في نفوسهم شيء من حب البلاد وهم لا يبتغون منها الا تحصيل القوت  
الذي يأتيهم على اجهاد النفس (مع قيام الدولة بحقوقهم ولزوم العدل بينهم  
والحنان لهم من جانب ملوكهم) فضعفت فيهم اسباب الهمة ولم يكن  
للدولة طاقة على مردّ العدو بهم وقد ماتت نفوسهم من الظلم فخلت البلاد  
منهم والله يرث الارض ومن عليها

وكان وفود البلدان يردون على المهدي من الاقاليم الاسلامية  
 الاقرب فالاقرب لتنهئته بالخلافة فاجتمع ببابه كثير من اشراف العرب  
 وملوك الاقاليم وكانوا يتبركون به ويتوسمون فيه الخير لانهم رأوا منه  
 عدولا عن سيرة أبيه سيرة الظلم والجبروت وانما كان للناس محسنا اليهم  
 (١) محبا لهم وساعيا فيما تصلح به أمورهم فاتخذ لهم من هذا  
 الوجه مجلسا لرد المظالم (٢) (لم يكن قبله في الدولة العباسية) من ينظر في  
 تعدى الولاية على الرعية وجورهم فيما يجبونه من الاموال (٣) ولقد  
 وجدت له في استمالة الناس اليه غايتين تصبو اليهما نفسه ولا يهدأ له بال الا  
 بقضائهما على ما يروم وهما اذلال العلويين الى أن يكون بما من من تغلبهم  
 عليه ثم جعل الخلافة من بعده في ولده ممنوعة على غيرهم من بني  
 العباس . فأما أمر العلويين فما كان يشتد عليه وقعه بعد ان رماهم  
 أبو جعفر بالخسائر التي يحتاجون معها الى زمن يلمون به شعثهم ويجمعون  
 اليهم أطرافهم فكانما هو يقارعهم بسيف أبيه الى هذا اليوم . وأما خلع

(١) الخميس ٢٣١٥٢ (٢) السيوطي وابن الاثير (٣) في الماوردي  
 ومقدمة ابن خلدون ان هذا المجلس ينظر من غير ما ذكر الرحالة في كتاب  
 الدواوين اذا وقع بها تزوير وفي تظلم المسترزقة من الجند من نقص ارزاقهم أو  
 تأخرها عنهم وفي مشاركة الوقوف ورد المنصوب الى أصحاب الحقوق وتنفيذ  
 ما وقف من أحكام القضاة لضعفهم عن انفاذه وعجزهم عن المكتوب عليه لقوة  
 يده وعلو خطره وامضاء ما يعجزون عن امضائه في الينبات والتقرير واعتماد  
 الامارات والقرائن وتأخير الحكم الى استجلاء الحق وحمل المتخاصمين على الصلح

عيسى ابن عمه عن ولاية العهد فانه كان يتعب منه الببال وقد دخل عليه يحيى بن خالد أعزه الله فأصابه في قلق شديد يقعد مرة ويضطجع أخرى . قال لي يحيى فعلت من ذلك انه يريد أمراً عظيماً فقال اجلس قريبا مني لانى أريدك لمشورة (١) ان النبي صلى الله عليه وسلم مات في غير وصية وترك الامر شورى بين المسلمين فما لبثوا أن أجمعوا على أبي بكر ولكن بعد فتنة كادت تقع بين المهاجرين والانصار لقولهم منا أمير ومنكم أمير ثم مات أبو بكر وقد صير الامر الى عمر بمحض من الصحابة فلم ينازعه فيه احد ثم عهدا عمر الى الستة نفر الذين مات النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فأجمع رأى الامة على عليّ وعثمان ( وكان عبد الرحمن بن عوف أحد الستة المنوّه عنهم يميل مع عثمان وفي وصية عمر الى المسلمين أن يتبعوا رأيه فبايعوا من اراده ) فاستقر عثمان في خلافته الى أن أرت عليه الفتنة ( لاقصائه ولد أبي بكر واقباله على أقاربه من الامويين بالصلات الطائفة وعهد المسلمين قريبا بضبط (٢) أبي بكر وعمر فقتلوه وكانت تلك اول فتنة في الاسلام ) (٣) ثم أجمع العرب على عليّ عليه السلام ( وكان الفرس يميلون معه فاستوثق له الامر من العراق واليمن والحجاز ومصر وفارس وخراسان الا الشام لاستواء معاوية فيها فلما قتله الخوارج لم ير الحسن ابنه مقاومة الأمويين بالقتال ضنا ببذل الدماء فنزل له عن الامر ) وصارت الخلافة الى غير اهلها بما قد بلغك من الفتن

(١) المسعودى ٢١٥\*٢ (٢) الفخرى ١١٦ (٣) السيوطى

فأخاف اليوم ان صارت الى ابن عمي أن تذهب من بيتي بلا رجوع ثم  
يكون من الفتن مالا يؤمن غائلته على المسلمين فأشر على يابا الفضل في  
هذا الامر الذي لا يتعاضمه امر فانك بحمد الله مبارك الراى لطيف النظر .  
فقال له يحيى يا أمير المؤمنين انى أرى الزلة في هذا الامر لا تستدرك  
والخطأ فيه غير مأمون فان تكتب بالولاية لاولادك بعد ابن عمك كان  
ذلك أوكد في البيعة . فقال له المهدي كنت أفعل هذا لولا أنى أخاف من  
عيسى نكث العهود ولكنى أرى ان اخلمه عن الولاية واخذ البيعة لموسى  
على المسلمين فقال له يحيى على أمير المؤمنين أن يعلم شيعته ومسان أهله  
بذلك ولم يتعمق في هذا البحث الى أبعد مما أشار به لان موقفه بين  
العلوية والعباسية من أشد ما يكون من الصعوبة وانه وان كان يأخذ في  
تعظيم العباسيين لرسوخ دولتهم في المشرق الا ان له في حبه للعلويين  
ما يرى به عدولهم عن العراق الذى تزهق النفس دون التمكّن من أهله  
وانما يلتبس لهم من المغرب أمما ترسخ فيهم دولتهم الى أن يأتهم الله  
بالنصر القريب .

ولما جمع المهدي اكابر الدولة وفاوضهم في هذا الامر وقع  
بالموافقة من قوسهم (١) ولكن على أن يجيبه ابن عمه الى الانحلاع  
وانتهى بعض من يستخدم الفقه في رضى الملوك الى أن يقول ان أبا جعفر  
لم يكتب لعيسى بالولاية الا لتبقى الخلافة في بيته بعد المهدي فلما رزقه الله



أولاداً كانوا أحق بها من أعمامهم فكتب المهدي إلى الرحبة يستقدم ابن عمه إليه فلم يصل منه خبر أو وصله أنه يعتل بالشكوى وما بنفسه اعتلال ويستنكر الخروج إليه إلا أن يكره بالقتال فعمد إذ ذاك إلى مكيدة الحرب وأرسل الجند على ذلك الوجه . وأموراً بأن لا يأخذه بالقتال بل يستعمل الرفق والملاينة في ترغيبه عن المخالفة إلى أن يجيبه إلى الخضوع . وكان على هذا الجند قائد نبيه الصوت في الحروب يقال له أبو هريرة محمد بن فروغ فرأى أن يفاجئ الحصن في آخر الليل ويصف العساكر صفوفاً متعارضة ويضرب وراءهم مصاف الخيام ليوهم باستكثار العدة والعزم على مشابرة الحصار ثم ينزل بالجنود الزعقة العظيمة التي إذا سمعها عيسى وهو في نومه خامره الجزع وافزعاه الهول فلما فعل ذلك استيقظ عيسى على رعب من الصيحة ثم اشرف من الحصن سحراً ورأى سواد الجيش فامتلاً قلبه من الوحشة ولم ير السلاطة إلا بالاستسلام فأخذه أبو هريرة إلى المهدي فلم يفتر عن استعمال الحيلة في تعويضه عن الولاية بالمال إلى أن اجابه إلى الانخلاع ولكن بعد شدة ما لحقه من الضيم الذي ينطق بجور العباسيين وتناولهم في امر الخلافة (١) التي هي أعظم أمر في الاسلام .

ولما تصرف المهدي في أمر البيعة بما أراد ثار في قلوب المخالفين (٢) له ما كان يخمده فيهم حلمه وسعة عطائه فحصل في نفسه منهم خوف

(١) انظر العقد الفريد ٣٧٣\*٣٧٤ (٢) ابن الاثير والفخرى والسيوطي

شديد ولكنه لم يرمقهم بالقتل وفيهم كثير من اهل السيف لثلا  
يتسع الفتق وتعود عليه الفتنة بغير ما يحب وانما رجع الى من يلوذ به  
من العلماء وامرهم بتصنيف الكتب في الرد عليهم واخذ في استصلاح  
الزوراء والنظر في حسن السيرة الظاهرة من اهلها باكره العزاب على  
الزواج والاحسان الى المتعفين من الشبان مما جرى له قيل وقال بين  
الناس كمثل ان نسبوا ذلك منه الى غيره به على النساء (١) وهم قد غفلوا  
عن الغاية التي يرومها من صلاح امره بصلاح الزوراء وموازنتها مع  
مكة مهد الاسلام حتى يعظم فيها امر الدين . وتصبو اليها افئدة المسامين .

﴿ ظهور المهدي بمنصرة العلم ﴾

انى وان لم اكن على غرض العباسيين في السياسة ولا تطيب  
تقى بما ينفردون به من الملك ( لاني الى قوم سواهم لا ميل ) فاني  
لا وفي المهدي حقه من الثناء على ماله من جميل العناية (٢) في تعظيم  
العلم وتكريم العلماء . فهو يتخذ لاهل الادب وارباب الصناعة والغايات  
اياما (٣) معلومة من السنة يعرضون فيها بضاعتهم من علم او فن او ادب  
او صناعة حتى يحصل بينهم التنافس . ويصدروا ما عندهم من النفائس .  
ثم يجزيهم على ذلك بما هو واسع له من الكرم .

ولقد رأيت اصلحه الله اعطى الخلفاء نوالا للشعراء وهو يأذن لهم

(١) في الاغانى ٤١٥٣ ان المهدي من أشد الناس غيرة (٢) الاسحقى ٨٨

(٣) المستطرف ٣٧٥١

بالدخول عليه مرة في السنة ( ١ ) فيجتمعون ببابه ويتفاخرون بما عندهم  
من محاسن الشعر وفصاحة الكلام . وقد حضرت اجتماعهم بداره لأول  
ماولى الخلافة وقد قصده ابن المولى من البادية ( ٢ ) وسلم الخاسر من  
البصرة وابن الخياط من مكة وأشجع السلمى ( ٣ ) من الحجاز فقالوا فيه  
الشعر الذى لم يمدح بمثله أحد من الملوك . ومن جملة ما حفظت لابي  
العتاهية في تهنته اياه بالخلافة قوله .

أنته الخلافة منقادة      اليه تجرر أذيالها  
فلم تك تصلح الآله      ولم يك يصلح الاله  
ولو رامها أحد غيره      لزلت الارض زلزها  
وان الخليفة من بغض لا      اليه ليغض من قالها

فأصاب لذلك حظاً وافراً من المال . وكان بشار المقدم في الرسالة ذكره  
الساقفة واقفاً في صفوف الشعراء فلم يمالك أن يقول لمن حوله ويحكم  
انظروا هل طار الخليفة عن سريره .

وكان المهدي يقدم عليهم سلم البصرى ومروان بن أبى حفصة  
ويعطيها عطية واحدة . فأما مروان فإنه ياتمس الفصاحة في كلامه تشبهاً  
بأ كابر الشعراء ( ٤ ) وأما سلم فإنه يودع أبياته المجون والخلاعة لتكون  
أنسا في عيون السلطان . فوقع فيما يتصرفان به من مذاهب الشعريون

( ١ ) الاغانى ٤٤\*٩ ( ٢ ) الاغانى ٨٨\*٣ ( ٣ ) ابن خلكان ١٠١\*١

( ٤ ) الاغانى ٤١\*٩

يشبه أن يكون ناشئا عما وجدت فيهما من تباين المشرب بين الافراط  
 والتفريط فان مروان بنخيل يرضن بماله (١) عند الواحد والتفريط  
 عند الآخر فان مروان بنخيل يرضن بماله وسلم سمحٌ ببذل المال  
 يأتي الى دار المهدي علي برذون قيمته عشرة آلاف درهم ولباسه الخز  
 والوشى (٢) ويأتي مروان بأثواب رثة على حماريكتريه بدرهم لا يخرج  
 من يده الا بعصب الريق مع كثرة ما أصابه من المال (٣) في صلوات  
 تجاوزت خمسة آلاف دينار في عطية واحدة كما علمت.

ولئن تكن الفصاحة في كلام مروان أجل منها في شعر سلم  
 فاني لاعيب عليه المداهنة التي ياتمس بها مرضاة الخليفة بقده في أهل  
 البيت على غير حكمة وعقل كانه يجزم بما يراه عن يقين لارجوع فيه  
 كقوله في ثبوت الخلافة للعباسيين وبعده العلويين عن وراثة النبي صلى  
 الله عليه وسلم.

يا ابن الذي ورث النبي محمدا      دون الاقارب من ذوى الارحام  
 أنتى يكون وليس ذاك بكائن      لبني البنات وراثة الاعمام (٤)  
 وهذا مردود من وجوه كثيرة لان الخلافة انما هي مصاحبة دينية  
 لا وراثة دينوية فحيث توجد المصاحبة الدينية فهناك تكون الخلافة ثم

(١) الاغانى ٣٩\*٩ والطواط ٢٩٥ (٢) الاغانى ٣٩\*٩ (٣)

ابن خلكان ١٣١\*٢ (٤) الاغانى ١٧\*١٢ والعقد الفريد ١١٨\*١ والمسعودى

ان النبي صلى الله عليه وسلم صرح بأن الحسن والحسين هما ذريته فاذا وجدت الذرية لم يبق مدخل للامام في الوراثة اللهم الا اذا رجعنا الى شريعة الجاهلية التي انتسخت بمجيء الاسلام ولو انا ضربنا عن ذلك كله صفحالما وجدنا اصلح للاسلام من أن تجتمع كلمته على من لا ينصرف عن طاعته أحد من المسلمين الى ردود كثيرة ماأنا من ذكرها الآن في شيء وانما أعود الى الحديث الذي جرى به القلم عن سيرة المهدي فاني شهدت بداره أيام الشعراء وأيام القصاص وأيام الندمان وأيام المغنين وأيام الرماة (١) وأيام جرى الخيل وقد سبقه اليها الخلفاء الا يوم السباق فاني لأعلم عن أحد من بني العباس أنه أقام الحلبة وأجرى بين يديه الخيل في محفل من كبراء الدولة قبله. وكان له فرس سباق الاضاميم يقال له الغضبان (٢) فكان أول خيل الحلبة في ذلك اليوم فلما قلده الشعراء أصاب جائزتهم العماني وقد ارتجز.

قد غضب الغضبان اذ جد الغضب وجاء يحمي حسباً فوق الحسب  
 من ارث عباس بن عبد المطاب وجاءت الخيل به تشكو التعب  
 له عليها مالكم على العرب

ولكن هذا من الامور التي تكفي المشاهدة لها مرة واحدة وأما الذي ترتاح اليه النفس على التماس الكثير منه في دور الخلفاء فهو يوم

(١) ذكرها المستطرف ٢٧\*١ (٢) الاغانى ١٧\*٨٢

الغناء وكان المهدي إذا اتخذ له مجلساً بداره ضرب للمغنين ستارة يجلسون وراءها في صفوفهم بحيث لا يرونه (١) الافليح بن أبي العوراء وهو أوضح الناس غناء وأعرفهم بالالخان والاصوات (٢) وان هو لم يكن أحسنهم صوتاً فانما يحسن الغناء عند من يشبع الالخان ويملاً الانفاس ويعدل الاوزان ويفخم الالفاظ ويعرف الصواب. ويقوم الاعراب. ويستوفي النغم الطوال ويحسن مقاطيع النغم القصار ويصيب أجناس الايقاع (٣) فهو يحسن ذلك كله لمحله الجليل من هذه الصناعة وليس له فيها شريك الا مغن آخر يقال له عطر د (٤) قد أدرك دولة الامويين في آخر مدتهم وأما ماسواهما من المغنين فليس لهم من الصناعة ما للمتقدمين من الفرس وأنا لا أعيب ذلك عليهم لان الزمن الذي مضى عليهم في صدر الدولة كان مضرجا بدماء الحروب فانصرف الخلفاء عن النظر في مطالب اللهو والترغيب الى التماس الاسباب التي يؤيدون بها ملكهم من الحكمة والسياسة. ثم ان نقل الغناء الى العربية (٥) ليس بقديم عهد عندهم حتى يتمكنوا من صناعته وفنونه لأنهم نقلوه من الفارسية في خلافة معاوية بن أبي سفيان وهو الزمن الذي أخذ فيه العرب بسكنى

(١) الاغانى ٩٩\*٤ وذكر المسعودى ١١٨\*١ أن الاوائل من بنى العباس

ما كانوا يظهرون للتدما (٢) الاغانى ٨٨\*٤ (٣) الاغانى ١٢٦\*١ (٤)

الاجانى ٩٩\*٤ (٥) الاغانى ٨٦\*٣ والمسعودى ٣٥٧\*٢

الامصار وانقلب أمر الامة من سذاجة الخلافة الى ترف الملك  
فلقد نقلت الينا الاخبار السالفة أن الخلفاء الراشدين رضی الله عنهم لم  
يقيموا أبهة الملك ولا كان لهم على المسلمين سلطان دنيوي يتوسعون  
منه الى التماس النعيم من الدنيا (١) وانما كانوا مظهر الفضيلة ومثال القناعة  
والعفاف وكانوا يلبسون الثياب المرقعة (٢) ويتخذون في أرجلهم نعالا  
من ليف (٣) ويمشون في الاسواق كبعض الرعية رجالا (٤) وكان لباس  
أبي بكر الشملة والعباءة ولباس عمر جبة الصوف مرقعة بالاديم ومر كبه  
الابل (٥) وكان عليّ عليه السلام يتجافى عن جمع المال ويقول يا صفراء  
ويا بيضاء غرّى غيرى (٦) وكان مطعمهم على مثل هذا الوجه من  
الكفاف يلمسون به الغذاء من غير تأنق في الاطعمة حتى ان المناخل  
كانت مفقودة عندهم فكانوا يأكلون الخنطة بنخالها ولا يعرفون من  
الالوان الا اللحم يطبخونه بالملح والماء (٧) وكان أبو موسى الاشعري  
يتجافى عن أكل الطير والدجاج (٨) وكذلك كان العرب في سذاجة  
دولتهم على بُعد من ترف المتمصرين في جميع معاشهم وأحوالهم حتى

(١) وكانوا يقولون في خطبهم للمسلمين أطيعونا ما أطعنا الله فيكم فاذا  
عصيناه فلا طاعة لنا عليكم (٢) الطبقات ١٩\*١١ والمقدمة ١٨٥ (٣) الفخرى  
٣٣ (٤) الفخرى ٨٩ (٥) المسعودى ١\*٣٢٠ (٦) الطرطوشى ١٢٤  
(٧) الابشهى ١\*١١٤ (٨) المقدمة ١٧٨ وفي البخارى وشرحه للقسطلاني  
ما يخالف هذا

انه لم يكن عندهم من الغناء الاحداء الركبان أو ضرب من النصب أرق منه فلما ساد فيهم العمران في عهد الامويين وألقت عليهم أصوات الفرس نبغ الكثير منهم في محاسن هذه الصناعة ثم فتقت الفتن في دولة العباسيين وقد طلبوا الخلافة من دون الملك فلم يتهيأ لهم مجلس بدورهم الى هذا الزمان.

﴿ ولوع المهدي بمزاولة الصيد ﴾

تجد فيما أنا ذا كركك عن المهدي أنه يجمع الى خلافة الامة أبهة الملك وهما أمران لم يجتمعا في خليفة غيره وربما التمس الطيبات في هذه الابهة والتأنق في فنون المعيشة الى الغاية التي لم يبلغها ملوك بني أمية من قبله فاذا جلس الى الندماء أحب أن يتمتع نفسه من لذة أحاديثهم (١) وإشارتهم دون ستارة تحجبهم عن نظاره واذا خرج الى الصيد ركب في المواكب العظيمة المزينة وربما كان ذلك من أحب الاشياء اليه.

وأنا لا أعد الصيد من الملاهي التي تعاب على الملوك الا متى فرطوا فيه وكانوا أقرب به الى الاشر منهم الى النزهة والرياضة كما نعلم عن صبية الامويين الذين أجلوا أهل الزراعة من حولهم لتحطيمهم زرعهم في طلب الصيد. وهذا بعيد عن أن يكون في المهدي أصاحه الله وانما هو كلف به (٢) من غير تفريط فيه لاني رأيت من الامراء من يتأنق

(١) السيوطي (٢) ذكر حب المهدي للصيد في الاغانى ١٥٠٣ وابن



أكثر منه في اتخاذ العدة المكلفة له الى أن يصنعوا نصال سهامهم من الذهب كما ورد عن بعضهم في كلام الشعراء .

ومن جوده يرمى العداة بأسهم من الذهب الابريز صيغ نصالها لينفقها المجرور عند انقطاعه ويشترى الاكفان منها قتيلاها (١) وهذه مباحاة لا ينظر اليها الخليفة من مزاولة القنص وانما عني باتخاذ القصور والبيزان وتربية الكلاب التي تسبق الظالم في عدوها يلبسها أطواقاً من ذهب (٢) ويوكل بكل كلب عبداً يخدمه كما يفعل كثير من الامراء وأهل النعمة (٣) في تربيتها للتحريض على الصيد اذ كان لا ينهى الشرع عن اتخاذها الا فيما كان لغير الصيد والحراسة . وأما البيزان والصقور فانه لم يسبق الى اتخاذها بل كانت معروفة عند العرب منذ ملوك كندة وقد وقف أحدهم يقانص بالحباله فانقض بازي وحمل عصفورا وعلق واياه في الحباله فأخذه الملك وأتى به وهو يأكل العصفور ورماه في كسر البيت فرآه قد دجن ولم يبرح مكانه واذا رمى اليه طعاما اكله واذا رأى طيرا طار اليه فأخذه في عدة الصيد وطاب به الطير وصار العرب يؤدبونه (٤) لذلك ثم يؤدبون العقبان أيضاً ويقولون انها تعمل عملا لا يدركه اكثر الصقور (٥) .

وقد ركب المهدي يوماً الى الصيد وكنت في خدمته مع الامير على

(١) الاتليدي (٢) ذكر الفخرى ٦٧ هذه الاطواق الذهب (٣) الاغانى ٦\*٧١

(٤) المسعودي ٩١\*١ والاغانى ٤٥\*٧ (٥) الديمري ١٥٢\*٢

ابن سليمان ابن عم أبيه وأبي دلامة الشاعر وكان خروجه من القصر  
 في آخر الليل وفي طرف الافق شفتى من الفجر وكان يحوطه فرسان من  
 الحرس متنكبون قسيهم متقلدون سيوفهم يتبعهم قطعة من الجنود  
 وطائفة من الغلمان قد حملوا المونة على الخزائن (١) الخليفة وبينهم عدد  
 من الوصفاء في أخف كسوة وأجل لباس وكان مسيره محاذيا للنهر ارتيادا  
 للخضرة التي تجنح اليها الطيور وتسرح فيها المهي والغزلان حتى اذا انجلي  
 النهار وقد رمى شيئا من الطير تقدم الى من بين يديه من الفرسان أن يضربوا  
 حلقة في أرض مطمئنه ممرعة ثم يضيقونها رويدا رويدا الى أن يؤخذ الصيد  
 بين جموعهم من كل جهة (٢) فلما أحاطوا بذلك الموضع وقع في حلقهم  
 غزال قد نفر ومر وكان الخليفة قد نشط للصيد وخف له في ذلك اليوم قال  
 هو وابن عمه اليه ورشقا بالسهم فأصابه سهم في صدره وأصاب السهم  
 الآخر بعض الكلاب فصرعه فلما جلسا للاستراحة حمل اليهما هذا الغزال  
 فوجد في صدره سهم الخليفة فارتجل أبو دلامة رهو يريد المزاح (٣).

قد رمى المهدي ذابيا شك بالسهم فؤاده

وعلى بن سلیمان ن رمى كبا فصاده

فهنئا لهما كل امرئ يأكل زاده

وقد اتفق للمهدي في ذلك اليوم نادرة ليس أظرف منها فيما يتفق للملوك

(١) ابن الاثير ٦\*٣٠ (٢) الفخري ٦٥ (٣) الاغانى ٦\*٤٧ والشريشي ٢\*٢٦١

من النوادر وهي (١) أنه أخذته السماء وهو منقطع عن عسكره منتبذ من أصحابه فركض فرسه مليء فوجه حتى لا يابده المطر فانتبهى الى بيت أعرابي ملاح (٢) فبادر الى نزع ما ابتل من ثيابه وجلس بجانب نار موقدة ثم قال يا أخا العرب هل من قرى قال عندي فضلة نبيد في ركوة فقال له هات اسقني فشرب قeba وسقاه فلما شرب قال له يا أخا العرب أتدرى من أنا قال لا والله قال أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة قال له بارك الله في موضعك ثم شرب قدحا وسقاه فلما شرب قال له يا أعرابي أتدرى من أنا قال زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين قال لا بل أنا من قواد أمير المؤمنين قال رحبت بلادك . وطاب مرادك . ثم شرب قدحا وسقاه فلما شرب قال له يا أعرابي أتدرى من أنا قال نعم ذكرت أنك من قواد أمير المؤمنين قال فقلت كذلك قال فمن أنت قال أنا أمير المؤمنين فأخذ الأعرابي الركوة وأوكأها فقال له الخليفة مالك ياشيخ فقال مكانك والله ما آمن أن أسقيك القدح الرابع فترجم أنك رسول الله فضحك المهدي حتى استلقى وأقبل الجند عليه . ونزل الاشراف اليه . فطار قلب الأعرابي من الخوف فقال له المهدي لا بأس عليك ولا خوف ثم أمر له بمال وكسوة ولم يلبث أن رجع الى الحضرة بعد انكماش ناله من العدو السريع ونزول المطر وهبوب الريح الباردة .

(١) المسعودي ١٩\*٢ وابن الاثير ٣٠\*٦ والفخري ٢١٢ والمستطرف ٣٠٦\*٢

والشريشي ٢٥٧\*٢ والانليدي ٨٦ (٢) الاغانى ١٥٠\*٣

﴿ في تمة أخبار المهدي ورسالتى الى خراسان ﴾

نعود الى ذكر المهدي في دولته وسياسته فانه لما حقق البغية بما اراده من البيعة لاولاده بنى عليه أن ينظر في أمر العلوية وقد بنى منهم في السجون جماعة لم يطلقهم منها فيمن أطلقه عند ماولى الخلافة (١) بل أبقاهم مع الذين عندهم تبات من دم أو مال وهذا من شر ما يلاقه أهل البيت من الذين خلفوا جدهم عليه الصلاة والسلام ثم انه لم يكتف بهذا الظلم حتى تعمد مضرتهم باستمالة جماعة من أشياعهم يطلعونه على أمورهم فيما يسرون ويعانون وفيهم رجل من بنى سليم يقال له يعقوب بن داود طوقه أمر الوزارة ومكته من بيوت المال ليطلعها على أمورهم ويعلمه بمكان الحسن بن ابراهيم بن عبد الله بعد خروجه من السرداب الذى حفره الى محبسه ذوو النخوة من رجال الشيعة ولكن يعقوب كان ذاعقل ورأى وفتوة ومن لا يستبدل المال بغرضه غرضاً آخر فبنى ميله مع أهل البيت والمهدي وأبو عبد الله يظنان انه على خلاف ذلك (٢)

ولما استوثق للمهدي أمر العراق رأى أن يستميل أهل الحرمين فركب الى الحج في كثير من عظماء دولته واتخذ من الابهة ما لم يسبق له مثيل في الاسلام واستصحب معه هرون ابنه ويعقوب بن داود المقدم ذكره وجماعة من أقاربه المقربين واستخلف في الحضرة موسى ابنه

(١) في ابن الاثير ١٥٠٦ والاغاني ٣٩٠٣ انه عند ماولى الخلافة اطلق

المسجونين (٢) ابن الاثير ١٤٠٦

وزيد بن منصور الحميري خاله وحمل معه خمسين ألف ألف درهم ومائة وخمسين ألف ثوب (١) يفرقها في أهل الحرمين وكان عازما في تلك الحجة أن ينكب بالامام الحسن بن ابراهيم بن عبد الله من أولاد علي عليه السلام وقد علم أنه في جوار مكة فتقدم يعقوب بالشفاعة اليه والحيلة المباركة عليه حتى نال رضاه عنه فأطلق له الامان (٢) الذي كان مقبوضا عنه وعن آل بيته في خلافة ابي جعفر.

ولما قدم الى مكة نزع كسوة الكعبة وطلى جدرانها بالمسك والعنبر ثم كساها كسوة جديدة من الحرير لانه كان يخاف عليها أن تهدم لكثرة ما عليها من الديباج الذي كساها اياه هشام بن عبد الملك ثم أمر بإنشاء رواقات المسجد الحرام وحمل لها الاعمدة الرخام من البحر (٣) وأتم بناءها على عناية يلتمس بها استمالة أهل الحرمين مع ما أولاهم من الاحسان واتخذ لهم ما أدب أفرغ الوسع في زخرفتها وتنميقها للدلالة على عظم ملكه حتى انه سقاهاهم الماء المبرد بالثلج المحمول من الشام (٤) وكان الذي حمله الى مكة محمد بن سليمان الهاشمي الذي تقدم في الكلام على البصرة ذكره) وهذا من الامور التي توسع أهل البادية تعجبا من اقتدار الملوك على الغريب ثم انه رد عليهم الوظائف التي قبضت عنهم في خلافة أبيه وفرق عليهم غير ما حمله من الحضرة ثلاثمائة ألف دينار حملت اليه من مصر ومائتي ألف دينار من اليمن وغير ذلك مما جاءه من الجهات

(١) الخميس ٢٠٣٠٠ (٢) ابن الاثير ١٨٠٦ (٣) الخميس ٢٠٣٠٠

فبلغ المنفق في هذا الحج على كسوة الكعبة وصلة الناس وبناء القصور  
 بطريق مكة واتخاذ المصانع في كل منهل منها وتجديد الاميال والبرك  
 وحفر الركايا وغير ذلك نحو من ستة آلاف ألف دينار واصطفى لنفسه  
 من الانصار خمسمائة نفر أجرى عليهم الارزاق الواسعة واتخذهم لمراتب  
 السيف في العراق كأنه يعارض اياه في تقديم الموالي على العرب ليستبدل  
 جفاهم له بمحبتهم اياه واتفق أن كانت هذه السنة سنة رخص وخصب  
 بعد جهد أصاب الناس في العام لمادهمهم الوباء (١) الجارف فأحبه الناس  
 وتبركوا به وقالوا هذا هو المهدي ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 وسميه (٢)

ولما عاد الى الحضرة وقد وجد في تجوله في البلاد اختلالا لم يأمن  
 معه على الدولة من الفساد صرف المهمة في النظر الى تدبير الولايات ورتب  
 أناساً يؤدون رسائله الى العمال ويترقبون لهم في انفاذها وسماهم الامناء  
 (٣) ووجههم في جميع الامصار فكان لا ينفذ كتابا الى عامل فيجوز حتى  
 يكتب يعقوب الوزير الى بعض الامناء بانفاذ ذلك. ثم نظر في أمر الرعية  
 فوضع لهم ديوان الازمة (٤) وأقام على الشرطة من تبين فيه حسن النظر  
 والتدبير فاستوثق له الملك من الوجه الذي يرومه في استمالة الناس اليه

(١) ذكره ابن الاثير في حوادث سنة ١٦٠، (٢) الاغانى ٣\*٩٤، ٣ ابن

الاثير ٦\*٢٠ ويقول في موضع آخر ان المنصور كان يحب أن يوجد في دولته مثل ذلك

١٠\*٦ (٤) ابن الاثير ٦\*٢١

الا انه تواترت عليه في منتصف هذه السنة والدهر له صاف رسائل  
من أبي عون عامله على خراسان يشكو فيها ضعف جنده واعتلال دواته  
وتغلب رجل أعور من مرو قد ادعى الربوبية وأغوى الخلق وقامت  
له في الصفد وبخارى أنصار قد عاثوا في البلاد واتخذوا البياض في  
شعارهم لمخالفة السواد فتخوف المهدي أمرهم وأخرج اليهم معاذ بن  
مسلم موعزا اليه بأن يلتزم مع الحرشي الذي هو أمير الجيش في خراسان  
حتى اذا كان على انتظار البشائر منه وصله من أبي عون أن قد وقع  
الخلاف بين الجيشين فعزم على توجيه رسول يكشف قناع الفتنة ويصلح  
بين الامويين فوقع الخلاف بين يعقوب وأبي عبد الله فيمن يطوقانه  
أمر هذه الرسالة فرام يعقوب أن يقلدنيها وأحب أبو عبد الله أن يصيرها  
الى أمير من آل قحطبة وكان الربيع حاجب أبي جعفر راغبا في توجيهي  
بها أيضا لآل جبالى ولكنه وقعت نفرة (١) بينه وبين أبي عبد الله فاشتغل  
في معاكسته وبلوغ المكروه منه .

ثم ان المهدي وقع رأيه على أن يبعثني الى مرو ولا نظر في أمر هذا المقنع  
الاعور وجعل لي التصرف في ما أرى حله وعقده من خلاف القواد  
اذ يكون خير الجيش المرجو ما لم تتقلب بامرأته الاغراض ولا سيما ان له  
في خراسان عدوين يتفقان جميعا عليه . جماعة خارجي يقال له يوسف  
البرم (٢) وشيعة هذا المقنع الذين يدعون الوهيته وقيمون دعوته على

بذل الدماء. فأما جماعة البرم فلم يكن لهم وجه بالثورة الا في أمر من السياسة ولذلك كانوا أقل على الدولة خطرا من رجال المقنع الذين أقاموا دعوتهم بأمر الدين وزعموا ان الله تعالى خلق آدم فتحوّل في صورته ثم في صورة نوح ثم في صورة غيره من الانبياء حتى تحوّل في صورة هذا المقنع بعد أبي مسلم رحمه الله. وقد نقلت الاخبار السائرة أنهم يسجدون له من جميع النواحي ويزعمون أنه أراههم في السماء قرآ خريراه المسافرون على بعد شهرين ويستضيئون بنوره والياذ بالله من شرور الاعمال وغلبة الرجال. وانما زعم هذا المقنع أن الله تعالى تحوّل قبله في صورة أبي مسلم ليستميل الناس اليه كما استمالهم داعية الامامية رحمه الله وان كان بعيدا عن اذوار دعوة أهل البيت. فكان استخدامه الدين لنيل مناه وجهها من السياسة يريد منه شيوع المعجزات عنه بين العوام وهم بمكانهم من السذاجة والغفلة ليتسارعوا الى الانضمام اليه وقد رأى أن عصر موسى عليه السلام كان مقبدا بالسحر فغلب السحرة وعصر عيسى عليه السلام مقبدا بالطب فغلب الاطباء وعصر النبي صلى الله عليه وسلم مقبدا بالبلاغة ففضل البلغاء فرأى أن عصره مقبدا بالكيمياء فأراد أن يبهز الناس فيما يستنبطه من المركبات.

وقد فرغت من تقييد هذه الرسالة في ختام السنة الحادية والستين بعد المائة من الهجرة المشرفة وأنا على أهبة السفر الى خراسان وسأصدر لك منها كتابا أودعه ذكر الشيعة فيها وأخبار أممها من الفرس والديلم



وغيرهم . وباللّٰه نعتضد فيما نتمد . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

✽ الرسالة الخامسة ✽

( طرف من أخبار المهدي والهادي )

(١) ولما وصلت الى بغداد قصدت باب البرامكة لأقرأ عليهم سلام  
الفضل (٢) أعزه الله وأطفيء ما بنفسي من الشوق الى الانس بقربهم  
المحبوب اذ كانت المكاتبة بيننا طول هذه الايام لم تزدني الا شغفا  
بمحاسنهم واستطلاعاً الى محيا جمالمهم . ثم اني قصدت باب فقيه الاسلام  
وقد اتخذه المهدي رحمه الله قاضي قضاة المسلمين وصارت اليه  
جوائز الهادي والرشيدي من بعده حتى بنى لنفسه في درب أبي خلف  
(٣) من ناحية الكرخ الدار التي لم يبن مثلها الا ملك أو أمير فألفيته  
في مجلس حافل بالادباء والامراء وعليه (٤) المبطنة والطيلسان وقلنسوة  
طويلة (٥) قد أحاطها بعمامة سوداء دعتة الحاجة من خدمة العباسيين الى  
اتخاذها على لون شعارهم وهذا هو الزي الذي يروم ان يكون مخصوصاً  
بالفقهاء (٦) لتمييزهم عن سائر الناس فكان لملقانا موقف يستبكي الحمام

(١) الرسالة المكتوبة في خراسان لم تطبع والحديث هنا تابع لها موصول بها كما تراه

(٢) كان في ذلك الوقت عامل خراسان من لدن الرشيد كما هو مذكور في

ابن الاثير (٣) محلة بغداد ذكرها ابن خلكان ٣٠\*١ (٤) المسعودي ٢\*٣٣٧

(٥) وجدت في العقد الفريد ٤٣\*٣ و ٢٣١ لفظ الطويلة بمعنى القلنسوة (٦)

ابن خلكان ٢\*٤٥٠ والاغانى ٥\*١٠٩

لفرط ما بنا من الاشواق . وصرفت اليوم بقيته بحضرة أجاذبه أطراف الحديث وقد نبأني بما جريات القوم في المدة التي كنت منفصلا فيها عن دار السلام لان القضاة قد يرد عليهم من طرائف الاخبار (١) ما لا يرد على غيرهم من أرباب الدولة مثله ولا سيما من كان بمنزلة هذا الفقيه عند الخليفة حتى انه ليجلسه على سريرته بجانبه (٢) ويقوم له اذا دخل عليه ولا يقلد القضاء (٣) ببلاد العراق والشام ومصر وخراسان الا من أشار به اليه .

ولقد ذكرت لك في رسالتي من خراسان ما اتصل بي من أخبار المهدي والهادي رحمهما الله فيما يتعلق بأمور الدولة . أما أخبارها الخاصة فقد حدثني بها لسان الشريعة على اسباب لا موضع له في هذا الكتاب على أن المهدي ما برح مستهرا الى انقضاء خلافته على ما ذكرت لك من استمالة الناس ومقاومة أهل البدع فيما به تعزيز الملة والدولة ولقد جرت الشريعة في أيامه والى هذا اليوم على أحسن منوال معروف لا تقطاع النظر فيها الى أبي يوسف من دون الخلفاء بحيث لم يتول القضاء الا أهل العلم ومن لا يميل به طمع النفس الى الخروج عن جادة العدل . وقد أقر رجاله في وظائفهم الا وزيره يعقوب وقد وضع له ميله مع أهل البيت (٤) ورفع اليه المفسدون بيتين من الشعر أغر و أبشار اعلى قولها . وأطاروا ذكرها كل مطار .

(١) الاتليدي ٧٩ (٢) الاتليدي ١٤١ (٣) الماوردي والاسحاق ٩٠

(٤) ابن الاثير ٢٦٦\*٢٦٦ والمسعودي ١٩٦٥٢ والفخرى ٢٢١

بنى أمية هبوا طال نومكم ان خليفة يعقوب بن داود  
ضاعت خلافتكم باقوم فالتسوا خليفة الله بين الناي والعود  
فنكبه لذلك وألني في بئر عمى فيها وهو يتوسد التراب الى أن مات في  
خلافة الرشيد قبيل عودتي من خراسان .

وكانت مأثرة المهدي في آخر أيامه وضه البريد (١) ابلا وبغالا في  
كثير من البلاد مما استنفق أموالا طائلة ولا سيما فيما بين مكة والمدينة  
الى العراق وهو أول من أقام البريد من الحجاز الى الحضرة لما يروم من  
تناول الاخبار ومناولة الرسائل على وجه السرعة اذ كان على تيقظ من  
العربان في مناصرتهم لاهل البيت بالمواطن المشرفة كما كان على حذر من  
أهل الشام في استظهارهم على عماله بمن يجاورهم من العربان الذين ما كانوا  
بحكم العباسيين راضين سوى نفر قليل كانوا يحملون الضيم لمخالفة السواد  
الاعظم من قبائلهم ولذلك كان يرى المهدي امداد عماله بالعمال والعربان  
بالمال حيناً بعد حين حتى دعتة الحال الى الشخوص بنفسه اليهم فزار  
دمشق (٢) وبيت المقدس (٣) وأخذ في ازالة الخلاف الذي كان واقعا  
بينهم في بادية الشام . بما فرق فيهم من الاموال الجسام .

أما الهادي رحمه الله فانه نسج على منوال أبيه وقد رسم له بتتبع

(١) ابن الاثير ٢٦٥٦ و ابو الفداء ١٠٥٢ والسيوطي والكنز ١٠٦

(٢) قضاة الشام (٣) الاغانى ٦٧٥٦ والانس ٢٥١٥١

الزنادقة فمضى على ذلك وافتتح خلافته بقتلهم ووكّل بهم رجلا يقال له عبد الجبار (١) وهو المعروف بصاحب الزنادقة فاقتص أثرهم في الزوراء حتى لم يدع منهم عينا تطرف . فما كان الزنادقة فيما أخبرني أبو يوسف الازاز شرفي عقيدتهم وان بدا للناس ظاهر لهم من الظارفة وحسن السيرة (٢) كما يشير لذلك بعض الشعراء بقوله في رجل قد آتهم بالزندقة (٢)

لست بزنديق ولكنما أردت أن توسم بالظرف

فانما يتعدون مذهبهم من التكذيب بالانبياء وتعليم الناس البغض في الخلفاء الى أن يمسوا الشرع الشريف بما لا يحلله كتاب الله فقل للمفتريين على الله انه يحضرهم في يوم لا يغني عنهم شيء ولا هم يرحمون . واعلم انه لم يل الخلافة قبل الوادي أحد في سنه ولكنه لم يستكمل ستا وعشرين سنة حتى مات فكانت مدة ولايته سنة وشهرين الا أياما وكان ذا ظلم وجبروت (٣) واذا ركب مشت الرجال بين يديه بالسيوف المشهرة والاعمدة والقسي الموترة ولذلك كثر السلاح في عصره وأحرز منه الشيء الذي كان يجب التباهي به حتى قيل انه أعطى لشاعر مدح سيفا عنده كان لعمر بن معدى كرب يقال له الصمصامة عشرين ألف درهم على هذه الايات .

حاز صمصامة الزبيدي من بسين جميع الانام موسى الامين  
سيف عمرو وكان فيما سمعنا خير ما أنعمت عليه الجفون

(١) الاغانى ٧٢٥٣ (٢) ابن الاثير ٣٨٥٦ (٣) الاغانى ٧٢٥١٧

(٣) الحميس والسمودي والسيوطي

أخضر اللون بين خديه برد من ذعاف يميس فيه المنون  
 أوقدت فوقه الصواعق نارا ثم شابت به الذعاف القيون  
 فاذا ماسلته بهير الشمس ضياء فلم تكد تستين  
 مايبالى من انتضاه لحرب أشمال سبطت به أم يمين  
 يستطير الابصار كالقوس المشعل مااستقر فيه العيون  
 وكان الفرند والجوهر الجا رى على صفحتيه ماء معين

نعم مخراق ذا الخليفة في الهيجاء يقضى به ونعم المعين (١)  
 وقد صارت المراتب في أيامه الى المنتشئين من البرامكة والطاهريين  
 والمهالبة وغيرهم ممن كنت أعرفه صبيا قبل نزوحى الى هذه الرحلة التي  
 امتدت بى سيرا . وكان على وزارته الربيع بن يونس حاجب أبى جعفر  
 غفر الله له وعلى بيت ماله المعلى بن طريف (٢) وعلى حجابته الفضل بن  
 الربيع وعلى جنده آل أبى العلاء وقد حدثنى بأخباره معهم بعض من كان  
 مقربا اليه من الندمان ومنهم رجل من أهل الحجاز يقال له عيسى بن دأب  
 وقد بلغ عنده من الحظوة لديه والجلوس بحضرتة على المتكآت ما لم يكن  
 يطمع به غيره فى ذلك (٣) فكان يصف لى أخبار مولاه بما يرفعه الى  
 مساماة العطاء من أهل الرأى والتدبير غير أنى ما عرفت له شيئا من هذه  
 المحاسن وهو صبي ولا رأيت فى دولته الزهاء الذى أشرق على دولة المهدي  
 قبله ثم الرشيد من بعده لانه كان منهمك النفس بحب اللهو ومجالسة

النساء حتى قصف عمره من فرط التمتع بهن وولد له في فتاه سنه أولاد  
كثيرون وفيهم ولد أعمى (١) فيما سمعت . ولذلك كان الطامعون اليه من  
غير أهل المراتب أكثرهم أهل لهُو وطرب . وكان أقربهم اليه مكانا  
وأفضلهم عنده منزلة ابراهيم الموصلي النديم وهو فارسي الاصل بارع  
في جميع فنون العلم والادب الا أنه غلب عليه الغناء بعد أن تخرج على  
جوانويه (٢) وسيط فبلغ من الاجادة فيه المكان الذي لم يبلغه  
المغنون من أهل الحجاز ولذلك كان الهادي اليه أميل منه الى سواده من الندماء  
يقال انه كان اذا استعطاه خمسين ألف درهم أعطاه مائة ألف (٣) وقد قال لي  
اسحق ابنه والله لو عاش لنا الهادي لبينا حيطان دورنا بالذهب (٤) .

( جمال بغداد بالرشيد والبرامكة )

ولما تجولت في المدينة بعد طول الغيبة عنها وجدتها في سعة من  
ال عمران ما كنت أعهدا قبل هذا الوقت فما كفي اهلها الموسرين مارفوا  
في مدينة المنصور من المباني المشرقة حتى توسعوا الى سكنى الجانب  
الشرقي المعروف بالرصافة فبنوا فيه القصور الرفيعة والمنازل المزخرفة  
وأتخذوا الاسواق والجوامع والحمامات (٥) وتوجهت عناية الرشيد

(١) العقد الفريد ٥٤٣\*٥ (٢) الاغانى ٤\*٥ (٣) الحصري ٢\*٢٠١ (٤)

الاجانى ٦\*٥ (٥) قال ابن خلدون نقلا عن الخطيب ان الحمامات بلغ عددها في  
بغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة  
ومتقاربة تجاوز الاربعين ولم تكن مدينة وحدها بجمعها سور واحدا فراط العمران

والبرامكة الى تزينها بالبنائيات العامة حتى أصبحت الزوراء بجانبها كأنها  
البلد العتيق تجتمع محاسنه في جزء من محاسن المدينة التي أحدثت في جواره.  
ولقد اكبرت من بغداد بلوغ العمران فيها بما رأيت من ازدحام  
الناس بانحائها وتموجهم كالبحر في أرجائها يقال ان عددهم يزيد عن  
أثنان وخمسمائة ألف (١) وهذا جمع لم يكن مثله ولا قدر نصفه في  
مدينة من العالم قط فانما يدل اجتماع الناس الى هذا القدر العظيم على أن  
ليس في المدن أيمن (٢) ولا أيسر من الموضع الذي يتكوفون فيه تكوف  
الرمال . ثم أعظمت بلوغ النعيم في أهلها بما رأيت من توفر أرباب  
الغايات عندهم من الفنون التي لا تقتصر الحاجة منها على ضروريات  
العمران وانما تتوسع المنفعة من صناعتها ومصنوعتها الى مطالب الترف  
الذي يقع في الامم عند استكمال دولتهم واستفحال أمرهم .

وانه يتعذر على بهذا القلم الذي لامادة فيه أن أصف مفاخر المدينة (٣)  
التي أقل ما تصيبه من الشرف أنها تزهو بيهاء السلطان . وتضم اليها من  
عيون الاعيان ما ان اتى السائر منهم جماعة في الطريق لم يفتن لهم من  
حيث الكثرة مع أن أقلهم في الثروة والجاه يتعذر على اكبر المدن  
أن تحمل سكانها وتسع جنده وغاشيته والطامعين اليه من كافة الوجوه (٤)

(١) في الاثليدي انهم ألف ألف وخمسمائة ألف (٢) ابن الاثير ٩٦\*٦

وابو الفداء ١٩\*٢ (٣) يقول الحصرى ان أدباء العصر يصفون الجمال بقولهم

كان بغداد مسروقة من حسنه وظرفه (٤) الاغانى

فلقد يمشى أهل النعمة فيها بالعلمان (١) والحاشية الى عدد يتوهمه السامع بعيدا عن الصدق فشاهدت في محلة العتايبة (٢) أميراً قد ركب في مائة فارس وأحرق به العلمان حتى ملؤا الطريق وسدوا على الناس سبيلهم الى أن مر وشاهدت في مشرع القصب (٣) على دجلة فتى من أهل النعمة قد سار بموكب عظيم من الخيل والرجل كأنى به تيصر على مركبه أو كسرى في جلال موكبه . وربما عدّ المحصى في ولد العباس أكثر من ألف رجل (٤) يركبون بمثل هذا الجمع وكلهم في سعة من الثروة وتترف من الحضارة . وانما ساد العمران عند البغاددة الى حد الترف تشبها بما يرون من الرشيد في اقباه على الدنيا بطلب النعيم حتى يصدق المثل الذى يقول « الناس على دين الملك » فهو الذى ألبس الدنيا هذا الجمال بسعة عطائه ولم يسمع عن اخلفاء من كان أسمح منه ببذل المال . (٥) يقال انه ينفق على طعامه في كل يوم عشرة آلاف درهم (٦) وربما اتخذ له الطباخون ثلاثين لونا من الطعام (٧) وقد أخبرنى أبو يوسف أنه لما بنى بزبيدة بنت جعفر اتخذ وليمة لم يسبق مثلها في الاسلام وجعل الهبات فيه غير محصورة حتى كان يهب أواني الذهب مملوءة بالفضة وأواني

(١) الاغانى ١٠٤\*٤ و ٨٤\*٥ وابن الاثير ١٤١\*٥ و ٢٣١ والمستطرف  
 (٢) ذكرها ابن خلكان ٧٤١\*١ (٣) ذكره ابن خلكان ٧٩\*١ (٤)  
 فى مروج الذهب ٢٥٩\*٢ أن المأمون أحصى ولد العباس سنة ٢٠٠ فكان عددهم  
 من رجال ونساء وصغير وكبير ثلاثة وثلاثين ألفا (٥) الفخرى ٢٣٠ والخميس  
 ٣٣١\*٢ (٦) المسعودى ٣٤٢\*٢ و ٢٢٠ والمستطرف ٣٤١\*٢



الفضة مملوءة بالذهب ونوافج المسك وقطع العنبر (١) وبلغ جملة المنفق فيها من بيت المال خمسة وخمسين ألف ألف درهم وأمر أن تجلى زبيدة في درع من الدر لم يقدر أحد على تقويمه بثمن وزينها بالحلى حتى لم تقدر على المشى لكثرة ما عليها من الجواهر وهذا شئ من الاسراف لم يسبق إليه أكاسرة الفرس ولا قياصرة الروم (٢) ولا صبية الامويين مع ما تقبلوا فيه من المال الكثير .

ومن جمال الدنيا في هذه الايام ان الرشيد لا ينفرد وحده في كثرة الانفاق والتبذير فان زبيدة زوجه تصنع أعمالا تفوق مقدرة الملوك كمثل اصطناعها بساطا من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الاجناس وصورة كل طائر من الذهب وأعينها من يواقيت وجواهر يقال انها أنفقت عليه نحو من ألف ألف دينار (٣) وكمثل اتخاذها الآلة من الذهب المرصع بالجواهر والثوب من الوشى الرفيع يزيد ثمنه عن خمسين ألف دينار والقباب من الفضة والابنوس والصندل عايتها الكلايب من الذهب الملبس بالوشى والديباج والسمور وأنواع الحرير وكمثل اتخاذها

(١) السيوطي والعقد الفريد وتزيين الاسواق والمقدمة (٢) وجدت في بعض الكتب أن المأمون بن الرشيد اتخذ في تصوره ثلاثة آلاف وثمانمائة بساط منها ألف ومائتان مزر كشة بالذهب وغيرها مطرز بالحرير واتخذ سبعمائة خصى منهم ثلاثمائة عبد أسود فان صححت الرواية فليس لذكر ترف الروم ولا الفرس موضع في جانب العظيم من ترف العباسيين (٣) المستطرف ٩٨٥١ وذكر ان التي صنعتها هي ام المستعين

شمع العنبر واصطناعها الخف مرصعا بالجواهر واتخاذها الشاكرية من الخدم يختلفون على الدواب في جهاتها ويذهبون في حوائجها ورسائلها (١) الى غير ذلك من الامور التي تدون في سير الملوك لتعظيم موضعهم من السلطان وذكر ما تقبلوا فيه من الطيبات .

ولم أر مثل هذا الترف في غير دور الخلافة الا عند البرامكة الامجاد واليهم ينتهي جمال الملوك واشراقهم فاذا عزموا على الركوب جالس الناس لهم حتى يروهم اكثر مما يجاسون للخليفة . ولقد رأيت بعض صبيتهم يباب محول من الجانب الغربي (٢) في موكب عظيم وقد طرز في ملبسه وبين يديه الجند والغلمان . والحفد والاعوان . وهو واضع طرفه على معرفة فرسه والناس ينظرون اليه وهو لا يلتفت اليهم كبرا وجلالة وكان الرشيد نفسه اذا حضر مجالسهم وهو بين الآنية المرصعة . والخزائن المجرعة . والمطارح من الوشى والديباج والجواري يرفلن بالحرير والجواهر ويسقبنه بالروائح التي لا يدري ما هي لطيبها خيل له أنه في الجنة بين الجمال والجواهر والطيب .

وقد انتهى ترف شبابهم الى الغاية التي لا وراء بعدها من التمتع بسعة النعيم وربما كانت مجالس الطرب في دورهم أجلّ منها في دار الرشيد واجمع لمعدات اللهو (٣) لان عندهم الغواني (٤) اللواتي ليس

(١) السعدي ٤٠٢\*٢ (٢) ذكره الاغانى ٧٨\*٦ والسعدي ٢\*٢٣٧ (٣)

الاغانى ١٤١\*١٥ (٤) الاغانى ١٥٠١٤١

مثلهن في البلاد ولا سيما فوز وفريدة (١) ومنية (٢) وهن أظرف  
القيان غناء وأحسنهن ضرباً بهود .

واعلم أن الغناء من قبل البرامكة ما كان يعلم في دور الامراء لغير  
الصفير والسود (٣) فلما نشأ اولادهم أحبوا أن يعادوه للجوارى الحسان  
(٤) ليزيد جمالهن في الغناء تأثيراً على النفوس . وقد أخبرني نافذ من بعض  
حجابهم انه لما زارهم الرشيد في يوم من أيام لهوّه أخرجوهن الى البستان  
فاصطففن أمامه مثل العساكر صفين صفين وغنين له وضربن بالعيدان  
وتقرن على الدفوف الى أن طلع الى مقاصير القصر .

فهذا شيء من الترف لم يصل اليه غيرهم من الامراء سوى ما بلغني  
(٥) عن بعض نساء بني هاشم انها عشقت المأمون من اولاد الرشيد  
فاستدعته اليها وقد أعلمته أنه يصطاد عندها صيداً لم يصطد الملوك مثله  
فأدخلته في قصرها بستاناً زينته بأفخر أنواع الزينة واتخذت فيه ألوان  
الطيور القمريّ والفاخت والحزار والشجور والطاووس وغيرها وقد  
كانت زينت مائة جارية من الابكار وكاهن آية من آيات الحسن والجمال  
وقد اتخذن في أوساطهن مناطق من ذهب وأمرتهن أنهن اذا رأينه تبادين  
بين الاشجار فلما دخل المأمون البستان ووقع عليهن نظره اختبأن وراء  
الاشجار وتوارين في ظلال الكرم المعرّش بين الرياحين والريمان فأعجبه

(١) الاغانى ١٨٣\*٣ (٢) الاغانى ٨٧\*٤ (٣) الاغانى ٩٥٥ (٤) الاغانى

١٤٥٥ و١٧ (٥) الاتليدي ٢٢٥

ذلك منهن وقضى معهن يومه في أطيب اللذات . وأهناً المسرات . وهذا غاية ما يكون من الانغماس في ملذات العيش ولا نعلم عن أحد من الملوك السالفة أنه نال من طيباتها ما هو موفور عندهم لو كنا في هذا الزمان فكان بغداد قد ألتت جوانبها على مهاد الدعة ووجدت لأهلها أسباب النعيم والكبر (١) بما توفر عندهم من المال .

﴿ ترف البغاددة وانغماسهم في طيبات العيش ﴾

يتوفر الترف عند العظماء من أرباب الدولة ثم ينقص شيئاً فشيئاً عند من هو أقل منهم في الجاه الى أن يبتى منه نصيب لعامة الناس . وهم وان لم يكونوا بموضع هؤلاء الملوك من جلاله قدر لهم واتساع نعمة عندهم غير أنهم أخذوا يمتعون أنفسهم من الطيبات في جميع وجوهها بعد أن تغربوا بالاسفار التي اكسبتهم التجارب وأرتهم العجائب . وأوجدت لهم التجارات والمكاسب . فصار الناس من الجهات يقصدونهم بأفخر ما عندهم من جميع الاجناس الى أن عمرت عندهم الاسواق وتطرقوا من التماس الحاجات لضرورة العمران الى اقتناء الاشياء للزينة والمباهاة كابتاعهم السلاح المنزل بالذهب وتنافسهم في الجواهر الثمينة والآنية المزخرفة والمتاع الفاخر واقتنائهم العدد الكثير من العلمان والقيان الى غير ذلك مما كانوا يوجهون رسلهم في طلبه من الجهات

(١) ذكر ابن جبير ٢١٩ الكبر من عيوب بغداد

(١) فلما حمل اليهم كل غال ونفيس من البلاد. تحقق لدى أن محاسن الدنيا قد اجتمعت في بغداد

ولقد شهدت سوق الجوارى بعيد عودتى من خراسان وقد أقيمت في الموضع المعروف بسوق النخاسين (٢) وهم الرجال (٣) الذين يجلبونهم من أطراف الدنيا الى بغداد فرأيت فيهن الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات والعربيات من مولدات المدينة والطائف واليمامة ومصر ذوات اللسنة العذبة والجواب الحاضر. وكان يبنهن من الغانيات الآتى يعرفن بما عليهن من اللباس الفاخر الذى لا غاية بعده (٤) وبما يتخذن من العصائب التى ينظمنها (٥) بالدر والجوهر وبكتبن عليها بصفائح الذهب. كلاما يحلو لأهل الطرب. فرأيت على بعض المصائب « وضع الخد للهوى عز » ورأيت على بعضها « من كان لنا كناله » (٦) ورأيت فى صدر جارية هلالا مكتوبا عليه.

أفلت من حور الجنان وخلق فتنة من يرانى  
وقرأت فى عصابة أخرى.

ألا بالله قولوا يارجال أشمس فى العصابة أم هلال  
ولقد يخال الناظر لأول وقوفه بهذه السوق أن يبعين انما هو جار عليهن من قبيل الظالم والاسترقاق غير أنه لا يستقر فى هذا الوهم الطارىء بعد

(١) ذكره تزيين الاسواق ٣\*١ (٢) الاغانى ١٢٨\*٩ (٣) الاغانى

١٢٦\*٥ (٤) الاغانى ١٧٥\*٢ والعقد الفريد ٤٣٩\*٣ (٥) الكنز ٤٧

أن يرى تطارحهن على أهل النعيم. ولقد سمعت أن بعض الغواني المترفات يتخلصن سرا من حيث لا يحبين المقام ثم يأتين السوق متواريات عن عيون الرقباء الى أن يقع سوقهن على أحد من الناس ومواليهن بهن غير عالمين فيتصرف النخاسون في بيعهن مثل تصرف التجار ببيضائهم وإذا وقع سوقهن على رجل قبض بيده على يد النخاس كما هي العادة المألوفة في البيع والشراء. ولقد وقفت في ذلك اليوم والدلال ينادى بمن حوله من الراغبين ويصف لهم الجارية بعد الجارية بأحسن ما يكون من أوصاف الجمال (١) وكانت الضوضاء مرتفعة والسوق رأجة والعيون تتبادل الحديث وتنبئ بما في ذات الصدور.

أعود الى ما كنت بصدد من ذكر البغاددة في ترفهم المفرط فاني رأيتهم يزنون مجالسهم بالفرش الفاخر والمتاع الثمين ويلبسون حيطانها بالوشى والدباج ويعنون بغرس الزهور في جنانهم حتى انهم ليجلبون لها الرياحين (٢) من بلاد الهند فيصير من هذه الجنان ما يقوم ثمن البستان الواحد بعشرة آلاف دينار (٣) ويتخذون خولهم وغلماهم من أخراف الناس وأخفهم نشاطا ويميلون الى اللهو والطرب بما قد ذكرت من اقبالهم على اقتناء القيان ويتفننون في ملذات الطعام الى ان يشتروا الصيد في غير أوانه والثمار في غير اوانها بما يزن مثله فضة ويتمعون بالذوق في غير طعامهم

(١) الاغانى وحياة الكميت (٢) ياقوت ٦٨٧\*١ والمسعودى ١٨١\*١ (٣)

بما يعضفون من الطيب وورق التببول الهندى الذى يمزجونه بالنورة  
المبلولة مع الفوفل لتطيب النكهة وتشبيهة الاكل واحداث الطرب  
والاريجية فى النفس (١) ويتخذون مقاعدهم فى اوان الحر بين الماء المتدفق  
من صور السباع واشكال الطيور وأشكال التفافيح وغيرها مما ينقشون  
فى الرخام فاذا ما أصابت الاجساد منها الرطوبة الوافية بترويح النفس  
اتخذوا فى السقوف مزواح (٢) يعملون لها حبالا تجرّ بها فيجذبونها  
فيهب عليهم النسيم البارد ويستجيدون فى اللباس والزينة وركوب الخيل  
بالديباج والحلية الثقيلة من الفضة الى الغاية التى لم تبلغها الامم المترفة من قبلهم.  
ولما توسعوا فى الحضارة الى حد الافراط وقع فى شبانهم مرض  
من الانهماك فى الشهوات . والاسترسال فى المذات . كالذى عهدنا وقوعه  
فى الفرس والروم واليونان عند ما استفحل فيهم العمران وبلغوا أقصى  
درجات القدرة والسلطان . وهؤلاء الشبان يعرفون بالمختشين وهم زينة  
بغداد المترفة فى حسن أزيائهم (٣) ورقة كلامهم وظارف معاشرتهم (٤)  
وسرعة خاطرهم الى النكات (٥) الغريبة وهم يخرون ثيابهم ويتمسكون (٦)  
ويابسون الحلال مصقولة (٧) واذا لم يكن بين أيديهم من المال ما يمكنهم  
من الثوب الذى يبلغ مائة دينار (٨) ثمننا اكتروا ثيابا بالاجرة عن كل

(١) المسعودي ١٠١\*١ (٢) الكشكول والاغاني ٩٩\*١١ والعقد ٢٣٥\*٣

(٣) الاغاني ٥٩\*٤ (٤) الاغاني ١٢٨\*٣ و ١٥\*١٧ (٥) الاغاني ١٢٨\*٣ (٦)

الاغاني ١٥٤\*٧ (٧) الاغاني ٣٩\*٤ (٨) الاغاني ١١٥\*٣ والمستطرف ٣٥\*٢

يوم درهم ودرهمان (١) فيأبسونها أياماً ثم ينتقلون الى غيرها . ورأيتهم يجتمعون في جنان النزهة سفيراً حيث يقيمون الغناء على انفراد من الناس وهي جنان (٢) قد أنشئت في محلة الكرخ واتخذ فيها حوانيت تخزن فيها النقول ويهياً فيها الطعام لمن يريد من المتزهين . يقول بعض أهل اللهو في ذكرها على سبيل الصباية اليها .

سقى الله باب الكرخ من متزه الى قصر وضاح فبركة زلزل مساحب أذيال القيان ومسرح السحسان ومثوى كل خرق معدل وربما كان في هؤلاء المخنثين قوم فسقة (٣) يلتمسون من الم لذات ما فيه خروج عن الشرع كمثل أن يشربوا الخمر ويطلقوا المنازل بالليل (٤) ويسرّحوا العجائز (٥) في طلب المتنفقات من ربات الحدود وقتاً أخذ الشرطة منهم من تطول اليهم يدها ثم تضربهم الحدود بالسياط فيتجددون تحتها يقال فلان صبور (٦) من الفساق وكذلك الرخاء يتسلط عليه مرض من انهماك أهله بالم لذات وما العفة الا من عند الله يهبها للمتقين من عباده وهو العليم الحكيم لا رب سواه .

﴿ دخولى على هرون الرشيد ﴾

لقد ذكرت لك عن بغداد باليسير من الكلام ما فيه دلالة على

(١) الاغانى ١٧\*٣٤٤ العقد الفريد ٣٤٥ والاغانى ٣\*٥٨ و ١٣٣ و ٢٥\*٥٥ و ٦٦\*٦٦  
 و ٢٤\*٩٥ و ١١٣ و ٣ ذكرهم ابن الاثير في حوادث سنة ٢٠١ وانهم كانوا يقطعون  
 الطريق ببغداد (٤) المقدمة (٥) الاغانى ٥\*١١٩ (٦) الاغانى ٤\*٦٤ والمستطرف ١\*١٠



عظيم ما صارت اليه في هذه الايام فاكتب الآن اليك ما يأتي به القلم  
 عن دولة الرشيد وما يقابني به من جميل الماطفة والاحسان فاني مضيت  
 الى داره في غد اليوم الذي وصات فيه الى الحضرة فأصبت ابن البواب  
 جالسا في حجرات الحجاب وهو الذي يخلف الفضل بن الربيع على  
 حجابة الخليفة (١) فلما رأني أوسعني سلاما وتحية ثم جاوزني الى قصر  
 الرشيد وهو قصر بناه (٢) لنفسه تجاه دار الضيافة (٣) من دور الخلافة  
 وقد استجاد فرشاه وأفرغ العناية في تجميله بأفخر أنواع الزينة وأقام فيه  
 الاساطين التي يصطف بجوانبها الغلمان (٤) وقد بناه على دجلة بحيث  
 يسمع صوت الذين يعبرون في الزوارق (٥) وكثيرا ما كنت اذا زرته  
 بعد ذلك أصبته جالسا الى الشباك يستمع غناء الملاحين في الزلاجات (٦)  
 فلما دنوت منه بادرت الى يده فقبلتها فضمني اليه بالتحية والسلام . وأقبل  
 يلاطفني برقيق الكلام .

وكان الرشيد طويلا عبل الجسم أشقر اللحية عليه مهابة الملوك وجلالتهم  
 (٧) وعيناه وقادتان كأنهما لسانان ناطقان فاذا أصنيتي لمتحدث بين يديه  
 حوطة يبصره حتى لا يجد سبيلا الى أن ينطق في حضرته بغير صدق .

(١) الاغانى ٤٢\*٢٠ (٢) الاغانى ٣٣\*٥ (٣) قصر من تصور الخلافة  
 ذكره الاغانى ١٣٣\*٦ (٤) الاغانى ٧٦\*٦ و٣٣\*٥ (٥) الاغانى ٦٧\*٩  
 (٦) الاغانى ١٧٧\*٣ (٧) العقد والحاميس والسيوطي وابن الاثير

فلما وقفت بين يديه أمر الفراش (١) أن يأتي بما أتسكى عليه (٢) وهذا  
 تعطف من الخليفة لا يكون الا للبرامكة وأبي يوسف وجلة المشايخ من ولد  
 العباس. ثم انه استدانني (٣) اليه واخذ يحادثني بما يستعذ به من ماجريات  
 صباه ويحفظ. لي بنفسه من جميل الذكر وأنا أجييه على ذلك بما تقتضيه  
 جلالة الخلافة الى ان ذكر لي حديثه عن خراسان فاخبرته عما كان  
 هناك من الاختلال . وان الفضل رثق الفتق الذي دبره اهلها بالحمال .  
 واطلق يده فيهم بالضرب والنكال . وكنت عند ما ذكرت ذلك قد  
 بادرت الى سيفي كما جرت العادة بأن لا يكلم الخليفة احد بما فيه الوهن الا  
 بادر الى سيفه (٤) تعظيما للامر وقياما بواجب الاجلال . فقال سبحان  
 الله لقد أوصينا الفضل بهم خيرا لأنهم محبوبون لنا (٥) وهم سيوف دعوتنا  
 وانصار دواتنا ومن لهم علينا حق الدالة بنا وحرمة الوسيلة عندنا فقلت  
 يا أمير المؤمنين ان الفضل أخاك لم يمكن السيف في رقابهم الا بموافقة  
 القواد الذين اذا ماشاورهم في الامر وقع بالموافقة من نفوسهم استباحام  
 خوارج قد تراخت بهم الحال . وصارت فنتهم الى سوء المآل . فلما  
 ذكرت له ذلك اعرض عن الافاضة في هذا الحديث وأخذ ينكت الارض  
 بشيء في يده ثم قال وهذه مصالحة التجارة فما الذي يكتب اليها الفضل  
 عن لزوم حراستها بالجند فقلت له ان في خراسان تجارة تباع بالبخس الاثمان

(١) ذكره الاغانى ٦١٥٩ (٢) ابن الاثير ٣٨٥٦ والاغانى ٢٣٥٥ و ٦١٥٩

(٣) الاغانى ١٠٦٥٥ (٤) الاغانى ٥٩٥٥ (٥) العقد الفريد وابن الاثير ٧٥٦

فاذا أمن السابلة عليها من العربان جلبوا خيراتهم الى العراق واتجروا بها  
مع أمم البحر فقال حسن ولكن لنا أعداء ينبغي أن نكون منهم على حذر  
ولا نرفع عنهم سيف الاسلام ونحن ساهرون عليهم ومرتبون لهم  
بالجند اذ لا بد للراعي من حراسة الرعية (١) ولقد يكفي التجار ما أمنا  
لهم من السبل في غير الديار العران . وما احتفرونا لركبهم من الركايا  
وأوجدنا لهم من المناهل في البلدان العامرة التي نحب أن تكون سوق  
التجارة فيها دارّة وأما تجار خراسان وما اليها من البلدان النائية فانا  
لا نحسب زكاة أموالهم كافية لمصلحة الجند ووافية بأرزاقهم .

وكان الرشيد على مهمة هذه المفاوضة عنده يقطع حديثه مرة بعد  
مرة . ثم يقبل على نفسه بالتأمل والفكرة . فأوهمت أنه يرى فيها مسألة  
تنقبض نفسه دون بسطها الى فاذا الامر على خلاف ذلك وانما كان  
مشغول الخاطر بما أقلق أباه قبله من أمر الولد وإيثار بعضهم على بعض  
بالخلافة (٢) فانفق وأنا بالخلوة معه أن دخل عليه خادمه العبد ففرسه  
الرشيد وقال له ما وراءك يا مسرور فقال ما تحب يا أمير المؤمنين ثم قام  
مقامه الذي كان اذا قامه علم الرشيد أنه يريد أن يساره بشيء (٣) فأوماً  
اليه بالدنو فالتى في أذنه كلاماً ثم تنحى فقال لي الرشيد هذا خادمنا  
الامين نرتاح اليه في الاسرار والمهمات لم يحدثنا جوراً بحضورك ولكنه

(١) قالها الرشيد وذكرها الوطواط ١٠١ (٢) ابن الاثير ٦٨٥

(٣) الاغانى ٣٣٥

سارنا في أمر مما أخذنا في تقديم المأمون على الأمين بالولاية لانا نرضى سيرته ونأمن ضعفه (١) ونعرف فيه حزم المنصور (٢) ونسك المهدي وعزة نفس الهادي مع أن بني هاشم يميلون الى الأمين وأنشد (٣) أخاف التواء الامر بعد استوائه وأن ينقض الحبل الذي كان أبرما فلما رأيت بلوغ القلق في نفسه من هذا الامر تقدمت اليه فيما تقدم يحيى الى أبيه (٤) والفضل اليه (٥) من مبايعة الولد بعد الآخر مع علمي بأن ذلك أمر لا يجرى فيه الوفاق ولا يتم على الوجه الذي يريده الرشيد بعد مارأينا من العباسيين تطاولهم في أمر الخلافة وتقضهم اليهود التي كانوا يكتبونها على نفوسهم في حدود الله والآدميين . فهذا أبو جعفر (٦) لما رسخت دولته ومضت في الناس كامة لم يجد من نفسه رادعا له عن البغي فخلع ابن عمه من الولاية وصيرها الى المهدي من بعده فلما ولي المهدي بحيلة الربيع وأخذ في استمالة الناس بما فرق فيهم من المال لم يجد منهم عند اظهار أغراضه فيهم الا المتابع له والموافق على خلع ابن عمه كما علمت . ثم لما صارت الخلافة الى الهادي وفي أعناق المسلمين المبايعة للرشيد بعده أراد أن يخلعه (٧) عنها ويصيرها الى جعفر من أولاده

(١) المسعودي ١٥٠٢ والمستطرف ٩٣\*١ (٢) الاغانى ٨٠\*١٧ (٣)

الخصري ٤٩\*٢ والمستطرف ٩٣\*١ (٤) المسعودي ٥٢١٥\*٢ (٥) الاغانى

٧٨\*١٧ وابن الاثير ٤٣\*٦ (٦) ابن الاثير ٥٨\*٦ وأبو الفداء ١١٠٢ (٧)

لولا ما أجراه يحيى رعاه الله من الدراية والحيلة المباركة كما علمت بعد  
الآوبة من خراسان .

وانما كان المأمون أحق بالولاية من الأمين لانه أكبر منه بأيام وان لم  
تكن أمه هاشمية مثله فلو صارت الخلافة الى من هو أصغر منه وهو  
حاضر لم يصبر على ذلك فكان يحسب الرشيد من تقديم الأمين عليه  
بالولاية وقوع الفتنة بينهما وزوال الخلافة عنهما جميعا الى الواقفين لها  
من أهل البيت أو الى من كان أقرب الهاشميين الى استخلاف أبي العباس  
فان عم عم الرشيد الى ثلاثة أعمام حاضرون فعبد الصمد بن علي عم  
العباس بن محمد والعباس عم سليمان بن المنصور وسليمان عم هرون (١)  
فهؤلاء هم المرتقبون للخلافة والواقفون لها بالمرصاد فلا يسع الرشيد  
مخالفتهم في تقديم المأمون على الأمين وانما يرجع الى الرأي الذي  
تقدمت به اليه فتطمئن نفسه من بقاء الخلافة في بيته ومصيرها الى من  
يحب (٢) من أولاده

#### الموازنة بين الرشيد وأبي جعفر

هذا فصل أفردته لذكر سياسة الرشيد وبيان الموازنة بينه وبين  
أبي جعفر (٣) ان صحت المقابلة بينهما فاني لم أجد في الملوك من جمع

(١) العقد الفريد ٥٤٠٣ (٢) وهو المأمون عبد الله

(٣) أجمع المؤرخون على ان الرشيد كان يقتنى سيرة جده في السياسة ويطلب  
العمل بآثاره

فنون السياسة الى عقل الملوك وفضلهم (١) وحكمتهم ودهائهم مثله  
تجتمع محامده في قربه من الخير وبعده عن البغي الذي كان طبيعة في أبي  
جعفر وبعض العباسيين حتى اذا صار اليه الامر كان أول ما أصدر من  
الامر أن تعاد الى الناس الضياع التي اغتصبها آباؤه وترد الاموال المغصوبة  
الى أهلها في جميع النواحي والامصار (٢) فلو لم يكن له من المآثر غير هذا  
لكفى الناس فرجا ورحمة واسعة بعد ما شملهم من المكروه في خلافة  
أبي جعفر وما استمر عليه المهدي من حفظ الضياع المقبوضة عنهم  
اما لطمع في استغلالها واما استصوابا لسياسة أبيه حتى لا يقال عنه انه  
ظلم العباد في أموالهم

ثم يصح تفضيل الرشيد على أبي جعفر بما هو آخذ في سياسته من  
الصدق وحفظ المودة ومكافأة المحسنين على احسانهم حتى انه ليزيد عماله  
تجالة كلما عظم قدرهم واستفحل في الاسلام ملكهم فهذا روح من أمراء  
آل المهلب لما عظم في الدولة أمره ودانت الرقاب المتطاولة له أفرغ النعمة  
الواسعة عليه وجعل الولاية من بعده ارثا في ولده وكذلك ابراهيم من أمراء  
الاغالبة لما تمكن سلطانه من أهل المغرب أمره على افريقية الى أطراف  
الثغور وجعل له الولاية في بيته ليكون ممتعا على العدو وكفيلابرد  
الفرنجية الى ماوراء البحر . وهذا أمر يدل على الحكمة التي فيها مصلحة  
الملة وان كان وراءه من استقواء الاغالبة خوف ما كان لا يصبر على مثله

أبو جعفر مع ما عرفت له من التيقظ وسوء الظن بالعمال فان كان المنصور  
يحتال للامر حتى لا يتبع فيه فان الرشيد يحتال لما يقع في يومه من الامور  
على وجه يكون فيه توطيد الدولة وتعزيز الاسلام

ولقد سمعت من يقول في مجلس المراوأة ان الرشيد يقتنى سيرة  
جده في السياسة وذلك مردود عندي من حيث امتناع المماثلة بين الحلم  
والظلم والا فان كان الرشيد يمضى بالعدل احكامه ليستميل الناس بالاحسان  
اليهم حتى لا ينصرفوا عن طاعته كما كان أبو جعفر يأخذهم بالعسف حتى  
لا يستطيعوا مغالبتة فما الغاية المقصودة من سياستهما الا واحدة غير ان  
سياسة الحلم خير من سياسة القتل والظلم اذ يكون لصاحبها من دالة الرعية  
غبطة يحرمها البغاة الذين في نفوسهم مرض من الظلم اذ يحجبهم عن  
رعيتهم ستر الخوف ثم يقتلهم استنكار من حولهم من الناس والاشياء كما  
تقدم في الكلام على أبي جعفر .

أما سياسة الرشيد مع أهل البيت ففيها خروج عن العدل لاستمراره  
على ظلمهم في حقوق الذرية وان لم تكن مجرأة على مارسم أبو جعفر من  
تبعهم في كافة الوجود فانما كانت تختلف عنها بما تختلف فيه السياستان  
بين اللين والعنف . ولقد كنت أسير الرشيد في بعض الايام فتال لي  
بلغنى أن العامة يظنون بي بغض على بن أبي طالب فوالله وتربة أمير المؤمنين  
أبي انى ما أحب أحدا حبي له ولكن هؤلاء ( يريد آله ) أشد الناس بغضا  
لنا وسعيافي فساد دولتنا بعد أخذنا بثارهم من بنى أمية ومساهمتنا اياهم

ما حوينا حتى أنهم أميل الى بنى أمية اليوم منهم الينا . فكنت في ذلك الوقت  
 بعيداً عن الوثوق بصحة هذا الايهام ولكن ظهر لي بعد ذلك انه لا يروم  
 اقصاءهم الا على غير مكروه يصيبهم وأنه لو قدر أن يرفع عنهم الضيم  
 الذي يلحقهم من جور العباسيين وهو موقن ببقاء الخلافة في يده من غير  
 منازع له فيها لفعل وطاب بذلك نفساً فلقد علمت أن المكروه الذي ألمَّ  
 يحيى بن عبد الله بن الحسن انما كان بسعاية ائامه من العباسيين الذين  
 لم يسعه مخالفتهم وهو بموقف يخاف منه الفتنة . وكذلك مقتل موسى  
 ابن جعفر الامام لم يقع من نفسه برضاه لانه لم يكن متهما في بدعة ولا  
 ذنبنا على دخلة مكروهة ولما قتلوه في حبسه اظهروا انه مات حتف  
 أنفه ومشى الرشيد في جنازته الى باب التبن حيث مقابر قريش فويق  
 نهر عيسى الهاشمي فكنت احيط به في ذلك اليوم مع البرامكة فسمعت  
 يترحم عليه ويظهر براءته من دمه غير ان تغاضيه عن هذه المؤامرة  
 وان هو لم يدخل فيها غرر يسئل عنه يوم الحساب لانه يجب على خلفاء  
 النبي صلى الله عليه وسلم ان يتبعوا سنته التي هي العدل ولا يتسامحوا في  
 قتل الابرار الذين هم ذريته الصالحة وسلالته الشريفة رضى الله عنهم  
 اجمعين .

هذا ما صحت فيه الموازنة بين سياسة الرشيد وابي جعفر الى الغاية  
 التي يرجونها جميعاً من تأييد الدولة بها وان لم تتوافق اليها السبل وقد  
 وجدت للرشيد اعزه الله فضلاً في تدبير المملكة احق بالثناء الجزيل .



وابقى للذكر الجميل . مما رأيناه لابي جعفر غفر الله له بما ينال الرشيد من المشقة في ركوبه الى اطراف المملكة اتفق دثغورها والنظار في تظلم الناس من ثقل يقع عليهم في الخراج أو ضيم يلحقهم من جور العمال . فاذا صار الى البلدان العالية مما وراء خراسان حيث لا يعرف اللسان العربي اخذ التراجمة (١) معه حتى لا يفوته شيء من امر الرعية فهو يحج سنة ويعزو سنة كذلك عادته من يوم ولى اخلافة (٢) قال الشاعر يمدحه على بعد هذه المهمة منه (٣)

فمن يطلب لقاءك أو يردده      فني الحرمين أو أقصى الثغور  
وقال الآخر (٤)

ألف الحج والجهاد فما      ينفك عن غزوتين في كل عام  
وربما رام في أسفاره أو بالزوراء أن يعرف ما يدور بين الناس من الاحاديث والاخبار فيتخني في زى التجار (٥) ويطوف الاسواق مع جعفر وزيره ومسرور خادمه للاستطلاع على ما لا يصل اليه خبره من أمر السوق والموام فنجم عن عنايته بهذا الامر كثير من الفوائد

(١) المقرئى ١ \* ٨ (٢) هو أمر معروف تجده في كتب المؤرخين وزاد في العقد الفريد على ذكر حجه ماشيا انه لما مشى الى مكة ومشيت معه زبيدة كانت تبسط الدرانك أمامهما وتطوى خلفهما (٣) أبو الفرج والحميس ٢ \* ٣٣١ (٤) فوات الوفيات ٢ \* ٣٩١ (٥) الاغانى ٦ \* ١٣٧ والاتيدي ١٢٦ والاسحاقى ٩١

التي صلحت بها دولته ورعيته جميعا فقد قال جعفر أعزه الله انا ما ضبطنا  
بعداد بالشرطة ولا عيننا بتقدير الاوزان وتميز المغشوش من السكة  
الابما وجدنا من الاختلال في تطوافنا بين الناس .

البرامكة نكتة محاسن انملة وعنوان دولتها

وهذه السياسة التي باشرها الرشيد انما هي باشارة البرامكة الذين  
رفعوا منار الاسلام (١) بصلاح مشورتهم اليه في أمور الخلافة ولذلك  
صير اليهم النيابة في الدولة (٢) والنظر في ديوان الحسبان والترسيل لصون  
أسرار الدولة وحفظ اللسان في بلاغتهم بعد أن فسد عند الجمهور من  
أهل الامصار بعض الفساد (٣) فصار جعفر يسمى بالسلطان اشارة الى  
عموم نظره في عموم الخلافة لان الخطط كلها بيده الا الحجابة لم تكن  
له لاستنكافه عنها بما أن صاحبها يقف بالوفود عند الحدود في تحياتهم  
وخطبهم والآداب التي تلزم في الكون بين يدي أمير المؤمنين (٤)  
وذلك مما ينزه نفسه عنه وهو بالموضع الذي علمت من جلاله القدر  
والقيام بسياسة الدولة .

ولقد كان يحيي أعزه الله قائما بأود الوزارة من قبل وهو الذي قلد  
الرشيد الخلافة بحكمته ودرايته (٥) حتى اذا استوثق له الامر قال له

(١) العقد الفريد ٢٧٥٣ (٢) المقدمة ٢٠٧ (٣) المقدمة ويتضح ذلك

من كتب الذين دونوا اللثة في أيام الرشيد (٤) المقدمة ٢٠٧ (٥) ابن الاثير  
والفخزى والطبري

أنت أجلسني في هذا المجلس بيمينك وبركمتك وقد قلدتني الامر يا أبت  
ثم دفع اليه خاتمه وقلده أمر الرعية بأن يحكم بما يرى ويعزل من يرى  
ويستعمل على الولاية من يرى وفي ذلك يقول ابراهيم الموصلي النديم (١)  
ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما أتى هرون أشرق نورها  
تلبست الدنيا جمالا بملكه فهرون واليها ويحي وزيرها

فكانت سياسة هذا الشيخ المبارك منصرفه الى تقويم الدولة في المشرق  
حبافى الرشيد أن تعظم في الاسلام صولته على حين لا يحرم أهل البيت  
من قيام ما كهم فيما وراء البحر مع ما يكون في ذلك من حقن الدماء  
الظاهرة وسلوك السنن الشريفة فأنتج له حسن نظاره ان يطوق امر  
الجند الى غير العرب الذين لا يتدرون بنفوسهم على كبح عنان الثائرين  
من اخوانهم بما يكون بينهم من الترابة والدالة فلقى دون بلوغ غرضه  
من هذا الامر صعوبة كادت تفضي الى الفتنة بما وقع من الضغائن بينه  
وبين يزيد بن مزيد (٢) وغيره من أمراء الجيش الا أن الرشيد كان على  
موافقته (٣) فيما يرى به مصاحته فاذا فتح الناس عايه باب الفرقة أرسل  
اليهم الفضل أو هرثة بن أعين (٤) فجبرا الوهى في أقل من طرفة عين

(١) السعودي ٢٠٧\*٢ وابن الاثير ٣٩\*٦ والاغانى ٤١\*٥ والمستطرف

٩٧\*٢ والانايسدي ٩١ والمحاضرة ١١٤\*٢ والسيوطي وابن خلدون (٢) ابن

الاثير ٥١٥\*٦ يذكر انحراف بني شيبان عن البرامكة كما مر (٣) المقدمة ١٥٩

(٤) راجع كتب المؤرخين

ثم استقال يحيى من الوزارة بعد أن أدركه الشيب ففوضها الرشيد  
الى الفضل ثم الى جعفر (١) بعده وعهد بالمراتب الى اخوته وأقاربهم  
(٢) وهم بمكان من الفطانة (٣) التي توارثوها مع المجدطرافاوتلادافقاموا  
بأود الوزارة وجمعوا اليهم مراتب السيف والقلم يقول سلم الخاسر (٤) في  
شرف الدولة بمحاسن عقولهم.

إذا ما البرمكي غدا ابن عشر فهمته أمير أو وزير

الا أنه كان منتهى نزارهم في السياسة (٥) الى جعفر هذا الساطان وهو  
حاضر الروية مؤيد البديهة جامع لخصال الخير مؤتمن على الاسرار بارع  
في مهمات الامور وليس في أهل الادب من هو أذكي (٦) ولا أفطن  
ولأعلم بكل شيء ولا أفصح لسانا ولا أبلغ في مكاتبة منه (٧) خلق جميل.  
وأصل نبيل . وعلم جزيل . وكان الرشيد يقدمه على الفضل بما يسرع في  
استنباط الحيلة لتدبير ما يطراً على المملكة من المهمات الصعاب كما يقول  
فيه الشاعر

وزير اذا ناب الخلافة حادث أشار بما عنه الخلافة تصدر

ووجدت في نفس الرشيد من الميل اليه بحيث أنه لم يكن له صبر على  
مفارقتة في ساعة من نهار أو ليل (٨) واذا دخل عليه أجلسه على سرير

(١) المقدمة والعقد الفريد (٣) ابن خلكان ٣٦١\*٢ (٤) المحاضرة

١١٤\*٢ (٥) العقد ٢٧\*٣ (٦) الوطواط ٢٤٩ وابن خلكان (٧) الاغانى

٨٥\*٤ والحصري ٣٧٥\*١ والعقد ٣٧٢\*١ (٨) الانليدى

الخلافة بجانبه وأجلس بني هاشم على الكراسي والوسائد (١) دونه وربما قدمه في المشورة على أحب أهل بيته إليه حتى أنه لا يعهد إليهم بولاية ولا يصلحهم بمال الأبرياء ورضاه. وقد وقع لعبد الملك بن صالح من كبراء بني هاشم (٢) أن الرشيد غضب عليه فقصد باب البرامكة فقال له جعفر أنت تقصدني فهل من حاجة تبلغها مقدرتي وتحيط بها نعمتي فأقضيها لك فقال عبد الملك بلى إن في قلب أمير المؤمنين عليٍّ ووجدته أحب أن تخرجها من قلبه وتعيد إليه جميل رأيه فيقال له جعفر قد رضيتك أمير المؤمنين وزال ما عندك منك قال عبد الملك وعليٍّ أربعون ألف دينار دينا قال هي لك حاضرة من مال أمير المؤمنين لأنني أجدك عن أن يصلحك بالمال غيره قال وابن إبراهيم تخاطبه فيه حتى يرفع الالوية على رأسه قال لتطب نفسك إن الرشيد قد ولاه مصر أو قال ماشئت من البلدان فانصرف عبد الملك وهو يتردد بين العجب من جعفر والاعجاب به حتى إذا كان الغد دعاه الرشيد وأمر له بأربعين ألف دينار وكتب سجل ابنه على مصر (٣) فهذا أمر يدلك على مكانة جعفر عند الرشيد وماله من المائة (٤)

(١) ذكر الوسائد يجلس عليها بنو هاشم بمجالس الخليفة الاغانى ٩٢\*٤  
 (٢) هو من القواد الذين غزوا الروم وقد عقد الفداء مع تقفور في الالمس على جانب البحر على اثني عشر فرسخا من طرسوس واسترجع من أسرى المسلمين ثلاثة آلاف وسبعمائة. ابن الاثير ٥٧\*٦ (٣) الاغانى ١١٩\*٥ والنخري والابشيهن ١٩٢\*٢  
 والعقد الفريد ٣٤\*٣ والاتيدي ١٦١ وابن خلكان ١٥٢\*١

المرعية والشفاة المقبولة عنده بحيث انه يضمن عنه ضمانات لا يجد بدامن  
وفائها كما يدل على أن مشاركته في الملك لا تقف على حد السياسة فيما بيديه  
له من رأى جميل أو تدبير حسن وانما يتناولها في اكثر الاحيان بما  
بينهما من الدالة التي ليس مثلها بين الاخوان (١) فـأذكر أنى رأيت  
الرشيد في مجلس يطيب له نفسا بغير محضرد (٢) بل كثيراً ما رأيتهما يتبادلان  
لباس الحلة الواحدة (٣) ويجلسان معاً الى القيان . على طرب وطموره صافاة خلان  
وان كان ليحيى فضل في تقويم هذه الدولة فان لجمع فضل في تدبير  
مملكها أتم وأجل في عين الرشيد وقد أغناه بنفاذ سلطانه في المشرق عن  
أن يطمع في الاستيلاء على بلاد المغرب ثم يبيت على خطر الفتنة التي  
لا يأمن ان حدثت أن تبتى الخلافة في يده فلم يكن بد لصلاح أمره من  
سلوك السبيل الذي مهده له جمع لتم له الفائدة التي رامها أبوه في تقويم  
الدولة وبلوغ غرضه منها في المشرق فوفقت مصلحة الدولة والاسلام  
جميعاً على أن يتبع الرشيد هذه الخطة التي كان ليحيى فيها الفضل السابق  
والمقدم . وجمع من بعده الفضل اللاحق والمتمم .

ولقد شملت عناية جمع خطط الدولة كلها بين مراتب سيف وقلم .  
الا أنه كان الى تدبير المملكة وتنظيم الدواوين (٤) أشد منه عناية وأقرب

(١) الحصري ١٠٢\*٢ (٢) الاتليدي ١٦٩ (٣) الاغانى والاتليدي وابن

خلكان وابن خلدون (٤) انما دون العرب الدواوين عملاً بطريقة الفرس من  
قبلهم وانظمة الديوان فارسية كما هو معروف

من نفسه ميلا الى النظر في مصلحة الجند وهم الفرسان الذين لم ير لهم مع  
ما هو مطبوع فيهم من نخوة الجهاد التي لا يطيق الاعاجم مناجزتها فيهم  
الآن يصرف اليهم أرزاقهم في ابائهم ويرضيهم بسعة العطاء من غير مال  
الخليفة (١) بما يقصد فيه من نفقات الدولة. وأما ما أثره في تدبير المملكة  
فانها تتناول ضبط الاموال وترتيب ديوان الاعمال والجبليات (٢) على  
غير مارسم أبو عبد الله في كتابه (٣) على الخراج وإنما اقتصد من النفقة  
على قدر أبقاه للزيادة في أرزاق الجند وأقام على السجلات قوما مهرة في  
الحساب (٤) ليجد الموازنة فيما يدخل بيت المال ثم يصرف منه وجعل لهذا  
الديوان شعبا ترجع مصالحها اليه كديوان الخراج وديوان الضياع والنفقات  
(٥) وغير ذلك وأحب أن تحفظ دفاتر الخليفة للمراجعة (٦) لينظر فيما  
يتصرف فيه بموازنة الدخل الذي ترتب في سجلات الديوان.

ثم توسعت عنايته من الاهتمام بمصالح الدولة الى النظر في أمر  
الرعية والرفق بهم وادخال الراحة عليهم وصح عنده مساواة الناس  
بالاحكام التي لا تفرق بين المسلم وغير المسلم (٧) الا فيما هو مأخوذ  
على أهل الذمة من العهود المحفوظة وأقام رجال العدالة في جميع البلدان  
لكتابة العقود على روابط الشرع (٨) ليكون في ذلك حفظ حقوق

(١) ذكر المسعودي ١\*٨٢ أن الخليفة يعطي الجند من بيت ماله (٢) المقدمة

٢١٢ (٣) ذكر الفخري هذا الكتاب ٦١٦ (٤) المقدمة (٥) الاغانى ٩\*٢١ و٢٦

(٦) ذكر الاغانى هذه الدفاتر ١٤\*١١٤ (٧) الماوردي ٣٩٣ ٨. العبد الفريد ٢\*٢١١

الأمة وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم من الكفالة ونحوها (١) وأمرهم بأن يجلسوا في الدكاكين والمصاطب ليسهل وصول الناس اليهم فتجربى معاملاتهم على سنن العدل الذي يروم ان يشملوا به نفوسهم كما تشملهم به الدولة فكان أعزه الله يقول (٢) الخراج عمود الملك ما استغزر بمثل العدل وما استنزرت بمثل الظلم

ثم انه نظر في صلاح الزوراء ودس فيها الديون بامر عبد الله بن مالك صاحب الشرطة (٣) لملافاة الخلل الذي يطرأ عليها من وفود الاغراب واختلاطهم (٤) وأقام العسس (٥) بالليل لمحافظة الدروب (٦) الى ان وقع الامن في احيائها وخيم السلام على ارباضها وذلك ينسدر أن يكون في مدن الاعاجم ومحاشد ملهم فلقد ينمى الينا عن قاعدة الروم أن المكروه واقع فيها كل يوم لا محالة مع أنها محتشد النصرانية ومبائة الملوك الذين حازوا معظم الدنيا فيما سبق لهم من زمن العز والصولة . ونحن لا نريد بذلك أن الروم قوم جهلة لانظام ملكهم مع أنهم حملة العلم ومستقرون في مهاد العمران على سعة واستقامة من الملك غير أن الترف قد غلب على عآمتهم حتى لا سبيل الى ردعهم عن معاقرة الخمر وكبح عنانهم عن ركوب الاهواء (٧)

(١) المقدمة ١٩٦ (٢) العقد الفريد ١٣\* (٣) ذكره الاغانى ١٧\*٤٦  
والمسعودى ٢\*٢١٢ (٤) ابن خردادبه ١١٦ (٥) الاغانى ٢\*١٥٧ (٦) الاغانى  
١٩\*٥٧ والمستطرف ٢\*١٨٦ (٦) المقدمة ١٩\*٧ وكان هذا من أسباب التواني في دولتهم



ولما وضع الرشيد فضل هذا السلطان فيما أصلح به الملة والدولة جميعاً بلغت منه الامانة فيه الى أن يطوقه السلطنة التي تقارن سلطته وتشارك فيها معه ففوض اليه القضاء بمجلس المظالم وهو القضاء الذي كان يباشره الخلفاء (١) من الامويين بنفوسهم ثم المزدئي من بعدهم كما رأيت في موضعه من الكتاب فصار جعفر يجلس (٢) بجانب الرشيد على سريره ويشاركه في توقيعه على القصص التي يرفعها الناس اليه ولكن بالعبارة التي يتنافس (٣) في بلاغها العلماء (٤) فمن بعض ما حفظت له من هذه التوقيعات التي جرت مجرى الامثال توقيعه في قصة رجل شكاه بعض عماله اليه « قد كثر شاكوك . وقل شاكروك . ذاماعدلت وأمااعتزت (٥) وتوقيعه في قصة قوم قطعوا الطريق « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله « الآية (٦) ووقع الى بعض عماله « اجعل وسيلتك الينا ما يزيدك عندنا » ووقع في قصة مجبوس « الدبل أوقعه والتوبة تطلقه » (٧) ووقع في قصة متظلم « طب نفسا فكفى بالله للمظلوم ناصراً » ووقع لرجل اعتذر عنده من ذنب « قد قدمت طاعتك وظهرت نصيحتك ولا تغلب سيئة حسنتين » ووقع وقد قرأ كتابا فاستحسن خطه « اخط خيط

(١) أبو الفداء ٢ \* ١١ وابن الاثير ٦ \* ٢٩ وأبو الفرج والسيوطي والفخرى  
 ٢١٢ والماوردي (٢) الاعاني ٤ \* ١٦٢ (٣) السكندر ٩٤ (٤) ابن خلكان ١ \* ١٤٧  
 والمقدمة ٢٠٧ (٥) ابن خلكان ١ \* ١٤٧ (٦) العقد الفريد ٢ \* ٢٣٣ (٧) العقد  
 الفريد ٢ \* ٢٣٢

الحكمة ينظم فيه مشورها . ويفضل فيها شذورها « ووقع في قصة  
متنصح « بعض الصدق قبيح » ووقع في قصة رجل تظلم من بعض عماله  
« انا مثله حتى ينصفك » (١) ووقع في قصة قوم شكوا سوء جوار بعض  
قرايتهم « يرحل عنكم » ووقع الى بعض عماله « أنصف من وايت أمره  
والا أنصفه منك من ولى أمرك » (٢) ووقع في قصة رجل قد استأذنه في  
الحج « من سافر الى الله نجح » الى غير ذلك من التوقيعات التي يتداولها  
الادباء (٣) الى أن تبلغ القصة الموقع عليها عشرين درهما ثمنا (٤) في أيدي  
الناس . وهذا ما اكتفى بذكره من مآثر هذا السلطان الذي ليس له ند  
في الرجال وقد فضل الملوك تاطبة بالعلم والعقل والسياسة (٥) وزاد الرشيد  
عزة ومنعة كالذي لم نره قدما في دول الخلفاء فتولى الله مكافأته عن  
المسلمين والاسلام بما هو واسع له من الجميل وجعل المجد لا ئذا بجناحه  
والسعادة حافة بياحه . آمين

( صلاح التجارة والمعاملة )

أخرج بك قليلا عن موضوع السياسة الى بيان المعاملة الرابحة بين  
الناس بقدر ما يسمح لي المقام فانه لما توفرت في أيديهم الاموال بما كسبوا  
من الفتوحات العظام وقد نزلوا الامصار التي كانت مستودع الدعة عندنا  
ومستقر ملذات للروم فيما مضى لنا ولهم من ذلك الملك الغابر فتحولت

(١) العقد الفريد ٢٣٣ (٢) الوطواط ٣٥، ٣٠ السيوطي (٤) المقدمة ٢٥

(٥) اعلام الناس وابن خلكان ٢٦١\*٢

طباغهم من الخشونة الى نعومه العيش وأخذوا يتأثلون الكسب ويطلبون حاجات الترف من جميع البلدان بما تيسر لهم من أسباب المواصلة في زمن الخلفاء الى أن أتم الرشيد العناية في تأمين السبل لقوافلهم وتمهيدها للسفر من تجارهم حتى حملوا تجارة الدنيا الى العراق فحملوا من الرند آنيها ومن أصبهان وشيراز ويزد شرا بها (١) ومن خراسان حديدتها ومن كرمان رصاصها ومن قشمير النسيج الملون ومن الصين الغريب والكمكان والعود والمسك والسنور والسروج والغضار والطياسج والدارصيني والخلونجان ومن اليمن العطر (٢) وأنواع الطيب ومن فارس السلاح والمصوغات ومن عيذاب اللآلي (٣) ومن الوقواق الذهب والابنوس ومن الرند والسند القسط والقنا والخيزران والكافور والبود والجوزبوا والقرنفل والفاغره والكبابة والنارجيل (٤) والثياب القطنية والمخملة والفيئة. ومن سرنديب ألوان اليواقيت وأشباهه والملس والدر والسبازج الذي يعالج به الجوهز (٥) ومن ملي وسندان الفافل والبلور ومن كلاً الرصاص القلعي. ومن ناحية الجنوب البقم الداري. ومن البحر الغربي المرجان ويكون بأرض الفرنجة وهو السبد. ومن الروم المصطكي والجلود والغلمان والرقيق (٦) ومن الشام الفأكة والسلاح والحديد الذي يقلع من جبل لبنان. ومن روسيا جلود الخنزير والثعالب يأتي بها الروس الى بغداد عن طريق

(١) العقد الفريد ٢\*٣٤٤ (٢) القزويني ٢٠٩، (٣) المسعودي ٣٩١\*٤

ابن خردادبه ٦٨ (٥) الاغانى ٥\*٢٤ (٦) ابن خردادبه ٨١

سورية أو عن طريق جرجان (١) ثم تحمل الى اصبهان والجزيرة وآمد  
ونصيبين (٢) ويتجر بها

هذه هي تجارة الشرق (٣) قد حملت الى العراق وأما تجارة الغرب فقد تعذر  
تقلها لبعدها المسافة وتراعى الشقة ولذلك كان يرى الرشيد فتح البحر عند  
السويس (٤) حتى يقرب المجال من المغرب الى عمان فسيراف ففارس  
فأطراف العراق ولا سيما أن على البحر الرومي سواحل افريقية وتونس  
ومصر وطرابلس والاندلس الى الغرب والجنوب وسواحل صقلية  
والفرنجة الى الشمال وسواحل الروم والشام الى الشرق وانها بلدان كثيرة  
الخيرات . وافرة الغلات . فكان الرشيد يروم أن يحمل تجارتها الى بغداد  
على مراكب البحر من طريق السويس ولكن جعفر أعزّه الله قد ثناه  
عن هذا الامر وخوفه أن تصل سرايا الروم وسائر الفرنجة الى جدة  
فيخربون المواطن المشرفة (٥) على حين لا يتوقع لقدمهم أثر فقال جعفر  
يأمر المؤمنين ان خرق السويس خرق في الاسلام ولو أنك وجدته  
مخروقا بأيدي الملوك الذين سلفوا الخلفاء لوجب عليك اليوم سده لان  
مصالح التجارة لا تقضى على الاسلام بتضييع الفتوحات التي دانت له ببذل  
الدماء وهذا رأى لا يبدو الا لمن ركب فيه اسجاح الخليفة ومعدلة النظار فان

(١) ابن خرداذبة ١١٦ (٢) ابن الاثير ١٠١\*٥ (٣) الاغانى ٢٤\*٥ وابن

الاثير ٢٢٥\*٥ والتزوينى ٢٠٩ (٥) المسعودى ٢٩٩\*١ والمقريزى فى الخطا

والسيوطى والمقدمة ٢١ (٦) السيوطى والمسعودى

العلماء كلهم قد ضلوا عن ادراك ذلك وانما خوفوا الرشيد علو البحر الرومي على بحر القلزم وانه اذا ريم خرق ما بينهما طمى البحر على أرض مصر وأغرق عيذاب والنوبة وسواحل اليمن والحجاز ولكن قولهم بعيد عن الصحة لما يُلم عن بحر الظلمات الى ما وراء الاندلس أنه لم يطم مأوه على سواحل البحر الرومي مع كونه يعلوه بالاقليم فما يثبت عند العاقل الآن سطح البحور متساو في الشمال والجنوب ولم يسمع ببحر أخفض من غيره الا بحر لوط في أرض الاردن من اقليم فلسطين ولكنه ليس بالبحر الواسع ولا بالأوقيانوس المحيط وانما هو مياه تصب في متحدّر من الارض .

ولما اتسع نطاق التجارة في بغداد أصبحت موردًا لاهل الاعواز من كافة البلاد يتناولون فيها حاجتهم من المال فوق غشّ فاحش في التجارة وصارت الصيارف من اليهود (١) وغيرهم (٢) يطون ما لهم بالربا على أن يعاد عليهم المثل في آخر العام مثلين (٣) وأكثر منه فأقام الرشيد محتسبا يطوف بالاسواق ويفحص الاوزان والمكاييل من الغش وينظر في معاملات التجار (٤) أن تكون جارية على سنن العدل حتى لا يتحامل الشرفاء على الوضعاء ولا الاغنياء على الفقراء اذ الواجب على الملوك أن يمهّدوا سبيل الارتزاق لاهل الحاجة أكثر منه للمتمولين المنسلخين للتجارة الذين نراهم

(١) الاغانى ٨٥\*٣ (٢) الاغانى ٨٣\*٣ و١٦١\*٥ (٣) كليات ٩٩ والاعانى

١٥٤\*٢ (٤) الاغانى ١٧\*١٠٨

يتعرضون لشراء السلع والتجارات بما يفرضون لها من الثمن البخس ثم يبيعونها بما يشاؤون من الغلاء فان ذلك احتكار يفضى الى فساد العمران كما مر في موضعه من الكتاب . وقد أخبرني الرشيد في بعض مجالس الى انه يروم أن يصلح معاملة التجار ويغير تقدير الدنانير والدرهم على وزن واحد صحيح (١) ولكنه لم يباشر ذلك الى هذا اليوم مع أنه أصلح ما يكون للعمران وان كان ضرب السكة في الاسلام قد حدث عن نكابة وقعت ضغائنهما بين عبد الملك بن مروان وقيصر الروم كما هو معروف (٢) فقد أصبح اليوم من الضرورة أن تقدر أوزانها بمدامساء المعاملة في تأدية الخراج والبيع والشراء . وقد كان العرب يتعاملون قديما بالذهب والفضة وزنا (٣) وبين أيديهم دنانير الفرس والروم التي يقال لها الكسروية والقيصرية فلما ذهبت سداجة الاسلام وصارت الخلافة الى ملوك أمية وقد اغتالوا أمر المعاملة بما تشاغلوا به من أمور توسمهم تفاحش الغش في التجارة وصارت تنسب الى الروم سكة ليست من ضربهم ولا من ضرب الفرس فيما ابتدع الناس من دنانير كسرى وقيصر فعنى عبد الملك بتمييز المغشوش من الدنانير والدرهم ف ضرب السكة في دمشق (٤) وصرفها في جميع النواحي والامصار ولكن من غير ان يقدر أوزانها فبقي منها الخفيف (٥) والثقل وما هو بين بين ولذلك لم تسهل

(١) المحاضرة ٢\* ١٧٤ (٢) الاتليدي ٢٧٤ (٣) المقدمة ٢٢٧ (٤) ابن الاثير

١٧٤\* ٤ (٥) ذكر الدرهم الخفيفة الاغانى ١٠٤

المعاملة بها بين التجار حتى اذا تنبه لما فاتته من تقديرها على وزن واحد وأحب أن يميز القديم منها عمدا الى تبيين السنة على السكة المقدره بمد أن كان يضربها خلوا من التوقيت الا بركة الله في احدى الوجهين واسمه في الوجه الآخر . وهذا كان منشأ الخلاف في أول من ضرب السكة التي ليس فيها توقيت فيقول بعض الناس انها من ضرب عمر بن الخطاب (١) ويقول غيرهم انها لمصعب بن الزبير (٢) ويقول بعض انها لمعاوية بن أبي سفيان ويزعمون أنه صور نفسه عليها متقلداً سيفاً (٣) كأنه فاتهم علم موضعه من الخلافة وحرصه على متابفة الملة والشرع الا أن ما يذهبون اليه من هذه الافاويل ليس بمجمع على رأي منه . ولم يقع الى من الدنانير الموقوتة الا ما ضرب هذا الخليفة المتقدم ذكره في السنة السابعة والسبعين من الهجرة النبوية المشرفة وعليه جرى الخلفاء بعده في ضرب السكة بأن يرسوموا فيها بركة الله من وجهه (٤) وعلى دائره محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله واسمهم من الوجه الآخر يحوطونه بتبيين السنة وذكر البلد الذي يضربون فيه السكة .

وأما الاوزان المقدره فان المسلمين كانوا يتعاملون بالدرهم الطبرى

(١) المقرئى (٢) ابن خلدون ٤٥٠\*٣ واماوردى ٢٦٩ (٣) الاتايدى

تقلا عن الدهيرى (٤) الانس الجليل ٢٤٠\*١ والمحاضرة ١٧٤\*٢ والاتايدى ٢٧٤

وهو أربعة دوانق والدرهم المغربي وهو ثمانية والدرهم اليمني وهو ستة والدرهم البغلي « وهو الذي يقال انه ضرب في خلافة عم ررضي الله عنه على وزن الدراهم الكسروية » وهو ثمانية دوانق فأمر الحجاج أن ينظر الاغلب في المعاملة فكان البغلي والطبري وهما اثنا عشر دانقا فاتخذ ما بينهما ما لضرب السكة وقدر الدرهم ستة دوانق . وأما وزن المثقال الذهب فهو درهم وثلاثة أسباع درهم حتى اذا جمع عشرة دراهم كان وزنها سبعة مثاقيل (١) والناس يتاملون بالسكة لزماننا هذا على تقدير الحجاج الا أن ما في أيديهم منها مختلف الاشكال « فلا تتناول الدولة منهم في الخراج الا الدنانير العباسية والدنانير المسماة بالخالدية (٢) واليوسفية والهبيرية وهي أجود النقود التي ضربها بنو أمية (٣) على يد عمالهم في العراق مثل أبي هبيرة ويوسف بن عمر وغيرهما » ولذلك رأى الرشيد أن يقدرها على وزن واحد صحيح حتى لا يبقى للغش في التجارة مجال . ولا يحصل عنف في جباية المال .

﴿ زينة الدولة بالعلم والادب ﴾

هذا الماع بذكر محاسن دولة الرشيد وانها لدولة خير وصلاح كما علمت فما حدث أهل الاخبار عن الاسلام أنه كان في دول الخلفاء أعز جانباً ولا أوسع رقعة مملكة (٤) منه في خلافة الرشيد . ولعمري ان

(١) المقدمة ٢٢٧ (٢) الماوردي ٢٦٩ (٣) ابن خلدون ٤٥٥٣

(٤) الفخري ٢٣٣



الملوك الذين يتعهدهم النصر مثله في جميع ما يباشرون من الاعمال قليل في العالم فإ رأيتهم والبرامكة أعوان له نكب في حرب قط ولا توجهت عليه هزيمة وإنما أعز الاسلام باجتماعه في المشرق كله اليه ورمى ملوك الاعاجم بسهام بأسه حتى عصفت ريحه بهم من الروم وسائر الفرنجة . وهذا شرف للسيف لم ينله المسادون فيما تقدم لهم من الدول السالفة مقرونا بفضائل العلم وجمال الحضارة وكفى بشرف دولته عليها انه اجتمع ببابه من الوزراء (١) والامراء والخواص والعلماء والفقهاء والادباء والخطباء والمحدثين والقراء والرواة والشعراء والندماء والمغنين ما لم يجتمع على باب خليفة غيره مثله فان البرامكة أعوان دولته وأبا يوسف قاضيه وهرثمة ابن أعين أمير جنده والعباس بن محمد عم أبيه جليسه (٢) ومروان بن أبي حفصة شاعره والاصمعيّ محدثه وأبان نواس نديمه والفضل من آل الربيع حاجبه وابراهيم الموصليّ واسحاق ابنه مغزيا و ابن بختيشوع جبريل (٣) وبنو ماسويه أطباؤه (٤) والعلماء والادباء كلهم قيام على بابه لا يفارقونه في حضر ولا في سفر حتى انه ليطلب شاعره في أطراف الليل (٥) فيجده ببابه مع غيره من محدث أو نديم .

(١) ابن الاثير والفخري ٢٣٣ والخميس ٣٣٢\*٢ والماوردي ٣٣ (٢)  
 الخميس ٣٣٢\*٢ الفخري والمسعودي ٢١١\*٢ وابن الاثير ٧٥\*٦ والمقدمة  
 ١٦ (٤) أبو الفرج (٥) الاغانى والاتليدي

وأما قرب العلماء إلى الرشيد ما بنفسه من الميل إلى الأدب (١) والحرص على احراز العلوم (٢) حتى كانوا إذا اجتمعوا بداره سما إلى مناظرتهم (٣) من حيث العلم والتواضع له لا من حيث السيادة عليهم وهو بموضعه الجليل من الخلافة وأنا لا أريد بذلك أن التواضع طبيعة في نفسه لأنه لو لم يأته الكبر من ناحية العلم لآناه من ناحية السلطان وكلاهما داع إلى الإعجاب بالنفس فكثيرا ما كنت أراه إذا انتصب في عرشه يحتمل أن يمدح بما يمدح به الأنبياء وهو لا ينكر ذلك ولا يردده (٤) غير أنه ربما كان يتعنى بتواضعه للعلم مع ما هو مطبوع في نفسه من الاجلال له أن تحصل له الغاية التي يرومها من صلاح أمره باستمالة الأمة من أهل العلم حتى يستقيم ملكه من ناحية التلم كاستقامته له من ناحية السيف . أما أدبه وفضله وصحة ما عنده من النظر في تخير ما يروق لديه من العلوم فهو الأمر الذي تقدم الامامع إليه فيما مضى من الكتاب ورأيت يتوسع في أدب اللغة إلى أن يقول الشعر فيما يعرض له من تصورات أهل الغرام فاذا دخلت عليه عرضه على في سبيل الفكاهة فمن ذلك قوله في جارية (٥) توكية له .

يا ربة المنزل بالفرك وربة السلطان والملك

(١) ابن الأثير ٧٨٥٦ والنخري ٢٣٠ والاسحقاقى ٩٠ والدميري ٩٥\*١

(٢) الشرقاوي ٢٢٢ (٣) النزويينى ١٠٦ (٥) السيوطى والاغاني ٨٦\*٩

ترفتى بالله فى قتلنا لسننا من الديللم والترك

وقوله فى قينة له (١)

تبدى صدودا وتحنى تحته مقه فالنفس راضية والطرف غضبان

يا من وضعت له خدى فدلاله وليس فوقى سوى الرحمن سلطان

وقوله (٢) فى رثاء جارية رومية يقال لها هيلانة وقد عراه على فقدها من الحزن ما ضاق له الصدر . وفرغ دونه الصبر .

تأسيت أوجاءا وأحزانا لما استخص الموت هيلانا

فارت عيشى حين فارقتها فما أبالى كيفما كانا

قد كثر الناس ولكنتى لست أرى بعدك انسانا

والله لا أنساك ما حركت ريح بأعلى نجد أغصانا

الى غير ذلك وكان من الفضل بحيث ان ما دبه لم تخل قط من عالم أو أديب أو شاعر . وكان يستدعى اليه العمري والفضيل بن عياض (٣) وابن السماك الكوفي (٤) واسحاق الفزارى وغيرهم من الاولياء فيحاورهم فى مسائل الدين (٥) وبيكى (٦) من مواعظهم ويقوم بواجب الاحترام لعلمهم حتى اذا جلس معاوية المحدث الضير الى طعامه قام من موضعه وصب الماء على يده تعظيما لتقدر العلماء فقال له معاوية يا أمير

(١) العقد الفريد ٣\*٢٥٧ (٢) السيوطى (٣) المقدمة ١٥ والمستطرف ١\*١٠١

والحميس ٢\*٣٣١ والاسحاقى ٩٠ والسيوطى (٤) العقد الفريد (٥) سراج الملوك ٣٠

(٦) ابن الاثير ٦\*٧٨ والطرطوشى ٣٨

المؤمنين ان تواضعك في شرفك لأشرف من شرفك (١)  
 أما زينة الدولة من الادباء فثلاثة اسحق بن ابراهيم النديم وعبدالله  
 الاصمعي والحسن بن هاني المعروف بأبي نواس وكلهم امام في العلم الا  
 أنه غلب على اسحق الغناء وعلى أبي نواس الشعر وعلى الاصمعي الاخبار  
 والنوادر والملح .

فأما اسحق فانه بالمكان الرفيع من الادب (٢) وقد اتخذ خزانه كتب  
 جمع فيها من مدونات العلم ما ليس عند الذين يعنون بجمع صنف واحد  
 من صنوفه مثله ولقد رأيت عنده من كتب اللغة مثلاً ما ليس مثله في  
 خزانه ابن الاعرابي (٣) وله مقام سام بين العلماء حتى أنهم ليهدون اليه  
 كثيراً من تأليفهم ودواوينهم كابي نواس وابن أبي عيينة (٤) وابن  
 الاعرابي (٥) وغيرهم تشيخاً لعلمه وأدبه لان انصبابه الى الغناء لم يكن  
 حرفة للتبشيش وانما هو ميل بنفسه الى محاسن الادب والصناعة  
 فكان يترفع عن أن يغنى الا في دور الرشيد والبرامكة وكانوا اذا حضر  
 مجالسهم يؤثرون محاورته في العلم على جلوسه اليهم في صفوف المغنين (٦)  
 ولقد كنت أسمع الرشيد يقول لو لم يشتهر اسحق بلقب المغني لوليته القضاء  
 على المسلمين (٧) ووجدت في نفسه من جميل العطف اليه ما كان يحمله

(١) الفخرى ٢٣١ والسيوطي (٢) الاغانى والحصري ٢٠٦\*٢ (٣) ذكر  
 ابن خلكان ٩٣\*١ أنه كان عند ابن الاعرابي خزانه جمع فيها كتب اللغة (٤)  
 الاغانى ١٢\*١٨ (٥) الاغانى ٥٥\*٥٥ (٦) الاغانى ٦٠\*٥٥ (٧) ابن خلكان  
 ٩١\*٩ وكتاب الاغانى

على أن يقصد داره (١) على سبيل التحجب ولقد كنت يوماً بداره وهي  
 بباب الشماسية (٢) من الجانب الشرقى تلقاء قطربل (٣) فجاء الخليفة  
 على حمار صغير أسود وهو الحمار الذي يركبه (٣) في ساحات القصر  
 وجنانه للنزهة ومعه خمسمائة نفر من خدمه وغلماؤه وندمانه (٥) فقام  
 اسحق بالواجب من اكرام وفادته (٦) وأخرج الحلوى الى خدمه  
 بما كفى الجمع كاه ثم أشار الى جواريه أن يجلسن للغناء ويخرجن سفرة  
 المدام فقال الرشيد لست أريد هذا وإنما شوق في النفس دعاني الى  
 الانس بقربك .

وأما الاصمعيّ فإنه قدم بغداد (٧) في خلافة الرشيد في جملة من  
 وفد عليه من العلماء . وهو امام في النوادر (٨) والاختبار وأيام الناس  
 مشهود له بصدق الرواية ولقد حدث الرشيد يوماً عن ملوك بني أمية  
 فقال ان سليمان كان نهما اذا قدم اليه السماط لا يصبر حتى يبرد بل يتناول  
 اللحم بكمه وان يزيد كان اذا جلس للشرب يسقط الخمر في ثيابه فصاح

(٧) الاتليدي ٢٨٦ والاغاني (٢) الاغاني ٧\*٥ (٣) ذكره المسعودي  
 ٣٨٥\*٢ و٣٩٧ (٤) الاغاني ٤٦\*٣٠ و٤٦ (٥) ذكر ياقوت ١١٨\*٤ ان الخليفة  
 كان يركب في كذا وكذا رجلاً وخدمته (٦) وأخذ الفرش من الخز المظهر بالسنجاب  
 كذا في العقد الفريد ٢٤٠\*٣ وهذا نص كلامه فدخلنا دار ابراهيم الموصلي فاذا  
 هي لأشرف منها ولا أوسع واذا بفرشها خز مظهر بالسنجاب (٧) ابن خلكان  
 ٤٠٨\*١ (٨) التبريزي ٢٧٩\*٢

به الرشيد فأتلك الله ما أصدقك في نقل الاخبار والله ان ثيابهما عندي  
وان الدهن لني أحكام سليمان والخمر في ثياب يزيد (١) على أنه لم يكن  
يني وبينه مع طول المدة التي أقمتها في بغداد قرب ولا ائتلاف لا تقطاعه  
عن مجالس البرامكة وانما كنت ألقاه بدار الرشيد وأسمع ما يحكيه عن  
عن طرائف بندا فإراه لا ينفل عن نادرة مليحة الا ويذكره الهولكن  
بالالفاظ التي تأخذ بمجامع القلوب وكنت يوماً بين يديه وقد بدر من  
رجل ذريفة فالتفت اليه الرشيد وقال له حررها يا أصمعي (٢) وقد أخبرني  
بعض أصحابه أنه أقام في صباه بالبادية أياماً طويلاً يستطاع فيها على  
عادات العرب ويستكشفت أخبارهم ويستنطق آثارهم وقد شاهد  
ما يقيمون من المجالس والاسواق . وما ركب الله فيهم من السجايا  
والاخلاق . وما وقع لبناتهم مع الشعراء والعشاق . فلما أقام ببغداد أخذ  
يحدث بكثير من أخبارهم ثم اشترى اسمه بين الناس بما هو آخذ  
بكلامه من الرشاقة والبلاغة حتى صار علماً في المدينة وصار  
يتفق له فيها من النوادر ما لم يسمع أحد بأعجب منه .

وأما أبو نواس فان الشعر هو الذي يقدمه اليوم عند الرشيد

(١) المسعودي ٢٢٨\*٢ وابن خلكان ٤١٠\*١ وتزيين الاسواق ١٤٣\*١

(٢) المسعودي ٢١١\*٢ والاتبليدي ٩٦ والعقد الفريد

وقد (١) كان أبو نواس يتحدث من قبل بنوادر الناس ولكن من غير أن يفكه بأعراضهم ثم أعرض عن ذلك فقال له ذات يوم حدثنا يا أبا نواس فقال لا يحضرني شيء فقال بحياتي (٢) الا ما قلت شيئا قال كان الكذب عملي واليوم هجرته يا أمير المؤمنين (٣) فضحك وقال هذا أحب الي من الحديث وله كلام ذاريف في المجون والخلاعة (٤) وما جريات تدل على خفة روحه . وكان اسحق يتعصب له (٥) ويشيد ذكره ويجهر بتفضيله ويجلب له الرفد من الرشيد ويحط من قدر الاصمعي لتنافس بينهما (٦) حتى أخذ المقام الاول بين الندمان وبني لنفسه في نهر طابق الدور (٧) التي لم بين مثلها عظماء الناس بينما الاصمعي يستقرض من أصحابه (٨) حاجته من المال

ومن خلال أبي نواس المأثورة أنه يميل مع أهل البيت سرا لا يجسر

(١) وربما حفظ له شيئا من أبياته يتنزل بها في مجالسته الادبا فلقد سمعته مرة يقول لو قيل للدنيا صفي لنا نفسك وكانت ممن ينطق ما وصفت نفسها بأكثر من قول أبي نواس . اذا امتحن الدنيا ابيت تكشف \* له عن عدو في ثياب صديق وما الناس الا هالك وابن هالك \* وذو نسب في الهالكين عريق . العقد الفريد ٣٦٩\*١ (٢) كلمة يقولها الخليفة عند التوجب الاغانى ٧٥\*٦ (٣) المستطرف ١٠\*٢ (٤) الكنز ٩٤ (٥) الاغانى ١٠٧\*٥ (٦) الشريشي ٢٧٤\*٢ (٧) ابن خالكان ٢٩٥\*١ الاغانى ١٦١\*٣ (٨) المستطرف ١٢٣\*١ وذكر المسعودي ٢٢٣\*٢ انه رؤى في دار الاصمعي خباء مكسور وعليه دراعية خالقة ومقعد وسخ وكل شيء عنده رث

على المجاهرة به وقد قيل له في اعراضه عن مدحهم لقد ذكرت كل معنى  
في شرك وهذا على بن موسى الرضا في عصرك لم تقل فيه شيئا فقال  
والله ما تركت ذلك الا اعظاما له وليس قدر مثلي أن يقول في مثله  
وأنشد (١)

أنا لا أستطيع مدح امام كان جبريل خادما لايه  
وانما حصل على مكائته عند الرشيد بأنه كان اذا بكر اليه - أُل خواص  
أهل بيته عما يكون في نفسه أو يكون جرى له في ذلك الوقت ثم ينشده  
أشعار الطيفة في مطابقة ذلك فيطيب بها نفسا . واتقد كنت يوما معه  
بداره وعلمت من بعض خدمه أنه دخل مقصورة جارية على غفلة منها  
فوجدتها تغتسل وقت الظهور فلما رآته تجللت بشعرها فاعجبه ذلك منها  
قلما دخل عليه أبو نواس أنشده (٢)

نضت عنها القميص لصب ماء	فورد وجهها فرط الحياء
وقابلت الهواء وقد تعمرت	بمعدل أرق من الهواء
ومدت راحة كالماء منها	الى ماء معد في اناء
فلما ان قضت وطرا وهمت	على عجل الى أخذ الرداء
رأت شخص الرقيب على التداني	فاسبلت الظلام على الضياء
وغاب الصبح منها تحت ليل	وظل الماء يقطر فوق ماء
فسبحان الاله وقد براها	كاحسن ما يكون من النساء

(١) ابن خالكان ١\*٤٥٧ (٢) السيوطي والاتبدي ٩٦ والمستطرف ٤٤٥٢



وهذه الايات هي من جيد الشعروهي كما تراها أرق من الهواء وأصفي من  
الماء كما يقول في وصف هذه الجارية الحسنة فقال الرشيد على سبيل الاستغراب  
سيفا ونطعا يا غلام فقال أبو نواس ولم يأمر المؤمنين قال أمعنا كنت قال لا  
وانما شئء خطرت لي بالبال فقلته فضحك الرشيد ثم أمر له بجائزة وصرفه .  
وقد وقع تدوين هذه الرسالة في السنة الحادية والثمانين بعد المائة  
من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم لثلاث خلون من شوال والناس يتجهزون  
للخروج الى الحج الشريف أرانا الله بركته بمنه وكرمه .

✽ الرسالة السادسة ✽

( بيت الرشيد )

لقد مضى علي في بغداد بعد العودة من خراسان نحو ست سنين  
مازات منقطعا فيها الى البرامكة حافظا لمقامي في الدولة تحت ظلمهم وغنايتهم  
وكنت أردد في خدمتهم الى دور الرشيد وهو يأنس بي في خلواته الى أن  
صرت منه بالمنزلة التي لا يطمح اليها غيري من المقربين اليه وكننت أقف  
على أمور بيته وأولاده فرأيت أنه أكرم الله صالح السريرة شديد الاعراق  
في الدين محافظا على أداء الصلاة في أوقاتها وشهود الصبح لاول وقتها  
يصل في كل يوم وليلة مائة ركعة لا يتركها الا لعلة (١) وأذكر أنه لما  
حصل في العام لزينة وغلاء سعر للناس واشتد عليهم الكرب اشتدادا  
عظيما أمرهم بكسر الملاهي وكثرة الدعاء والتوبة (٢) وذلك دليل على موقع

(١) ابن الاثير ٧٧٠٦ والفخري ٢٣٠ والمقدمة ١٥ (٢) المستطرف ١٠٢٠٨٢

العبادة عنده أو ذلك مظهر يروم منه تأييد الدولة باجلال الدين حتى يكون  
الاسلام معتبطا بمناحيه .

ولئن كنت رأيت له في تدبير المملكة ذلك التصرف الجميل فإني  
ما وجدته له في تدبير أهل بيته ومواليته وإنما يرجع الرأي في ذلك  
إلى زوجته أم جعفر وهي أتفد نساء العباسيين كلها في الدولة وقدرت  
في مهاد الدعة والدلال كما يشير إليه اسمها فانما سماها أبو جعفر جدها  
بزبيدة لغضاضة بدنها وقد كان يرقصها تهللا بها وينظر إلى غضاضتها  
وملاحظتها فسمها بزبيدة لذلك (١) فلما بنى بها الرشيد ووجدها طرفة حديث  
ومصدر رأى جميل لم يربدا من الاتقياد إليها في قضاء جميع ما ترومه  
من الحوائج (٢) ومن ذلك انه مكنها من بيوت المال فانفقت من سعة ما  
ينيف عن ثلاثين ألف دينار فبنت مسجدا مباركا على ضفة دجلة  
بمقربة من دور الخلافة يسمى بمسجد زبيدة ومسجدا سمي الحسن في قطيعتها  
المعروفة بقطيعة أم جعفر (٣) بين باب خراسان وشارع دار الرقيتي (٤)  
وحفرت بالحجاز العين المعروفة بعين المشاش (٥) ومهدت الطريق للمها  
في كل خفض ورفع وسهل ووعر حتى أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلا  
إلى مكة فبلغ ما أنفقته عليها ألف ألف دينار وهذا من الاعمال التي لم

(١) الاغانى ١٠٢\*٩ والشريشى ٢٤٥\*٢ والحصرى ٢٣٦\*٣ (٢) في المسعودي  
انها كانت من الرشيد بالمنزلة التي لا يتقدمها أحد من نظرائها ٢٢٧\*٢ (٣) ياقوت  
٤٢١١\*٤ (٤) ابن خلكان ١٨٩\*١ والمستطرف ٢٨٩\*١ (٥) المسعودي  
٤٠٢\*٢ وابن جبير ١٧٣ والشريشى ٢٤٥\*٢

تبشرها امرأة في الاسلام الا الخيزران أم الرشيد فانها عمرت كثيرا  
 من المساجد (١) أيضاً وبنت دار ابن يوسف بمكة التي ولد فيها النبي صلى  
 الله عليه وسلم مسجداً (٢) جزيل البركة وتوفرت عندها الاموال حتى  
 بلغ الذي خلفته مع ما توسعت فيه من النفقة مائة ألف ألف درهم (٣)  
 فان لم يكن عند زبيدة من المال ما يبلغ هذا القدر الجسيم فان لها في السياسة  
 رأياً تسمو به الى التداخل في أمور الدولة كافتن ما يكون من الرجال .  
 وقد صير الرشيد أمر بيته بعد زبيدة الى مسرور خادمه العبد وهو  
 حاجبه وسيد مواليه (٤) وله في قصور الخلافة دواوين تميم فيها حوزته  
 من خدم وحرس وغللمان والكتاب له هو زياد بن أبي الخطاب (٥) يقيم  
 بمقربة من مجلس يوسف بن القاسم صاحب ديوان الانشاء (٦) ومن قام  
 بين يدي الرشيد حين أخذت له البيعة وفي ذلك دليل على مكان كتابه من  
 الشرف وعلو المرتبة . ولا غرو فان له من نفوذ الكلمة ما ليس للأمرء  
 والحكام مثله اذ كان سيد دور الخلافة والحارس لها لا يدخلها شيء ولا  
 يخرج منها شيء الا باذنه ورضاه وكثيرا ما رأيت الملوك يتزلفون بالهدايا  
 اليه ليخاطب الرشيد في حاجاتهم اذ ليس في أهل بيته من يجبراً عليه سواه (٧)  
 حتى كان اذا ركب الخليفة لا يجسر أحد على سؤاله الى أين يذهب غيره (٨)

(١) ابن جبير ٢٧٦ (٢) المسعودي ٣٠٦ (٣) المسعودي ٢٠٧ (٤) ابن  
 خلدون ٢٢٣ (٥) الاغانى ٩٩ (٦) المحاضرة ١٣٢ (٧) الاتليدي ٢٨٦  
 (٨) الاغانى ٩١

والى مسرور هذا الخصى الامر فيما يختص بالسرارى والقيان واهن  
لكثير فى دار الرشيد يبلغن زهاء ألفى جارية (١) يرفلن فى أحسن زى  
من كل نوع من أنواع الجواهر والوشى المذهب غير أن المقدم عليهن  
جميعا ثلاث أهدهن اليه الفضل بن الربيع . سحر . وضياء . وخنث  
ذات الخال لمن صور تستنطق الافواه بالتسبيح وعيون لا ترتد الا باقتناص  
النفوس . وهن اللواتى يهوهن ويقول فيهن الشعر . ومن ذلك قوله (٢)

ان سحرأ وضياء وخنث      هن سحر وضياء وخنث  
أخذت سحر ولا ذنب لها      ثلثى قلبى وترباها الثلث  
وقال فيهن أيضا (٣)

ملك الثلاث الآنسات عنانى      وحلان من قلبى بكل مكان  
مالى تطاوعنى البرية كلها      وأطيعهن وهن فى عصيانى  
ماذاك الآن سلطان الهوى      وبه قوين أعزم من سلطانى

وكنت اذا حضرت مجلسه وهن يغنين له من وراء الستارة ومعهن غانية  
لحمدونة (٤) بنته يقال لها دفاق (٥) لم يطق الستر أن يحجبهن عن نظره  
فيخرجهن اليه ويقول « والله لا صبر لى على الحجاب » وانما هو ضعف  
يميل به مع هوى النفس .

(١) الاغانى ٨٨\*٩ (٢) الاغانى ٦٧\*٦٨ و ٨١\*١٥ (٣) الاغانى ٨١\*١٥  
وتزين الاسواق وفوات الوفيات ٣٩١\*٢ العتد الفريد ٤٨\*٣ (٤) ذكرها الاغانى  
وابن الاثير ٧٧\*٦ من اولاد الرشيد (٥) الاغانى ٩١\*٧ و ٩٨\*١١

أما حریم اخلافة. فانه دوائر كبيرة لا اتصال لبعضها ببعض ولكل  
 هاشمية من بنات الخلفاء دائرة منفردة عما سواها من الدوائر وأعظمها  
 دائرة أم جعفر لها قصر السلام كله وهو أظرف القصور وأجملها زينة  
 وأجملها في الديون والقلوب موقعا يقول فيه ابراهيم النديم (١)

سقيت الغيث يا قصر السلام فنعن محلة الملك الممام

لقد نشر الاله عايك نورا وخصك بالسلامة والسلام

ثم دائرة أولاد المهدي ثم دائرة أولاد الهادي ثم دائرة أولاد الرشيد  
 من غير زبيدة زوجه. وطن جميعا من الخدم والعلمان والخصيان ما ينتهي  
 اليه اسراف الملوك في السعة ويتجلى به جمال الساطن بالبهاء والاشراق.  
 ولقد رأيت الجوارى من خدم الهاشميات يتقبن في أطيب اليش والنعيم  
 ويتخذن العصاب مكالة بالجواهر ابتداء بعالية أخت الرشيد اذ كانت أول  
 من اتخذ العصابة لميب في جبينها فترته بها فكان ذلك أحسن ما ابتدعه  
 الذمء (٢)

اما لباس الرشيد فهو لباس غيره من العباسيين السواد لا يتأنيق فيه  
 الا بما تقتضيه الرسوم المحفوفة وانما ينصرف همه الى لذة المطعم بالتأنيق  
 في صنوف الألوان وقد جلست الى طعامه (٣) اكثر من مرة في مجلس  
 كامل الزينة قد فرشه بالرخام الأخضر ولبس حيطانه بالوشى المنسوج

(١) الاغانى ٨١\*٥ (٢) الاغانى ٨٢\*٩ (٣) ذكر الاغانى ٢٤\*٥ أنه ما كان

يجاس الى طعام الخليفة غير أمير وعالم

بالذهب (١) فرأيته يتفنن في طعامه ولكن على غير شره في الأكل يبدأ بالمرق من السكباج وغيره تنشيطا لجسمه ثم يأكل الفاتر (٢) من الطعام من البقول واشباهها ثم الدجاج وأنواع الطائر ثم الشواء ثم انواع السمك ثم ما يطبخ بالتوابل من اللحم والبقول وغيرها حتى تكاد مائدته لا تخلو من السنبوسج (٣) وهي رقائق محشى باللحم والدهن تليه التوابل من الفلفل والزنجبيل ثم تقلى بالزيت ويطرف بالخردل (٤) وهو يتخلل طعامه بتناول اليسير من التوابل التي تشبهه اليه (٥) فاذا اكتفى منه تناول الحلوى من الاسوقة والربيكة واللوزينج والفالودج أو غيرها ثم الفاكهة بعدها ثم النقل (٦) وهو الذي يتناوله بعد طعامه للتعلل ولكن في الصحاف التي ليس أظرف منها في آنية الصين ولا أغلى ثمنا وقيمة فكانت أحسب لشدة تأتقه في فنون المطعم أنه لو لم ينه النبي صلى الله عليه وسلم عن الأكل في صحاف الذهب والفضة (٧) لاتخذها كذلك ونزل فيها اليواقيت والجواهر فاذا اكتفى من التعلل جاءه الغلمان بماء الورد الممسك (٨) في قائم الذهب مع شيء من الريحان فيغسل يديه ويتبخر فاذا كان بعد الغداء دخل مخدعه للقيولة (٩) واذا كان بعد العشاء جلس للمغنين والندمان كذلك عادته من يوم ولى الخلافة .

(١) ذكر الوشى المنسوج بالذهب الاغانى ١٨٤٥٣ (٢) المسعودى ٢٢٠٥٢ (٣) المسعودى ٤٢٦٥٢ (٤) الاغانى ٣٩٥١ (٥) بيتديء بالطعام الحار وينتهى باكل البوارد المسعودى ٢٢٠٥٢ (٦) المسعودى ٢٢٠٥٢ والابشيين ٨٤٠١ (٧) الاتليدى ٩ (٨) الاتليدى ١١٣ (٩) الاغانى ١١٥٥ والمستطرف ١٣٢٥١

أما أولاد الرشيد فكلهم مترف يتقلب في النعمة والاسراف (١) فانه يحاول العزلة ويقعد مقعد ضئلاً ويتكسب بيده فيما يقولون شيئاً ينفقه على نفسه مع مقدره أبيه كلها (٢) أما القاسم فانه ذو كبر شديد ونعمة طائلة وبذخ زائد واليه ينتهي جمال ولد الخلافة (٣) وكان أبوه قد طوقه أمر الفداء الذي وقع بين المسلمين والروم بعهد عودتي من خراسان فجربى ذلك على يده (٤) وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة فتزاحم ركب الملوك على بابه ومكثه أبوه من بيوت المال فهو اليوم يتخذ القصور المزخرفة ويشتري الجوارى (٥) والغلمان . ويقيم المجالس للشعراء والمغنين والندمان ويقطعهم الضياع ويصلهم بما يشاء من الهبات (٦) الى أن يصيب بعضهم في ناحيته مالا يصيبه في جوائز الخليفة من المال .

أما الامين والمأمون ولياً العهد فانهما دونه في الاسراف ولا سيما الامين فانه يوهم انه كثير العقل وان كان ضعيفه (٧) ويتخذ الوقار برقيماً لوجهه لما يحدث به نفسه من أمر الخلافة ولانه ابن هاشمي وهاشمية وذلك لم يتفق لغيره من خلفائهم فان أبا العباس وأبا جعفر والمهدي والهادي والرشيد كلهم أولاد سراري (٨) وأما عبد الله المأمون فانه زينة أولاد الرشيد وسمته سمة خير وفضل وعفاف لم أر في أبيه خلة

(١) ولد له من سرية لبعض نساءه العقد الفردي ٥٦٤٣ (٢) ابن خلكان ٥٧٥١

(٣) الاغانى ١٥٩٥٣ و ٩٦٥٩ (٤) ابن الاثير ٥٧٦٦ (٥) الاغانى ٥٧٥٣ (٦) ذكر الاغانى

١٦٨٥٣ و ١١٦٥٤٠ اعطاء أولاد الخلفاء (٧) ابن الاثير والمسعودي والفخري (٨) السيوطي

من الخلال المحمودة ولا خلقا من الاخلاق الرضية الا وجدتها في نفسه  
طبيعة تسمو به الى ارفع مقام في أدب الدنيا والدين ولم أر في أولاد  
الملوك غير البرامكة أعزهم الله من يتعشق العلوم الحكمية (١) على  
حدثة سنه وقيم بين العلماء لمناظرتهم (٢) في جميع أنواع العلوم مثله فما  
أذكر أني دخلت عليه مرة الا ولقيته في مجلس من العلماء والادباء وهو  
متوسط فيهم كالشمس من حولها الضياء .

ولقد قصدت بابه من عهد قريب مع أمير من البرامكة فألقيت  
بمحضرته (٣) جماعة من أئمة العلم ومنهم الخزيمي والدياس بن زفر ومنصور  
النري وهو السليم شرره من العيب لولا أن له طائفا في الشيعة يبتنى  
به مرضاة العباسيين ومحمد الراوية المسمى بالبيدق تقصره وهو المنشد  
للرشيد أشعار المحدثين (٤) وفتى من أمراء آل نوبخت يقال له الفضل بن  
سهل وهو خليل المأمون (٥) وصديقه لا يصبر على فراقه في نهار  
ولا ليل واذا ركب في موكبه أركبه معه على النجائب المخضوبة بالحناء  
وعليها القطوع والديباج (٦) وكان بجانب المأمون جماعة من النحاة قد  
أحدقوا به احداق الهالة بالقمر منهم الكسائي وأبو محمد مؤدباه (٧)

(١) المقدمة ١٨ (٢) الديمري ٩٨\*١ والمسعودي ٤٠٢\*٢ والعقد الفريد  
٤٣\*٣ (٣) الاغانى ٢ ٢٢\*٤ الاغانى ١٢\*٢٠ (٥) ابن الاثير وذكره الوطواط ١٤٢  
(٦) ذكر زينة المراكب هذه الاغانى ٨٨\*١ (٧) الاغانى ١٨\*٧٢ والمستطرف ١٣\*٢  
والمسعودي ٢\*١٣٣



وهم يتباحثون معه في مسائل نحوية وكنت أستمعه يقول لهم زيد على الرفع  
والكسائي يقول بل زيدا منصوبة بان فتطرح العلماء الجملة الاعرابية  
التي دار عليها كلامهم وهي « ان من خير القوم أو خيرهم نية زيد » (١)  
فأجمع رأيهم على موافقة المأمون فتحققت فضله في ذلك اليوم وعرفت انه  
يدخل العلوم من أبوابها وليس تطفلا منه كما يتبادر الى العقل عن آداب  
المترفين من أولاد الملوك .

وكان هذا الأمير اذا جلس للاستراحة يثني انصبابه الى ما يجذفيه  
من التسلية أدبا وفائدة ولم يكن شئ من الملاهي أحب اليه من لعب الشطرنج  
(٢) يمارسه كايه (٣) لا تتباط الحيل فيه حتى لم يكن في الناس من يفضله  
فيه وهو القائل في الشطرنج (٤) .

أرض مربعة حمراء من آدم	ما بين الفين موصوفين بالكرم
تذاكر الحرب فاحتلالها شبيها	من غير ان يسعي فيها بسفك دم
هذا يغير على هذا وذاك على	هذا يغير وعين الحرب لم تنم
فانظر الى الخيال قد جاشت بمركة	في عسكرين بلا طبل ولا علم

واما لعبه بالاكرة والطباط ورمينه في البرجاش الشباب .  
وكره بالصوالة في الميدان واتناؤه ظرائف الطير

(١) الاغانى ١٨\*٧٧ (٢) العقد الفريد ٣ \* ٢٥٤ (٣) لعب الرشيد الشطرنج  
أمر معروف (٤) المستطرف ٢ \* ٣٠٦ والمسعودى ٢ \* ٤٠٦

والخيل (١) والحيوان. واتخاذ الديكة ليقاتل بعضها بعضا والا كباش ليناطح  
 بها بين يديه الى غير ذلك من ملذات الملوك الذين يبلغون من الترف الى  
 أن يعدوا أمثال هذه الملاهي على سبيل المفاخرة والمباهاة . فانه كان يتخذها بما  
 يدعو اليه موضعه من الملك المترف وهو غير غافل عن اتخاذ الاشياء  
 التي تعود عليه من وراء الزينة والمكائفة بفوائد من الادب والصناعة .  
 فقد عنى بجمع آثار الملوك من ثياب وسلاح وآنية ومتاع وغير ذلك حتى  
 جمع من ضرائفها القدر العظيم الثمين . رأيت في بعض مجاميعه صندوقا

(١) من المعلوم أنه كان لامراء العرب العناية اتامة بتربية الخيل ووجدت  
 في العقد الفريد أن المأمون كان يتخذ خيلا يسابق بها خيل أبيه وأقاربه في الحلبة قال  
 في الجزء الاول \* ٦١ ركب الرشيد في سنة ١٨٥ الى الميدان لشهود الحلبة قال الاصمعي  
 فدخلت الميدان لشهودها فيمن شهد من خواص الخليفة والحلبة يومئذ فراس للرشيد  
 ولو لديه الامين والمأمون وسليمان بن جعفر ولعيسى ابن جعفر فجاء فرس أدهم  
 يقال له الريذ لهرون الرشيد سابقة فاتبهج لذلك ابتهاجا علم في وجهه وقال على  
 بالاصمعي فنوديت له من كل جانب فاقبلت سريعا حتى مثلت بين يديه فقال يا أصمعي  
 خذ بناصية الريذ ثم صفه من قونسه الى سنبكه فانه يقال ان فيه عشرين اسما من  
 أسماء الطير قلت نعم يا أمير المؤمنين وأنشدته شعرا جاء ما فيه من قول أبي حرزة...  
 فأمر لي بألف درهم

وذكر المسعودي ٢ \* ٢٢٠ ان الرشيد أجرى الخيل يوماً بالركة وكان في  
 أوائلها سوابق من خيله يتقدمها فرسان في عنان واحد لا يتقدم أحدهما صاحبه  
 فتأملها فقال فرسي والله ثم تأمل الاخرى فقال فرس ابني المأمون

أودعه خواتم الخلفاء جميعاً من العباسيين والامويين والخلفاء الراشدين  
ومن كان يقوم بدعوة الخوارج بدمهم وفي صدر الدواتين فكان جامعاً  
لجميع خواتمهم (١) الا خاتم النبي صلى الله عليه وسلم ولولم يكن ضاع من  
عثمان في بئر أريس كما تواتر في الانباء (٢) لما كف عن طلبه حتى يجده  
وفي هذا المجموع وأمثاله من المجاميع أدب حاصل مع الفكاهة والزينة  
وهذا ما أذكره من فضائل هذا الامير وليس هو الا النزر اليسير في  
جانب الكثير الواسع من فضله وأدبه .

﴿ جمال البرامكة وانفجارهم بالكرم ﴾

أما دور ملوكتنا البرامكة أعزهم الله فانها في الجانب الشرقي بازاء  
دور الخلافة ليس بينهما الا عرض دجلة (٣) وهي من الجمال والاشراق  
بمكان تسامى (٤) به قصور الرشيد لانهم بنوها على السعة التي لم يبلغها أحد  
من الملوك فقد أنفق جعفر بن يحيى على دار بناها عشرين ألف ألف (٥)  
درهم فهي مظهر الانس والصفاء . ومشرق الانوار والسناء . مغشاة  
بالرسوم والزخرفة من الداخل والخارج وعليها صور من الجص المجسم (٦)  
وقد فرشت مجالسها بالوشى والابريسم وزينت بالمتاع الثمين والقماقم

(١) في العتد الفريد والمسعودي والمقريزي والحاميس وابن الاثير ذكر كثير  
من خواتم الخلفاء وما كانوا ينتشون عليها (٢) أبو الفداء ٧٧\*١ وابن جبير ١٩٩  
وتقويم البلدان ٨٧ وغيرهم (٣) الفخرى والاتبليدي ١٦٧ والفزويني ٢١٠ (٤)  
الدميري ١٥٤\*٢ (٥) ابن الاثير ٦٢\*٦ (٦) كانت العرب تعرفه كما في المقدمة ٣٥٧

الذهبية (١) والجامات المنقوشة (٢) والقوارير الفرعونية (٣) ولطائف الصين وغيرها من التحف التي تأتيهم من الملوك في سبيل المراضاة والاستمالة (٤) ولدت طيقانها بأستار من الدياج عليها آيات مرسومة (٥) مما قالته الشعراء في مدحهم وهي تأتيهم من مصنوعات الفرس لأن العرب لا يعملون الطراز منذ نهاهم عنه عبد الملك بن مروان (٦) ولا يكتبون على البسط والستور الا كلاماً يتبرك به بخلاف الفرس فانهم يزینون نسيجهم بالرسوم ويكتبون فيها ما يطيب لهم من الشعر أو تبركون به من الآيات .

وقد اتصلت عمارة البرامكة في حي لا يخالطهم فيه أحد وهي من السعة بحيث تنتمي من الجنوب الى شارع المدينة (٧) ومن الشرق الى درب دينار الصغير (٨) ومن الشمال الى باب الشماسية (٩) وهو الموضع الذي فيه قصر يحيى المعروف بقصر الطين (١٠) المسمى بذلك معارضة

(١) الكنز ٣٦ (٢) الاغانى ٢٧٥٣ (٣) الاغانى ١٣٠٦ و ١٠٣ (٤) النخري ١٨٦ والمقدمة ١٤ وفي ابن الاثير ٥٨٦٦ انهم كانوا من المنزلة الكبرى في عيون الملوك بحيث ان خاقان ملك الخزر حمل ابنته الى النضل بن يحيى تقرباً اليهم في المصاهرة (٥) رسم الآيات على الاستار المذكور في الاغانى ٨٦٥٥ و ١٠٠ (٦) الاتليدي ٢٧٢ (٧) ذكره الاغانى ٧٨٦٦ (٨) ابن خلكان ٣١١٥٢ (٩) الاغانى ٨٥٥ وذكره المسعودى ٣٨٥٥٢ وقال انه في الجهة الشرقية لتقاء قطربل وذكر ابن الاثير ٩٨٦٦ انه نزل به جنود المأمون يحاصر بغداد (١٠) الاغانى ٨٥٥ وياقوت ١١٤٥٤

لما أنفق عليه من الذهب وأخذ فيه من الزينة والزخرفة وفي جوارهم  
موضع يقال له البردان (١) يشترون فيه الدور من الناس ويهبونها لمن هو  
طامع فيهم من أهل العلم والادب (٢) لانهم قد رفعوا بيوتهم على قواعد  
الكرم والسماحة (٣) واصبحت أعطياتهم كأعظم ما يكون من أعطيات  
الملوك فان يحيى اذا ركب يعد صرراً في كل صرة مائتا درهم ويدفعها  
للمعرضين له في الاسواق والشوارع (٤) وقد قالت الشعراء في ذلك .

ياسمى الحصور يحيى أتيجت لك من فضل ربنا جنتان

كل من مر في الطريق عليكم فله من نوالكم مائتان

أما وقوف الملوك والامراء على أبوابهم فما لا تحضرني عبارة تفي بالافصاح عنه  
وانما لا ين أن ترى ازدحام الخيل في ساحات قصرهم واقفة بالخدم والحفد  
والغلمان مما ليس على باب الرشيد مثله وكذلك اقبال المؤمنين عليهم  
من جميع الوجوه وأبعد الآفاق يمتطون اليهم رحال الرجاء ويستقون من  
موارد احسانهم نهلاً وعللاً لا أشهر من أن أحاول نعتة بالوصف الذي لا يعبر  
عنه القلم فكأنما يدهم محط الركاب يضعن فيه المدائح ويحملن منه المال .  
وافقد رأيت من العربان من قصد الفضل من قضاة فسأله عن

(١) الاغانى ٨\*٥ و ذكر المسمودى هذا الموضع ٢\*٢٦٧ (٢) الاغانى ٥\*٧٢

(٣) الاغانى ٥\*٧٢ والاتبسى والابشيه والوطواط وأبو الفداء وابن خلدون

والفخرى وابن نباتة وابن خلكان وغيرهم (٤) ابن خلكان ٢\*٣٦٣ والفخرى

حاجته ناستجداه عشرة آلاف درهم فاستقل ذلك له وقال له قد ازدريت بنا وبنفسك يا أخا العرب وانما تعطى عشرة آلاف درهم في عشرة فلما أخذ المال انصرف وهو يبكي فقال له الفضل مم بكائك أستقلالا للمال الذي أعطيتك قال لا ولا كنتي أبكي على مثلك تواريه الارض ويأكله التراب وأنشد (١)

لعمرك ما الرزية فقد مال ولا فرس يموت ولا بعير  
ولكن الرزية فقد حرّ يموت لموته خلتي كثير

فنظر الى الفضل بعد انصرافه وقال لي ان مثل هذا يقصدنا من البلد البعيد ليسترفدنا مرة واحدة في زمانه فيقوم بحرمة الصديعة ومن الامراء من نغمه باحساننا كل يوم (٢) ثم يغمط النعمة ويدب فيه مرض الحسد فيكون من أشد الناس بفضا لنا وسعيا في فساد ملكنا.

وقد انفجر البرامكة بالكرم (٣) حتى صار يضرب بهم المثل الاكبر في سعة العطاء فيقال فلان من الملوك يتبرمك وقد أخبرني الخازن القائم على بيت مالهم انهم يغلون في كل سنة عشرين ألف دينار (٤) فاذا انقضى الحول لا يبقى منها في الخزانة دينار واحد فهم يتخذون الكرم

(١) الاتلیدی (٢) الفخری ٢٤٠ والوطواط ٢٤٩ والعقد الفريد ٣٤٣\*٣  
والمستطرف ١٩٢\*٢ والاغاني ١١٩\*٥ (٣) الاغاني وابن خلدون وابن الاثير  
وأبو الفداء والمسعودي والعقد الفريد والمستطرف والاسحاقى والاتلیدی والفخری  
والسيوطى وابن خلكان (٤) العقد الفريد ٢٨\*٣

قاعدة في الحالين من نعيم الدنيا وبؤسها يقول أبو الفضل (١) أيد الله ملكه  
إذا أقيمت الدنيا فأنتقى فانها لا تنفى وإذا أدبرت فأنتقى فانها لا تبتى. وقال  
أبو نواس في مدحهم (٢).

ان البرامكة الكرام تعلموا  
واذا هم برصنع الصنائع في الوري  
فعل الجميل وعلومه الناسا  
جعلوا لها طول البقاء أساسا  
وقال فيهم نصيب (٣).

عند الملوك مضرة ومنافع  
ان العروق اذا استسربها الثرى  
وأرى البرامك لا تضر وتنفع  
أشر النبات بها وطاب المزرع  
وقديمه فانظر الى ما يصنع  
فاذا جهت من امرى أعراقه  
وقال أبو النضير البصرى (٤).

اذا كنت من بغداد منقطع الثرى  
وقيل فيهم وهو منتهى المديح (٥)

أنا بنو الآمال من آل برمك  
لهم رحلة في كل عام الى العدا  
فياطيب أخبار وياحسن منظر  
وأخرى الى البيت العتيق المستر  
بيحني وبالفضل بن يحيى وجعفر  
بمكة ما يحرق ثلاثة أقر  
اذا نزلوا بطحاء مكة أشرفت  
فتظلم بغداد وتجلو لنا الدجى

(١) الأتليدى في كتاب اعلام الناس (٢) الاغانى ١١١\*٥ و٢٠\*٣٤ والحصرى

٣٧٥\*١ (٣) الاغانى ١٠\*١٠٠

فما خلقت الا لجوداً كفهم وأقدامهم الألعواد منبر

اذا راض يحيى الامر ذلت صحابه وناهيك من راع له ومدبر

وقال سلم الخاسر في يحيى (١) أعزه الله تعالى

يا أيها الملك الذي أضحي وهنته المعال

أنت المنوّه باسمه عند الملت الثقال

لله درك من فتى ما فيك من كرم الخصال

وقال فيه أبو نصر (٢) وأنا أستحسن البيتين وأرى لهما وقعا لطيفاً

من القلوب

نا الخليون من وهم ومن سقم وبت من كثرة الاحزان لم أنم

يا طالب الجود والمعروف مجتهداً اعمد ايحي حايف الجود والكرم

وقال فيه آخر (٣)

سألت الندى هل أنت حرقان لا ولكنتي عبد ايحي بن خالد

فقلت شراء نال لابل وراثة توارثني من والد بعد والد

وقال غيره (٤)

لا تراني مصافحاً كف يحيى انى ان فعلت ضيعت مالى

لو يمس البخيل راحة يحيى لسخت نفسه بيذل النوال

وقال غيره في كرم النضل (٥) دعاه الله تعالى .

(١) الوطواط ٢٤٩ (٢) الاغانى ١٣٥٥ والالتىدى ٢٣٨ (٣) اعلام الناس

والعقد الفريد ١٠٠٥١ (٤) الفخرى ٢٣٦ (٥) اعلام الناس



حكى الفضل عن يحيى سماحة خلد فتأمت به التوى وقام به العدل  
اليه يسير الناس شرقا ومغربا فرادى وأزواجا كأنهم نحل  
واعترضه وقت خروجه الى خراسان فتى من اتجار كان قد شخض الى  
الكوفة فقطع عليه الطريق وأخذ جميع ما كان معه فأخذ بعنان دابة  
الفضل وقال (١) .

سأرسل بيتا ليس في الشعر مثله يقطع أعناق البيوت الشوارد  
اقام الندى والبأس في كل منزل أنام به الفضل بن يحيى بن خالد  
وقال آخر من شعراء البادية (٢)  
قد كان آدم حين حان وفاته أوصاك وهو يجود بالحوباء  
بنيه ان ترعاهم وفرعيتهم وكفيت آدم عياة الابناء  
وقال فيه آخر (٣) .

لم تر أن الجود من عهد آدم تحدر حتى صار يمتطه الفضل  
ولو أن أما مسها جوع طفلا غذته باسم الفضل لاغتدى الطفل  
وقال فيه أشجع السلمى الشاعر (٤) .  
وما ندم الفضل بن يحيى مكانه على غيره بل قدمته المكارم  
لقد أربى الاعداء حتى كأنما على كل ثغر بالمنية قائم  
وقال أبو النضر البصرى (٥) .

(١) العقد الفريد ١\*١١٩، ٢) ذكر في العقد الفريد ١\*١١٤ أن البيتين قبلا في الحكم

ابن حنطب (٣) اعلام الناس (٤) الاغانى ١٧\*٣٤ (٥) الاغانى ١٤\*١٠ و ١٠٠\*١٠٠

ويفرح بالمولود من آل برمك  
وتبسط الآمال فيه لفضله  
وقال غيره (١)

ولائمة لامتك يا فضل في الندى  
أرادت لتثني الفضل عن سنن الندى  
مواقع جود الفضل في كل بلدة  
كان وفود الناس لما تحموا  
وقال آخر (٢)

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة  
وقال ابن الخياط المكي (٣)

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى  
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى  
وذلك أن الفضل أمر له ذات يوم بخمسة آلاف درهم فإذ أذنه في  
تقبيل يده فأذن له فما انتهى إلى الباب حتى فرق المال بأسره فعوتب  
على ذلك فقال البيهقي المذكورين فبلغ ذلك الفضل فأعطاه عشرين ألف  
درهم . وقال بعضهم (٤) وهو أمدح بيت في الكرم .

(١) اعلام الناس والعقد الفريد ٢٩٨\*١ (٢) المستطرف ١٩٦\*١ (٣)  
حياة الكميت والوطواط ٢٥٠ والاعاني ٩٤\*١٨ وهو يقول انه أنشدهما في  
المهدي (٤) ابن خلكان ٥٨٦\*١

مالقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء  
وقال مروان بن أبي حفصة في جعفر وهو صبي (١)

بنك خالد وأبوك يحيى بناء في المكارم لن ينالا  
كان البرمكي لكل مال تجود به يداه يفاد مالا

وقال فيه أيضاً (٢)

أنى كل يوم أنت صب و ليلة الى أم بكر لا تفيق فتقصر  
أحب على الهجران اكناف بيتها فيالك من بيت يحب ويهجر  
الى جعفر سارت بنا كل حرة طواها سراها نحوود والتهجر  
الى واسع للمجتدين فناؤه تروح عطاياهم وتبكر

وقال فيه (٣)

بدولة جعفر حمد الزمان لبابك كل يوم مهرجان  
جعلت هديتي لك فيه وشياً وخير الوشى مانسج اللسان

(١) هو زيادة في التصيدة التي رثى بها معنا ولم يثبه عليها أحد من أولاده  
مثل ما أتى به جعفر البرمكي فألحقها ببعض أبيات في مديحه . ومما قاله مروان في  
هذه التصيدة في رثاءه عن

كان الشمس يوم أصيب . عن من الاظلام مابسة جلالا  
هو الحيل الذي كانت معدّ تهدّ من العدو به الحيلالا  
أقنا باليمامة بعد معن مقاما لا نريد به زيالا  
وقنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلانوالا

وهي من جيد الشعر . الاغانى ١٨\*١١٦ والحصرى ١\*٣٧٧ (٢) الاغانى ١٥\*٥

(٣) العقد الفريد الفريد ٣\*٣٧٧

وقال العتابي وكان في نفس الرشيد عليه موجدة واستعطفه جعفر عليه  
فقال فيه (١)

ما زلت في غمرات الموت مطرّحا      قد ضاق عني فسيح الارض من حيلي  
ولم تزل دائما تسعى بلطفك لي      حتى اختلست حياتي من يدي أجلى  
وقال فيه أشجع السلمى (٢)

يريد الملوك مدى جعفر      ولا يصنعون كما يصنع  
تلوذ الملوك بابوابه      اذا نابها الحدث الافضع  
وقال فيه (٣)

ذهبت مكارم جعفر وفعاله      في الناس مثل مذاهب الشمس  
ملك تسوس له المعالي نفسه      والعقل خير سياسة النفس  
فاذا تراءته الملوك تراجعوا      جهر الكلام بمنطق همس  
ساد البرامك جعفر وهم الالى      بعد اخلائف سادة الانس  
لاضر من قصد بن يحيى راغبا      بالسعد حل به أم النحس  
الى غير ذلك من الاشعار التي لو حاولت تقيدها في هذا الكتاب لبلغت  
أكثر من عشرة آلاف بيت من الايات الجيدة ليس فيها بيت سخيف  
بارد . وقد وجدت للرقاشي (٤) وحده ديوانا يحوى أكثر من ألف  
بيت في مديحهم وهي من البلاغة بحيث ان البرامكة أعزهم الله يروونها

(١) الاغانى ٧\*١٢ (٢) الاغانى ٣٤\*١٧ (٣) الاغانى ٣٣\*١٧ (٤) الاغانى

٣٥\*١٥ ويظهر من كلام ابن الاثير ٦٤\*٦ ان الرقاشى كان شاعر البرامكة

لأولادهم تفضيلاً لها على شعر غيره من المحدثين .

( الدولة في خلافة الرشيد )

نعود الى ما نحن آخذون به من ذكر مملكة الرشيد وسياسته فقد سبق القول بان دولته من أوسع دول الاسلام بل دول العالم رقعة مملكة فانها تنبسط من الهند وفرغانة في الصين الى طرف المغرب الاقصى من ناحية الزقاق كذلك كان امتدادها في أيام أبيه ما غير البلدان التي غلب عليها الروم في حروب متوارة قد استمرت بينه وبينهم على غير انقطاع كما كان شأن الخلفاء في رفع السيوف عليهم منذ صدر الاسلام فان الدولة الاموية قد حملت عليهم المرّة بعد المرّة ووجّاهتهم خسائر عظيمة من الرجال والمال وكذلك العباسية بعدهم قد ساقوا اليهم الجيوش ولم يزل أبو جعفر في مغالبتهم حتى أذاقهم مرّ البلاء وكانوا مع ذلك لا يفترون عن الثورة وبأبون الانكث اليهود ونقض العقود المبرمة فلما ولي المهدي أخرج اليهم الرشيد (١) وهو فتى بقيادة يحيى وزيرنا فركب في عدة وأهبة لم يكن مثلها في الاسلام وتحركت في نفسه نحوه الجهاد حتى اتسم بسمة المحاربين في الجيش وحمل الرمح في يده (٢) وكان على القسطنطينية ملكة يقال لها ريني لم تطق مقاومته فهزم جندها وتفرق المسلمون في البسائط (٣) يمفون الآثار ويبيحون الذمار ولا يبقون على أحد من الروم حتى اذا نزل بجوار

(١) أبو الفداء ١٠٠٠٢ والخميس ٣٣١٠٢ وابن الاثير (٢) الاغانى ١٧٠٤٨

(٣) ابن الاثير ٧٠٠٦

القسطنطينية ونصب على أسوارها المنجنيقات خافت عليها من الحريق فصالحته على كيايكية وحملت اليه الجزية التي كان يحملها أسلافها الى الخلفاء وتلك أحسبها للروم من حيل السياسة في إيجاد الهدنة بالجزية فيما بينهم وبين المسلمين ففى نفسى أنه لو لم يتهاون الخلفاء فى أمرهم لما بقى لهم ملك تجاه دول الاسلام العظيمة

ثم انه بمد أن ولى الرشيد وقع فى نفوس الروم أن يتقاعدوا عن حمل الجزية اليه فعبي لهم العساكر وشحنها فى أسطول يسوقه حميد بن معيوب أمير الأساطيل بسواحل الشام (١) وسير الفرسان من ناحية البر يحرقون المدن ويبيثون الخراب ففتحوا وغنموا (٢) وأخذوا وأوغلوا حتى انتهوا الى جوار القسطنطينية وأطافوا بمأقل الروم وأخذوا عليهم مهاربهم فلما أدركت الملكة العجز عن دفاعهم ورأت الجند بين يديها وهو شتيت صالحتهم على الجزية وراحت تحملها الى بغداد وهى صاغرة الى انقضاء ملكها بعد ان نال المسلمون من غنائمهم أعظم النيل واستشعروا من عزة الاسلام فى غزوتهم تلك ما أفاضوا فى التحدث به الى هذا اليوم والحمد لله الذى بنعمته تم الصالحات . وتصدر رايات الاسلام راويات .

ولما هلك ربنى نصب الروم عليهم تقفور وكان ملكا شديدا بالباس

(١) ابو الفرج \* وذكر امارة الاساطيل بسواحل الشام ومصر ابو الفداء

٢\* ١٩ (٢) نزل حميد بن معيوب قبرص وسبى من اهلها ستة عشر ألفا ابن الاثير ٦\* ٧٠

الا أنه قليل الخبرة بامور السياسة غير عارف بمكان الاسلام من الصولة والدولة بل كان يظن في المتمصرين من العرب فتورا في العزيمة وتشاغلا عن أمر الجهاد بما ركنوا اليه من دعة المران فكتب الى الرشيد في منتصف هذه السنة كتابا بنقض الهدنة التي كانت بينه وبين ربي يقول فيه « من تقفور ملك الروم الى هرون ملك العرب . أما بعد فان الملكة التي كانت قبل كانت قد أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت اليك من أموالها أحمالا (١) وذلك لضعف النساء وحمقهن فاذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها والا فالسيف بيني وبينك » فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضبا حتى لم يجسر أحد أن ينظر اليه فدعا بدواة وكتب على ظهر كتابه بسم الله الرحمن الرحيم من هرون أمير المؤمنين الى تقفور كاب الروم قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه (٢) ثم حشد الجنود ليومه وركب في صفوف المترجلين والفرسان وحمل القوات والاقوات استظهارا على نفوذ الزيمة ولم يزل حتى وافى مدينة هرقله (٣) ونصب عليها القتال وهي مدينة للروم لم يطمع أحد من ملوك الاسلام في الوصول اليها لخشونة مكانها فذلك أسوارها بالمنجنيق ومنحه الله أكتاف الروم فنقلهم رقابهم

(١) في تاريخ أبي الفداء انه قال فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أضعافه اليها لكن ذلك من ضعف النساء وحمقهن الى آخر الكتاب (٢) الاغانى ٤٥\*١٧ والطبرى وابن خلدون والسيوطى والمسعودى ١٥٨\*١ وأبو الفداء ١٨\*٢ (٣) أبو الفداء ١٩\*٢

وأموالهم وفي ذلك يقول الشاعر المكي (١)

هوت هرقة لما أن رأت عجيا حوائثا ترتمى بالنفط والنار  
 كأن نيراتنا في جنب قلعهم مصبغات على أرسان قصار

وهذا كلام ضعيف لين ولكن قدره عظيم في ذلك الموضوع والوقت (٢)  
 ولم تقف هزيمتهم على هرقة فقط بل كانوا يسمون كثيرا من المعاقل  
 والبدان فكان ذلك الفتح فتحا عظيماً لا كفاء له وهنأت الشعراء الرشيد  
 قال أبو العتاهية في ذلك (٣)

قضى الله أن صفى لهرون ملكه وكان قضاء الله في الخلق مقضياً  
 تحببت الدنيا لهرون بالرضا وأصبح تقفور لهرون ذمياً

فلما ضاقت بهم الحيل ولم يكن لهم بالمسلمين قبل رغبوا في المسألة  
 والموادعة وأوجبوا على نفوسهم اعطاء الجزية وهم صاغرون . ولست  
 أقول ان هذا الفوز كان سهلاً على الرشيد فانه قد طوّح من الرجال  
 وأنفق من الاموال ما هو حقيق بأن ينظر فيه فان الروم أهل بأس  
 ومراس شديد وهو يقاسى (٤) معهم الحروب الصعاب ولم يكن في شأنه

(١) الاغانى ٤٧\*١٧ والمسعودى (٢) الاغانى ٤٧\*١٧ (٣) المسعودى ١٥٨\*١

(٤) ذكر الاغانى ٣٨\*١ أن الرشيد قال للاصمعي عقب قدومه من بلاد الروم

أنشدني أحسن ما قيل في رجل لوّحه السفر فأنشده قول عمر بن أبي ربيعة

رأت رجلاً ما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر

أخا سفر جوّاب أرض تقاذفت به فلوات فهو أشعث أغبر

وفي العقد الفريد ١٧٨\*٣ تكلمة هذه الايات وهي قصيدة مشهورة يستحسن

الظرفاء طريقة نظمها لكن ربما وقع فيها تحريف من الناسخين



معهم حيلة ولا سياسة وإنما هي حروب قد توصلت تباعاً وأخذ بعضها برقاب بعض بما يروم من نفوذ السلطان حتى يركب عليهم سيف الاسلام والافان الجزية التي يطمع فيها لاتنى بالقليل من الاموال التي تنفقها الدولة وهي بمكانها من المهاجمة ومكان الروم من المدافعة في ظلال الاسوار وفي ذلك تفاوت بعيد بخسائر القتال فيدلك على قوة الاسلام أنه غزاهم غزوات كثيرة ما أخفق في واحدة منها كما رأيت

هذا كان شأن الرشيد مع صهب السبال أما السياسة التي أتعبت خاطره فكانت منصرفه الى اذلال العلويين في المغرب قبل أن تسود بهم الحال . وتسود عندهم جموع الرجال . لانه تعذر عليه محاربتهم مثل الروم بتجاني عظماء دولته من أهل الرأي والتدبير عن قتال المسلمين على غير فائدة الاضياع المال وضيعة الرجال ولذلك جعل الملك في افريقية لآل ابن الاغلب حتى يقاوموا جندهم فلا يتمكنوا من اقامة مملكة تنهال من المغرب فتطمو على المشرق كله فكانه وقع بين أمرين مخوفين عليه فاختر ما هو أقرب الى النجاة بأن يملك الأغلبة المغرب حتى اذا قامت دولتهم رسخت في مكانها ولم تتجاوز الرمال التي بين افريقية ومصر .

على أن العلويين مع ذلك كله قد ملكوا البلاد الى طرف المغرب ولم يأل ابن الاغلب في مناوانهم جهداً وهو لا يبلغ الغاية التي يرومها من اذلال ملكهم وتضييع نفوذهم في المسلمين لان جندهم مطيع لهم

فما استقروا فيه من تلك الاقاليم وكلهم صادق الحملة مدرب على القتال ولا سيما قبائل صنهاجة من بطون حمير (١) وهم أمنع الناس ذماراً. وأبعد الفرسان مغاراً. وذلك أمر طيب مني النفس لا بغضاً في آل العباس لاني لأريد بهم مكروها وانما العلويون هم أهل البيت الكريم وفيهم الانجاب الذين تعرف البطحاء وطأتهم والبيت يعرفهم والحل والحرم (٢) كما يقول الفرزدق الشاعر في مديحهم . فلعمري انهم أحق من الاغالبه بهذا الملك الذي أراه اليوم يثبت في أيديهم الى ما شاء الله من الزمان باتحادهم الى غاية واحدة وسياسة راشدة فقد عرفت ان تمزقهم فيما مضى انما حصل بتفرق دعواتهم على أغراض لم تجمع بينهم الى الوحدة . وفيما تقدم من الكلام عن أبي جعفر ما يبين لك أنهم لو لم يفترقوا لظفروا . أما اليوم فانهم مجتمعون الى ادريس بن ادريس وله دون غيره من أهل البيت السلام عليك يا ابن رسول الله (٣)

وانما سار العلويون الى المغرب وأقروا فيه مملكتهم بايعاز البرامكة الامجاد وهم الآخذون بناصرهم والمتفرضون معهم (٤) والمقلدون

(١) ذكرهم ابن خلكان ١٢٢\*١ (٢) الاغانى ١٤\*٨٧ والاتبليدى ٥٤ والشبلنجى ١٧٠\*٣ ابن خرداذبه ٧٩ (٤) في تاريخ أبي الفداء ٢\*١٢ ان الرشيد لما جهز الفضل بن يحيى الى قتال يحيى بن عبد الله كتب اليه الفضل وبذل له الامان وربما جعل الرشيد نفسه يحسن اليه ويكرم وفادته عليه وفي ذلك دليل واضح على محبته البرامكة لاهل البيت . وذكر ابن الاثير ان الفضل بن سهل الملقب بذي الرياستين كان يتشيع وان البرامكة هم الذين اختاروه لخدمة المأمون ٦\*٧٠

الولايات لكثير من أهل الشيعة (١) الا انهم لا يعتمدون في ذلك ضرر الرشيد وهو المؤمن لهم على مملكته لان المغرب فيما يرون اذا انسلخ عن بغداد لا يحدث في الخلافة ضرر المناسبة عظم الممالك الاسلامية وانما يضر التجزؤ بالدول اذا كانت الدولة منحصرة في اقليم غير متسع الى طرف العالم وكان في جوارها امة ثانية متغلبة فانها تسطو عليها شيئاً فشيئاً الى أن تلهمها جملة واحدة كما رأينا في سير الامم الماضية أما الخلافة الاسلامية فان الجهاد في الاعاجم يعمل على استمرار مملكتها ووقايتها ويود عليها من استقلال بعض الملوك في اطرافها انهم يمنعون عنها عدوها من قبل أن يصل اليها فتحفظ خزائنها من اتفاق المال . ورجالها من تنزير القتال . وتبيت في شؤونها آمنة بحراستهم . اللهم الا أن يكون فيهم من هو أشد سلطانا . واكثر جنودا وأعوانا . وهذا بعيد عن أن يكون في دولة متجربة من الخلافة ولو انضمت جميعا الى قيادة واحدة لما نوت الرشيد وانزعت الخلافة منه وهو بموضعه من عظم الشأن وضخامة الملك وله الهند والسند وأرمينية والكرمان ومصر والشام ونجد وتهامة واليمن والحجاز وفارس وخراسان فهذا معظم الدنيا المعمورة وأوفر بلادها روية وأطيبها تربة وغلة حتى لقد يجبي له من اقليم واحد من هذه الاقاليم كصر مثلاما لا يجبي الى غيره من سائر اقاليم الاطراف .

فكان ملوكنا البرامكة أعزهم الله يرون أن قيام الدولة العلوية في

المغرب داع الى صلاح الرشيد وأنها تكون مجنا للخلافة بما تجاهد لها في  
 ردة الأمم النصرانية . وكان جعفر يقول لي انه لو لم يكن للرشيد  
 في هذه البلاد النائية الا قضاة كما كان ملوك بني أمية في الاندلس  
 لما ظهروا على الفرنجة والجنديين أيديهم قليل ولو أنه ائتمهم لاستنفدوا  
 ماله أو استنصحوهم لكانوا عليه لاله فيثبت بعد ذلك أن حبه وآل بيته  
 للعلويين يعود بالمنفعة على الرشيد والمصلحة على جميع المسلمين لانه اذا قامت  
 دولتهم في المغرب كان ذلك أثبت لبقاء الاندلس في يد المسلمين (١) وربما  
 أعاد الله سبحانه على يدهم ما استعادته الافرنج من البلدان التي فتحتها  
 طارق بن زياد والله يبدي أمما ويحيي أمما لاله الا هو ذو الملك والسلطان.

### عمران بيت المال

لم يبق علينا لبيان عظم دولة الرشيد الا أن نذكر قدر المال الذي  
 يحمل اليه من جميع الممالك والبلدان فانه لم يُسمع عن دخل دولة من دول  
 الخلفاء انه تجاوز القدر الذي يحمل الى بيت المال في زمانه مع أنه يسلك  
 مع الملوك مسلك الحلم ولا يضرب عليهم الخراج الا على قدر ميادرتهم .  
 وان كان قد زال عنه القليل مما يحمل اليه من المغرب فقد استعاض عنه  
 بالكثير مما فرض على بلدان النصرانية التي غلب عليها الروم من الاموال  
 التي لا يصح أخذها (٢) من المسلمين كالخراج والعشور التي تؤخذ على

(١) نذكر هنا انه قامت في المغرب بعد ذلك الوقت الدول العظيمة التي فتحت

الفتوح وأعزت الاسلام (٢) ابن جبير ٧٦

جميع غلاتهم ومحاصيلهم (١) فقد بلغ المحمول اليه في كل سنة نحواً من  
 خمسمائة ألف ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف ألف دينار من الذهب  
 « ما عدا الغلال والمصنوعات كما ستراه » فحمل الناس كثرة هذا المحمول  
 على أن يعدلوه بالوزن لا بالعدد فيقولون انه يبلغ ستة أو سبعة آلاف  
 فنظار من الذهب (٢) الا ان ذلك غلو وافرط في تعظيم الشيء فن المعروف  
 ان الفنظار انما هو زنة ثلاثين ألف دينار وبعد أن يوجد في العالم ألفا  
 ألف ألف دينار من الذهب ولو جاز وجودها لما صح أن تحمل كلها الى  
 بيت المال ولا يبقى منها شيء في أيدي الناس لمعاملاتهم . وتقديرهم هذا  
 وان كان بعيداً عن الصحة فلا أقل من كونه يدل على الكثرة وأن المال  
 يحمل الى بغداد بالصبر (٣) لو فور الخير .

وعندى أن ما يحمل اليوم الى بيت المال لم يكن يحمل نصفه الى  
 خزائن الامويين ولا الخلفاء الاولين من بني العباس ولا يعد أن عمالهم  
 كانوا يجبرون من مال الجزية قدراً لا يحملونه اليهم لاختلاف تقدير  
 الجزية على أهل الذمة بين ثمانية وأربعين درهما تؤخذ من ذوى اليسار  
 وأربعة وعشرين من الصناع وأهل الحرف واثني عشر درهما من ذوى  
 الفاقة والاعسار (٤) دون أن يكون في الدواوين عمل لذلك . ولما قام  
 وزيرنا (٥) أيده الله بأعباء الدولة فرض على المال ما هو مفروض على

(١) الزرقاني (٢) مقدمة ابن خلدون (٣) الفزويني ١٠ (٤) المقرئ

والمستطرف ١٣٨٥١ (٥) هو جعفر بن يحيى البرمكي

ناحياتهم من جزية وخراج وغير ذلك حتى صار يقرر الدخل في السجل من قبل أن يحصل في يديه فلم يبق سبيل الى نقص الاموال الا فيما يؤخذ من المكوس على السلع وما يتصرف به العمال من نفقات (١) ولاياتهم وليس هو الا القليل في جانب الكثير من دخل الدولة .

وقد يطرأ على تقدير هذه الاموال شيء من الزيادة والنقصان بتقل البلاد من حال الى حال . وربما غلبت عليها الزيادة لو فور الخير والعدل بها حال . فقد كان حاصل السواد وهو أرض (٢) ما بين الموصل وعبادان في الطول وما بين عذيب بالقادسية الى حلوان في العرض عشرين ألف ألف درهم في زمن الحجاج (٣) لكثرة الظلم فلما ارتفع عنها الجور ساد فيها العمران (٤) حتى صار يحمل منها اليوم نحو ستين ألف ألف درهم . وكان حاصل فارس واصبهان وكرمان في عهد الامويين ثلاثين ألف ألف درهم فلما انتظمت فيها الاحكام وانتشر فيها العدل حمل منها البرامكة خمسة وأربعين ألف ألف درهم . وكذلك عهد الخلفاء بخراج مصر « بعدما جباها عمرو ابن العاص في زمن الخير اثني عشر ألف ألف دينار (٥) » ألف ألف وتسعمائة ألف دينار وذلك لاختلال أمرها وسوء سياسة العمال فلما تولاها البرامكة جبا منها للرشيدي ثلاثة آلاف ألف دينار وأربع مائة ألف دينار (٦) واستمرت على ذلك الى هذا اليوم .

(١) ذكره المقرئ ٩٧\*٠ (٢) الماوردى ١٩٩ (٣) المستطرف وابن خرداذبه

٣٦ (٤) المستطرف ١٢٥\*١ (٥) المقرئ ٩٨\*١

ويحمل الى بغداد غير هذه الاموال المقررة والغلال الكافية  
لارزاق الجند وعلف خيلهم قدر من المصنوعات والمحاصيل التي تكون في  
البلادان فيحمل من السواد مائتا حلة من الحلل النجرانية ومائتان وأربعون  
رطلا من طين الختم الاحمر الذي يطبع به على طرف الرسائل السلطانية  
ويحمل من الاهواز ثلاثون ألف رطل من السكر . ومن فارس ثلاثون  
ألف قارورة من ماء الورد ومن اصبهان عشرون ألف رطل من الزبيب  
الاسود . ومن مكران خمسمائة ثوب من المتاع اليماني وعشرون ألف رطل  
من التمر ومائة رطل من الكمون . ومن السند مائة وخمسون رطلا من  
العود الهندي . ومن سجستان عشرون ألف رطل من السكر وثلاثمائة ثوب  
من الثياب المعنية . ومن خراسان ألفا نقرة من نقار الفضة وأربعة آلاف  
برذون وألف رأس من الرقيق يتخذون خدما في دور الخلافة ويكون لامراء  
بني هاشم وغيرهم من عظماء الدولة نصيب وافر منهم وعشرون ألف ثوب  
من المتاع وثلاثون ألف رطل من الاهليلج وألف وثلاثمائة قطعة من  
صفائح الحديد . ومن جرجان ألف شقة من الابريسم . ومن قومس  
خمسمائة نقرة من نقار الفضة . ومن طبرستان والروبان ونهاوندس مائة قطعة  
من الفرش الطبري ومائتا كسوة وخمسمائة ثوب وثلاثمائة ألف منديل  
وثلاثمائة جام . ومن الري وقزوین عشرون ألف رطل من العسل . ومن  
همدان ألف رطل من رُب الرمان واثنان عشر ألف رطل من التين ومن  
الموصل وما اليها وأعمال نينوى عشرون ألف رطل من العسل الابيض .

ومن الجزيرة وأعمال الفرات ألف رأس من الرقيق واثنا عشر ألف زق  
 من العسل وعشر بزاة مرباة لصيد الملوك وعشرون كسوة من الحرير  
 للبيت الحرام . ومن أرمينية قدر من البسط وخمسمائة وثلاثون رطلا من  
 الزم ومائتا بغل وعشرة آلاف رطل من الصونج ومن قنسرين والجند  
 ألف حمل من الزيت . ومن جند فلسطين ودمشق قدر كبير من الفاكهة  
 اليابسة وثلاثمائة ألف رطل من الزيت . ومن افريقية مائة وعشرون بساطا  
 ومن اليمن شيء كثير من المتاع . وكذلك من نجد وعمان واليمامة والحجاز  
 وكنكر وحلوان ومهرجان وما سبذان وشهرزور وأذربيجان ومصر  
 وجند الاردن يحمل كثير من الحبوب والمصنوعات التي تصرف على  
 الجند وتنفق في مصالح الدولة (١)

وهذا المال كله يتصرف فيه الخليفة دون أن يعارضه فيه أحد من  
 أرباب الدولة الا فيما يعرضه عليه البرامكة من دفاتر الدواوين للموازنة بين  
 دخل الدولة وخرجها . وقد تجمع كثيره في بيت المال منذ صدر هذه  
 الدولة حتى أن أبا جعفر غفر الله له لما أدركه الموت قال للمهدى في وصيته  
 انه خلف له من الاموال ما ان كسر عليه الخراج عشر سنين كفاه لارزاق  
 الجند ومصاحبة البعوث وغير ذلك (٢) ولقد أخبرني يحيى أعزه الله عن خالد  
 أبيه وكان قائما على بيت ماله أنه بلغ ما خلف من المال أربعة عشر ألف

(١) مأخوذ من مقدمة ابن خلدون ٢١٤ وكتاب قدامة ورسالة ابن خرداذبه

(٢) ابن الاثير ٧٤٦



ألف دينار وستمائة ألف ألف درهم (١) فلولم يكن الا هذا في خزائن  
 الرشيد (٢) لكنى دولته فخرا على دول الخلفاء . وبهاء ليس مثله من بهاء .  
 فأما الفخر فيكون لها من حيث المنعة لانه ما دام بيت مالنا عامرا فلا تزال  
 ممتعة على العدو وأما البهاء فيأتيها من المال على الوجوه التي نستعنى عن  
 بيانها لوجوده طبيعة في الملوك المترفين الذين يتوسعون من نعيم العيش الى  
 تزين دولهم برواج الادب كما رأينا من اقبال الرشيد على تقريب العلماء  
 اليه وانتفاعه بعلمهم في دينه ودنياه .

### مجالس الغناء بدار الرشيد

كان الرشيد يتخذ للعلماء والندماء والشعراء مجالس مناظرة وعرض  
 أدب وصناعة كما كان يصنع أبوه رحمه الله ثم يجيزهم على موضعهم من العلم  
 بما لا يكاد يحصى من الجوائز وان الذي كنت أرتاح الى شهوده من المجالس  
 بداره اذا حضر وقته هو مجالس الغناء على أنى لم أره في السنين الماضية أحفل  
 منه في هذه السنة وكان الرشيد قد نشط له وقام بلبسته التي يلبسها في  
 الصيف وهي غلالة (٣) رقيقة يتوشح عليها بازار رشيدى عريض العلم  
 مضرج . وكان بين يديه جامات ذهب فيها دنانير (٤) منشورة يجيز بها من  
 يطيب منه المسموع وتصلح عنده الصنيعة ومن حوله جماعة من بنى هاشم  
 والفضل وجعفر من البرامكة أعزهم الله وهما جالسان بجانبه على سرير الخلافة .

(١) المسعودى ١٩٤\*٢ (٢) ذكر ابن الاثير ٧٦\*٦ انه كان في بيت المال لما توفي

الرشيد تسعمائة ألف ألف ونيف (٣) ذكرها الاغانى ٣٣\*٥ (٤) الاغانى ٥٨\*٩

ولما اجتمع المغنون جلسوا في صفوفهم بناحيتين من المجلس  
 للمناظرة (١) بينهم على الغناء . فمنهم المتعصبون للغناء القديم وهم جماعة  
 اسحق النديم . ومنهم المقصرون عن أدائه والمغيرون له وهم  
 جماعة ابراهيم بن المهدي وكان سبب هذا النزاع بين ابراهيم واسحق  
 أن ابراهيم تغنى بلحن قديم أضع صناعته فرد عليه اسحق وعاب عليه  
 تغييره فقال أنا ملك وابن ملك أغنى كما اشتهى وعلى ما ألتذ فتخالفا على  
 ذلك فانضم الى غرض ابراهيم اسماعيل بن جامع وفايح بن العوراء ويحيى  
 المكي وعمرو بن نابة وشارية وزيق وبنو حمدون وحسين بن محرز والهندلي  
 وغيرهم وبقي مع الموصلى المترفعون عن الاغراض والآخذون بمحاسن  
 الغناء من حيث طرائق الصناعة مثل مخارق وعلوية وعريب وبذل وسليم  
 ابن سلام ومحمد الرف وزبير بن دحمان وأحمد بن يحيى المكي ومحمد بن حمزة  
 ابن الوصيف وغيرهم (٢) وكان قوم ابراهيم بن المهدي قبل وزارة  
 جعفر رفع الله قدره أكثر عددا من حزب اسحق لانهم كانوا يتقربون  
 بكفالاته الى الرشيد فلما أخذ البرامكة بناصر اسحق وجهروا بتفضيله رجع  
 الى غرضه كثير من المجيدين ولم يزل المغنون في أهل البيوتات مثل البرامكة  
 وآل هاشم وآل الربيع يتمسكون بالغناء القديم ويحلمونه كما يسمعون فلم  
 يكن من مفسد له الا الذين تقدمت أسماؤهم وجماعة من أولاد العباسيين  
 مثل ابراهيم وأخيه يعقوب واختهما علية وعبدالله بن الهادي وعيسى بن

(١) ذكر هذه المناظرة الاغانى ٢٦٥٥ بين الموصلى وابن جامع (٢) من كتاب الاغانى

الرشيد وغيرهم (١) ممن يترفعون عن ان يقيد غناؤهم بالمحفوظ من أصوات المتقدمين وان كانوا بموضع جليل من هذه الصناعة فهذا ابراهيم ليس في الناس أعلم منه بالنغم والوتر والايقاعات ولا أطبع على الغناء . ولقد رأيتُه اذا غنى بمجلس الرشيد قرب كل من في دور الاخلافة من أقرب موضع يمكنهم أن يسمعه وحسن صوته وقليل ما كانوا يسمعونهُ اذ كان لا يفتنى الا على حال تصوّب عن الغناء وترفع الا أن يدعوهُ اليه الرشيد في خلوة أو اذا كان عنده جعفر فيقول له أحب ان تشرف جعفرا (٢) بان تغنيه صوتا فيغنى . ولقد كنت ذات يوم في خدمة أميرنا أعزّه الله فغنى ابراهيم على أبيات لمروان بن أبي حفصة يقول فيها (٣)

طارقتك زائرة فحى خيالها      زهراء تخاط بالجمال دلالها

(١) انظر أخبار من غنى من أولاد الخلفاء في الكتاب التاسع من الاغانى  
 (٢) كذا في كتاب الاغانى وربما قال الخليفة هذه الكلمات تحميا لاختيه وهى  
 • لا تنقص من قدر جعفر شيئا فقد ذكر • صاحب العقد ١\*١٠٠ أن منزلته كانت  
 بكذا مقدار احتق اذا دعى ابراهيم بن المهدي لجعفر قال له ابراهيم جعاني الله فداءك  
 انما أسعد بمساعدتك وآنس بمخالاتك وأعاد القصة نفسها في الكتاب الثالث صحيفة  
 ٣٤ وذكروا في الكتاب الاول صحيفة ١٦٧ انه لما زار جعفر سليمان صاحب بيت الحكومة  
 قبل سليمان يده ونال له بأبي انت مادعاك الى أن تحمل عبدك هذه المئة التي لأقوم  
 بشكرها ولا أقدر أن أ كافي عليها . وذكر صاحب مروج الذهب ٢\*٢٢٧ عن  
 مسيرة الرشيد لجعفر انه كان اذا انصرف من مجلسه خرج الرشيد حتى يركب مشيعا له

(٣) الاغانى ٧٢\*٩ والاتيدي ٢٨٧

هل تطمسون من السماء نجورها      با كفكم أو تسترون هلالها  
 أو تدفون مقالة من ربكم      جبريل بلغها النبي فقالها  
 فلما بلغ قوله جبريل بلغها النبي فقالها هز حلقه فيه ورجعه ترجيعا زلزلت  
 الأرض منه فما أظن أحدا يقدر على أداء الاصوات مثله الا اسحق  
 المخالف له على هواه والمقرّ بماله من جميل الصناعة لولا انه أفسد الغناء  
 القديم وجعل للناس طريقا الى الجسارة على تغييره .  
 وأول من غنى في ذلك اليوم ابراهيم أبو اسحق وكان ذلك بإشارة  
 مسرور العبد اذ كان أمر المغنين مفوضاً اليه (١) واذا أحب الرشيد  
 أن يسمع صوتنا (٢) أشار اليه فأشار هو الى المغنين فغنى ابراهيم .  
 ولي كبد مقروحة من ييعنى      به كبد ليست بذات قروح  
 أباهما على الناس لا يشترونها      ومن يشتري ذا علة بصحيح  
 واللحن فيه ماخوري (٣) لا يعرفه أحد مثله . ثم غنى على أبيات قالها في  
 بعض قرى الري .

أنا في الري مقيم      في قرى الري أهيم  
 ربما نبهني الاخوان والليل بهيم  
 حين غارت وتدلّت      في مهاويها النجوم  
 للتي تعصر لما      أينعت منها الكروم

(١) الاغانى ٧٤\*٦ والمسعودي ٢١٩\*٢ (٢) العقد الفريد ٢٤٢\*٣

(٣) الاغانى ٣٦\*٥

ولحنها من الثقيل الاول باطلاق الوتر في مجرى البنصر (١) ثم غنى .

ألا يا سلمى يادارمى على البلا ولا زال منها لا بجر عائك القطار

الشعر لذى الرمة والغناء له بلحن خفيف الثقيل الثاني (٢) ثم غنى

وقفت على ربع لمية ناقتي فمازلت أبكي عنده وأخاطبه

وأسقيه حتى كاد مما أبشه تكلمنى أحجاره وملاعبه

الشعر لذى الرمة أيضاً والغناء ثانياً ثقيل مطلق في مجرى البنصر (٣) فأجاد

ابراهيم حتى كان كل ما في الجاس يجيبه ويردد الصوت معه لحسن غنائه

فطرب الرشيد حتى كان يقوم ويقعد ولا سيما من اللحنين اللذين سمعهما

في شعر ذى الرمة لانه كان يحفظ أياته كلها في صباه فكان اذا غنى فيها

صوت أعجبه أكثر من جميع الاصوات التي يصنعها المغنون فيما لا يحفظه

من الشعر ففطن ابراهيم لذلك وطلب اليه أن يقطعه شعر ذى الرمة ويحظر

على غيره من المغنين ان يداخلوه فيه فأجابته الى ذلك فأصاب ابراهيم عليه

من الجوائز ما يتجاوز التقدير (٤)

ثم أشار مسرور الى اسماعيل بن جامع القرشى وهو من المتعصبين

على اسحق فغنى .

لم تمش ميلا ولم تركب على قتب ولم تر الشمس الادونها الكلال

تمشى الهوينا كأن الريح ترجعها مشى اليعافير في جيئاتها الوهل

(١) الاغانى ٢٥٥ (٢) الاغانى ٣٩٥ (٣) الاغانى ١٦٦#١١٦ (٤) الاغانى

في الكتاب الخامس

الشعر للاعشى (١) والغناء الاول فيه لابن سريج بلحن الرمل بالبنصر  
(٢) ثم غنى بلحن خفيف الثقيل الاول بالوسطى (٣) على أبيات عمر بن  
أبي ربيعة .

كان أحور من غزلان ذى بقر      أعارها شبه العينين والجيدا  
أجرى على موعدهم فتخافنى      فما أملٌ ولا توفي المواعيدا  
كاننى حين أمسى لا تكافى      ذو بنية يتغنى ما ليس موجودا  
ثم غنى بلحن المزج بالوسطى (٤) على هذين البيتين .

شكونا الى أحببنا طول ليانا      فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا  
وذلك لان النوم يغشى عيونهم      سراعا وما يغشى لنا النوم أعينا  
فأجاد اجادة يرتاح اليها أهل الطرب (٥) ممن يحب الخلاعة فى الاصوات  
فهو يميل الى ظرف الغناء والنغم الكثير العمل (٦) كما يميل الى ظرف المعاشرة  
والتفنن بخلاعة الملبس (٧)

ثم أشار صاحب الستارة الى اسحق بن ابراهيم صاحب هذا الفن  
فجاءه غلام من ذلمان الدار بعود هندي (٨) كان مودعاه فى خزنة  
المجلس (٩) قد أصاحت أوتاره قبل ذلك الوقت لان العيذان لا تصلح

(١) العقد الفريد ١٧٣\*٣ (٢) الاغانى ٨٢\*٦ (٣) الاغانى ٨٢\*٦ (٤)  
الاغانى ٧٧\*٦ و ٨٢ (٥) المستطرف ١٨٨\*٢ والاغانى ٩٨\*٤ و ٦٥\*٦ (٦)  
ذكر ابن جامع هذا صاحب العقد الفريد ٢٣٩\*٣ وقال انه أحلى المغنين نعمة  
(٧) الاغانى ٩٦\*٦ (٨) ذكر العود الهندي الاتليدى ١٣٠ (٩) الاغانى ١٠٩\*٥

في مجالس الملوك (١) فضرب عليه نغمات صاح لاجلها القوم جميعا ثم غنى

قل لمن صدّ عابنا      ونأى عنك جانبنا

قد بلغت الذي أردت      وان كنت لآعبا

الشعر والغناء له ولحنه من الثقل الثاني بالسبابة في مجرى الوسطى (٢)

ثم غنى بلحن وضعه معبد في أبيات لابي صخر الهذلي . (٣) وهي

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها      فلما اتقضى ما بيننا سكن الدهر

فياحبها زدني جوى كل ليلة      ويا ساوة الايام موعداك الحشر

واني لتهـروني لذكراك هزة      كما اتفض الصفور بآه القطر

هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى      وزرتك حتى قيل ليس له صبر

فتأرب الرشيد وقال له زدنا يا أبا صفوان من غنائك وأبو صفوان كنية

له يلقبها عند التحجب (٤) فغنى بهذين البيتين .

الطلول الدوارس      فارقها الأوانس

أوحشت بعد أهلها      فهي قمر بسابس

غذاء ليس أحسن منه موقعا في القلوب وكنت في ذلك الوقت جالسا

بمقربة من أبيه فقال لو لم يكن من بدائع اسحق غير هذا الكنى . الطاول

الدوارس كلمتان وفارقها الاوانس كلمتان أيضا وقد غنى فيهما استهلالا

وبسيطا وصاح وسجع ورجع النعمة واستوفى ذلك كله في أربع كلمات

(١) الاغانى ٥٨\*٥ (٢) الاغانى ٧٥\*٥ و ١٢٦ و ٥٧\*٥٤ و الشريشى

٣١٢\*١ (٣) الاغانى ١٦\*٥ والوطواط ٩٠ والاتليدي ١٤٣ (٤) الاغانى ٥٢\*٥

وأتى بالباقي مثله . فمن شاء فليفعل مثل هذا أو ليقاربه . ثم قال والله ما في  
 زماننا فوق ابن سريج والفريض ومعبد . ولو عاشوا حتى رأوه لعرفوا  
 فضله واعترفوا له اه (١) والغناء لاسحق خفيف ثقيل بالبنصر . ثم وجد  
 في نفس الرشيد اقبالا عليه وطربا من صناعته فغنى لحنا صنعه في شعر  
 للمنخل اليشكري يقوله في بعض بنات الماوك المناذرة (٢)

ولقد دخلت على الفتاة      انخدر في اليوم المطير

فدفعتها فتدافعت      مشى القطة الى الغدير

فلثمها فتنفست      كتنفس الظبي البهير

فأجاد في الغناء الى ما وراء الغاية وقال الرشيد وقد كاد يخرج من ثيابه  
 لشدة الطرب « والله ما الغناء الذي يلين العريكة ويفسح في الرأي  
 والصدر ويحدث في النفس طربا الا غناء هذا الرجل » .

ثم أشير الى فليح بن أبي العوراء فغنى على لحن صنعه في بيتين لعدى  
 ابن الرقاع العاملي (٣)

وكانها بين النساء أعارها      عينيه أحور من جاذر جاسم

وسنان أفعده النعاس فرنقت      في عينه سنة ولبس بنائم

ثم أتبعه باحن من الثقليل الاول باطلاق الوتر في مجرى البنصر صنعه (٤)  
 في بيتين للمؤمل من شعراء الدولة الاموية .

(١) الاغانى ٨٧٥ و ١٢٨ (٢) الاغانى ١٦٦ و ١٨ و ١٥٢ (٣) المستطرف

والشريشي ٢٨٠ و ٥٢ (٤) الاغانى ١٤٧ و ١٩



ألا يا ذليبة البلد براني طول ذا الكمد  
 فردى يا معدتي فؤادى أوخذى جسدى (١)

وهو يعارض فيه اللحن الذى صنه أبو اسحق فأجاد ولكنه قصر عن  
 أن ينحو نحو صناعة الموصلى وان كان قد منى فى بعض كتبى السالفة  
 ما يشهد لموضعه الجليل من هذه الصناعة (٢) الا انه قد وجد اليوم من  
 برعه وبرع الناس كلهم (٣) فى طيب المسموع ومحاسن الصنعة .  
 ثم أشير الى مخارق (٤) من حزب اسحق وهو طيب الصوت يعد  
 هو و ابراهيم بن المودى وابن جامع وعمر بن أبى الكنات من أحسن  
 الناس صوتا (٥) فغنى بصوت رخيم .  
 يا رباع سلمى لقد هيجت لى طربا زدت الفؤاد على آلاته وصبا  
 فكنت أحسب أن الدنيا قد صارت أحزانا (٦) اما ألم فى ثنائه من  
 ابراز معنى البيت وما وراءه من توجع العاشقين ثم غنى .  
 انى استحييتك أن أفوه بحاجتى فاذا قرأت صحيفتى فتفهمى (٧)  
 وعليك عهد الله أن أخبرته أحدا وان أظهرته بتكلم  
 الشعر لابن هرمة وأصل البيت الثانى قوله .

(١) فى قول الشيخ ابن الفارض

أخذتم فؤادى وهو بعضى فما الذى يضركم لو كان عندكم الكل  
 انثفات الى هذا البيت (٢) ذكر مثل هذا الاغنى ٩٨٥\*٤ و ٩٩ (٣) الاغنى  
 وابن خلكان والاتبليدي وحلابة الكميث (٤) ضبطه ابن خلكان ١١\*١ بضم الميم  
 (٥) الاغنى ٣٥\*٩ (٦) الاغنى ١٨٩\*٢ (٧) الشعر مذكور فى الحصرى ١٨٣\*٣

وعليك عهد الله ان أنبأته أهل السياسة ان فعلت وان لم  
والغناء لعبادل من مغني الحجاز ثم غنى .

فبت فيما شئت من نعمة يمنحنيها نحو رها والفم  
حتى اذا الصبح بدا ضوءه وغارت الجوزاء والمرزم  
خرجت والوطني أخفى كما ينساب من مكة منه الارقم

الشعر لاسماعيل بن يسار والغناء له بلحن الرمل (١)

ثم غنى يحيى المكي بلحن صنعه في بيتين لمحمد بن أمية من كتاب  
ابراهيم بن المهدي (٢)

أحبك حبالو يفض يسيره على الناس مات الناس من شدة الحب  
وأعلم أني بعد ذلك مقصر لانك في أعلى المراتب من قباي  
ثم غنى بلحن خفيف الرمل (٣)

طرقتك زينب والمزار بعيد بمنى ونحن معرّسون هجود  
فكانما طرقت برياروضة أنف تسحسح مزنها وتجود  
فكان لحنه كثير العمل حاو النغم صحيح القسمة محكم الصنعة ولولا  
ذلك ما أطرب الناس غناؤه وهو شيخ مسن

ثم غنى سليم بن سلام من جماعة اسحق (٤)  
أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وان كنت قد أزمعت صرعى فاجلي

(١) الاغانى ١٢٣\*٤ (٢) الاغانى ٢٤\*١١ (٣) الاغانى ٢١\*٦ (٤) ذكر

أغرک منی أن حبک قاتلی وأنک مہما تأمری القلب یفعل  
ثم غنی (١)

أبتک عائداً بک منک لما ضاقت الحیل  
وصیرنی هواک وبنی لحینی یضرب المثل  
فان سلمت لکم نفسی فما لاقیتہ جلال  
وان قتل الهوی رجلاً فانی ذلک الرجل  
الشعر لمحمد بن أبی محمد الیزیدی ویکنی أبا عبد الله والغناء له ثقیل أول  
بالبنصر الی أن قال .

وقفت علی ربع لسلمی وعبرتی ترقق فی الینین ثم تسیل  
أسائل ربعا قد تعفت رسومه علیه لاصناف الریاح ذبول  
واللحن له هزج خفیف بالسبابة (٢) فطرب الرشید وقال لو کنت حکم  
الوادى لما زدت علی هذا الاحسان فی هزجک (٣)  
ثم غنی حسین بن محرز بلحن صنعه یحیی (٤) المقدم ذکره فی  
هذین البیتین .

هل هیجتک مغانی الحی والدور فاشتقت ان الغریب الدار معذور  
وهل یحل بنا اذ عیشنا أنق بیض أو انس أمثال الدمی حور  
ثم غنی .

خمس دسسن الی فی لطف حور الیون نواءم زهر

(١) الاغانی ١٨\*٨٣ (٢) الاغانی ١٢\*١٢ (٣) الاغانی ١٣\*١٣ (٤) الاغانی ١٩\*١٩

فطارقهن مع الجري وقد نام الرقيب وحاتى النسر  
 الشعر للاحوص والغناء لمعبد رمل بالسبابة في مجرى البنصر (١) فاجاد  
 لكنه لم يظهر له صناعة يسمو بها الى مقامات المتقدمين في الغناء وكذلك  
 جميع من غنى بعده في ذلك اليوم قد ذهبت طلاوة أصواتهم وهم بين  
 ابراهيم واسحق ومخارق وابن جامع وأمثالهم من الجيدين الا الزبير بن  
 دحمان فاني وجدت لغنائه موقعا حسنا في النفوس وكتت أرى الرشيد  
 يتمايل طربا من غنائه اذ غناه .

رضيت الهوى اذ حل بي متخيلاً نديماً وما غيرى له من ينادمه  
 أعاطيه كأس الصبر بيني وبينه يقاسمها مرة وأقاسمه  
 الشعر لبشار بن برد والغناء له هزج بالوسطى (٢) ثم غنى .  
 أسرى بخالدة الخيال وما أرى شيئاً ألد من الخيال الطارق (٣)  
 أهواك فوق هوى النفوس ولم يزل مذ بنت قلبي كالجنح الخفافق (٤)  
 الشعر لجرير والغناء لابن عائشة رمل بالوسطى ثم غنى .

حييا خولة مـنى بالسلام درة البحر ومصباح الظلام  
 لا يكن وعدك برقاً خلباً كاذباً يلمع في عرض الغمام  
 واذكري الوعد الذي واعدتنا ليلة النصف من الشهر الحرام

(١) الاغانى ٦: ٩٢\* ١٧٣\* (٢) الاغانى ١٧: ٧٣\* (٣) العقد الفريد ٣: ٢٣٦\* ٣

الشعر لاعشى همذان والغناء لاحمد النصيبي ولحنه من القدر الاوسط  
من الثقيل الاول باطلاق الوتر في مجرى البنصر وعروضه من الرمل (١)  
فأجاد في هذا الصوت الاجادة التامة حتى ليس في المغنين من يقاربه  
بلحن الثقيل وقد قال فيه بعض الظرفاء (٢)

إذا ماهزج الوادئ أو ثقّل دحمان  
سمعت الشدوم من هذا ومن هذا يميزان  
فهذا سيد الانس وهذا سيد الجنان

ثم تعاقب المغنون على طرح الاصوات في نوباتهم فلم استحسن منها الا  
صوتا لعبثر صنعه في بيتين لابن الدمينه (٣)

وأذكر أيام الحمى ثم أنتى على كبدى من خشية أن تصدعا  
وليس عشيات الحمى برواجع عليك ولكن خل عينيك تدمعا

(٤) ولحنا واحدا صنعه (٥) في شعر وضاح اليمين .

ان الوشاة اذا أتو كتنصحو ونهوك عن  
انى تهيجنى السيبك حمامتان على فن  
فاسقى خليلك من شرا ب لم يكدره الدرر  
الريح ريح سفرجل والطعم طعم سلاف دن

حتى اذا ظن في نفسه اقتدارا على الصناعة وأراد أن يعارض اسحق باللحن

الذي صنعه في شعر العباس ابن الاحنف وهو (١)  
 لا جزى الله دمع عيني خيرا      وجزى الله كل خير لساني  
 كنت مثل الكتاب أخفاه طي      فاستدلوا عليه بالعنوان  
 سقط في يده وقصر دون بلوغ المرام . وكان في جملة المغنين رجل أعمى  
 يقال له أبو زكار وهو شديد التعصب للغناء القديم وكان آخر من غنى في  
 ذلك اليوم بدأ بلحن صنعه في هذا البيت .

يا راكب العيس التي      وفدت الى البلد الحرام  
 وثى بأخر لا براهيم الموصلى صنعه في بيتين لعمر بن أبي ربيعة (٢) وهما قوله  
 ليت هندا أنجزتنا ما تعد      وشفث أنفسنا مما نجد  
 واستبدت مرة واحدة      انما العاجز من لا يستبد

فلم تظهر له بهما صناعة الى أن تغنى بهذه الايات  
 يا أيها القلب المطيع الهوى      أنى اعتراك الطرب النازح  
 تذكر جملا فاذا ما نأت      طار شعاعا قلبك الطامح  
 هلا تناهيت وكنت امرأ      يزجرك المرشد والناصح  
 مالك لا تترك جهل الصبا      وقد علاك الشمط الواضح

ولحنها ثاني ثقيل بالسبابة في مجرى الوسطى (٣) فأحسن كل الاحسان

(١) ١٦٥٨ (٢) الاغانى ١٥٠٦ و ذكر ابن خلدون في المقدمة أنه غنى الرشيد  
 بهذين البيتين ليوغر صدره على البرامكة . وقد أنكر ذلك (٣) الاغانى ولكن  
 لم يذكر لابي زكار صناعة بها

في تأدية النغم كأنه لا تظهر صناعته الا بغناء ما في معناه زجر وتذكير  
من الايات (١)

ولما تولى النهار أوما الرشيد الى المغنين بأن يحلوا صفوفهم ثم فرق  
فيهم الجوائز بقدر أهليتهم من الصناعة فمن مصيب ألف دينار ومن  
مصيب خمسمائة ومن مصيب دون ذلك . ثم فرق فيمن يتخلل الغناء  
بضرب المعازف دون ما فرقه على المغنين من المال فأصاب  
الجوائز السنية أربعة منهم وهم منصور زلزل (٢) وكان يضرب على عود  
من العيدان الشبايبط التي صنعها معارضة لعيدان الفرس وهي عجب من  
العجب (٣) وكأنما تزلزل المجالس بحسن نغمها (٤) وبرصوم الزامر (٥)  
وهو أحسن الناس زمرا بناى كان اذا زمر فيه يحدث النغم الذي يريده  
مع صحة المقاطيع والتقسيمات حتى كأنه ينطق بين يديه بلسان آدمى .

(١) انما نسبت لابي زكار صناعة النغم المحزن لاني طالما ذكرت اليتيم اللذين  
غنى بهما جعفرأ قبل أن ينكب به الرشيد وهما قوله

فلا تبعد فكل فتى سياتى عليه الموت يعطرق أو يغادي

وكل ذخيرة لا بد يوما وان كرمت تصير الى نفاق

فلم تتمثل لى صناعته الا بمثل ما ذكرته له بلسان الراوية (٢) ذكر صاحب العقد  
٢٣٩٥٣ انه مغم من الطبقة الثانية ولكنه قال بعد ذلك انه كان أضرب الناس  
للوتر (٣) الاغانى ٢٤٥٥ (٤) ابن خلكان ١١٥١ (٥) ذكره الاغانى ١٢٥٦ في  
غير موضع والعقد الفرید ٢٢٩٥٣ وما بعده وقال انه كان مغنيا

وجعفر الطيال وهو يحسن التوقيع على الطبل (١) وكان يضرب بالكوبة (٢) في ذلك اليوم. ورابعهم الفريض وهو مشهور بضرب العود والتوقيع بالقضيب والنقر على الدف (٣) ولما انصرف المغنون لم يبق في مجلس الخليفة الا اسحق النديم وجعفر والفضل من البرامكة وقد طلع علينا من هواء دجلة في ذلك الوقت نسيم طابت النفوس به اتمعنا بعد هاجرة أصابنا بالنهار حرها حتى اذا رفعت أستار الطيقان التي تطل على حدائق القصر وقعت في موضعنا شمس الغروب وهي ترسل علينا شعاعاً متناثراً كالذهب يهتز في نواحي المجلس باهتزاز العنق الرطيب تحت خطرات النسيم حتى كان القصر يرقص بنا سروراً بأهله وعزة بمقامهم الرفيع فوقع بهاء تلك الليلة من النفوس أحسن موقع وأحدث في نفس الرشيد نشاطاً الى الشراب فأمر الحاجب أن يأخذ علينا لباب وتناوب اسحق مع جواريه الغناء الذي لا يتمتع بجماعه أحد من الانس غير الملوك

هذا ما أذكره لك عن المغنين وليس هو الا المحفوظ في ذهني من غنائهم مجردا عن بيان طرائقهم في الاصوات . وصناعتهم في وضع الزينات لأنى لو أخذت في ذلك لما وعته الصحف الكثيرة الواسعة (٤) وقد وقع تدوين هذه الرسالة في غرة المحرم من السنة الخامسة

(١) الاغانى ١٤: ٥٠ (٢) ذكرها القناوي ٢١ (٣) الاغانى ٢: ١٢٩ (٤)

راجع كتاب الاغانى انشئت فيها مطولا



والثمانين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرفة على صاحبها أشرف الصلاة  
وأزكى التحية.

✽ الرسالة السابعة ✽

( في ذكر آداب العرب )

هذه رسالة اليك أفردتها لذكر آداب العرب وعلومهم فقد طالما  
شهدت مجالسهم بدار الرشيد في محاوره فقهاء . وحلق علماء . ومنادمة  
أدباء . ومناظرة جدليين . ومرأوة أخباريين ونوب مغنين (١) وذلك من  
الخطوظ التي لا يتق مئاهما لغيري من المتصلين بالملوك لاني كنت أقرب  
الناس مكانا الى الرشيد تحت ظل البرامكة وكنت من الخطوة لديه بحيث  
إذا جلست الى منادمته عدل عن جلال موضعه من الخلافة ورجع الى  
محاسن المنادمة من اطلاق النفس على صفاء الاخوان فكان يعمد الى مخدة  
(٢) يجعلها تحت فخذه ويمكن منها جلوسه ثم يقول هلم بحديثك (٣) وهذا  
غاية ما يكون من الملوك اذا طابت نفوسهم من منادمة الجلساء وكنت  
إذا انفردت بمجلسه دون أحد من المقربين اليه أخرج جواريه على غير  
ستارة فيجلسن متشكلات بالزهور (٤) مزينات باللؤلؤ والزبرجد (٥)

(١) واحدها نوبة وقد ذكرها الاغانى ٦٤\*٢٠ بمعنى الاسم من المناوبة والناس  
اليوم يطلقون اسم النوبة على ضرب المعازف والآت الطرب (٢) الاغانى  
١٢٢\*٥ (٣) الاتليدى ١١١ (٤) الاغانى ٣٦\*٧ (٥) الاغانى ٦٢\*٤

وأفخر أنواع الجوهر فيغنين ويضربن بالملاهي الى هـ مدء من الليل فاذا  
 أتاه من الحزم (١) التفاح (٢) المنقوش المطيب (٣) وغيره من الفاكهة  
 وأنواع الحلوى عزم على أن أجلس الى طعامه وأجالسه على نبيذ (٤)  
 التمر (٥) وغيره من الشراب الذي لا يهيبى الشرع عنه ولا يكون له حكم  
 الخمر الا إذا أسكر (٦) وكان يجب أن أحدثه عن علوم الفرس وصنائعهم  
 لما طبع الله فيه من الميل الى الادب والتشوق الى الوقوف على أخبار  
 الماضين من الامم ولذلك كانت دولته تزداد خيرا وصلاحا . وينعم فيها  
 العلم روحا واسترواحا . حتى اذا أقبل اليه العلماء من جميع الوجوه  
 يستمطرون غيث نداءه حقق لهم جميل أمانيهم فيه وبسط يده لقطاعهم  
 الضياع العامرة . وصلتهم بالهبات الوافرة .

وكانت هممة الرشيد مصروفة الى ترجمة كتب الفلاسفة من يونان  
 وغيرهم بعد أن رأى جعفر بن زياد ببتاع من صحفهم ما يأمر انتراجمة  
 بتعريبه (٧) ثم يعطيهم زنة الكتاب المعرب ذهباً (لأن سوق العلم نافقة  
 عند البرامكة (٨) أعزهم الله وهم الذين استنهضوا همم العلماء الى

(١) المسعودى ٥٦٥\*٢ (٢) وجدت في بعض الكتب ان الرشيد كان يحب التفاح  
 ويقول هو أحسن الفاكهة لانه اجتمع فيه بياض الفضة ولون التبر ويلذ به من  
 الحواس العين بيهجته والانتف بريحه والقم بطعمه . العقد الفريد ٣٧٥\*٣ (٣) الاغانى  
 ٣٥\*١١ (٤) شرب الرشيد النبيذ مذكور في الكتب

(٥) المقدمة (٦) العقد الفريد ٣٠٠\*٣ والقناوي ٣٦ (٧) ابن خلكان ٢٣٦٥١

(٨) الفخرى ٢٣٥ وابن عبد ربه

تعريب صحف الأعاجم وأشاروا بعمل الكاغد لنسخ أسفارهم وقدرأوا  
الرقوق التي تستعمل في الصكوك ورسائل السلطان لانكفيهم في تدوين  
مصنفاتهم ومعرباتهم فرأوا من عمل الكاغد (١) ذريعة الى نشر العلم الذي  
عنوا برفع مناره بحيث لم يدعوا سبيلا الى انتفاع الأمة به الا سلكوه  
المسلك الذي يعقبهم فخرا تتناقله الألسنة عنهم بطيب الاحدوثة فحسددهم  
الرشيد على ذلك وفي نفسه من الميل الى الأدب والتشوق الى الاطلاع  
على كنوز الحكمة ما قد رأيت في كتيبي السالفة اليك فأنفذ رسله في  
احراز الاسفار القديمة وكتب باشخاص الترجمة الذين يحسنون العربية  
من الروم وغيرهم من أمم النصرانية وتقدم اليهم بتعريبها الى اللغة السهلة  
التي تفهمها العامة وترضى بها الخاصة

فلما تناول العرب هذه الاسفار موروا في استخراجها ووقفوا على  
أغراض الحكماء منها (٢) فرقوا من الأدب المتسام الذي لم ترقة أمة  
قبلهم في المشرق. وهذا من الامور التي تدل على ذكاء العرب (٣) ونبل  
الهمة عندهم وأنهم يبذلون الغاية التي يرومونها من جميع المطالب في برهة  
يسيرة من الزمان فانا لانجد في اخبار الامم السالفة من حاز من أطراف  
الدنيا مثل ما حازه المسلمون في مثل المدة التي وقعت فيها الفتوح فقد كان  
من شأنهم عند ما صار الامر الى بنى أمية أن حازوا اكثر الاقاليم وابتزوا  
الأعاجم سلطانهم ووصلوا من الشرق الى الهند وتجاوزوا المغرب

(١) المقدمة ٣٦٨ (٢) راجع المقدمة وكتاب حجى خلفه ٣. المسعودى ٢٣٦\*١

الى أبعد من الاندلس شمالا . وما مثلهم في سرعة هذه الفتوح الا مثلهم في سرعة تحصيل العلوم وبلوغهم من المدنية على قرب عهدهم بها ما لم تبلغه أمم العلم من قبلهم . فمن الغريب الذي ينطق بما عندهم من الهمة والفتانة أنهم لم يقتصروا من الحكمة على نقل فلسفة اليونان بل وجدناهم يرمون الى أغراض من الفلسفة بعيدة ويضعون على قواعد اليونان شرحا (١) أصابوا الرأي بالزيادة فيه بعد البحث والتحصيل (٢) وذلك غير ما فتحوا من الابواب الواسعة للنظر في العلوم الرياضية وتحريرها واصلاحها وغير ذلك .

وكان أول عهد العرب من العلم في خلافة أبي جعفر (٣) لانه كان يعزز جانب الحكمة ويبحث عن مكامن العلم للوقوف على آداب الاولين ويعزم على أهل الكتابة أن يدونوا الاسفار الكثيرة لاداعة العلوم بين الناس اذ لم يكن معروفا عندهم من قبله الا علم الرواية وأخبار العرب وعلم الاحكام الشرعية واستنباطها من القرآن والحديث وعلم العروض الذي وضعه الله تعالى في صدورهم وبضاعة مزجاة من النجامة وعلم الافلاك مما اقتبسوه من الفرس والهنود فلما جاءت هذه الايام تسحب عليهم أذيال الدعة والنعم بعد أن فرغوا من أعمال الحروب التي وقعت في صدر هذه الدولة وجهوا همهم الى النظر في فنون الأدب لتجديد ما طمس من معالم العلم فكتبوا في جميع فروع وفنونه بحيث انه لو جمعت

(١) حجي خلفه ٣\*٩٢٢ (٢) ابن خلكان ١\*٢٦٣ (٣) السيوطي وأبو الفرج ٢٤٦

كتب أمة قديمة عهد بالعمران لما وُجد ما تحويه من العلم أعظم مما تحويه كتب العرب . واني أذكر ان الرشيد لما ركب الى الرقة في بعض أسفاره حمل معه ثمانية عشر صندوقا من أسفارهم (١) ليقطع بمطالعته زمانه مع انه لم يأخذ منها الا نخبة مما في خزائنه . ولقد وجدت في قصر له بناه بالفاطول يخرج اليه للتنزه (٢) خزانة كتب تحتوي على اكثر من ألف كتاب . وحسبنا ذلك شاهداً على ما روم ذكره من كثرة الصحف التي دونها العرب بين تعريب وتصنيف .

#### ﴿ الطب والاطباء ﴾

كان أبو جعفر غفر الله له بوجه عنايته الى علم الطب من بين العلوم فبنى لتعليمه حلقة كبيرة فوض أمرها الى طيب أعجمي يقال له « فرات ابن شحتانا » وهو من تلاميذ تياذوق (٣) الذي كان طيبا بدار الحجاج أمير العراق فتخرج عليه طائفة من النصاري (٤) دون المسلمين . ولست أحسب السبب في اعراضهم عن هذا العلم الا ظنهم كذباية ما لديهم من المخرجات التي توارثوها من مشيخة الحى وعدم حاجتهم الى مثل هذه الصناعة في كسب الرزق وترفعهم عنها كغيرها أنفة بأنهم أهل ملكات وذلك خطأ واقع عليهم شينه وخسرانه اذ قد خلت منهم في دور الخلافة مراتب أسندت الى أطباء النصرانية فبرعوا عليهم في هذا العلم وعربوا

(١) الاغانى ٦٧٥٥ (٢) ابن الاثير ١٦٦٥٦ (٣) أبو الفرج ٢٠٠ (٤) في

الاجانى ومقدمة ابن خلدون ذكر كثير من أطباء النصارى دون المسلمين

كتب جالينوس وأبقراط من حكماء اليونان وأضافوا إليها كثيرا مما عرفوه من علم الحيوان بعد وقوفهم على مقالات ارسينخاس (١) وديموقراطيس (٢) وغيرهما من العلماء الذين يرجع إلى كلامهم في طبائع الحيوان وخواصه ومنافع النبات ومضاره .

ولقد كان مظهر الطب في النصرانية رجل يُقال له ماسويه أبو حنا وكان أمياً لا يعرف القراءة إلا أنه تلقى الطب من أفواه اليونان وطالب به المران له والتجربة فيه إلى أن بلغ منه المكان الذي لا يدفع وكان له ولدان يقال لهما يحيى ويوحنا فتخرجا عليه في علمه ومعهما ثالث يقال له جبريل ابن بختيشوع فبرعوه في شفاء الامراض .

فأما يوحنا فانه صار طبيباً بدار الخلافة ودون رسالة طويلة أودعها ما عرض له من التجربة في معالجة أهل السقام واتخذ مجلساً أفرده للنظر في استنباط العلاجات باجتماع الرأي مع غيره من الأطباء وكان الرشيد قدولاه ترجمة الكتب (٣) التي وصات إليه من مدونات الأطباء والحكماء مثل أبقراط وجالينوس وغيرها فأحسن تعريبها كل الاحسان مع ما وجد فيها من الصعوبة التي نالت منها نفسه مشقة عظيمة . وذلك بخلاف الكتب التي عربت في خلافة المهدي وأبي جعفر فانها لم تكن جديرة بالثقة بها ولا الالتفات إليها اذ كانت عارية من التواعد التي وضعها الحكماء وليست تحوى سوى علاجات أشار بها ضعفاء العقول من الأطباء

(١) المسعودي ٩٢\*١ (٢) حجي خزانة ١٢١\*٣ (٣) أبو الفرج ٢٣٧

وكانت الى الجهل والخرافة أقرب منها الى العلم والحقيقة فلم يجد التراجمة في تعريبها عناء يجهد النفس . أما الكتب التي عربها ابن ماسويه فانها من أصح وأنفس ما صدرت به أقلام اليونان .

وأما جبريل بن بختيشوع فانه تبجر في جميع العلوم الداخلة في علم الطب وكتب في حياة الحيوان رسائل (١) تدل على سعة اطلاعه وكان جعفر (٢) أعزه الله شديد الحب له والاحتفاظ به حرصا على ماوسع صدره من العلوم فقربه الرشيد اليه برأى البرامكة واتخذة في دور الخلافة بدل صالح الهندى الذى كان مقدما (٣) من قبله على أطباء بغداد فلما صار الى هذا المقام الجليل ورأى الناس يرجعون الى رأيه فيما يشير به من هذا العلم حملهم على الاعراض عن الدجالين وهم الشيوخ الذين بعدت المهابة عنهم ودل ما بلغوه من الشيخوخة على بلوغ الخرف منهم فيزعمون أنهم يطبون الناس بالمواعظ (٤) ليملكوا أفئدة العوام بما لا فائدة فيه من الخرافة فوفق بعلمه الى بلوغ الغاية التي رامها من قطع السبيل عنهم دون الارتزاق بهذه الجهالة التي تميمت الاذهان الضعيفة .

ويأتى بعد جبريل بن بختيشوع ويوحنا بن ماسويه طبقة ثانية من الاطباء كلهم من أمة النصرانية الا عيسى أبا قريش الصيدلانى وليس هو بطبيب ماهر ولكنه رزق الشهرة بين الناس عن اتفاق وقع له بان بشر الخيزران في خلافة أبى جعفر بانها تحمل مولودا ذكرا يصير اليه

(١) حجبى خلفه ١٢٥٠ (٢) أبو الفرج ٢٣٥ (٣) أبو الفرج ٢٣٨ (٤) المسعودى ٢٠٨

أمر الأمة فلما ولدت وكان ما ولدته غلاماً ما أفرغت النعمة عليه واتخذته طبيباً  
 في دار الخلافة (١) وقد سمعت من يقول ان الخيزران انما قربته لمهارته في  
 الحجامة لاني الطب فان صحت الرواية كان عندي أحق بالثقة فيه حجماً  
 من الثقة به طبيباً اذ است أثق من الطب الا بما يحفظ الصحة للصحيح أما  
 العلاجات التي يزعمون أنها تبعد العلة عن الميل بعد تمكنها منه فما أنا من الثقة  
 بها على شيء لاني أحسبها من باب النوص على أسرار الطبيعة وطالما وجدت  
 للأطباء في العلة الواحدة آراء متباينة ومن المدرووف عند العتل أن الخلاف  
 في الامر الواحد لا يطابق الحق فيه الا وجه واحد . أما الحجامة فانها  
 على خلاف ذلك والرأى فيها واحد يقضى بحذف الجزء الفاسد وفصله  
 واني وان كنت على بعد من الطب فلا أجد بدا من الاقرار بفضل العرب  
 فيما استنبطوه من العلاجات وما عرفوه من مركبات العقاقير التي لم يسبق  
 اليها أحد من المتقدمين ولا المتأخرين ولا غرو فان الطب صناعة لا تبلغ  
 الغاية منها الا على طول التجربة والاختبار في المران والممارسة ولذلك كان  
 المتأخرون يفضلون فيها المتقدمين في كل عصر وأمة وقد قال عليّ  
 عليه السلام (٢)

ألا لن تنال العلم الا بسة      سأنبئك عن مجموعها بيان  
 ذكاء وحرص واصطبار وبلغه      وارشاد استاذ وطول زمان

(١) أبو الفرج (٢) ٢٩ الكنز ١٣٩ والشبلنجي ١٠٢



## ( النجامة وعلم الافلاك )

لقد سبق الالماع الى ذكر النجامة وأنها من العلوم التي كانت معروفة  
 قديماً عند العرب غير أن الاجتهاد فيها كان محصوراً في نزر قليل من أتباع  
 الاقوال الذين تداولوا ما بينهم قبل الاسلام فلما جاء أبو جعفر قرب اليه  
 المنجمين وقدم عليهم نوبخت (١) المنجم المشهور عندنا بين أعاضم الجوس  
 وفضلائهم ومن له كبير علم وجزيل فضل فاتخذ في الزوراء حلقة شهدها  
 كثير من الناس الا أنه لم يكن فيهم أخلف له في عامه من الموصلي المنجم فانه  
 كتب في الاصطرلاب سفراً أودعه من علم الكواكب وسيرها وحرركاتها  
 أصولاً يعيرها العلماء جانب الثقة والاعتبار ويرجعون اليها في علم النجامة  
 والافلاك .

ثم نجم بسده في المسلمين علي بن عيسى الاصطرلابي (٢) و ابراهيم  
 الفزاري المنجم ومهرا في استخراج النجامة من كتب الفرس وقد عثرت  
 في خزائن البرامكة أيد الله دولتهم علي أرجوزة في علم الافلاك وهيئتها  
 نظمها ابراهيم هذا المنجم (٣) فجاءت ناطقة بحسن نظره ولطيف مأخذه  
 وجيليل موضعه من هذا العلم . وله كتاب مشهور في الزيج ذكر فيه من  
 غير حرركات الكواكب جوامع من مساحات الممالك والبلدان اذ كرماً قيده  
 في اقاليم الاسلام ان عمل أمير المؤمنين من فرغانة وأقصى خراسان الى طنجة

(١) ذكره النزويني وابن الاثير وغيرهما في استشارة أبي جعفر اياه في بناء

الزوراء (٢) المسعودي ٤٠٠٥٢ (٣) المسعودي ٤٠٠٥٢

بالمغرب ٣٨٠٠ فرسخ والعرض من باب الابواب الى جدة ٦٠٠ فرسخ ومن  
الباب الى بغداد ٣٠٠ ومن مكة الى جدة ٣٢ ميلا (١) وعمل الاندلس  
لعبد الرحمن ابن معاوية ٣٠٠ فرسخ وعمل ادريس ١٢٠٠ في ١٢٠ فرسخا  
وعمل فاس لابي المنتصر ٤٠٠ فرسخ في ٨٠ فرسخا (٢) ثم نبغ بعدها توفيل بن  
توما الرهاوى (٣) وكان المقدم على جميع المنجيين في خلافة المهدي رحمه الله  
وكانت له معرفة تامة باليونانية حتى سما الى ترجمة كتاب شاعر يقال له  
أو ميروس عن فتح مدينة ايليون في العصر الخالية الى السريانية بغاية ما  
يكون من الفصاحة (٤) وأميروس هذا شاعر مجيد كان يغترف المعاني  
من بحار التصور ويبرزها في الصورة التي يعجز عن مثلها الشعراء فوقف  
نظمه بين الحكمة وكلام النبوة موقفا لا يسمو الى مناوئته الا العقول  
النيرة والاذهان الثاقبة وقد أثنى عليه أرسطو (٥) في كتابه بمديح يرفعه  
الى اسمى مقامات العقول .

أما المنجمون في هذه الايام فهم اثنان مشهوران ماشاء الله اليهودي  
وأحمد بن محمد النهاوندي ودونهما في الشهرة ثالث يقال له محمد بن موسى  
(٦) المنجم . فاما ماشاء الله فيقال ان له حظا في علم الغيب (٧) وكان في  
جملة المنجمين الذين اتصلوا بأبي جعفر بعد نوبخت وكسبوا الانعامات

(١) المسعودي (٢) ذكر ابن خلدون في المقدمة منجما من الروم يقال له توفيل  
الرومي وانه كان في أيام بني أمية (٣) أبو الفرج ٢٢٨ (٤) المقدمة ٥٣١ (٥) الاغانى  
١٥٠٨ (٦) أبو الفرج ٢٤٨

منه وهو اليوم بدار الترجمة آخذ عن أمر الرشيد بتعريب الكتب التي  
تبحث في علم الافلاك . وأما أحمد النهاوندى فإنه في الموضوع الاجل من  
علم الرصد ألف فيه كتابا سماه المستمال وأودعه من تحقيق النظر وتعميق  
الفكر فيما عرض له من أمور الفلك بما رصد في مدينة جند يسابور ما لم  
يسبق اليه أحد من المنجمين ودون في الموازنة بين علوم الفرس والهند  
واليونان فيما عرفوه من النجامة وسلكوا طريقته الى آخر زمانهم كتابا  
آخر صور فيه الدنيا كلها للرشيد بيحورها وجبالها وأوديتها وأقاليمها  
وبلدانها وسائر أماكنها وجعل الدرجة خمسة وعشرين فرسخا والفرسخ  
انثى عشر ألف ذراع والذراع انثى وأربعين أصبعا والاصبع ست حبات  
وتسعين مصفوفات بعضها الى بعض (١) وهذا مما يحتاج الى دقة النظر  
في معرفة عرض الارض وطولها ومناسبة الاقاليم فيما بينها وغير ذلك.  
وقد أهداني هذا المنجم نسخة مصورة من كتاب المستمال في السنة  
الرابعة والثمانين بعد المائة من الهجرة ولكنه أخبرني انه لم يرسله بين  
الناس لما يحتاج اليه من المراجعة والاصلاح به فيما يرض له من أمور الفلك  
الذي يباشر رصده في هذا الوقت

ولقد مضى في كلامنا عن الطب أن النصارى برعوا فيه على المسلمين  
وكذلك تقول في هذا الباب ان الفرس برعوا في النجامة على العرب لاني  
رأيت هؤلاء يتجافون عنها ويعدونها والسحر (٢) الذي ينهى الشرع عنه

(١) ذكرها المسعودي ٢٧٨\*١ (٢) القناوي ٥١

فلما واحدا بخلاف جماعتنا من الفرس فانهم يوجهون عنايتهم الى العلى في  
 مباحثهم ومناظراتهم ولذلك تجد انصبابهم الى الرصد وما ينبيء عنه من  
 اشارات النجوم والكواكب أعظم من انصبابهم الى ماسواه من العلوم  
 وكان المقرب لهم في الاسلام أبو جعفر المنصور (١) كما ذكرت ذلك في  
 مواضع من الكتاب لاجل أن يعلموا على طواريء الجوارح وحدث الانواء  
 وانتقال الشمس والقمر والكواكب في بروجها وينبئوه عن جذب  
 الارض وخصبها بما يكون من معرفة ذلك قبل أوانه من المنفعة العظيمة  
 للملوك ثم قربهم البركة أكرمهم الله بأكرم الكرامات لاستشارة  
 الاصطربلاب (٢) في جلوسهم وركوبهم وما يباشرون من جميع الاعمال  
 ليمدوا به النجوم ويدركوا علم الابعاد ويوقوا زمن الكسوف (٣)  
 وعقدوا لهم مجلسا يتناظرون فيه لتحقيق ما يستنبطونه من حركات  
 الكواكب المتحركة والمتحيزة وأسبابها بطرق هندسية وما يرون من  
 الافلاك التي تختص بالكواكب الثابتة وغير ذلك . وتقدموا الى فن علم  
 بالنجامة أن يعرب كتاب المجسطى لبطليموس من حكماء يونان واتخذوا  
 آلة للرصد تعرف بذات الحاقق (٤) فكان يجتمع عليها المنجمون وفيهم

(١) السيوطى (٢) ذكر صاحب الاغانى والالتباسى ان جعفر استشار

الاصطربلاب يوم نكبه الرشيد (٣) العقد الفريد ٢٧٨٥ و٢٤ المقدمة ٤ وقال ان  
 المأمون أول من اتخذها في الاسلام وانها كانت معروفة عند اليونان كما يستدل على ذلك

جماعة من أدباء العرب الذين لم يشاركونا في هذا العلم الا بما يتمسون  
من معرفة الايام والشهور والسنين من طريق حركة كل كوكب وهو  
الفرع الذي يسمونه بعلم الازياج (١)

﴿ الحديث وعلوم الشرع ﴾

الحديث هو العلم الذي هوت اليه أفئدة المسلمين وكان شأن العرب  
به في صدر الاسلام أن يرحلوا من بلد الى بلد ليسمعوه من الصحابة  
ثم من التابعين ثم ممن سمع من التابعين من غير ان يدونوه في الصحف  
فلما أسرع الموت في العلماء وكانوا بكلهم شيوخا فزع أهل العلم الى الطروس  
وأخذوا يدونون (٢) الحديث مثل ما وجدوه في الناس محفوظاً بطريق  
الاسناد ولكن من غير ان ينظروا في الرواية النظر الجلي ولا ان يعتمدوا  
في النقد الاصل المرعي . فكتب ابن جريج بمكة (٣) ومالك بن أنس  
بالمدينة ومعمار باليمن وسنيان الثوري بالكوفة وهشيم بن بشير (٤)  
بالعراق والاوزاعي ببيروت (٥) من ساحل الشام وحماد بن سلمة وشعبة ابن  
الحجاج وابن أبي عروبة بالبصرة وذلك كله في خلافة أبي جعفر (٦) رحمه  
الله . وكان أصحابهم حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن أنس  
وهو رأس المحدثين (٧) رأيتاه اذا اراد ان يحدث توطأ وجلس على صدر

(١) المقدمة ٤٢٧ وحجى خلفه ٥٦٥٣ (٢) الزرقاني ١٠٥١ (٣) الزرقاني

١٠٥١ (٤) ابن خلكان ٩٢٥١ والاغاني ٥٤٥٥ (٥) حجى خلفه ٢٨٥٣ وذكر

ابن الاثير وأبو الفداء وفاته سنة ١٥٧ (٦) السيوطي (٧) ابن خلكان ٦٢٦٥١

فراشه وسرح لحيته وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ثم حدث فقلت له في ذلك فقال أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحدث به الا متمكنا على طهارة وكان يكره أن يحدث على الطريق أو قائما أو مستعجلا ويقول أحب أن أتفهم ما أحدث به عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم انه لما جاء هذا العصر والناس مطلقون على حكمة الفرس واليونان وما في أنواعها من الخروج عن الملة أخذ الأئمة في وضع علم الكلام صيانة للدين أن تخالطه البدع ويقع فيه التخالف ثم أخذوا في تمييز المحفوظ من الحديث كله لمعرفة الصحيح من الفاسد الموضوع وكان أول من أخذ في ذلك فقيه الاسلام أبو يوسف وكان من عالية أهل الحديث وهو الذي أخذ الناقلين باغلاطهم (١) ونبذ الموضوع من أحاديثهم وكان يقول اثنان لا يسلمان من اثنين من طلب النجوم لم يسلم من الفقر ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذب (٢) ثم أخذ أخذه العلماء المجتهدون من بعده ومنهم أبو اسحق الفزارى وعبد الله بن المبارك وهما أشهر الأئمة لا يامنا هذه والرشيدي لا يسمع الحديث الا عنهما . ولا ياتمس الرد على الزنادقة الا منهما . فكان اذا أخذ على الزندقة جماعة يقولون له وهو يضربهم الحدود أين أنت يا أمير المؤمنين من ألف حديث وضعناها عن النبي صلى الله عليه وسلم ما فيها حرف نطق به فيقول لهم وأين

(١) ابن خلكان ٢٧٦\*١ (٢) العقد الفريد ١٩٩\*١ و ٢١٣

أنتم يا أعداء الله من أبي اسحق وابن المبارك يتجلانها فيخرجانها  
حرفا حرفا (١)

ولقد أخبرني هذان الامامان انهما يؤلفان في فقه الدين وعلم الكلام  
رسائل يذكران فيها مذاهب الائمة ثم يتطرقان منها الى الرد على الذين  
يقولون بخلقى القرآن يزعمون انه يحوى غير العربى الفصيح من الكلام  
وهذان المذهبان (٢) فاشيان اليوم بين الناس والأول منهما أشد خوفا على  
الاسلام لان زعم الخروج عن اللغة ضعيف الحجة واهى الدعامة بما يعلم  
عن العرب أنهم خالطوا الامم في تجاراتهم وأسفارهم وعلقوا من لغاتهم  
ألفاظا استعملوها في أشعارهم ومحاوراتهم حتى جرت مجرى العربى  
الفصيح فما ورد في القرآن من الالفاظ الاعجمية انما دخل في العربية الفصحى  
بطريق الاستعمال والتعاقب (٣) بحيث انه لا يكاد يرى فيه من هذه  
الالفاظ ما لم يرد في شعر البلغاء من الجاهلين وفي هذا القدر كفاية للرد  
على هؤلاء المفترين فيما يزعمون . أما الذين يذهبون الى أن القرآن مخلوق  
فللعلماء من أهل الاجتهاد حجج قامة لا فتراتهم على الله منجدة لئلا الفتنة  
التي كمنت طوى مذهبهم وهذا من الامور التي ينبغى أن ينظر فيها الاولياء  
بين الحذر لان الفتنة لا تؤمن غائلتها بهد فساد الدين ويكون آخر أمرها

(١) السيوطى (٢) الدميرى ٩٨٥١ والكشكول والاتقان ٦٨٥١ او ابن الاثير

والانليدى ٢٤١ وغيرهم (٣) الاتقان في تفسير القرآن ١٤٩٥١

بوارا على الدولة ومدعاة لسقوط العرب الذين ما فتحوا البلدان وحازوا  
سلطان الاعاجم الا بنخوة الدين وفترة الاسلام .

ولقد عثرت من مدونات الفقه على كتب جلية أجمعها كتاب لابى  
حنيفة فى الكلام (١) اسمه الفقه الاكبر وله فى هذا العلم الشأو الذى  
لا يدرك وكتاب لملك بن أنس سماه الموطأ وذهب فى استنباط الاحكام  
الشرعية من القرآن والحديث الى مذهب ينفر د به عن مذهب أبى حنيفة  
وهو الكتاب الذى يقرؤه الرشيد ويحفظه فى صدره (٢) تفضيلا على  
غيره من كتب الفقه . وعثرت أيضا على كثير مما دونه العلماء فيما يشتق  
عن الفقه من علوم الاحكام منها لابى حنيفة وأبى يوسف رحمهما الله ومنها  
لابن شبرمة وابن أبى ليلى (٣) وقد أفردا نظرها فى علم الفرائض .  
ومنها كتاب لفتى يقال له يحيى بن اكرم جمع فيه ما استحسن من آراء  
أصحاب المذاهب وهو الكتاب الذى أصبو الى مطالته من بين هذه  
الصحف الشرعية لاني وجدت قبل صاحبه من قوة الفطنة (٤) وصدق  
الحدس ما يؤكده لى انه ان مد له فى العمر ليبرر الفقهاء .

أما الكتب التى وقفت عليها فى علوم الحديث فانها اكثر  
من أن يأخذها الاحصاء (٥) غير ان الافادة منها كانت محصورة فيما

(١) حجبى خلفه ٤٥٧٥٤ (٢) الزرقانى ٩٥١ (٣) حجبى خلفه ٣٩٦٥٤

(٤) ابن خلكان ٩٢٥١ (٥) كتاب حجبى خلفه



جمعه كبار العلماء وبتى أن جملة ما فى غير كتبهم مراجعة واعادة لما  
سبقتوا الى تدوينه فكان انفع للعلم لو صرف الباقون عنايتهم الى النظر  
فى غير ذلك من العلوم ولم يضيعوا العمر فى نقل ما سبقهم اليه العلماء

﴿ فى تدوين اللغة ﴾

أما اللغة فان العلماء قد وضعوا قواعدها على أصول وقفت عندها  
الغاية فى الاصلاح وتدقيق النظر لانه قد سبق اهتمامهم بها اهتمامهم  
بما سواها من العلم اضطراراً الى تفسير القرآن اذ كانت الكتابة مجهولة  
عندهم فى صدر الاسلام ولم يكن يكتب بالعربية غير بضعة عشر انساناً (٢)  
وكانت ألفاظ العرب بعضها محفوظاً فى صدور الرجال . وكثيرها ضائعاً  
بين الرمال . فبادروا الى التقاطها من البادية يطرقون منازل أهلها ويشهدون  
محاوراتهم ويتبعون آثارهم ويستنطقون اطلال ديارهم حتى وقفوا على  
ما كان متفرقا من لغاتهم وقيدوها فى الصحف بطريق الرواية والاسناد .  
وكانت حروف الكتابة فى أول الامر موضوعة بغير علامات (٣)  
وظل الناس يقرؤون فى مصحف عثمان وهو بتلك الكتابة نحواً من أربعين  
سنة حتى كثر التصحيف لوجود الحروف المتشابهة (٤) وما استغرب  
أن يقرأ بعض الناس وما يجحد بآياتنا الاكل جبار والاصل ختار  
وعذابي أصيب به من أساء والاصل أشاء . وهم أحسن أنانا وزينا

(١) العقد الفريد ٢٠٦٥٢ (٢) حجبى خلفه ١٥٤٥٣ (٣) ابن خلكان ١٥٧٥١

والاصل ورثيا . والذين كفروا في غرة وشقاق والاصل في عزة الى غير ذلك فوكل عبد الملك بن مروان النضر بن عاصم أن يضع علامات لهذه الحروف المتشابهة فوضعها لها أفراداً وأزواجاً فتميز بعضها عن بعض ومحي التصحيف في القراءة وضبط اللغة لما كان يحتاج له العلماء من حفظ الحديث وتفسير القرآن الكريم بما دونوه من لسان قريش وغيرهم

وأول من دون اللغة مجموعة في كتاب واحد الخليل بن أحمد الذي قدمت لك في الكلام على البصرة ذكره وقد ضمن كتابه (١) أصول اللسان العربي وقيد ألفاظه في مواضعها من الاشتقاق الا ما كان دخيلا عليه من كلام الاعاجم فانه اکتني من ذكره بالاشارة الى عجميته وأسند روايته في ذلك كله الى اكابر الحفاظ ولذلك صار قوله حجة يرجع اليها في منصرف الكلام ثم دونها بعده كثير من العلماء منهم أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي مؤدب الامين والمأمون (٢) من اولاد الرشيد وهو فن علم بالنحو . ومنهم سيبويه (٣) والفراء والاختش وعلمهم النحو

(١) هو أول قاموس كتب في اللغة العربية (٢) المسعودي ٢١٣\*٢ والابشهي ١٣\*٢ (٣) وقت أبو الفداء ١٦\*٢ وفاة سيبويه بسنة ١٨٠ للهجرة وقال انه كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو . وجري له مع الكسائي البحث المشهور في قولهم « كنت أظن لسعة العقرب أشد من لسعة الزنبور » قال سيبويه فاذا هو هي وقال الكسائي فاذا هو اباها واتصر الخليفة للكسائي فحمل سيبويه من ذلك ما وترك العراق وسافر الى شيراز وتوفي هناك

فقط الاقراء فانه كثير الفضل على العربية بضبطها وتخايمها (١) وقد بلغتني  
جلالته في العلم ولكن لم يجمعني واياه مجلس الى هذا اليوم (٢) ومنهم أبو  
عبيدة معمر بن المثنى البصرى وقد وقع الى كتاب له في فقه اللغة لتعليم  
الرشيد (٣) قبل تشرفي بتأديبه وقد أودعه كلام العرب وقبول لغتهم وذكر  
المرادفات التي وردت لهم في جميع الاسماء والانفال والاصناف مشيراً  
الى صحة استعمالها في مواضعها من الكتابة وأتى على متابعة الالفاظ التي  
تصف الاشياء على ازدياد في معناها أو نقص يبعدها عن الكناية بالآ  
يصح استعماله لها من الوصف الذي أفاده على طائفت معلومة من كلام العرب.  
وهذا الكتاب يفتر الى كل كاتب من أبناء العرب الذين ينزلون  
الأمصار وينقطعون عن أهل البادية الذين يحافظون على قوام اللسان  
العربي (٤) لأنني قد وجدت كذا مباينة بين كلام العربان واصطلاحات  
التمهين حتى تكون اللغة عند هؤلاء خير اللغة عند أولئك إذ  
انقسمت الى قسمين فيكون القسم البدوي هو الحافظ لمحاسن اللغة التي  
كان ينطق بها البغاء والشمران ويكون القسم الحضري قطعة من كلام  
العرب يخاطبها كلام السوق (٥) والفاظ المربين فيما ينقلونه من كلام

(١) ابن خلكان ٣٣٨٥٢ (٢) ذكر أبو انقاء انه ولد في أيام يزيد بن عبد  
الملك وتوفي سنة ١٨٧ بعد البرامكة (٣) ابن خلكان ١٥٢٥١ (٤) يظهر هذا مما  
نقله الاصمعي وغيره من كلام العرب (٥) ذكر الاغانى كلام السوق في زمن  
الرشيد ١٧٣٥٣ وفي غير موضع أما ابن خلدون فيقول في المقدمة ١٥ ان ماسكة  
اللسان كانت محفوظة في الامصار الى عهد الزمخشري وأمثاله من فرسان الكلام

الفرس واليونان مما لا نجد له مسمى في لسان العرب لان لغتهم انما وضعت للبادية حيث لا تكون هذه الاشياء التي نجد أسماءها في كتب الاعاجم كما أن في لغات الامصار اضرابا عن تسمية الاشياء التي لا توجد الا في بادية العرب. ثم اني وجدت عند أهل اللغة قصورا تسامحوا فيه وتفاضوا عنه وذلك أنهم عند ما يصرفون الكلام يسردون لغة القبائل فيه من غير أن يشيروا الى ما كانت تختاب به لغة قوم عن آخرين . ولقد ذكروا للأسد نحو ألف اسم ولكن من غير أن يذكروا الاسم أو الأسماء التي كانت تسميه بها عرب كذا وكذا وذكروا للبعير والحية وساير الحيوانات والاشياء والاصناف مثل ذلك مع اغفالهم ما نحن نؤاخذهم به حتى لقد نجد في تصريف الاسماء الى ما اشتق منها من المعاني مضادة اغفلوا ذكر استعمالها بين الشاثر كاستعمالهم وثب بمعنى جلس وطفر وذلك من الاضداد التي لأظن انها تجتمع في كلمة واحدة عند قوم من العرب فان الوثوب بمعنى الجلوس في لغة حمير وبمعنى الطفر في لغة قريش (١) . الى غير ذلك (٢)

(١) في القاموس الوثب الطار والتمود بالفتح حمير (٢) قيد العلماء في كتب اللغة كثيرا من الافعال التي تشترك في معنى الشيء الذي له تقيض من نفسه مثل الهزال والسمن والصعود والانحدار والحضور والغياب وغير ذلك فرمما عبروا عن الشيء وتقيضه من هذه الاسماء والافعال والاصناف بلفظة واحدة مشتركة بين المعنيين باعتبار أن الحبل مثلا لا ينحدر منه الرجل الا أن يكون قد صعد اليه ثم لا يعقب الصعود الا الانحدار وكما أن الرجل لا ينيب الا بعد أن يكون حاضرا فانه لا يحضر الا بعد أن يغيب وهذه هي الالفاظ التي يصح أن تسمى بالفاظ المشاركة وانها الكثيرة في كلام العرب

ولبيده ان اشترك اللفظة الواحدة في منيين متضادين قد يدعو الى الاتباس في الكلام فلو قال قائل عذر الله وكن من اعدائه واقطع رؤس أئمة المعابد ولا تقرأ القرآن فتجحد واجنحة مشوى الكفرة والجامع مجلبة للآثم لكان المتبادر من كلامه كفرا مع أن تفسيره مناه المستتر حكمة وتسبيح لان عذر بني بجل والاعداء هم الانصار وقطع أى سآك والامام الطريق الواضح وقرأ جمع وجحد بخل والكافر الحارث الارض وهو الاكبر والجامع القدر العظيمة ويراد بها الشره الى غير ذلك فهذا الشأن غير محمود في لسان العرب ولا سيما بعد أن توحد بنزول القرآن الكريم وقد تعجبت كل العجب كيف أهمل اصلاحه لهذا الزمان . وقد امتلأت صدور الرجال من العلم والادب والعرفان .

#### الشعر في البداوة

العروض علم وضعه الله سبحانه في صدور العرب حتى لا يوجد أحد منهم الا وهو يقدر على قول الشعر طبعاً ركب فيهم قل القول أو كثر (١) وكان أهل الجاهلية ينطقون به عن بلاغة لا يقصدون بها الا المفاخرة بين الاقران « كما سمعت الاصمعي يقول الشعر جزل من كلام العرب تقام به المجالس وتستنجح به الحوائج وتشفي به السخائم » بخلاف ما نجد في شعراء هذا الزمان فانهم يغضبون أنفسهم على الانشاد بما يستهيجون الملوك من الارفاد . وعندى أنه كلما تباعدت أجيال الاعراب .

وامتزجت بهم الاغراب . وتجاؤا عن سكنى البادية الى حيث لا يكون لهم مجالس للمناشدة كدأبهم في سوق مجنة وسوق عكاظ وسوق ذي المجاز (١) فقدوا كثيرا من بلاغة الشعر وضاق مذهبهم به على اتساع الحضارة فيهم الى أن يكافوا طبيعتهم شيئا لا يتقدرون عليه فيقولون البيت ويحك كونه أياما (٢)

وانما سهل على المتدمين الاجادة في هذا الفن أن شاعرهم كان ينفرد بمذهب واحد من المذاهب المعروفة عندهم بين فخر ونسيب ومدح وهجاء من غير أن يكون له طلاوة ونايفه فيما سواه . ثم ان كلام العرب (٣) كان سائرا في أيامهم على الالسنه فلم يمانوا الى البلاغة تكلفا (٤) فيما قصدوا من المذاهب التي كانوا يرددون فيها القول على انفرادهم من الاحوال بطرائق انقطوا اليها وكانوا بها موصوفين كما ترسال امرىء القيس في معاش الشباب بحيث أتى من نعت محاسن النساء بما ليس لقول غيره موقع مثله من القلوب ومدخل لطيف وان هو الأرق المتغزلين حيث يقول .

(١) هي الاسواق الثلاث الاكثر شهرة عند العرب وأعظمها سوق عكاظ وكان يقام بين نخلة والطائف في موضع لا يبعد عن الطائف أكثر من عشرة أميال وذلك في أول يوم من ذي القعدة الذي هو أول الأشهر الحرم وكانت العرب تجتمع فيه لتجارة والتهبيء للحج فيؤمن بعضهم بعضا ويتناشدون ويتفاخرون ويتسوقون الى حضور الحج ثم يحجون (٢) الاغانى ٢٥٠\*٣ (٣) الاغانى ٢٥٢\*٥ (٤) الاغانى

أفطم مهلابض هذا التدلل      وان كنت قد أزمعت صرعى فاجلى  
 أغرك منى أن حبك قاتلى      وأنتك مهما تأمرى القلب يفعل  
 وكجد عنتره بن شداد في الفروسية بحيث أتى في الحماسة (١) بما لم يأت  
 به أحد مثله كقوله .

لو سابتنى المنايا وهى طالبة      قبض النفوس أنانى قبلها السبى  
 وكفتح حاتم الطائى يده فى سعة العطاء بحيث انه يتهلل بذكر السباحة  
 والمكرمات فى جميع شعره ويقول (٢).

أماوى ان المال غاد ورائح      ويبقى من المال الاحاديث والذكر  
 ترى أن ما أنفقت لم يك ضائرى      وأن يدى مما بخلت به صفر  
 وارتفاع السموأل بن عادياى فى درجات المحاسن الشريفة بحيث انه  
 أتى من ذكر الوفاء والمفاخرة به بما يرفعه الى اسمى طبقات الشعر  
 وهو الذى يقول

اذ المرء لم يدنس من اللؤم عرضه      فكل رداء يرتديه جميل  
 تعيرنا انا قليل      فقلت لها ان الكرام قليل  
 وما مات منا سيد حنق أنفه      ولا طل يوماً حيث كان قتيل  
 وكانقطاع أمية بن أبى الصلت الى العبادة بحيث انه أتى فى ذكر أحوال  
 الآخرة بما لم يشاركه فيه متقدم ولا متأخر (٣) وان قوله .  
 يوشك من فر من منيته      فى بعض غرآه يوافقها

من لم يمت غبطة يمت هرما للموت كأس والمرء ذائقها  
لأحكام ما قالته العرب في وصف الموت (١) الى غير ذلك مما يتسع له  
المجال فنقف منه عند هذا الحد .

وقد انتهت بلائحة الشعر الى المعلقة السبع وهي أصدق شاهد على  
فضل المتقدمين بما تصدوا من انسجام القول ونعت الشعائر التي  
تدل على أنفة النفس وعلو الهمة على غير تكلف بها الى طرق البلاغة بما  
نعلم من انشادهم اياها ارتجالا بين العشائر فان الحارث بن حازمة لما أنشد  
عمر بن هند معلقته توكأ على قوسه وأنشدها واقتطم كفه وهو لا يشعر  
من الغضب حتى فرغ منها (٢) فيظهر من ذلك أنه كان لهم في الشعر  
سر ضاع عن المحدثين سره لا تقلابه فيهم من الطبيعة الى الصناعة لان  
العرب كانوا شعراء جميعاً وكلهم يرتجز في حرب أو استجداء أو  
مفاخرة (٣) وكانت الحكمة سائرة على ألسنتهم كما شهد لهم النبي صلى  
الله عليه وسلم بذلك حتى اذا أنشدوه قول طرفة من أصحاب المعلقة  
ستبدى لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود  
قال هذا من كلام النبوة (٤) ثم ان النساء كنَّ يقطن الشعر أيضاً في أيامهم  
حتى ان بعضهن قد فضلن كثيرا من الرجال مثل ليلى والخنساء وكلتاهما  
شاعرة فصحي ولقد وجدت من كلام ليلى في وصف الشجاعة ضربا

(١) العقد ١\*٣٧٥ (٢) أبو عبيدة والاعاني ٩\*١٧٨ (٣) الاغاني ١٨\*٦٤ (٤)



من الابداع كقولها (١)

مهفهف الكشح والسربال منخرق      عنه القميص لسير الليل محمقر  
لا يأمن الناس ممساة ومصبحه      في كل فبح وان لم يغز ينتظر  
ووجدت في تابين الخنساء لصخر توجماً كثيراً بالبكاء غايه حيث تقول  
يذ كرني طلوع الشمس صخرًا      وأذكره لكل غياب شمس  
ولولا كثرة الباكين حولي      على اخوانهم انتات نفسي  
وما يكون مثل أخي ولكن      أعزى النفس عنه بالتأسي  
وتقول في رثائه وهي تصف محاسنه .

إذا القوم مدّوا بأيديهم      الى المجد مدّ اليه يدا  
فقال الذي فوق أيديهم      من المجد ثم منى مصعدا  
وتقول وهو أفخر بيت قالته العرب

وان صخرًا لتأتم الهداة به      كأنه علم في رأسه نار  
ولها من أمثال هذا الكلام شيء كثير (٢) يرفعها الى مساماة البلغاء من الرجال  
وقد أجاد المتقدمون في براعة الاستهلال الى حيث يقف حد  
البلاغة وهم يصفون الركبان والطين ويذكرون ربوع الاحباب  
وتعفية الرياح رسومها ومخاطبتهم اياها فيما مضى لهم من عهود الانس  
ويصفون ألم الفراق ووحشة الديار وما يخالج قلوبهم من الصباية في وقوفهم

(١) الاغانى ١، ١٧١\* ٢، الاغانى ٦\* ٨٣ و ٩\* ١٦٣ و ١٤\* ١١٦\* والقد ٢\* ٢٣

بالعيس الى اطلال الديار (١) الى ان يتخلصوا من هذا الاستهلال الى ما يرون  
انشاده فيما يأخذون به من المذاهب ولكن على انحطاط يقع فيه الكثير منهم  
بعد بلاغة الابتداء الا الذين يتوسطون بالبلاغة في مطلعهم فيستمرون الى  
آخر بيت على استواء أو الذين يعلون علوا حسنا ثم لا يزالون بمثله على  
بلاغة تعجز الفصحاء ولكنهم نفر قليل مثل امرئ القيس وزهير بن أبي  
سلمى والنابغة الذبياني وهم المقدمون على جميع الشعراء وموضعهم من  
البلاغة واحد (٢) الا انه غاب على ذي القروح التجميل بالمعاني وبديع  
الوصف وعلى النابغة الاسترسال في البراعة وعلى زهير العناية بتتويم  
الالفاظ. وقد سمعت الاصمعي يقول وقد سئل من أشعر العرب. الذين  
شرق شعرهم وغرب. فقال انهم زهير اذا رغب. والنابغة اذا طرب

(١) انما ابتدأ الشاعر بوصف الديار والدمن والانار فيكي وشكاو خاطب لربيع  
واستوفى الرفيق ليخيل لذلك سببا لذكر أهله الطاعنين من ماء الى ماء  
واتجاعهم الكلاً وتبعهم مساقط النيث حيث كان ثم فصل ذلك بالنسيب وأبدي  
شدة الوجد وألم الصباية والشرق لتميل نحوه القلوب وتتصرف اليه الوجود ويستدعي  
اصفاء الاسماع لان النسيب قريب من النفوس لائظ بالقلوب لما جعل الله سبحانه في  
تركيب العباد من محبة النزول وانف النساء فاذا استوثق من الاصفاء اليه والاستماع  
له وعقب بالبحر الحقوق ودخل في شعره وشكا السهر والتمب وسرى الليل وقرر  
ماناله من المنكاره في المسير بدأ في المديح فبعثه على المكافأة وفضله على الاشياء وصنعه  
في قدره الجزيل وحزه العمل الجميل الحصري ٤٥٢ ٢ (٢) الاغانى وكتاب الموازنة

وامرؤ القيس اذا غضب. وعترة اذا ركب. والاعشى اذارهب (١) ولئن  
 يكن في تفضيل الشعراء بعضهم على بعض عسرا يؤمن معه الزلل فما أنا  
 براء في أبياتهم ما يسمو الى كلام النابغة في الفخر حيث يقول (٢)  
 ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتاب  
 ولا الى براعة زهير في المديح وقد أتى عن المادحين فضول الكلام بقوله (٣)  
 وان يك من خير أتوه فانما توارثه آباء آبائهم قبل  
 ولا الى جمال الوصف الذي نظمه امرؤ القيس في معلقته نظم اللآلى  
 في شذور الذهب فقد لا تحضر البلقاء أنفسهم عبارات يفصحون بها عن  
 محاسن كلامه الذي ذهب مذهب المعجزات فان العرب لم يتمكنوا عن  
 السجود لها وهي معلقة في الكعبة الى أن خزر الاسلام وذهبت  
 فصاحة الشعر بما نزل من كلام الله تعالى على سيد ولد آدم سيدنا محمد  
 صلى الله عليه وسلم.

وأما الذين دون طبقة هؤلاء من الجاهليين فان لهم من محاسن  
 الشعر موزعا لا يتعدونه الى التصرف في المذاهب الواسعة كما فراد أبي  
 داود بوصف الخليل وعلقمة بوصف الوحش وأوس بن حجر بوصف  
 الخمر الى غير ذلك (٤) وليس فيهم أقرب الى طبقة الثلاثة المتقدمين من  
 الاعشى بن جندل الاسدي (٥) فان له ابياتا حسانا ذكر منها هذا

(١) الاغانى (٢) خزنة الادب ٥١١ والاغانى ١٠٨٠٩ (٣) الاغانى (٤) الاغانى

٩٥١٥ و٩٦٠ (٥) الاغانى ١٤٠٥٩

البيت الذي هو اشجع بيت قالته العرب .  
 قالوا الطعان فقلت الكل عادتنا أو تنزلون فانا معشر نزل  
 ولكني وجدته اذا تعالى في شعره كثير الم يؤمن وقوعه في الانحطاط (١)  
 وربما أتى من الايام بالغريب الذي يعجم على الازهان وهذا شيء يصح  
 أن نعيبه عليه وعلى غيره من الجاهليين وان كان بعض الناس يجدون له مخرجا  
 الى السلامة من العيب حيث يجوزون للمتمدين ما لا يجوزونه للمتأخرين .

( الشعر في الحضارة )

ولقد وجدت في شعر الاسلاميين المتقدمين علوا كادوا يساهون  
 فيه أهل الجاهلية ولذلك يصح أن نعرف لهم بمحاسن البلاغة مثل الاحوص  
 وذى الرمة وحسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والقطامي وجريير والفرزدق  
 والاخلطل وجميل وكثير وكثير غيرهم فان لشعرهم من رقة الديباجة  
 والرونق والحلاوة ما لا نجد في شعر البلغاء من الجاهليين وربما انتهى  
 بعضهم في المذاهب التي كانوا بها آخذين الى حيث تقف بلاغة الشعر  
 كذكر الحماسة في كلام حسان بن ثابت حيث يقول .

لنا الجففات الغريلمع في الضحى وأسيفنا يتطرن من نجدة دما

وكلاستئثار بالفخر في شعر الفرزدق الذي يقول فيه (٢)

ترى الناس ان سرنا يسرون خلفنا وان نحن أومأنا الى الناس وقفوا

وكالتوجع بالرثاء في قصيدة الهذلي التي يجزع فيها على فقد أولاده الا

(١) الموازنة والاغاني (٢) القد والاغاني والكشكول

طفلاً صغيراً بتي له ومن جملتها البيت المشهور (١)

والنمس راغبة اذا رغبها      واذا ترد الى قليل تقنع

وكذا ذكر عامة الشباب في شعر جميل وذى الرمة وعمر بن أبي ربيعة (٢)  
 بحيث ان لهم في ذكر محاسن النساء من الاوصاف البارعة مع عذوبة  
 الالفاظ وجودة السبك مما لا يوجد مثله لاحد من شعراء العرب غير  
 الثلاثة المتقدمين الى غير ذلك .

ثم ان الشعر يقع في الحضارة بعد هؤلاء المجيدين ويفقد كثيراً من  
 البلاغة التي كانت في لسان الجاهليين لابرار المعاني في فصيح الكلام الا انه  
 لا ينحط عنه في الاوصاف البارعة وتناول المعاني من حيث الشعر نفسه  
 فلقد نجد لبعض المحدثين من سعة التصرف به وسرعة الخاطر الى النظم  
 ما لولا ان تأخرت أيامهم لحسبناهم في طبقات المتقدمين على ان كلامهم  
 ليس من الفصاحة بالموضع الذي كان للجاهليين والمذر لهم في ذلك ان  
 شاعر البادية انما كان ياتمس الفصيح من الالفاظ ليسمو كلامه على كلام  
 غيره من الشعراء واللغات اذ ذلك كثيرة في عشائرهم أما اليوم فان اللسان  
 الذي نزل به القرآن معروف لدى كل انسان فلا يضطر الشاعر الى التماس  
 ألفاظ يفضل بها لسان غيره لتوحد لغة قريش في كافة الامصار . وانما  
 وجب عليه ان يبتدع المعاني التي لم يسبق اليها غير دون تكلفه الى تناول

(١) العقد والاعاني (٢) صاحب الاعاني يفضله على شعراء زمانه وربما فضله في

الغريب من الكلام (١) لان الالفاظ السوقية لا تمنع (٢) أن تكون القصيدة جيدة .

ولقد ينقسم الشعر في الاسلام (٣) الى طبقات ثلاث أقربها الى فصاحة البداوة أبدها عن حضارة الاسلام . أولها عصر عبد الملك والشعر اذ ذاك في ثلاثة من تميم (٤) وهم جرير والرزديق وهو نبغة (٥) الشعر والاخلط الذميراني وهو الحميد في مدح الملوك (٦) ووصف الخمر وكان المقدم عليهم جرير وقد فضل الشعراء (٧) بقوله في المديح  
أستم خير من ركب المطايا      وأندى العالمين بطون راح

وقوله في النسب (٨)

ان العيون التي في طرفها حور      قتلنا ثم لم تحيين قتلانا  
يصر عن ذاللب حتى لا حراك به      وهن أضعف خلق الله انسانا  
وهذا من الكلام الذي تتناهى اليه رقة أهل الصبابة ولم نجد من بعده مثله الا في شعر جميل وكثير وقد استرسلا جميعاً في معاش الشباب واتفقوا الى النسب (٩) من مذاهب الشعر يقول كثير (١٠)

(١) ذكر الاغانى ١٤٥\*٣ أن الشعراء يستعملون الغريب من الالفاظ وذلك في زمن الرشيد (٢) الاغانى ١٣٣\*٣ و١٧٣ (٣) أي في المتصرين من الشعراء دون أهل البادية (٤) الاغانى ٦\*١٩ (٥) الاغانى ١٤٧\*١ (٦) الاغانى ١٤٧\*٦ (٧) الاغانى ٢\*١٠ وفي غير موضع والوطواط ١١١ وابن خلكان ٤٣\*١ والعقد الفريد ١٥١\*١ (٨) الموازنة ٤ (٩) الاغانى ٥٨\*٤ والكشكول والعقد الفريد ١٧٢\*٣ (١٠) الاغانى وتزيين الاسواق وابن خلكان والمستطرف

أريد لانسى ذكرها فكانما  
ويقول جميل

وما زلت يا بُنُّ حتى لو أتى  
ومأحدث النأى المفرقُ بيننا  
على أتى راض بأن أحمل الهوى  
ومن كلامه (١)

خائلي فيما عشتما هل رأيتما  
وأول الايات قوله

لقد فرح الواشون أن صرمت جبلي  
يقولون مهلا يا جميل واتى  
والناس يستحسنون ذلك . ولا يقاربه في النسب الا قول الاحوص (٢)  
إذا قلت انى مشتف بلقائها فحمّ التلاقي بيننا زادنى سقما  
وأما الطبقة الثانية فانها عصر أبي جعفر رحمه الله وشراؤه من تقدم لك  
ذكرهم . والطبقة الثالثة هي زمن الرشيد والبرامكة وشراؤها اكثر من  
يأخذهم الاحصاء ولكنى لا أرى فيهم الا أبا العتاهية وأبا نواس ومسلم  
ابن الوليد وهم أشعر أهل هذا الزمان كما ستراه .  
فأما أبو العتاهية فانه انقطع في شعره الى ذكر أحوال الآخرة (٣)

(١) الاغانى والعقد الفريد ١٤٦\*١ والحصرى ١٦٣\*٢ (٢) الاغانى ٥٧\*٤

(٣) الاغانى ٣٢\*١١

وله أرجوزة حوت أربعة آلاف بيت أودعها من المعاني الجليلة ما أبرزه في أحسن صورة من ذلك قوله : روايح الجنة في الشيباب « وهو قول يقبله القلب ولا يفسره اللسان (١) والناس يتولون انه خرج عن العروض بوزن لم يذكره الخليل بن أحمد ولكني لا أرى ذلك خذاً يعاب فيه كمن يتناول على قواعد العلوم لان الخليل لم يستوف الكلام في هذا العلم الذي وضعه ولا سيما في بحر المتدارك فان من العروضيين من زاد فيه على ما ذكر (٢) وقد كان أبو التاهية من الحظوة عند الرشيد بحيث لم يفارقه في حضر ولا في سفر (٣) ثم آل أمره الى الزهد (٤) فلبس الصوف وعزفت نفسه عن الدنيا وكان يقول (٥) .

كان كل نعيم أنت ذائقه من لذات العيش يحكي لمعة لآل

فصار اذا دعاه اليه ليصف له ما هو فيه من زخارف الملك يبادر بالتذكير والموعظة (٦) فيبكي الرشيد من ذلك فيهم الجلّاس الى معاتبته فيقول لهم الرشيد دعوه انه يرانا في عمى فيكره ان يزيدنا منه .

وأما أبو نواس فان مذهبه في الشعر مضاد لمذهب أبي التاهية واكثر ما يتضمن شعره الفزل والزهر وذكر المنادمة والخمر تبعاً لما نعرف له من مما زحمة الملوك (٧) فهو يذكر ابليس والخمر في شعره كما يذكر

(١) الاغانى ١٤٣\*٣ (٢) المسعودى ٢٦٥\*٢ (٣) الاغانى ٣٢\*١١ (٤) الاغانى

٣٢\*١١ (٥) الاغانى ١٦٢\*٢ (٦) ابن الاثير ٧٩\*٦ والفخرى ٢٣٠ والطرطوشى

١٧ والكشكول (٧) الاتليدي وحلابة السكيت وتزيين الاسواق



أبو العتاهية الآخرة والجنة فيقول (١)

عجبت من ابليس في كبره      وخبث ما أضمر من نيته  
تاه على آدم في سجدة      وصار قواداً لذريته  
ثم يقول في معرض آخر (٢)

وليلة طال سهادي بها      فجاءني ابليس عند الرقاد  
وقال هل لك في قهوة      عتمة العاصر من عهد عاد  
ويقول في مدح الخمر (٣)

صفة الطلول بلاغة التدم      فاجعل صفاتك لابنة الكرم  
ويقول (٤)

فعلت في البيت اذ مزجت      مثل فعل الصباح في الظلم  
فاهتدي ساري الظلام بها      كاهتداء السفر بالعلم  
ويقول في المنادمة عليها (٥) من قصيدة قد طارت له .

ألا فاسقني خراً وقل لي هي الخبر      ولا تسقني سراً اذا أمكن الجهر  
ويقول (٦)

واذا جلست الى المدام وشربها      فاجعل حديثك كله في الكاس  
ومن استعاراته الفائقة قوله (٧)

(١) اعلام اناس ١١٩ (٢) اعلام الناس ١٢٠، ٣، الحصري ٢\*٦٢ (٤)

المسعودي ٢\*٤٢٢ (٥) الوطواط ٤٥ وغيره (٦) خزانة الادب ٤ (٧) خزانة

بسم الصباح لآعين الندماء      وأنشق جيب غلالة الظلماء  
 ويقول في وصفها مما لم يسبقه إليه أحد (١)  
 وجرأ قبل المزج صفراء بعده      كأن شعاع الشمس يلقاك دونها  
 ويقول في انشراح الصدور من شربها (٢)  
 إذا ما أتت دون اللهاة من الفتى      دعا همه من صدره برحيل  
 ويقول في نعتها مما ينهى إليه جمال التصور ورقة الكلام (٣)  
 رَقَّ الزجاج وراقت الخمر      وتشابها فتشا كل الامر  
 فكانما خمر ولا قدح      وكانما قدح ولا خمر  
 وله في صفاتها ونعت طعمها وريحها ولونها وشعاعها وحال المناديات عليها  
 والاصطباح والاعتباق (٤) ما توسع فيه الى أدب ليس للشعراء حظ به  
 مثله وهذا مما يدل على اقتداره في الشعر وان كان مذهبه غير محمود عند  
 أهل الصلاح وهو عندي شاعر الشعراء حقيقة (٥) وأني أفضل شعره  
 على شعر أبي العتاهية لان قصائده كلها سالمة من اليب (٦) أما أبو  
 العتاهية فانه وان كانت له استخراجات لطيفة ومعان ذارفة الا أنه يقول  
 البيت النادر ثم يتبعه بالبيت السخيف البارد (٧) وقد ذكر لي وراق

(١) المسعودي ٤٢٣\*٢ (٢) البيهقي ٩٦ (٣) ذكر ابن خلكان ان هذا الشعر ليس  
 لأبي نواس (٤) المسعودي ٤٢٢\*٢ (٥) ذكر صاحب العقد الفريد في باب من الرقائق  
 من المجلد الثالث أن أبا نواس من أقدر الناس على الشعر وأطيبهم فيه (٦) الفيرواني  
 وابن خلكان (٧) الاغانى ١٨٠\*٣

في درب القراطيس (١) كنت آلف حانوته أنه مر به أبو العتاهية يوماً  
وعنده ديوان لابن نواس فوق نظاره على هذا البيت (٢)  
لن ترجع الأنف من غيها مالم يكن منها لها جسر  
فسألني لمن البيت فقلت لأبي نواس فقال والله أني أحب أن يكون لي  
هذا البيت بنصف شعري (٣) اه وأظن أنه لو وقف على قوله .

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد (٤)  
أو قوله وهو أمدح بيت للمحدثين  
وكلت بالدهر عينا غير غافلة بجد كفاك تأسوكلها جرحا

لقال فيهما مثل ذلك . ولقد لقيت اسماعيل بن نوبخت في مجالس البرامكة  
وقد جرى الحديث بحضرتهم عن الشعراء فقال سمعت بعض الناس  
يقول ان الاصمعي أعلم الشعراء وأشعر العلماء فوالله ما رأيت أحق بهذا  
الوصف أن يقال فيه من أبي نواس لاني ما رأيت في أهل الادب من هو  
أوسع علما في كل شيء منه وليس في الشعراء من مبار . يعلق له  
بمبار . وكنت في تحقيق فضله عليهم أن كلامه كله موزون (٥) مثل الشر  
الذي رسخت في صدره ملكته وصار في نفسه طبيعة ترفعه على جميع

(١) من شوارع بغداد ذكره ابن خلكان (١٦٥٥١، ٢) ذكر صاحب العقد  
الفريد هذا البيت في الامثال السائرة وأبدل الشطر الثاني منه بقوله حتى يري منها  
ها واعظ (٣) الطرطوشي ١٠ ٤١، الاغانى والقيمة ١٠٢ وخزانة الادب (١) ٥٠٠  
ابن خلكان

الشعراء وأما مسلم بن الوليد الملقب بصريع الغواني فإنه أرق الشعراء غزلا  
والطفهم صنعا وأكثرهم من المعاني حفا (١) إلا أن ميله مع أهل البيت  
وقوله الشعر في مديحهم هو الذي جعله مقصيا عن محاضرة الخلاء بل  
جعل في نفوسهم موجدة عليه لما كانوا يرون من استمساك الناس بشعره  
وقد أبدع مصاغه ورصمه بدرر البلاغة ولقد ضمير به الرشيد فحمد الله  
على ذلك بمحضر من الجلساء كأنما قد ضمير بملك من كبراء الملوك فلما بدأ  
يعاتبه قال إيه يا مسلم أنت القائل.

أنس الهوى بنى على في الحشا وأراه يطمح عن بنى العباس  
فاعمل فكرته في استبداله بمدح عاه يستشفعه عنده ويكون وسيلة  
لسلامته من القتل وقال بل أنا يا أمير المؤمنين الذي أقول.

أنس الهوى يبني العمومة في الحشا مستوحشا من سائر الأيناس  
وإذا تكاملت المضائل كنتم أولى بذلك يا بنى العباس  
فعجب الرشيد من سرعة بديهته وقال له بعض جلسائه استبقه يا أمير  
المؤمنين فإنه من أشعر الناس (٢) وامتحنه فستري منه عجبا فرق له  
الرشيد وفي نفسه من الميل إلى الأدب ما قد علمت ثم قال له أنشدنا

(١) ذكر له ابن الأثير ٥٢٠٦ بعض أبيات في عرض التاريخ وقال أنها حسنة جدا  
وذكر الحصري أيضا جملة أبيات وقال إن الطائي كان يعول عليه وعلى أبي نواس وإن  
مسلم أول من لطفه البديع. وكسا المعاني حلا اللفظ الرفيع (٢) كان مسلم بن  
الوليد من أشعر الناس ولكن لم أره ترجمة في الأغاني ولا في ابن خلدون وما نقلته  
هنا مأخوذ من كتاب العقد الفريد ٩٠ \* ١

أشعر بيت لك فقال يا أمير المؤمنين أفرخ روعي أفرخ الله روعك  
يوم الحاجة الى ذلك فاني لم أدخل على خليفة قط فأمره بالجلوس ثم شرع  
في الانشاد وكلما فرغ من قصيدة قال له التي تقول فيها الوحل فاني رويتها  
وأنا صغير فانشده شعره الذي أوله .

أديرا على الراح لا تشربا قبلي ولا تطالبا من عند قاتني ذحلي (١)  
حتى اذا انتهى الى قوله .

اذا ما غلت منا ذؤابة شارب تمشت بنا مشى المقيد في الوحل  
ضحك الرشيد وقال نليك أما رضيت أن تقيده حتى يمشي في الوحل  
ثم أمر له بجائزة وخلي سبيله .

هؤلاء الثلاثة أشعر الشعراء وهم الذين زينوا الدولة العباسية  
كما كان الثلاثة المقدم ذكرهم في الفصل السابق يزينون زمن الجاهلية  
ولقد لقيت في بغداد كثيراً غيرهم من الشعراء مثل العماني وأبي مصعب  
وأبي الشيص وأبي عبد الرحمن العطوي وغيرهم واتصلت بي أخبار  
جماعة ممن يتصرفون بفنون الشعر ويتدعون لقول الذي لم يشركهم فيه  
غيرهم الى أن ينظموا القصائد التي ليس في أبياتها حرف معجم كقولهم (٢)  
وحاولوا رد أمر لا مرد له والصرم داء لاهل اللوعة الوصل  
الا أنهم قد كانوا في أيام أبي نواس ومسلم بن الوليد فضاع بينهما فضلهم

(١) في المجلد الثالث من العقد الفريد ١٧٦ سبعة أبيات آخر من هذه القصيدة

(٢) الاغانى ١٠٧٤

ولم يكن لهم ذكر في مجالس الخلفاء وأهل الادب.

( الغناء وتحريره واصلاحه )

قد مضى في بعض كتب السالفة من الكلام عن الغناء ما يقضى بصحة ذوق العرب وحسن ما يصنعون من الاصوات وكان أصله عندهم أربعة نفر (١) ابن سريج وابن محرز وهما مكبان ومالك ومعبد وهما مدنيان اذ كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب ظاهرا فاشيا وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليامة وهذه البلاد مجامع أسواق العرب (٢) وكانت النساء يشاركنهم في صناعة الاصوات وقد نبغ فيهن عزة الميلاء بالغناء الموقع الى أن صارت أحسن الناس ضربا بعود (٣) وكان لها استاذة يقال لها رائدة فاحتذت فنها في تنسيق الانغام ثم قدم الحجاز سائب ونشيط وغنيا بالفارسية فأخذت عزة عنهما نغما وألنت عليها ألحانا كثيرة لينة كما نجد في غناء النساء (٤) ثم ظهر طويس المغني فصنع الرمل والمزج (٥) وأول ما غنى به على لحن صنعه قوله (٥)

قد براني الشوق حتى كدت من وجدى أذوب

ثم غنى ابن مسجح الغناء المنقول من الفارسي (٦) وأشهره بين الناس وكان ابن سريج يضرب بالعود على غنائنا الى أن ظهر معبد في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التحية فصنع من الاصوات البديعة

(١) الاغانى ١\*٩٨ (٢) العقد الفريد ٣\*٢٤٧ (٣) الاغانى ١٦\*١٣ (٤) الاغانى

٥٧\*٥ (٥) الاغانى ٤\*٣٨ (٦) المستطرف ٢\*١٨٨ والعقد الفريد ٣\*٢٣٧

ما فضل فيه غيره من أهل زمانه والمعاصرين له وفيه يقول شاعر تلك الأيام (١)  
 أجاد طويس والسروجي بعده وما قصبات السبق إلا لمعبد  
 وقد كان الغناء قبل نقله عن الفارسية مأخوذاً عندهم عن الأذان (٢)  
 فلما نقلوه عن قومنا واستعانوا بكتاب لبطلية موسى في اللحن الثمانية (٣)  
 عربوه في خلافة أبي جعفر (٤) أجادوا بتأليف الاصوات إلى أن فضلونا  
 اليوم في الغناء ونبغوا فيه النبغة التي ما كنت أحسبهم يصلون إليها في زمن  
 من الأزمان وما مكنهم من استكمال هذه الصناعة إلا أمران . الأول  
 انفراد كل واحد منهم بلحن من الألحان يتفنن فيه ويصنع فيه الاصوات  
 الحسان حتى يفرق ألحان غيره من المغنين كانوا معبد بالثقل (٥) وابن  
 سريج بالرمل وحكم الوادي بالوزج (٦) وأحمد النصيبى بالانصاب (٧)  
 وفليح ابن أبي العوراء بلحن النواقيس والموصلى باللحن الماخورى أما  
 الخفيف الرمل فانهم يشتركون فيه جميعاً بحيث لم أجدهم غنياً إذا تغنى لنفسه  
 يكاد يغنى إلا خفيف الرمل (٨) والثاني ما كانوا يتناولونه من الخلفاء جوائز  
 ومن الأمراء وأهل النعمة أجرة واسعة على غنائهم ممن يستدعيهم إلى  
 إلى فرح أو يجتمعهم لمناظرات الصناعة ثم يخرج بدر الدنانير لاجازة  
 المحسنين (٩) منهم ولقد سئل حنين المغنى وقد دعى إلى مأدبة لا يعهد

(١) ابن نباتة والاغاني ٨٦٠٣ (٢) ابن خلكان ٥٧١٠١ (٣) الاغاني ٨٩٥ (٤)

ابن نباتة (٥) الاغاني ٦٦٠٦ (٦) الاغاني ١٤١٠٥ و١٣٠٦ (٧) الاغاني

١٦١٠٥ (٨) الاغاني ٣٦٠٧ (٩) الاغاني ١٤\*٥٥

في صاحبها السماحة لم لا ترضى بالاجرة اليسيرة فقال انما هي انفاسى  
أقسمها بين الناس أفتلومونني أن اغلى بها الثمن .

ثم ظهر عزم البرامكة أعز الله ملكهم وهم محبون للعلم ومقربون  
اليهم أهل الادب فكان ممن قربوه من المغنين ابراهيم الموصلى (١) وابنه  
اسحق وهما بمكان جليل من الادب الا أنه غلب عليهما الغناء بما وضعاه  
من الالحان فاشتهرا بالكناية به كما رأيت . وقد وضع ابو اسحق اللحن  
الماخورى الذى لم يشركه فيه أحد من المغنين وكان يظن لصعوبة المأخذ

(١) وجدت في بعض الكتب حكاية فيها ذكر ابراهيم الموصلى وخبره مع  
ابليس فاحبت ان اذكرها في هذا المقام لانها قديمة عهد بوضعها وتدل على  
شئ مما كان يجرى به حديث الناس في ذلك الوقت قال صاحب الاغانى اخبرنا محمد  
ابن مزيد قال حدثنا حماد بن اسحق عن أبيه عن جده ابراهيم قال سألت الرشيد  
أن يهب لى يوما في الجمعة لا يبعث الى فيه بوجه ولا سبب لأخلو فيه بجوارى  
واخوانى فأذن لى في يوم السبت وقال هو يوم استنقله فإله فيه بما شئت قال فأقت  
يوم السبت بمنزلى وتقدمت فى اصلاح طعامى وشراى بما احتجت اليه وأمرت بوابى  
فأغلق الابواب وتقدمت اليه أن لا يأذن على لاحد فينا أنا فى مجلسى والحرم قد  
حنفن بى وجوارى يترددن بين يدى اذا أنا بشيخ ذى هيئة وجمال عليه خفان  
قصران وقمصان ناعمان وعلى رأسه قنسوة لاطية ويده عكازة مقمعة بنضة وروائح  
المسك تفوح منه حتى ملاء البيت والدار فداخنى بدخوله على مع ما تقدمت فيه  
غيفظ ماداخنى قط مثله وهممت بطرد بوابى ومن حجبتى لأجله فسلم على أحسن  
سلام فرددت عليه وأمرته بالجلوس فجلس ثم أخذ فى أحاديث الناس وأيام العرب  
فى أحاديثها وأشعارها حتى سلى ما بى من الغضب وظننت أن غلمانى تحروا مسرتى



في ابتداعه أن ابليس هو الذي ألقاه عليه في المنام فلقد طال ما تهوس  
بالغناء وأمعن في تنسيق الألحان على أتم ابداع وأحسنه موقعا في النفوس

بادخالهم مثله على الأدب وظهره فقلت هل لك في الطعام فقال لا حاجة لي فيه فقلت  
هل لك في الشراب فقال ذلك اليك فشربت رطلا وسقيته مثله فقال لي يا أبا اسحق  
هل لك أن تنفي لنا شيئا من صنعتك وما قد نفقت به عند الخاص والعام فناطني قوله  
ثم سهلت على نفسي أمره فأخذت العود فجسسته ثم ضربت فتنبت فقال أحسنت  
يا ابراهيم فازداد غيظي وقلت ما رضى بما فعله من دخوله على بغير اذن واقتراحه  
على أن أغنيه حتى سماني ولم يكن لي ولم يجعل مخاطبتي ثم قال هل لك أن تزيدنا  
فتدتمت وأخذت العود فتنبت فقال أجبت يا أبا اسحق فأتممت حتى تكافئك وذنبتك  
فأخذت العود وتغيت وتحفظت وقت بها غنيته اياه تحفظا تاما تحفظت مثله ولاقت  
بنساء كما قت به له بين يدي خاليفة ولا غيره لقله لي أ كافتك فطرب وقال أحسنت  
يا سيدي ثم قال أنأذن لعبدك بالبناء فقلت شأنك واستضعفت عقله في أن ينهني بحضرتي  
بعد ما سمعه مني فأخذ العود وحبسه وجسه فوالله لخلته ينطق باسان عربي لحسن  
ما سمعته من صوته ثم تنفي

ولي كبد مقروحة من يديني بها كبد ليست بذى قروح  
أباها على الناس لا يشترونها ومن يشترى ذاعة بصحيح  
أن من الشوق الذي في جوانبي أنين غصيص بالشراب جريح

قال ابراهيم فوالله لقد ظننت الجيطان والابواب وكأما في البيت يحببه وينفي معه من  
حسن غناؤه حتى خلت أنى وعظامي وثيابي نجاوبه وبقيت مبهوتا لأستطيع الكلام  
ولا الجواب ولا الحركة لما خالط قلبي ثم غني

ألا يا حمامات اللوى عدن عودة فاني الى اصواتكن حزين  
فعدن فلما عدن كدن يمتني وكدت بأسراري هطن أيبين

حتى توهم أن الأرواح هي التي كانت تظهر عليه وتعلمه الأصوات التي  
يهجز عنها غيره من الأنس وقد قلت الشعراء في مدحه على مرضعه

دعون بترداد الهدير كأنما ستين حيا أو بهن جنون

فلم تر عيني مثلهن حائما بكين ولم تدمع لهن عيون

فكاد والله علم الله عقلي أن يذهب طربا وارتياحا لما سمعت ثم غنى

ألا يا صبا نجد متى هجرت من نجد لقد زادني مسراك وجدا على وجددي

بكيت كما يبكي الحزين صبابة وذبت من الحزن المسبح والجهد

وقد زعموا أن الحب إذا نأى يمل وأن النأي يشفي من الوجد

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد

ثم قال يا إبراهيم هذا الغناء الماخوري فيخذه وانح نحوه في غنائك وعلمه جاريك فقلت  
أشده على فقال لست محتاج قد أخذته وفرغت منه ثم قام من بين يدي فارتفعت وقت  
إلى السيف فجردته وعدوت نحو أبواب الحرم فوجدتها منلقة فقلت للجواري أي  
شء سمعتن عندي فقلن سمعنا أحسن غناء سمع قط فخرجت متحيرة إلى باب الدار  
فوجدته مغلقا نسألت البواب عن الشيخ فقال أي شيخ هو والله ما دخل اليوم إليك  
أد فرجعت لا تأمل أمري فاذا هو قد هتف بي من بعض جوانب البيت لا بأس  
عليك يا أبا اسحق أنا ابا بس وأنا كنت جليسا ونديمك اليوم فلا ترع فركت إلى  
الرشيد وقلت لأطرفه أبدا بطرفة مثل هذه فدخلت عليه فحدثته بالحديث فقال  
ويحك تأمل هذه الآيات هل أخذتها فأخذت العود وامتحنتها فاذا هي راسخة في  
صدرى كأنها لم تزل فعارب الرشيد وجاس وشرب ولم يكن عزم على الشراب وأمر  
لي بصلة وحلان ونال الشيخ كان أعلم بما قال لك على أنك أخذتها وفرغت منها فليته  
أمتعنا بنفسه يوما واحدا كما أمتعك. الاغانى ٣٦٥ وحلقة الكميت ٥٨ والنايدي  
١٠٠ قوله الأياحامات اللوى من كلام مجنون بنى عامر كفي العقد الفريد ١٨٤٠٣

الجليل من الغناء

ما لابراهيم في المسلم بهذا الشأن ثانی  
 انما عمر أبي اسحق زین للزمان  
 جنّة الدنيا أبو اسحق في كل مكان  
 منه يجني ثمر الله ووريجان الجنان

وكذلك كانت اجادة ابنه اسحق وقد وضع لحن التخنيث (١) الذي لم يسبقه  
 اليه سواه وصنع ألحانا لا يقدر شعبان ممتليء ولا سقاء يحمل قربة على الترنم  
 بها وصنع غيرها مما لا يقدر المتكى أن يترنم به الا قعد مستوفزا ولا القاعد  
 حتى يقوم (٢) لانه سما في اقتداره على الغناء الى أن يجمل في نفس السامع  
 تحركا لما يفنى بمعناه من الاشعار فيحملها على الكبر في معرض المديح  
 وعلى الحماسة والاعجاب في مقالات الفخر وعلى الرقة والصبابة في  
 استرسال الهوى وعلى البكاء والفصة في موقف التذكير والوحشة وذلك  
 فضلا عن اجادته في ضرب العود ولقد كنت يوم ابدا الرشيد وفي مجلسه  
 عشر جوار يضربن على العيذان فوق وقع خلال في مجرى أصبع على بعض  
 الاوتار فعرفه من بين أربعين وترا (٣) تتحرك بين أناملهن فهذا اقتدار  
 غريب على هذه الصناعة لا أظن أن اليونان قد بلغوه منها مع اتصال

(١) الاغانى ٣٣٦٥٥ (٢) الاغانى ٧٩٥٣ (٣) الاغانى ٢٠٥١ وفي الحصرى

٢٠٦٥٢ قال اسحق انما يجيد الغناء من يقرع مسمع كل واحد من الناس بالنحو

الذى يوافق هواه ويطابق معناه (٤) الاغانى ٤١٠٥ و٥٣ و٦٠

مدتهم أجيالا طويلا يستعملونها ويمارسون طرائقها .  
وقد كتب اسحق رسالة مطولة في الغناء صحح فيها أجناسه وأنفامه  
وطرائقه وميزه تميزا لم يقدر عليه سواه (١) حتى لقد خطأ يحيى المكي  
فيما دون من الغناء ويونس الكاتب في الرسالة التي نسب فيها الأصوات  
الى من ابتدعها من المغنين (٢) الا أنه كان يرى ليونس فيما سبق الى  
تدوينه من الاغاني ونسبتها الى أصحابها فضلا أعظم من فضل يحيى فيما  
حاول تمييزه من الغناء على فساد جعل كتابه كالمطروح لكثرة تخليطه  
في رواياته (٣) لان هذا هو المبدأ الذي يتصعب له اسحق وينظر فيه  
من يقول بضده من أولاد الخلفاء وغيرهم كما مر في موضعه من الكتاب  
ومن حذق اسحق في صناعة الانغام أنه أقام طرائق الغناء من نفسه  
دون نقل عن كتب اليونان الا فيما اقتبسه من تقسيمات أفليدس (٤) وما  
هو الا النزر اليسير في جانب الكثير الواسع من علمه تقدميز (٥) أجناس  
الغناء كله وجعل الثبيل الاول أصنافا فبدأ فيه باطلاق الوتر في مجرى  
البنصر ثم أتبعه بما كان منه بالبنصر في مجراها ثم بما كان بالسبابة في مجرى  
البنصر ثم فعل هذا بما كان منه بالوسطى على هذه المرتبة ثم جعل الثبيل  
الاول صنفين الاول ما ذكرناه والثاني القدر الوسط من الثبيل الاول وأجراه  
المجرى الذي تقدم من تمييز الاصابع والمجاري وألحق بذلك جميع الطرائق

(١) الاغاني ١٨٥٦ (٢) الاغاني ٦٥٥ (٣) الاغاني ١٧٥٦ (٤) الاغاني ١٥٠ \* ٨

(٥) الاغاني ٥٢٥٥

والاجناس وأجراها على هذا الترتيب وميزها على أكثر من عشرة آلاف صوت للمغنين لم يغير فيها لحنا واحداً وذلك بخلاف الذين دونوا الغناء قبله وبعده فانهم أضاعوا صناعة الغناء القديم الأحمد بن يحيى المكي المقدم ذكره في كتاب له في الاغانى ونسبها يقال له المجرد (١) فانه أصل يرجع اليه ويعول عليه ولست أعرف كتابا بعد كتاب اسحق يقارب كتابه أو يقاس به فكانه قام على مخالفة أبيه ومن ذهب مذهبه في تغيير أصوات المتقدمين ورجع الى الغناء القديم الذي سبق الى التصعب له مغن يقال له «سياط» وقد على المهدي رحمه الله وأنا مقيم في الرسالة بخراسان فلم أوفق الى الاجتماع به ولكن حسبي من تقدير موضعه الجليل من هذه الصناعة (٢) أن ابراهيم واسحاق تلميذاه (٣) واليهما المنتهى في اجادة الغناء .

﴿ لمعة في علوم الفلسفة عند العرب ﴾ ↗

ان العلوم الفلسفية التي استخرجها العرب من كتب الاعاجم كانت مجهولة عندهم في صدر الاسلام بل في صدر هذه الدولة كما تقدم لك من الكلام الا عند نفر قليل من أهل الشام ممن جاور الرهبان وتلقى عنهم (٤) حكمة اليونان التي كانوا يحفظونها في خزائنهم بالديورات أما اليوم فانا نجد هاهنا سكان الامصار من العراق ومصر والشام وبعض اهل الحجاز الاعرابان البادية لانهم لا يوجهون عنايتهم الى العلم وانما هم مهتمون ارتياد المسارح والمزارع لحيواناتهم كما سبق الاملاء اليه في صدر الكتاب .

وهذه العلوم الفلسفية تنقسم الى أنواع أربعة (١) رياضية ومنطقية وطبيعية والهيئة . فاما العلوم الرياضية وهي النجامة والعدد والهندسة والغناء فانهم نبغوا فيها النبغة التي لم تكن للمتقدمين من أمم المشرق وقد تقدم في الكلام على النجامة ما يقضى بفضل المنجمين من أهل الموصل وخراسان وغيرهم فيما وقفوا عليه من علم الافلاك وارضادها كما انك رأيت في الكلام على الغناء أن لابراهيم وابنه اسحق فيما ابتدعاه من الاصوات الحسان فضلا تزين به هذه الصناعة عند العرب . واعلم أرشدك الله انه لم يكن موضعهم من العلوم العددية وما يتبعها من الجبر والمقابلة وهي صناعة استخراج العدد المجهول من قبل المفروض المعلوم (٢) إلا موضعهم من النجامة والغناء في تحريرها واصلاحها والاعتبار في الاقسام التي تلتحق بها من فن المناظرة والفرائض والمعاملات بتقدير الاوزان وغير ذلك وهذه هي العلوم التي يمتازون بها عن غيرهم من الامم بما وضعوه لها من القواعد التي لا غاية بعدها في الاصلاح .

وأما علم الهندسة فقد كان مرجعهم فيه الى كتاب لانيليس المهندس من حكماء اليونان وكتاب آخر لبطليموس الذي أخرج الهندسة من القوة الى الفعل (٣) وقد عربت رسالتهما في خلافة أبي جعفر ثم أعيد تعريبها في هذه الايام بمناظرة مهندس يقال له أبو كامل (٤) جعل مقالات

(١) حجي خليفة ٤٦٢\*٤ (٢) المقدمة ٤٢٢ (٣) ابن نباتة (٤) هو مهندس

افايدس في جلد كبير سماه كتاب الاركان (١) وفيه خمس عشرة مقالة يبحث في الاربية الاول عن السطوح وفي الخامسة عن الاقدار المتناسبة وفي السادسة عن نسب السطوح بعضها الى بعض وفي السابعة الى التاسعة عن العدد وفي العاشرة عن المنطقات والقوى على المنطقات ومعناها الجذور وفي المقالات الخمس الباقية بحث واسع في المجسمات ثم ألحق العرب بهذا العلم فن الهندسة المخصوصة بالاشكال الكروية تقلا عن كتابين لميلاوش وتاودوسيوس من اليونان وفيهما بحث مسهب في الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر باسباب الحركات وألحقوا به أيضا علم المخروطات تقلا عن كتاب لابولونيوس (٢) من اليونان أيضا فعرفوا ما يقع من الاشكال والقطوع في الاجسام المخروطة وأفادوا النجارة والبناء (٣) بما وقفوا عليه من كيفية رفع الاثقال وجرها وغير ذلك .

وأما العلوم المنطقية ومنها الشعر والخطابة والجدل والبرهان والمغالطة وغير ذلك (٤) فان اجادتهم فيها كانت دون اجادتهم في العلوم الرياضية لانهم ماتهيأت طبائعهم للعناية بها الا بقول الشعر كما رأيت وهو معدن حكمتهم وديوان آدابهم والمتيد لمحاسن كلامهم وقد بلغوا فيه الغاية التي لا مطمح وراءها الا ما كان من كلام النبوة وان كان شعر الجاهلية جافيا لمكان أهله من الخشونة ومقامهم في القفر بين الابل والوحش والمنازل

الخالية (١) فان شعر المتمصرين ليس بخال من رقة الالفاظ وجمال الصور  
 وهم القاطنون بين فرش الحرير وأطباق الرياحين وآلات الطرب والتيان  
 والندمان . ولقد نسمع عن أهل الاندلس أنهم يقولون شعراً أرق من  
 النسيم (٢) وذلك لغزارة المياه في أراضيهم ونماء الرياحين في جناتهم  
 وظهور ريح الصبا عندهم حتى كان المرتحل منهم الى المشرق اذا استقبل  
 نسيم الغرب ذابت نفسه من الشوق الى تلك الديار التي ينفتح فيها الطيب  
 على غصن اندلسها الرطيب فيقول (٣)

وإذا ما هبت الريح صبا صحت واشوقى الى الاندلس

مع ان ديار العربان قفرة واقليمهم محرق للأبدان ومجفف للعقول وذلك  
 مما لا يولد فيهم من رقة القول وحلاوته ما يجده في شعر الاندلسيين .  
 أما علوم المنطق فقد كان مرجعهم فيها الى كتب في المنطقيات  
 لارسطو الحكيم (٤) عربت في خلافة أبي جعفر (٥) بمناظرة عبدالمسيح

(١) الكشكول والأغاني (٢) راجع كتاب المقرئ وغيره من توارخ  
 الاندلس (٣) المقرئ (٤) كتاب أرسطو الخاص بالمنطق يسمى النص يشتمل على ثمانية  
 كتب أربعة منها في صورة القياس وأربعة في مادته وهي كتاب المقولات وكتاب العبارة  
 وكتاب القياس وكتاب البرهان وكتاب الجدل وكتاب السفسطة وكتاب الخطابة  
 وكتاب الشعر ثم ان حكماء اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة ورتبت رأوا أنه لا بد  
 من الكلام في الكلمات الخمس المفيدة للتصور فاستدركوا فيها مقالة تخص بها  
 فصارت تسعا. المقدمة ٤٢٩ (٥) المسعودي ٢٠٠٥



الحمصى وهو من أشهر النقلة بعد سلام الأبرش (١) وقد اشتملت على رسائل ثمان أربع منها فى صورة القياس وأربع فى مادته (٢) وربما زادوا فيها بعض شرح وتفسير

وأما علوم الخطابة والجدل والمغالطة فقد دونوا فيها فيما استخرجوه من كتب اليونان أسفاراً كثيرة ولكن من غير تمحيص يرجع بهم إلى محاسن العلم إلا ابن العلاف (٣) خطيب هذا الزمان فى رسالة له فى الخطابة بدأ فيها بذكر سحبان وفس بن ساعدة وغيرهما من بلغاء العرب وخطبائهم فى الجاهلية والاسلام إلى أن أتى على بيان النواعد التى تلزم الأدباء فى الخطابة ليجدوا بلاغة القول مع تقويم الألفاظ واكثر المعانى فى نليل من الكلام

وأما العلوم الطبيعية وهى علم المبادئ وعلم السماء وما فيها وعلم العالم وعلم الكون والفساد وعلم المعادن والنبات والحيوان وفيه علم الطب فقد كان مرجعهم فيها إلى كتب الاعاجم كرجعهم اليهم فى جميع ما لم يكونوا يعرفونه من العلوم قبل أبى جعفر كما ترى إلا ما وقفوا عليه بأنفسهم من حقيقة المعادن فى علم الكيمياء وهو النظار فى المادة التى يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة فتوصلوا به إلى معرفة أمزجة المكونات وحقيقة المعادن والمفضلات الحيوانية من العظام والريش والبيض والعذرات

وغير ذلك (١) وكان الناس من أهل الادب يصبون الى هذه الصناعة بما في منوعاتها وممزوجاتها من تسلية الخاطر مع تنوير العقل وتوسيع نطاق المعرفة حتى ان الماوك أنفسهم كانوا يتمهرون في استخراج المركبات ومزجها على غير ترفع عنها . فهذا خالد بن يزيد بن معاوية الاموي قد شغل نفسه بطلب الكيمياء ودون فيها الرسائل العديدة حتى أفنى عليها عمره (٢) وهذا جعفر الصادق أحد الائمة الاثني عشر ومن سادات أهل البيت قد ترك في مجاميعه اكثر من خمسين رسالة في علم الكيمياء والزجر الا أن هذه الرسائل لم تكن حاوية من العلم الا ما وقف عليه أصحابها بطريق التجربة والاختبار فبقيت الكيمياء مفرقة غير مجموعة حتى قام جابر بن حيان الطرسوسي وهو تلميذ جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه فكتب سفرًا جليلًا في علل المعادن (٣) ودون الكيمياء في سبعين رسالة ربطها باصول العلم ونبت من مذاهب المتقدمين ما لم يؤيده التحقيق في تجرباته وقد قسم هذه الصناعة الى قسمين منها القوذة النفسية وهي السيمياء ومنها القوة العلمية وهي الكيمياء وأدخل العلوم السحرية في السيمياء وذلك لان احالة الاجسام النوعية من صورة الى صورة أخرى انما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العامة . وقد وضع القواعد على منهاج لم يشركه فيه أحد ولا قدر على مثلها حكمااء اليونان أنفسهم ولذلك نسب اليه هذا العلم

(١) الاغانى ١٦\*٨٨ والعقد الفريد ٢\*١٤٣٥ (٢) ابن خلكان ٥\*١٤٦ (٣)

وصار علم الكيمياء يسمى بعلم جابر (١) أما الذين اشتغلوا فيها بعده فقد  
 قصروا دون الغاية التي بلغها منها وربما أكب عليها جماعة بما طمعوا فيه  
 من تكوين الذهب واحرازه ولذلك لم يقيدوا مجرباتهم ومصطنعاتهم  
 بالفواعد الثابتة بل جروا على مذاهب ضعفاء العقول من اليونان مثل  
 طماوس وغيره وزعموا أن لهم طريقة لاستخدام الجن (٢) في هذه  
 الصناعة فلم يكن طائل فيما صنعوه . ولا نائدة مما دونوه ووضعوه .

وأما العلوم الالهية وهي السياسات والحرب والفلاحة وعلم الاخلاق  
 وسياسة الاخلاق وغير ذلك فلم يكن للعرب نبوغ فيما نلوه عن كتب  
 اليونان والفرس وانما ينفرد حسن نظارهم في علوم الدين كما رأيت وفي  
 علم الكلام الذين وضعوه تحفظا (٣) من العلوم الحكمية اذ كانت تخالف  
 الشرع الشريف (٤) فتوسعوا منه الى أدب له بعض الفروع وقد رأيت  
 لهم كتباً في السياسة المدنية (٥) يذكرون فيها تدبير المنزل بمتنهي الحكمة  
 ليحملوا العامة على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه وذلك أحسن  
 ما لهم من التأليف التي فيها رأى ونصيحة أما غير ذلك من علم السياسات  
 فلم يكن لهم منها إلا بضاعة مزجاة لانهم لم يتطرقوا اليها أبداً هذا الزمان  
 ولا نعلم الى أين يبلغون منها ولا ما تقرره في نفوسهم من الفائدة وفي

(١) المقدمة ٤٦٣ (٢) المقدمة لابن خلدون (٣) ابن خلدان ٦٨٧\*١ (٤)

حجى خلفه ١٠٠٥\*٣ (٥) ذكر هذا ابن خلدون في المقدمة ٣٣ وابن خلدان

معايشهم وآدابهم من المنفعة والله سبحانه وتعالى أعلم وهو ولي المؤمنين  
لأرب غيره ولا معين سواه

( أدب السيرة والحكايات )

نفرد هذا الباب لذكر الحكايات والقصص فإنها فن بل علم بل  
أدب قد هوت إليه أفئدة العرب وأول من سبق إلى تدوينه عبد الله بن  
المقفع وهو الكاتب المشهور بالبلاغة (١) والذي كان قائماً بديوان الانشاء  
في خلافة أبي جعفر (٢) له كلام على الملوك يشهد بأنه كان عارفاً بالسياسة  
(٣) ومقالات في البلاغة تشير إلى أن الحكمة قد نطقت من نواحيه إلا  
أن أهل زمانه قد اتفقوا وهم دونه في العلم على أن يقولوا إن كلامه كان  
أكثر من علمه (٤) لأنهم ما حبوا أن يرفعوا عقله إلى مساماة البلغاء  
الذين أوتوا الحكمة وانتهت إليهم البلاغة . وقد كان تدوينه له في تعريب  
كتاب هندي يقال له كليلة ودمنة (٥) وهو يتضمن حكايات وضعت

(١) العقد الفريد في باب الكتاب وابن خلكان والمقدمة والمستطرف ١٥٩\*١  
(٢) المحاضرة ١٣٢\*٢ (٣) الفخرى ٣١ (٤) ابن خلكان الاغانى ٨ ٧٦\*  
(٥) ذكره المسعودى ٣٨٥\*١ والسيوطى وذكر المسعودى ان عبد الله بن المقفع  
كان عالماً باللغة الفهلوية وأنه ترجم منها إلى العربية غير كتاب كليلة ودمنة كتابا  
كثيرة منها كتاب الكيكيين وفيه أخبار ملوك الفرس وسيرهم ١٠٩\*١٠ وربما كان  
هو عين الكتاب المترجم بكتاب السيكي قال المسعودى ٦٤\*١ إن ابن المقفع هو  
الذي نقله إلى لسان العرب

على لسان البهائم والطيور وأشير فيه الى سلائقها من الحلم والمكر والجرأة  
والجبن والتيقظ والذهول والعقل والحمق الى آخر السلائق لتثمين  
العقول ورياضة الاخلاق بهذه الطريقة من الفكاهة لانه يستخرج  
من الاقوال الهزلية ضروبا من الحكمة البليغة وهو يشتمل على غرضين  
سياسي وأدبي فأما السياسي فانه داع الى العدل وزاجر عن البني وفيه  
بيان سلوك الملوك في آدابهم وتديبرهم لامور ممالكهم وما يجب عليهم  
من العدل عن اللغو والغفول الى التيقظ والسهر وان الفاضل من الملوك  
حقيق بأن يعتبر بأقوال الحكماء ولا يقرب اليه أهل النيمة والفساد.  
وأما الادبي ففي بيان المعاش في ظروفها وألوانها وسائر أحوالها  
والاقتصاد في تدبير المنزل والمعاملات بين الناس وما ينبغي لهم في سلوك  
الامور من مراعاتها بعين العقل والبصيرة ولذلك يعد كتابه من كتب  
الحكمة ونرى الفضلاء من الملوك قد أتوا عليه وطمحوا بأبصارهم  
اليه حتى ان كسرى انوشروان أنفذ طيبيه برزويه الى بلاد الهند  
لاستنساخه فترجمه الى الفارسية ولم تزل الملوك تعظمه الى هذا اليوم (١)  
وقد وضع ابن المقفع في أول ترجمته فصلا سماه «باب غرض الكتاب»

(١) ذكر الحصري أن سهل بن هرون ألف في زمن المأمون كتابه المسمى  
«نملة وعفرة» يعارض به كتاب كليله ودمنة وأنه كان ظريفا عالما حسن البيان له  
كتب ظريفة صنعها معارضاتها الاوائل في كتبهم بمالا يتصوبه عنهم حتى قيل له

وأودته من صنرف البلاغة والحكمة ما ضارع به سائر أبواب الكتاب  
 وذكر أن أغراض واضعه « بيدبا » الفيلسوف تنقسم الى اربعة . احدها  
 ما قصد اليه من وضعه على السنة البهائم ليسارع أهل المزل الى قراءته  
 والثاني اظهار خيالات الحيوان بصنوف الاصباغ والالوان ليكون أنسا  
 لقلوب الملوك . والثالث أن يشتد الحرص عليه للنزهة في صورته فيتخذ  
 الملوك والسوقة ويكثر بذلك استنساخه ولا يبطل والرابع وهو الغرض  
 الاقصى مخصوص بالفيلسوف خاصة .

ولقد قرأت هذه الترجمة اكثر من مرة بل أكثر من مائة  
 مرة وأنا شغف بها لما كانها من البلاغة (١) وعهدى بجميع الكتب  
 الاعجمية اذا عربت عربيت الا هذا الكتاب فانه رأيت في العربية أفصح  
 منه في الفارسية وقد كان صبية البرامكة حفظهم الله يحاولون حفظه عن  
 ظهر قلوبهم ففطن لذلك أبان بن عبد الحميد (٢) ونظمه لهم بالشعر حتى يسهل

(١) المقدمة ٥٢٧ (٢) ذكر في العقد الفريد ٢٢٨٥٢ أن أبان بن عبد الحميد

كان من ندماء البرامكة وله قصيدة أنشدها للفضل بن يحيى فيها حلاوة شمائله وبراعة  
 أدبه يقول أنا من بنية الامير وكنت من كنوز الامير ذو أرباح  
 كاتب حاسب أديب لبيب ناصح زائد على النصح  
 شاعر مفلق أخف من الر يشة لما يكون تحت الجناح  
 لى في النحو فطنة ونفاذ أنا فيه قلادة لوشاح  
 لورمى بنى الامير أصلحه الله رماحا صدمت حد الزماح  
 كم أروى عن ابن سيرين في الفقه بقول منور الافصح

عليهم استظهاره يقول في مطلع ذلك الكتاب (١)  
 هذا كتاب أدب ومحنة وهو الذي يدعى كليله دمنه  
 فيه احتمالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند  
 الى آخر الايات فأعطاه يحيى عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل نصف  
 ذلك جائزة على هذا الاستخراج لانه كان بوضع جليل من البلاغة التي ورثها  
 عن أبيه فقد كان عبد الحميد من فحول الكتاب الذين فتقوا أحكام البلاغة  
 وفكوا رقاب الشعر (٢) وكان فخرا للمسلمين بما آتاه الله تعالى من البلاغة  
 التي جمعت سحر البيان . وأخذت بمجامع الجنان . يقال انه لما ظهرت  
 دعوة أهل البيت وكان عبد الحميد كاتباً في دولة الأمويين قال لمروان  
 سأصدر عنك كتاباً الى أبي مسلم فان قرأه حصل عندنا وجه من الآمال

لست بالضخم في روائى ولا الفد م ولا بالمجد الدحداح  
 لحية كثة وأنف طويل واتقاد كشملة المصباح  
 وكثير الحديث من ملاح الناس بصير بخافيات ملاح  
 كم وكم خبأت عندي حديثاً هو عند الامير كالنفاح  
 أيمن الناس طائراً يوم صيد في غدو أو بهكرة أو رواح  
 أعلم الناس بالجوارح والصييد وبالخرد الحسان الملاح  
 كل هذا جمعت والحمد لله على اننى ظريف المزاح  
 لو دعاني الامير عاين منى سميريا كالجلجل الصياح

(١) الاغانى ٢٠\*٧٣ (٢) العقد الفريد والمسعودى ٢\*١٦٣ وذكر أنه أول  
 من أعطى الرسائل واستعمل التعميمات في فصول الكتب واستعمل الناس ذلك بعده

وان لم يقرأه ذهب الدولة منكم فلما وصل الكتاب الى أبي مسلم رحمه الله وكان عالما بمكان عبد الحميد من البلاغة قال «أبتوا الكتاب على طيِّه فانما فيه سحر غالب» على أنى لو سئلت انتفضيل بين هذين الاستخراجين لقلت ان ترجمة ابن المقفع حقيقة بأن تكتب بماء الذهب وتحف بها خزائن الملوك .

ولما رأى الادباء اقبال الناس على الكتاب تسارعوا الى تعريب غيره من كتب السير والخرافة فترجموا عن الهندية كتاب وزره وشماس (١) وفيه أخبار ملوك الهند وبناتهم وما يتخللها من الامثال التي توسع العقول أدبا مع فكاهاة وترويض أفكار وترجموا عن الفارسية كتاب هزار افسان وسموه ألف ليلة وليلة (٢) ومعنى هزار افسان ألف خرافة وكان السبب في وضعه كما هو معروف ان ملكا من ملوك الفرس كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد غيرة عليها من الرجال فتزوج بجارية من بنات الملوك ممن لهن عقل ودراية يقال لها شهرزاد وفي بعض النسخ شيرزاد فلما اتصلت به ابتدأت تخرفه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقاتها وسؤالها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن أتت عليها ألف ليلة وليلة وهو مع ذلك يباشرها الى أن رزقه الله منها بولد طرحته اليه . وأوقفته على حيلتها عليه . وكان للملك قهرمانه يقال لها رسازاد أودينارازاد (٣) كانت موافقة لها على ذلك وفي هذا الكتاب

(١) المسعودي ٢٩٦٥١ (٢) المسعودي ٢٩٦٥١ (٣) كتاب القهرست



دون المائتي سمر لان السمور كان يحدث بها في عدة ليال وهي من  
أخرف الحكايات التي وضعتها الفرس في غابر الدهر .

ولما راج سوق هذا الكتاب تداوله النساخ والكتّاب وأضافوا  
إليه حكايات كثيرة وضعوها على سبيل الفكاهة بما يعهد لهم من طول  
الباع في وضع الحكايات ولا سيما ما يتضمن أخبار الجان ووصف مساكنهم  
تحت البحار وتزويجهم بناتهم من ملوك الانس وتخص العفاريت  
والهواتف وغير ذلك الى أن صار جملة ما في الكتاب حكايات عربية  
لا يخالطها من كلام الفرس الا القليل وهي وان كانت بديدة عن الصدق  
الا أن فضل الرب في اقتصاصها انهم يمتلكون فؤاد السامع برنة مأخذهم  
في تجميلها وروثتها كالذي زعموا أن صيادا أتى شبكته في البحر وظل نهاره  
طوله لم يظفر بسمكة فلما أزمع على الانصراف وقد أعياه الملل . وضاعت  
به الحيل جر الشبكة فاذا هي ثقيلة فطامع أن تكون قد اشتملت على حوت  
يستبيض بثنه عن نصبه في ذلك اليوم فلما جذبها الى الشاطئ وجد فيها  
قعا من نحاس وعليه خاتم سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام ففرض ختامه  
فصعد منه دخان خيم على السماء فنظر في الدخان فاذا هو يجتمع ويتكون  
الى أن وضع منه جان من صفته كذا وكذا من الرواية فلما تدانبا جرى  
يديهما حديث يقبض النفس هيبة وفرقا بحيث لا يتنبه السامع الى أن هناك  
خرافة فاذا انتهت الحكاية الى ما أصاب الصياد من الجوهر والمال بعد أن  
خامر الروع وأفزعه الهول انبسط منه الخاطر المنقبض والتمس في

نفسه مثلا لهذا المسكين فوجده كثيرا في الناس فرجع الى الحكاية فوجد فيها سرا يريد الكاتب من وراء الفكاهة واجماع الرأي على أن ليس في حكايات الناس وقصصهم وأحاديثهم ما هو أظرف من هذه الحكايات وألطف صنعا فان فيها من الوصف البارع . والتشثيل الساطع . ما يذوقه بفضل العرب فيما تطرقوا اليه من وصف معاش الناس وأخلاقهم وما يتقابلون عليه من الاحوال التي توسعوا في وصفها الى أدب جزيل الفائدة جميل العائدة . فأما الحكايات التي ذكروا وقوعها في الاسلام فليس أقرب منها الى الماجريات التي تحدث ببغداد في أكثر الايام اللهم الا ما أرادوا أن يمزجوا به أخبار الخلفاء لنكتة يشوقون الى الوقوف عليها مما اتفق وقوعه للملوك مثل حكاية الخليفة الثاني وحكاية الخليفة والصيد الى حكايات غيرها يظرفون بها الخبر عن الرشيد وجمفر الا فيما يذكرون عن تطوافهما (١) ومسرور ليلا في الاسواق منكرين عن ان يعرفهم أحد فان ذلك ليس بالموضوع وقد ذكرت مثله في رسائل السالفة اليك غير أني جردته عن المبالغة التي يزين الرواة بها أحاديثهم كوقوف الرشيد في موضع الخطر أو ارتدائه بلباس الصيد على سبيل الفكاهة أو وقوعه هو وجمفر تحت سيف ذلك الرجل الذي كاد يقتلها لولا انهما تداركا أمره بحيلة وجددا بها السلامة والنجاة .

وأما الحكايات التي زعموا أنها وقعت في قديم الزمان. وسالف العصر والأوان. فهي من الغرائب التي لا دلالة لها على الصدق وإنما أقبل خلق من العوام على تصديقها لا تقطاع أخبار الأمم عنهم بحيث كان يتعذر عليهم معرفة غتها من ثمينها ولأن ناقل الرواية كان يحدثهم بأن كذا وكذا من الأمور الغريبة جرى في كذا من البلدان البعيدة الشقة المتفاوتة السبيل فلو حدثهم بأن في الشام مدينة من انجاس (١) أو بال عراق بلدا دار غديرا ثم انقلب مأوّه الى عمارة وأما كه الى اناس المصدقوا كلامه لانهم يطرقون هذه البلدان كل يوم وعهدهم بها على غير انقطاع وإنما نقل اليهم أن ذلك كاه في جزائر الواق واق وما وراءها من بلدان العجائب فواسمعوا صدورهم لتصدق كلامه بما كانوا يتشوقون الى الوتوف عليه من نعيم الناس وهم بمكانهم من عيش البداوة

ومن أذرف ماورد في حكياتهم قصص العشق والغرام فيما أعربوا به عن محاسن النساء بين كآب حسناء . وغانية هيفاء . وشاعرة فصحي وعجوز ذات دهاء وما توسعوا به في كلامهم عن العشاق ووصف هنائهم في التلاق . وتوجههم أيام الذراق . الى وضع الحكايات التي ترتاح اليها القلوب بما تصف من النعيم الذي يبعد عن أن يتمتع به الناس وإنما هو صورة تتمثل في الضمير على سبيل التخيل كالذي يكونه عن نتي

(١) المسعودي والقرماني ٧٧\*٦ وذكرها ابن خلدون في المقدمة ٣٢ في

من أولاد الملوك انه وقع الى جزيرة كل من فيها نساء وتجارها نساء  
وجندها نساء وكلهن آية من آيات الحسن والجمال وانه قضى يدهن أياما  
من النعيم أقل مما أصاب فيها من اللذة انه كان اذا طرح الشبكة في البحر  
على سبيل التساوية خرجت له من الاصداف صبية من بنات الجنان . كأنها  
حورية من حور الجنان . الى غير ذلك من الوصف الذي يحرك اقلب  
ويملك الجنان .

وقد حلالي من حكاياتهم أيضا حكاية السندباد (١) وهي تشتمل على  
الحوادث التي وقعت له في أسفار سبعة أتى عليها جميعا في طلب المال وفي  
كل سفرة عجيبة لم يسمع أحد بمثل ما فيها من المتان التي وجد الكاتب  
مشقة عظيمة لاستنباط الحيلة فيها على وجوده تدفع الناس الى ركوب  
الاطار . لنوال الملا والفخار . بما تمتلك به أنفسهم من ذكر جبال الماس  
وعيون العنبر وعجائب البلدان التي وقع اليها السندباد . وعلى بعض السنة  
الأدباء أن هذه القصة ليست من وضع العرب انما نقلوها عن الوند  
واليونان وأضافوا اليها ما يحسن أن يكون في كلامهم حتى نفوا العجمية  
عنها . وهذا كلام فيه بُعد عندي لاني طالما سمعت روايتهم يحدثون بمثل

(١) ذكرها مسعودي في موضعين من كتابه أحدهما في صحيفة ٢٩٦ من  
المجلد الأول ولم يذكر عنها شيئا والثاني في صحيفة ٣٨ وقال انه كان في عصر كورس  
ملك الهند وذلك قبل زمن عيسى عليه الصلاة والسلام بثلاثة سنة سندباد دون له  
كتاب الوزراء السبعة والمعلم وامرأة الملك وهو الكتاب المترجم بالسندباد

ذلك وفي مطلع الحكاية أن الجمال اشتد به الحر فحط حملته على باب  
 التاجر في ظل يتردد اليه النسيم الرطيب . وتفوح منه ريح العطر والطيب .  
 وانه كان يرى عزة ذلك التاجر في كثرة خوله وغلمانه ويسمع تغريد  
 القمارى والشحارير في جنانه . وينشق من طعامه ريحا أحزنت منه النفس  
 لا تقطاع أمله منه وهو بمكانه من التعب وشقاء الحال مما يستوقف الطرف  
 ويشهد ببراعة الوصف . فيما قصد اليه من بيان الفرق بين عيش الرخاء  
 والنعمى . وعيش الشظف والبلوى .

واستأذن في هذه الحكايات السندبادية الا أن واضعها رجل قد  
 عانى الاسفار . وتقلب على متون البحار . حتى عرف ما بالامصار . من  
 عجائب الآثار . وغرائب الأخبار . وهذا شاهد على صحة ما ذكرناه من  
 تقلب الكتاب في أيدي الأدباء الذين عزَّ علم جميعهم عن أن يضمه  
 صدر واحد من الرجال والافان في وصف الحروب من ذكر الكرك  
 والفرّ وحيل الفرسان ما لا يستنبطه الا من طال وقوفه في ساحات القتال  
 وكذلك في نوادر الزواج والطلاق من المعميات ما لا يسـتخرج فتواه الا  
 فقيه مجتهد في الأحكام الشرعية أيما اجتهاد حتى أنه لو لم يكن ما يقال  
 في ذلك لو وجدنا في الأقسام دليلا آخر على اشتراك الأدباء في تأليفه  
 لانا نجد فيهم من يسترسل في المغالات الى أن يذكر عن فارس من الفرسان  
 انه قتل في معركة واحدة كذا وكذا من الخلق مما ليس في الامكان  
 احصاء عددهم في يوم واحد فكيف بقتلهم . ثم نجد من رسم قواعد الرواية

على منهاج لم يتمده الى ذكر المبالغة التي بعدت دلالتها على الصدق وانما ذكر الأخبار للنظر في عادات الناس وأخلاقهم وكيف يتقلبون بالزمان أو يتقلب بهم الزمان وذلك مثل ما قصد الأديب في كلامهم عن العرب أن يذكروا المحاسن التي تفاخروا بها على جميع الأمم من الكرم والبر والوفاء والعفاف والمساوى التي تفانوا لاجلها من طلب الثار وادراك الغنائم أو مثل ما قصدوا في حوادث زماننا هذا أن يذكروا أخبار النساء كما هي وما يكون من تمحلن في تسيير الرسائل الى الشبان (١) وادخالهم اليهن في الصناديق (٢) ورفعهم تحت الليل في الزناجيل المعلقة (٣) الى غير ذلك من وصف العادات المترفة التي وقعت في بغداد لهذا العهد وهذا هو الفرع الخاص الذي أرتاح اليه من حكايات ألف ليلة وليلة لأنه ينبئ عن أخبار العرب الخاصة وفيه حسن وبراعة وصف لا مثيل لها في أدب الحكايات.

### ﴿ تدوين الاخبار وأيام الناس ﴾

انما وضع العرب هذه الحكايات بعد أن توغلوا بالاسفار في أطراف البلدان حتى تجاوزوا الصين الى ما وراء فرغانة (٤) فاستفادوا بذلك غير ما كسبوه من الاموال أحوالا شاهدوها وعادات جروا على سننها ومباني

(١) الاغانى ١٦٠٥٦ (٢) الاغانى ٤٠٥٦ والشريشى ٢٤٦٥٢ (٣) العقد الفريد والاعلام ٤٢٥٥ واعلام الناس ٢٠٤ والمقدمة لابن خلدون وانتقد على صاحب العقد تصديقه جلوس الخليفة في الزنجيل والقصة مذكورة في العقد الفريد وهي من الحكايات المستخرجة (٤) يستدل على ذلك بما دونه رحالة العرب وعلماءهم في الجغرافيا

تقلدوا منها الزينة والاحكام وشرائع تفقهوا في استخراجها للاحكام .  
 وكانت عادة المسافرين بعد عودتهم الى الديار أن يحدثوا الحى بغريب  
 ما نظروه . وعجيب ما سمعوه . فمن تلك الاخبار المنقولة ما اتصل بى من  
 أن فى بعض الامم رجالا عراض الوجوه سود الجلود لا يزيد طول أطولهم  
 على أربعة أشبار (١) وفى جلودهم نقط حمر وصر وبيض وان منهم من  
 له أجنحة يطير بها ومن رأسه كراس الكاب ومن جسمه كجسم الثور  
 أو الاسد (٢) ولقد سمعت من يحدث ان من البلغار من طوله أكثر  
 من ثلاثين ذراعا يأخذ الفرس تحت إبطه كما نأخذ الطفل الصغير ويكسر  
 بيده ساقه كما تقطع باقة البقل (٣) الى غير ذلك . ولست أظن هذه  
 الاساطير التى يتناقلها الاخباريون من أهل الاسفار الا أنهم رأوا رسومهم  
 على الآثار التى خلفها الهنود والفرس والقبط السالفة من قوم فرعون  
 وغيرهم من أهل الاعصر الخالية (٤) فحدثوا بها رجما بالغيب . أو تحصيلا  
 لليقين من الريب . كان من أمثال هذه الخلائق المشوهة ما كان فى قديم  
 الزمان . أو أنه لا يزال موجودا فيما قصا عنا من البلدان .

ولما دارت هذه الاساطير بين الناس . وتناقلها عامة الندماء والجلال .  
 أشفق العلماء على أخبار العرب وأيامهم من دخول الفساد عليها أو  
 امتزاج الحكايات الباطلة بها فتسارعوا الى تقييد التاريخ فى الاوراق حتى  
 لا يتشوه على تمدى الايام . بتداول الرواية على ألسنة العوام . وقد كان

شعر العربان محفوظا في أهل العلم فنقلوه الى الكتب للدلالة على ما يرومون  
اثباته من الأخبار مع بيان صحتها واستخراج الكثير من عقائدهم  
وعوائدهم من أمثال هذه الاسانيد المحفوظة وهم يوقنون وقوع الحوادث  
السالفة مثل ما كان يوقته أهل الجاهلية بقولهم هذا جرى في أيام كسرى.  
وهذا في حرب البسوس الى غير ذلك (١) وأما الحوادث التي وقعت في  
الاسلام فقد أرخوها بالسنين والشهور والايام وكانت أصح في النقل  
والرواية من أخبار الجاهلية لان شأن الرواة عليها من اختلاف والاختلاف  
والمخالفة ما هو أشهر من أن يذكر « والحوادث اذ ذلك محفوظة بالانواء  
وطلوع النجم » ولم يسلم لهم من الفساد الا علم الانساب الذي حفظته  
فيهم العصبية (٢) حتى اتصلت أنساب أشرافهم الى أولاد ابراهيم عليه  
السلام مثل أنساب قريش وثقيف وغيرهم من البيوتات.

وأول من سبق الى تدوين التاريخ محمد بن اسحق (٣) في كتابه عن  
المغازي والسير وأخبار المبتدا (٤) ولم يكن التاريخ قبله مجموعا ولا معروفا  
ولا مصنفا (٥) ثم أخذ أهل العلم في تدوينه بعد ذلك . ووضع محمد المعروف  
بالواقدي كتابا في فتوح الشام ضمنه كثيرا من سير الخلفاء الراشدين  
رضى الله عنهم وأتى على ذكر الحروب التي سعرت ناراها على عمال الروم

(١) راجع كتاب الاغانى (٢) راجع مقدمة ابن خلدون والعقد الفريد (٣)

حجى خلفه ٦٣٤٥٣ وذكر ابو الفداء وابن الاثير انه مات سنة ١٥٠ (٤) المقدمة



الا انى رأيته يسوق الحديث في كلامه عن الجند والقتلى جزافا فيقول  
 انه سار الى قامة كذا خمسون ألفا من المسلمين والى حصن كذا كذا وكذا  
 رجلا والى البلد الفلانى كذا خلقا عظيما مما لو جمع الى ما فرقه على سائر  
 الحصون والقلاع لم نجد قدر نصفه فى جنود المسلمين كما ثبت عندائمة  
 النقل وكذلك اكثره فى عدد التلى من الروم كأن يقول انه قتل منهم كذا  
 وكذا من الآلاف مما لم يكن فى جندهم مثله فى جميع ما لهم من البلدان  
 فربما انفردوا قدى فى علم الفقه والحديث ولم يكن له باع فيما سواه من العلوم  
 وقد دون التاريخ بعده حماد الراوية وعبد الله الاصمعى وهما يعرفان  
 أخبار العرب وأيامهم وأنسابهم ويمليانها عن ظهر قلبيهما الا أن الخلل فى  
 رواية حماد انه يقول الشعر على لسان المتقدمين (١) فيما يروم اسناده اليهم  
 من نكته أو من خبر فهدر الى المؤاخذة بما يدخل على التاريخ من  
 الاخبار الموضوعية اقرب منه الى الثناء على ما يضعه من الشعر الذى لا يفرق  
 عن كلام الجاهليين . يقال انه روى لهم ألفين وتسعمائة قصيدة لكل  
 حرف من الحروف الابجدية مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات (٢) .  
 وأما الأصمعى فليس تمت من الأمور التى نتقدها عليه الا انه كثير الرواية  
 واسعها حتى يكون فيها بعض المرية عند كثير من أهل العلم وليس ذلك  
 لغرابتها أو لبعدها عن الصدق بل لكثرتها فيما تقل بمدوناته وهذا  
 لا ينقص فضله فى العلم وانما هو واقع عليه من باب تعظيم الشئ الذى

يتفاوت قدره عن أن يكون مثله في صدر رجل  
ثم أنى وجدت الأصمعيّ وحامدا جميعا قد وقعا في الخطأ والقصور  
اللذين وقع فيهما أهل الرواية قبلهما وبعدهما . ذأما الخطأ فهو اعراضهم  
جميعا عن ذكر محاسن الأعاجم ممن هو خارج عن دين الاسلام حتى  
لا يشغلوا كتبهم في ذكر مذاهب كفرهم (١) كما يقولون وأما القصور  
فلكونهم يذكرون الحوادث من غير أن يستوعبوا مبادئها وغايتها ولا  
أن ينظروا في عللها وأسبابها ولا أن ينتقدوا على الملوك معاييرهم فيما سقطت  
به دولهم بعد أن تسلموها بمكان عظيم من النفوذ والسطان ليكون في  
انتقاد الأشياء تذكرة للناس ويظهر فضل التاريخ على سواه من العلوم  
الأدبية ببيان المحامد التي يسترشد بها والمساوي التي ينبغي الاستدكاف  
عنها والتنكب عن سبيلها .

هذا ما أعلقه في هذه الرسالة عن علوم العرب وآدابهم مما يشهد لهم  
بالفضل الجزيل فيما تميزوا باستخراجه من كتب الأعاجم ونظروا فيه  
نظار بصيرة واجتهاد من جميع العلوم والفنون والصناعات (٢) اذ كان  
لهم غير من ذكرنا من العلماء كثير من النقاشين والمصورين والصناع  
مما يدل على أن لهم من الصناعة أيضا مكانا غير مدفوع فلقد رأيت من  
عمالهم صوراً على الورق الصتيل (٣) تظهر خارجة وليست بخارجة وداخلة

(١) المقدمة ٢٠٣ وابن حوقل وغيره (٢) راجع مقدمة ابن خلدون وكتاب

حجى خلفه (٣) كتيله ودمنه

ولست بداخله وفيها كلُّ غريبة من الأبداع ورأيت من رسومهم على الآنية والاعمدة والقباب ما يبهر البشر في احكام الصنعة مع الخلاوة وتمام الزينة مع الحسن والطلاوة وهذا كله قد توصلوا اليه في عصر الرشيد وملوكنا البرامكة أعزهم الله وقد سمي بالعروس (١) لخصبه ونضارته وكثرة خيره وانتشار علمه في جميع البلدان الاسلامية. ولعمري ان فيما ذكرت بهذه الرسالة من آداب العرب لشاهدا ناطقا يباوغ الغاية من العمران. اذ كان العلم مرآة يرتسم فيها حال الأمم في كل عصر ومكان. وقد وقع تدوين هذا الكتاب في أول شهر السنة السادسة والثمانين بعد المائة من هجرة نبينا المكرم صلى الله عليه وسلم والله نسأل أن يجعل حالنا بالستر الجميل انه بالؤمنين رؤوف رحيم لارب سواه

✽ الرسالة الثامنة ✽

✽ رسالتى الى قيصر الروم ✽

هذا تاسع كتبي اليك أفردته لذكر الرسالة الى انبرذور الفرنجة وأنا اكتبه اليوم على متن السفينة في البحر الفاصل بين الروم وافريقية كان الرشيد يوم وصل رسول الانبرذور الى الحضرة (٢) قد استدعاني

(١) المسعودى ٤٠١\*٢ والشرقاوى ١٢٢ وفي الحصرى ١٠٣\*٢ كانت أيام البرامكة روض الازمنة (٢) هذه اللفظة لقب رومى للقيصرة وقد وردت في كتب العرب ووجدت في ابن خلكان ٨٤\*١ لفظه انبرور بحذف الذال وهى تشبهه أن تكون منقولة عن الفرنساوية

اليه فأصبته في مجلسه متنقلا كأنه يريد أمرا عظيما فاستدناى (١) اليه وقال  
 انا أنا من ملك انفرنجة رسول يقرئنا منه السلام ويلتمس جميل رعايتنا  
 بمن يحج الى بيت المقدس من ملته فرأينا أن نوجهك اليه بلطائف تروم  
 اليه أن يتقبلها في سبيل المودة لغاية ترغب فيها اليه من التعصب على بنى  
 أمية الذين يمزقون الاندلس فيما هو واقع بينهم من الحروب (٢) فاذا  
 وافقنا على ما نروم من الاستيلاء على ديارهم فهو المقصود من انفاذك اليه في  
 هذه الرسالة واجهد في أن تسترق قلبه بخلاصة لسانك وتقدم اليه بالوعد  
 الجميل في اننا نوفيه حقه يوم الفتح ونصرف له نفقة الحرب من بيت مالنا  
 ونجري الارزاق الواسعة على جنده وتقاسمه ما تحوى خزائن الظالمين من  
 المال والجوهر واستصحب معك هذا اليهودى الذى جاء به رسوله فهو  
 يترجم عنك اليه وخذ به بالتعظيم الكثير لانه شيخ مترف جليل القدر فيما  
 نقل الرسول الينا . وقد تقدمنا الى مسرور أن يصحبك بالخدام . في الدواب  
 والخيام . الى بيروت من ساحل الشام . فاذا عدت الينا وأنت آخذ على مصر  
 وصل اليت أن يوجه معك طائفة من الحرس الى عيذاب ثم وافينا الى  
 البلد الحرام حيث توافقنا حاجين فسر على بركة الله . واياه نسأل أن يتولاك  
 بعين الحراسة ويهدى الى الصواب قلبك وهو ولى التوفيق .

فلما أذن لى بالانصراف أتيت البرامكة لاستطلاعهم رأيهم فى المصاحبة

(١) فى الاغانى ٤٨٦٤ أن الخليفة يستدنى اليه من يحبه (٢) راجع المقرئ وابن

الاثير تجمد كلاما مطولا فى هذه الحروب

فلقيت جعفرًا منزهاً في البستان وبين يديه جماعة من الندمان . فلما أقبلت عليه قال اخرج عما بنفسك وحدثنا عن سفر البحر فقلت وأنى ذلك للسلطان فقال علم الله أنى أنا الذى أشرت على الرشيد بأن يوجهك الى ملك الفرنجة رسول خير ومودة وسلام . ثم أومأ الى الجلاس فتنحروا عن موضعنا فاستدنانى اليه وقال بهم أوصاك فقلت بكذا وكذا من الامر فوجم ساعة ثم قال سبحان الله إلام يتأدى به تغيير القتال لقد أشرت عليه بأن يعدل عن مناجزة الامويين لان لنا فى الشرق ما يشغلنا عن قتالهم وفي ظهور الخوارج الذين يقارعونه على الخلافة في كل حين ما ان ضعفنا عنهم مرة واحدة فسدت دولته فساداً لا تقوم لها من بعده قائمة . وان يكن الرشيد عن موعظتى غنياً بما عنده من العقل والعلم الا أن الملوك قد تطمح نفوسهم الى ما وراءه الشر من طمع الاستيلاء وقد قال الله تعالى : لا تسألوا عن أشياء ان تبدل لكم تسؤكم « (١) فإلنا وللأمويين وقد كفانا الله شرهم فان كانوا فى شقاق فلندعهم ينادون بالويل والحرب الى ما وراء البحور وايس لنا أن نلقى برجالنا فى المواضع المحجفة ونوردهم موارد الهلاك فانى أرى الجنديتفانون قبل الاشراف على تلك المتالف كما انى احسب الانبرذور على ما يؤثر عنه من ايثار الرفق ولزوم التؤدة بعيداً عن موافقته على ما يروم من الايقاع بملوك أمية وهم مطمئنون فى ديارهم معتصمون فى قلاعهم وقد عمروا أمصارهم ودونوا دواوينهم وشككوا حصونهم

بالرجال واتخذوا الالهة لهم والعدة والكرام ودون الاستيلاء على ديارهم  
 شيب الغراب (١) ولقد كان أولى بالرشيده ان يرى دول الاندلس درعا  
 منيعا للاسلام وسيوفا مشهورة على الروم لانها لو دخلت في حوزته لم يأمن  
 ان أرسل الجنود ان يخونه القواد أو مات الانبرذور عن خلف لا يرعى  
 العهد أن يوجهه من يقبض على عماله من لدنه . وقد بدالى أن  
 اعاوده في هذا الشأن فان رغب عما فرط منه والا فليفعل ما كان فاعلا  
 لبلوغ امنيته

فلما كان الغد بكر جعفر الى الرشيد وخلا به ساعة جيدة يقرب  
 عليه الكلام ويحصره الرأي والنصيحة ولكن من غير ان يقوم  
 ما بنفسه من الميل ويعمد به عن ركوب هذا المركب الوعر .  
 فاستدعاني اليه وسلمني كتابه الى الانبرذور وأمرني بأن أتجسس أخبار  
 العمال وأتفقد أمورهم حيث مررت . وأوصاني برجل من الامويين  
 في دمشق كثير المال كبير الجاه أن أتحدث حاله حتى اذا كان يخشى  
 منه استمالة أهل الشام الى الفتنة رفعت ذلك اليه ليتدبر أمره (٢)

(١) نقلت الاخبار السالفة عن ملوك امية أنهم لما هربوا من دمشق الى الاندلس  
 ووجدوا اليمانية فيها غير مذعنة لدولتهم قاتلوهم قتالا أجموا معه الموت أو يحصلوا  
 على لقمة تبقى الرمق وبلغ استقتالهم في سبيل الملك الى أن يقتل أحد ملوكهم ابنه من أجل  
 انه تراجع عن العدو وقد هاله كثرة جوعهم فقال لاحد أصحابه بعد أن ضرب عنقه  
 اكسروا جفون السيوف فاموت أولى أو الظفر « ابن الاثير ٤٦٦ » (٢) ذكر الاتليدي  
 ١٢١ والابشهي ٨٤٦١ قصة ظريفة عن هذا الاموي فليراجعها هناك من أحب

ثم قال واذا مثلت بين يديه «يريد قيصر الروم» فقل له عن أمية أنهم قوم قد كفروا بالنعمة وتركوا فروض العبادتة وسعوا في الارض فسادا وانا اناحق بالملك منهم لمكاننا من قرابة النبي صلى الله عليه وسلم. ثم أذن لي بالانصراف وكان يظهر من الميل الى وجيل العطف على بحيث كان يدعوني بلفظة الحبيب (١) كلما بدأ بالكلام بعد انقطاعه.

وكان في لطائف الخليفة الى الانبرذور فيل عظيم أبيض كان عند المهدي رحمه الله ارسله له بعض ملوك الهند (٢) وأقمشة فاخرة من الوشى المنسوج بالذهب وبسط ديباج من طبرستان وأعطار من اليمن والحجاز ومسك وصندل وأعواد ندى من الهند وسرادق عظيم مجلل بأنواع الحرير وكلاييه من الذهب الملبس بالوشى ومزولة كبيرة تدل على الاوقات في ليل ونهار وهى من عمل صناع بغداد وشطرنج بديع الحسن قد اتخذت أدواته من العاج المنقوش صنعه نقاش من النصرى اسمه يوسف الباهلى ورسم اسمه على الأداة التى تمثل الشاه وهى من الحسن بحيث ان الناظر اليها يكبر صناعتها وقدمت فيلا يلف خرطومها على فارس وعلى رأسه جندي قد أخذ بزمامه ومن حوله ثمانية فرسان

(١) ذكر الاغانى ٥٧\*٦ ان الخليفة لا يترفع عن أن يدعو بهض خواصه يا حبيبي ونقل صاحب العقد من نوادر اسحق بن ابراهيم انه لما دخل على المأمون استداناه اليه فدنا منه قال اسحق فرفع المأمون يديه فالتكأت عليه فاحتضنى بيديه وأظهره من اكرامى وبرى ملو أظهره صديق لى مواس لسرنى ٢٤٠\*٣ (٢) ذكره الاغانى

يراد بهم الرمز الى البيادق الثمانية الذين يناضلون عن الشاه وعلى ظهره هودج مزخرف بأنواع الرسوم قد استوى فيه ملك على رأسه تاج مثل تيجان ملوك حمير (١) وقد أظهر هذا الرسام في تصويره من الخدق ما يستحق عليه الثناء لانه مثل اصحاب الفيلة كما هم وجعل في آذانهم أقراطا وعلى زنودهم أساور وعلى ابدانهم القراطق وهي لباس الهنود واتخذ عدد الخيل مزخرفة وصنع لهم السروج والأزمة والركائب وقد الفرسان شيئا من السلاح ما عدا الجندی الذي أخذه الفيل بخرطومه فانه يعالج بنفسه للخلاص مما هو فيه وقد طرح سلاحه الى الارض وعليه سمة التوجع والانكماش (٢) مما يشهد للممثل بأنه من مهرة الصناعات.

### المروور بالكوفة وبلاد الشام

لقد رسم على طريق الوجهة بأن أسير الى الكوفة ثم الى دمشق ثم الى بيروت على ساحل البحر وكان مسيرنا في غاية البطء رفقا بالفيل والدواب المثقلة بالاحمال فاجتزنا بعد الانفصال عن الحضرة بمدينة النيل التي مصرها الحجاج (٣) وهي بمنتصف ما بين بغداد والكوفة (٤) ثم عطفنا الى الانبار (٥) ثم الى مدينة الكوفة فنزلت بها في رحبة خنيس الانصارى من أجداد استاذى أبي يوسف رحمه الله (٦) وهي في مقابلة

(١) ذكر تيجان ملوك حمير صاحب مروج الذهب ٢\*٢١٥٠ (٢) هذه الأدوات لم تزل الى هذا اليوم محفوظة عند الافرنج وقد رأيت صورتها فوصفتها كذلك (٣) القناوي ١٣٥ (٤) ياقوت ٢٤\*٨٨٣ (٥) المسعودي ٢\*١٤ (٦) ياقوت ٢\*٧٦٢



الباب الكبير المعروف بباب الفيل (١) وقد طاب لي المقام بين اهلها لما  
وجدت فيهم من الحب لاهل البيت (٢) شرفهم الله ولا سيما في قوم كندة  
من ملوك النصرانية وهم من غلاة الشيعة (٣) وأكثرهم عالم وحكيم  
وأديب كان يهتم معدن العلم ومظير الحكمة وقد لقيت منهم اسحق  
الكندي وهو عامل الرشيد على الكوفة قلده الامارة بايعاز البرامكة  
الذين يحافظون على تأييد الشيعة (٤) ويبغون من إلف الرعية فيما بينهم تعظيم  
الاسلام في انتفاعه بحكمة الامم وعلومهم وصناعاتهم وقد جروا بذلك  
على سنة أبيهم خالد رحمه الله وهو الذي قرّب بعض النصارى الى أبي  
جعفر كما تقدم في موضعه من الكتاب

ولقد وجدت الكوفة من أعظم مدن العراق (٥) وهي ذات ماء  
وشجر ونخيل (٦) وقد رت أن تكون في الكبر كنصف بغداد فحق  
تسميتها بالكوفة لاجتماع الناس فيها من قوهم تكوّن الرمل اذا ركب  
بعضه بعضاً (٧) وقد زارني فيها كثير من أدبائها المشهود لهم بالفضل  
والاجتهاد ولكني لم يتبها لي زيارتهم لقصر الوقت معي ولقد وجدت  
اسحق أميرهم من العلم والعقل بالموضع الذي اكتني من الدلالة عليه

(١) الاغانى ١٦٦\*٥ (٢) هذا معروف في كتب المؤرخين وذكر ابو الفداء  
١٤٥٢ ان كبير علماء الكوفة كان يميل مع الامام على كرم الله وجهه (٣) الوطواط  
١٢٥ (٤) المحاضرة ٨٥٢ (٥) ابن جبير ٢١٣ (٦) القنساوى ١٣٦ (٧) تقويم

بكوني أستخسر بعده عن الاسلام . وهو يسكن دارا مباركة تعزى الى عقيل بن أبي طالب (١) وهي بازاء المسجد المبارك الذي قال فيه بعض الصالحين ان ركعتين فيه تعدلان عشرة فيما سواه من المساجد وان البركة منه الى اثني عشر ميلا من حيث أتيته (٢) وقد زرته قبيل الانفصال عن المدينة ولم أرفى عمد المساجد كلها ما هو أطول من عمده (٣) ثم زرت مشهد علي عليه السلام (٤) وتبركت به وقرأت عنده شيئا من القرآن .

ولما انفصلت عن الكوفة تخلفت عنى الدواب المحملة فانقطعت في الفلاد مع جماعة من الحرس ورحنا فوز القفر بعد القفر حتى اذا عظمت على مشقة السفر تذكرت طيب بغداد وذا را ئفها (٥) وحننت الى مجالس البرامكة والدار عندهم جامعة . وأوقات الأئس بها رائدة . فكنت أقول متمثلا بكلام اسحق النديم (٦) .

على أهل بغداد السلام فاني أزيد بسيري عن ديارهم بُمدا  
اذا ذكرت بغداد نفسي تقطعت من الشوق أو كادت تذوب بها وجدا

(١) الاغانى ١٨٢\*٤ (٢) ياقوت ٣٢٥\*٤ (٣) ابن جبير ٣١٣ (٤) تقويم البلدان ٣٠١ (٥) القزويني والأغانى ٩٤\*٥ و١٧\*٧٠ وفي غير موضع (٦) الاغانى ٧٥\*١٧ و ذكر ياقوت في صحيفة ٦٨٨ من المجلد الاول أن الرشيد أنشد البيت فر بما لم يكن اشعر له بل كان من نظم اسحق لانه كثيرا ما كان يذكر بغداد ويتشوق اليها وهو في اسناره مع الرشيد ويقول

ذكر الاحية فاستحن وهاجه      للشوق نوح حمامة وحمام  
لم يبد ما في الصدر الا أنه      حيا العراق وأهله بسلام

ولم أزل مجدداً في السير حتى بلغت دمشق في ان্তى عشرة ليلة (١) ولو انى سرت تحت جناح الليل لبلغتها في ثمانية أيام (٢) فسادونها فنزلت فيها عند قاضيها الامام عمر بن أبى بكر بن تميم القرشى العدوى (٣) فى دار بناها عويمر أبو الدرداء وهو أول من ولى القضاء بدمشق وكان القضاء قبله يسكنون قصر الحجاج (٤) المعروف بالقصر الكبير .

أما الشام فانها بلاد مباركة كثيرة الخيرات . وفيرة الغلات . الا أنها نكدة الحظ فى تغلب الامم الغازية عليها ولذلك قلت عمارتها الى هذه الغاية بعد تغلب السككدان عليها والفرس الاولى والفراعنة واليونان والروم والفرس الثانية ولا سيما قبيل أن دجا الاسلام وقد كانت تمزقها الحروب التى تسعرت نيرانها بين بنى عامر المتفرضين للفرس وآل غسان المتفرضين للروم فانتقض عمرانها ودرست سبلها وتداعت أحوالها الى الانحلال بعد أن كانت جامعتها فى عظمة لم يكن مثلها فى الدول الاقليات وكانت التجارة فيها كأعظم ما يكون من الذئاق وللعلوم والصنائع سوق رائجة رابحة فدرست تلك المحاسن وتقلصت تلك الرسوم حتى لم يبق اليوم من مصانعها غير رسوم شاخصة وآثار ناقصة .

وانما دعا أهلها الى الفساد وجلب عليهم المذلة وطمح بأبصار الملوك الى التهامهم ما وقع بينهم من الشقاق وكان فى نفوسهم من التحزب الذى هو

(١) الاغانى د\* ١٦٦ (٢) الاتيديدى ٢٦٣ (٣) قضاء الشام (٤) الاتيديدى

أشد من الفتنة (١) فكان ظهور المرسلين فيهم سبباً لتعصب بعضهم على بعض وان كانت مواعظهم داعية الى المحبة والاتحاد . وهذا هو الامر الغريب الذي لم يسمع بمثله في البلدان فلقد كانت الشام مهبط الوحي ومسقط النبيين وموطن الاولياء الطاهرين الذين كانوا يتخذون الانصار لنفوسهم ويرومون ادخال الناس في شيعتهم ليجتمعوا ما كان شتيتا من شملهم ومتفرقا من كلمتهم وأغراضهم الا أنهم لم يبلغوا من ذلك الغاية التي كانوا يرومونها من أمرهم . فانما وجب على أهل الوطن الواحد أن تكون فيهم جامعة الالفة ولا يتعصبوا بأميلهم الى غير ما يقصدون منه الوحدة فان عظمة الامم لا تحصل الا بالاجتماع والعصبة سنة الله في خلقه . انظر الى الدول الرومية كيف عبث بها العدو حين وقع فيها الانقسام والجزؤ . وانظر الى الدولة الاموية لم يقارعها أبو مسلم على الخلافة الا عند ما تخالف عليها صبيتهم (٢) فيما يرمون اليه من طمع النعيم وانظر الى أهل البيت السلالة الشريفة والذرية الصالحة كيف وقعت بهم الشدة يوم تفرقوا على أغراض لا تجتمع بينهم الى الوحدة فلما اجتمعوا في المغرب

(١) هكذا كانت الشام في زمن الجاهلية والاسلام فان مصعب بن الزبير لما خذل الناس قال بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المين تنلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين أشار بيده نحو الشام وهو يريد ان به الى يومه مثل ذلك (٢) ذكر صاحب العقد الفريد انه قيل لبعض بني أمية ما كان سبب زوال ملككم قال اختلاف بيننا واجتماع المختلفين علينا

الى ادريس بن ادريس رضى الله عنه قام لهم ملك يرجف له الشرق فان  
تنظر الى ذلك كله والى كثير مما وقع وما هو واقع في الممالك تجد أن  
الامم لا تقوم دولهم الا برابطة الاجتماع والعصبية ومتى تسقط من  
روابطهم تلك الاوصال ينذر أمرهم بالانحلال وتتداع أحوالهم الى  
التلاشى والاضمحلال .

( وصف دمشق وانها بهجة البلدان )

ولما وفدت على دمشق وسرحت الطرف ناحية الغوطة امتلأت  
عيني من خضرة الارض حتى تخيأت نفسى فى جنة من جنات السماء  
ولا غروفان مياهها وأشجارها ورياحينها لافضل ما فى الدنيا من المنزهات  
(١) يسير الرجل فى رياضها يومه لا تصيبه أشعة الشمس لالتفاف شجرها  
بعضه على بعض . وهى فى أسمى مقام بين مدن الاسلام . بعد دار السلام .  
قد اشتبكت فيها العمارة (٢) وتزهت عن المثل فى النضارة . لكنها ليست  
بالمفرطة الكبر وربما كانت الى الطول أميل منها الى العرض (٣) وهى  
لا تخلو من السقايات (٤) فى شئ من أسواقها ولا بيوتها . ومبانيها طباق  
فوق طباق (٥) وتحتوى من الخلق على العدد الكثير والناس على  
مذاهب فيمن بناها من الاولين . فمنهم من يقول ان عاداً أول من نزلها

(١) تقويم البلدان ٣٥٣ وابن خردادبه ١٢٤ وياقوت ٥٨٩\*٢ (٢) القزوينى

٢٦ (٣) ابن جبير ٢٨٥ (٤) المقرئ ٣٠\* وابن جبير وابن بطوطة وياقوت

٥٩٠\*٢ (٥) ابن جبير ٢٨٥

من الناس ولها هي إرم ذات العماد (١) ومنهم من يذهب الى أن بانيتها  
 الغادر غلام نمرود (٢) أو دمشق بن كنعان . ومنهم من يزعم أن الذي  
 اختطها هو دمشق مولى الاسكندر الرومي (٣) ومنهم من يرى غير  
 ذلك . الا أنه ليس على ما يقولون حجة ترجع بهم الى محاسن التحقيق  
 على موثقة الآثار ولا سيما عند الذين يعززون بناءها الى الروم فان الرد  
 عليهم واضح لا يحتمل التأويل بعد أن أتى موسى كلیم الله على ذكر دمشق  
 في غير ما آية من كتاب التوراة . ومهما يكن من اختلاف المؤرخين في  
 ذلك فان هي الا مدينة أولية (٤) قد صحبت الملوك من الكنعانيين والروم  
 وآل جفنة وبنی أمية دهرًا طويلًا ونالت من العزة والعبارة ما قلَّ أن  
 يناله غيرها من المدن القواعد ولو كان البناء الذي شاده فيها الملوك من  
 الحجر الصلد ثم بنى ما تلا الى هذه الغاية لكانت دمشق زينة الدنيا  
 ولكنه شيد من طين ولبن فأتى عليه الانحلال وادثرت الايام آثاره (٥)  
 فلم يبق منه الا قلعة من الحجر تسمى الى الروم (٦) وقصر يقال له قصر جيرون  
 عليه أبواب عجيبة من النحاس (٧) وبناء يقال له البريض فيه كثير من  
 العمدان وتزعم العامة أنه كان يجري منه الشراب في قديم الزمان الآن  
 أركانه اليوم قيام وقعود . وحيطانه ركنٌ وسجود (٨) وقصران من الحجر

(١) ابن خردادبه ٧١ القرمانى ١١٨٥٥ والشريشى ٢٠٧٥١ (٢) الكنز

٢٣ (٣) القرمانى ١٩٣٥٥ (٤) تقويم البلدان ٣٥٣ (٥) قلائد العقيان ٥ (٦)

ابن جبير ٢٩٠ وتقويم البلدان ٢٥٣ (٧) السعودى ٢٤٢٥١ (٨) السعودى ٢٩٧٥١

لعمر بن عبد العزيز (١) ولوليد بن عبد الملك (٢) وهما جميع ما تخلف عن ملوك بني أمية لأن مانجا من آثارهم من معول الزمان لم ينبج من معول أبي جعفر (٣) كما مر في موضعه من الكتاب .

ولقد وجدت أهل دمشق أحسن الناس خلقا وخلقاً يكرمون الفقراء ويلتمسون منهم أن يتقبلوا صدقتهم حتى يكونوا هم في صورة السائل (٤) ولو أن فقيراً أعرض عن كسرتهم لقالوا ويحنا لو علم أن فينا خيراً لتناول من طعامنا (٥) وقد بلغني عن فضلائهم أنهم يزهدون في الدنيا وينقطعون إلى الله تعالى متبتلين في جبل لبنان (٦) غير أني لأطلق هذه الرواية الا على فئة قليلة من الصالحين لأن جمهورهم مائل إلى اللهو والطرب ولا سيما في يوم السبت فانهم لا يشتغلون فيه إلا بالمجون والتهتك لا يبقى فيه للسيد حجر على المملوك ولا للوالد على الولد ولا للرجل على المرأة (٧) وهذا أمر غريب لم أراه في غير دمشق ولا أعلم هل النصارى يشاركونهم في ذلك لاني رأيتهم منقطعين عن مخالطة المسلمين في المنازل والاحياء قد تألبوا على كنيسة معظمة عندهم تعرف بكنيسة مريم (٨) ويقال انها من أعظم بيعة بيت المقدس .

وبقيت في دمشق ثمانية أيام إلى أن وفد الغلمان بالدواب المحملة

(١) ابن جبير ٢٩٣ (٢) المقدمة ١٥٤ (٣) ابن الاثير والمسعودي ١٤٣\*٢

والحميس ٣١٤\*٢ (٤) الابشيهي ١٢\*١ (٥) ابن جبير ٣٨٨ (٦) ابن جبير ٣٨٩

(٧) القزويني ١٢٨ وابن بطوطة ١٩٧\*٢ (٨) ابن جبير ٢٨٥

وكنت قد استقصيت البحث عن هذا الاموى الذى أتعب خاطر الرشيد أمره فلم أجده غرضاً في السياسة ولا هو طامح الى ملك ولا اماره ولا يحدث نفسه بشئ مما يفتق بال رشيد حتى يخافه على أمره فأمسكت عن السعاية به لاني رأيت وهو خلو من هذه الاغراض مثل التاجر الكثير المال والجاه ليس الا وقد تهيأ الى بالاستطلاع على خبره أن أقف على سير غيره من الخلفاء أقاربه متابعة لما نقل الى من خبره فوجدت في الاولين منهم عقلاً وسياسة الا أنه لما صار الامر الى صبيتهم المترفين استرسلوا في القصف والتهتك (١) وعكفوا على اللذات واستخفوا بأمر الرعية وغفلوا عن مصالح الملك فأزاله الله تعالى عنهم وأبسهم ثياب الذل بذنوبهم .

وقد انتهى ترف ملوكهم الى الوليد بن يزيد (٢) وهو الذى أخذت الخلافة بالانحلال بين يديه وتحرك الدعاة عليه في خراسان بما وجدوا فيه من قلة الخبرة بأمر الملك وعكوفه على اللهو والطرب (٣) وقيام خلافته بين الكاس والوتر (٤) وقد استرسل في التبذير حتى أنفق ما جمعه أجداده في بيت المال لانه أفرط في الكرم افراطاً فاحشاً حتى انه لم يقل لاني سؤال سئله (٥) وكان اذا وصل الشعراء عد أبياتهم وأعطاهم عن كل بيت ألف درهم (٦) وكان يتأنق بصنوف الملاذ من المطعم والمشرب والملبس

(١) الاغانى ١٣\*١٦٥ والمقدمة والعقد الفريد وابن الاثير وغيرهم (٢) الدميرى

١\*٩٠ (٣) المسعودى ٢\*١٤٦ (٤) ابن خاقان ٤٤ فى قصيدة ذكرها هناك (٥)

أبو الفرج ٢١ (٦) الاغانى ٦\*١٤٨



فيقال انه لبس القانسوة من الوشى (١) مذهبة واتخذ العقود من الجوهر  
كالنساء يغيرها في اليوم مرارا (٢) لشغفه بها وكان يتختم بالياقوت ووقع  
من خواتمه الى بنى العباس (٣) خاتم يساوي أربعين ألف دينار ويقال في  
حسنه انه كان اذا أخرج من محبسه أضاء المكان من شدة لمعانه وكان  
يسترسل في الطرب الى أن يوجه رسله (٤) في طلب المغنين من الحجاز  
وغيره وكان يعاقر معهم الخمر (٥) ويشرب الهفنجة وهي الشراب الذي كان  
يشربه ملوك الفرس أيام معدودة (٦) على غير انقطاع فتبعهم في ذلك واصطنع  
بركة صب فيها الخمر (٧) وكان يلقي نفاه فيها من الطرب المفرط (٨)  
ثم يخلع ثيابه على الندمان والمغنين (٩) ويسقيهم الخمر بيده (١٠) وكان اذا  
سئل عن الشراب وعذله عليه يقول

يا أيها السائل عن ديننا نحن على دين أبي شاعر  
نشر بها صرفا وممزوجة بالسخن أحيانا وبالقاتر (١١)

(١) الاغانى ١٤٦\*٦ (٢) الاغانى ١٢٩\*٦ (٣) المستطرف ١٩١\*٢ (٤) الاغانى  
١٧\*٦ والعقد الفريد كتاب ٢ والمسعودى ١٤٦\*٢ (٥) الاغانى ٩٨\*٣  
والمسعودى (٦) الاغانى ١٣٠\*٦ والمسعودى ١٤٦٢ وبسميه هفت هفتة (٧)  
الدميرى ٩٠\*١ (٨) الاغانى وحلبة الكميت (٩) الاغانى ١٤٥\*٦ (١٠) الاغانى  
١٣٠\*٦ (١١) الاغانى والوطواط وابن الاثير وفي العقد الفريد ٢٣٩\*٣ و٢٥٠\*٢  
انه كان له مثن اسمه عبد العزيز يثنيه

أمدح الكاس ومن أعملها واهج قوما قتلونا بالبطش  
أما الكاس ربيع باكر فاذا مالم نذقمها لم نعش

وكان مما جئنا ردي المذهب حتى أنه ترك صوم شهر رمضان المبارك ونغشى  
 أمهات أولاد أبيه (١) فتجد أنه لم يثقل أمره على الرعية من وجه واحد  
 وإنما هناك وجوه قد ساقطت عليه الفتنة فقام الناس عليه وتلوه شر قتلة  
 هذه نتف من أخباره حدثتني بها مغنية كانت له يقال لها برق الأبق (٢)  
 وهي اليوم عجوز تكاد تنال الأرض بوجهها من الكبر . وقد أخبرتني في  
 بعض حديثها أن الجوهر كان في صباها متداولاً بين الناس فلما جمعه الوليد  
 بن يزيد من كل وجه وغلى به غلا ثمنه منذ ذلك الحين (٣) وهذا شيء من  
 الإفراط في الترف لم نسمع بمثله عن أحد من الملوك المترفين . ومن  
 نظر إلى ما كان عليه ملوك بني أمية من العزة والصولة وما صاروا إليه من  
 الذلة علم أن الله سبحانه وتعالى لا يغير على عبده نعمة حتى يغيرها العبد  
 على نفسه بارتكاب المعصية

ولما طال مقامي في دمشق تهيأ لي أن أزور اماكنها المشهورة فزرت  
 موضعاً يقال أن هايل وقايل نزلا فيه (٤) وموضعاً يقال له باب الساعات  
 (٥) يزعم أهل الأخبار أنه كانت فيه قارة تقدم عليها القرابين فما يقبله الله  
 منها تبتلع نار من السماء وما لم يقبله يبقى في موضعه على الصخرة . وزرت  
 مشاهد جماعة من أهل البيت المشرفين والصحابة والتابعين والاولياء

(١) ابن الاثير وأبو الفداء والعقد الفريد والوطواط (٢) الاغانى ٣\* ٨٧

(٣) الاغانى كتاب ٦ (٤) القزوينى ١٢٦ (٥) ياقوت ٢\* ٥٨٨

الصالحين (١) في جبل قاسيون ومقابر الشهداء (٢) وجبانة باب الصغير  
 (٣) وبيدها قبور ملوك بني أمية (٤) متهدمة والرخام عليها متكسر (٥) وزرت  
 قرية في سفح الجبل المذكور يقال لها برزة (٦) يزعم الناس انها مولد الخليل  
 ابراهيم عليه السلام (٧) حزين الملائكة والى ما فوقها حجارة مصبوغة  
 بشيء يشبه أن يكون أثر دم عتيق يقولون انها الحجارة التي رض بها قاييل  
 رأس أخيه هاييل (٨) ثم جره الى مغارة هناك يقال لها مغارة الدم (٩)  
 وفي حضيض الجبل مغارة أخرى تسمى مغارة الجوع يزعمون ان سبعين  
 نبيا ماتوا فيها من الجوع . واني لاستحي أن أتقل حديثهم على سمينه  
 فانهم يقولون سبعين ألف نبي (١٠) كان كل من عاش في الشام نبي أو ولي  
 وفي طرف الجبل مما يلي الغرب ربوة (١١) يقول المفسرون انها هي المذكورة  
 في قوله تعالى « وأوتيناها الى ربوة ذات قرار ومعين » ويرد عليهم آخرون  
 بأن المراد بها ربوة في الاسكندرية (١٢) من ديار مصر .

وهناك مسجد يقولون ان المسيح عليه السلام أوى الى مغارة بجانبه  
 وفيه حجر قد انفلق الى شطرين ولم ينفصل أحد الشقين عن الآخر بل اتصلا

(١) ابن جبير والشريثي ٢٣٦\*٢ والطبقات ٢٩\*١ والمسعودي ٤٢\*٢  
 (٢) قضاة الشام (٣) ذكرها ابن خلكان (٤) الخميس ١٤\*٢ (٥) المسعودي  
 ١٤٣\*٢ وابن جبير ٢٨٣ وابن الاثير ١٣٠\*٥ (٦) ابن جبير ٢٧٥ (٧) ياقوت  
 ٥٨٩\*٢ (٨) القزويني ١٢٦ (٩) ياقوت ٥٨٨\*٢ (١٠) القزويني (١١) ابن بطوطة  
 ٢٣٣\*١ (١٢) المحاضرة ٣\*

كرمان مشقوق (١) ولهذا المكان منظر حسن الى البساتين والخضرة في جميع جوانبه ولا اشرف كاشرافه حسنا وجمالا واتساع مسرح الابصار. وفيه تنقسم مياه المدينة الى انهار سبعة (٢) اكبرها نهر يزيد ونهر ثوري (٣) وهما فيه نهر واحد يعرف بنهر بردى وهناك بعض قرى مثل نيرب ومزة (٤) والسهم والسطر (٥) وفيها الجوامع والمرافق والحمامات الا أنه لا يظهر منها الا ما سبما بناؤه لتطاول الشجر عليه وفيها من الفواكه والتفاح والخوخ المسمى عندهم بالذراقن (٦) وسائر الثمار ما ليس في البلاد مثله صحة وطيبا (٧) والى ما يليها من طرف الجبل موضع يقال له عين برما (٨) كان معمورا لأيام معاوية بن أبي سفيان بجماعة من أهل خراسان ثم توالى عليه الخراب بظلم الخلفاء بعده حتى أصبح الى هذه الغاية قليل العين. وبقي الاثر من عمارته وذهب العين

ولقد كانت دمشق فيما خلا من الزمن الغابر ممزوجة بصنوف غير محصية من فضلات العمران ويعيها كثرة الوحول في أزقتها وتراكم الطين في ساحاتها فلما أقام فيها الامويون شرعوا في ازالة الاقدار (٩) منها وقاية من الطاعون الذي كان يتبع بها تباعا في السنين السالفة (١٠)

(١) ابن جبير ٢٨١ والقزويني (٢) تقويم البلدان ٣٥٢ (٣) ذكره ابن خلكان ٢٧٨\* (٤) ابن جبير ٢٧٩ (٥) كليات ٢٠٢ (٦) الاغانى ٢٦٥\* (٧) السكندر ١٤٤ (٨) المسعودي ٨٣\* (٩) أبو الفداء ٧٥١\* (١٠) راجع بن الاثير والمسعودي والعقد الفريد. وفي مروج الذهب من كلام عن الكوفة انها ارتفعت عن البصرة وحرها وسفلت عن الشام ووبأها ١١٦\*٢

وهذا هو الاثر الذي تشهد لهم البلاد به كما تشهد لهم الآثار الباقية عنهم  
بتشييدهم البناء على الهندسة التي ليس أعظم منها وقعا في القلوب ولا أتم  
حسنا وجمالا في العيون كالذي يبلغنا عما بنوه في الاندلس (١) من القصور  
التي حارت في جمالها عقول الفرنجة فقد شاهدت دار الوليد بن عبد الملك  
من قصورهم في دمشق فوجدتها بديعة الحسن مبنية بالحجر والصفاح  
والاعمدة مفروشة بالرخام الاخضر (٢) وهي تتناهى بالبهاء والاشراق  
الى أن يضرب بها المثل (٣) في أحكام رسومها وجلالة بنيانها ولو لم يكن  
من تمام زينتها الا الاعمدة المزخرفة منصوبة في اروقها فرادى وأزواجا  
لكفى البصائر روعا ووسع الابصار ابتهاجا . وأذكر أنه لما أدخلني صاحب  
الوقوف رياضها لمشاهدة ما فيها من الاشجار الغريبة (٤) لم يتحول نظري  
عن القصر لما راعني من حسنه المفرط وأعجبت به من الزينة التي يكبرها  
الناظر ويقف عندها وقفة الذاهل الذي به عقدة من السحر وهو بين أساطين  
دقيقة وقباب رفيعة ورواشن (٥) مخزومة وخرجات مزينة وطيقان مجسمة  
بالجص المنقوش وبينها من الرسوم العجيبة ما تجول فيه الافكار فتجمله  
وتميل اليه الابصار فلا تملأه .

﴿ جامع الوليد المعروف بالجامع الأموي ﴾

هو أفخر مأثرة لملوك بني أمية بناه الوليد بن عبد الملك صاحب

(١) راجع المقرئ والعقد الفريد وابن الاثير (٢) الطواط ١١١ (٣) المقدمة

١٥٤ والفتح بن خاقان ٩٤ (٤) الطواط ١١١ (٥) ذكرها الاغانى ١٠٥٥

القصر المتقدم ذكره وكان ذا همة في تشييد العمارات والمساجد (١)  
والقصور وقد شملت عنايته جميع البلدان في تسهيل الثنايا وحفر الآبار  
وإصلاح الطرق (٢) حتى كان الناس في أيامه إذا تلاقوا في الأسواق  
والمجالس تساءلوا عن العمارات وعن أي بناء شرع فيه خليفةهم كدأبهم في  
التساؤل عن الخير والصلاة في أيام عمر بن عبد العزيز وعن الطعام في أيام  
سليمان بن عبد الملك وعن اللهو في أيام يزيد بن الوليد وليس في بلاد  
الإسلام كلها مثل هذا الجامع حسنا واتقاناً (٣) وجمال رسم وتمام زخرفة  
وزينة وهو مائل إلى الجهة الشمالية من المدينة وقد سمعت عن سفيان  
الثوري أنه قال الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة (٤)

كان موضعه قبل الإسلام بيعة للنصرانية تعرف بكنيسة ماريحنا  
(٥) ومن قبل ذلك كان بيت عبادة لأهل جاهليتهم فلما دخل المسلمون  
المدينة عنوة تحت قيادة خالد بن الوليد أخذوا نصف الكنيسة ثم دخل  
أبو عبيدة بن الجراح صاحباً فأنهى إلى نصفها الآخر وقد وقع الصلح  
بينه وبين النصارى فبقي نصفها في أيديهم وقد كانوا يزعمون أن الذي

(١) ابن جبير وياقوت ١\*٥٩١ وابن الأثير ٥\*٤٠٥ والفخرى ١٥١ وأبو الفداء  
١\*٢٠٩ والمقدمة ٣١٠ والقزويني ١٢٧ (٢) ٤\*٢١٩ و٢٢٠ (٣) ابن جبير ٢٦٣  
والشريشي ١\*٢٠٨ وتقويم البلدان ٢٣٠ وابن بطوطة ١\*١٩٧ (٤) ابن بطوطة  
١\*٢٠٤ وابن جبير (٤) ابن الأثير وأبو الفداء ١\*٢١٠ وياقوت ٢\*٥٩١ وابن جبير  
وابن بطوطة ١\*١٩٨

يهدم بيعتهم يحنّ فلما صارت الخلافة الى الوليد قال أنا والله أول من يحنّ  
 في سبيل الله ثم بدأ الهدم بيده (١) فبادر المسلمون وأكملوا تخريبها حتى  
 هاجت النصرانية وعلاصياحهم فعوضهم الوليد عنها مالا جسيما وأرضاهم  
 بعدة كنائس صالحهم عليها (٢) ثم وجه الى ملك الروم (٣) في أشخاص  
 اثني عشر ألفا من العملة والصناع والمرخين وتقدم اليه بالوعيدان هو  
 توقف ثم أكمل هدمها سوى حيطانها وأنشأ فيها النسر والقناطر وحلاها  
 بالذهب وعلق عليها الاستار من الوشي والابريسم وبقي العمل فيها نحو آمن  
 تسع سنين وكان يعمل فيها ألف مرخم يُجلب اليهم الرخام (٤) والمرمر  
 من كنيسة أخرى لأمم النصرانية بمدينة انطاكية تعرف بمزور (٥) .

وقد غرم الوليد على هذا الجامع من الدنانير المصرية زنة مائة  
 وأربعة وأربعين قنطاراً (٦) بالدمشقي وذلك يعادل عشرة آلاف ألف  
 دينار (٧) وقرأت في بعض المجاميع ان جملة المنفوق عليه كان أربعمائة  
 صندوق وفي كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ففي القدر الحاصل  
 منه توافق بين الروايتين . وكان المتولى على النفقة عمر بن عبدالعزيز (٨)  
 قبل أن يبلى الخلافة وقد اتخذ في المسجد ستمائة سلسلة من الذهب (٩)  
 لاقناديل والثريات ونزل جدرانها بفصوص الذهب من الفسيفساء ممزوجة

(١) ابن جبير ٢٦٤ (٢) الحميس ٢\*٣١١ (٣) المقدمة ٢١٠ (٤) تقويم البلدان

٢٣٠ (٥) المسعودي ١\*٢٧١ (٦) الحميس ٢\*٣١١ (٧) ابن جبير ٢٦٣ (٨)

المسعودي ٢\*١١٩ (٩) ياقوت ٢\*٥٩٥

بانواع من الاصبغة العجيبة تمثل أشكالا من الرسوم ليس أبهج منها في  
العيون ورفع عمدانه من الرخام المجزع طابقا فوق طابق (١) واتخذ  
الاساطين الضخمة فيما يجارى الارض والسوارى الدقاق فيما يعلو الحنايا  
والقباب وفي خلال ذلك صور المدن والاشجار بالالوان والذهب وكتب  
في حائط المسجد بالذهب على اللازورد «ربنا الله لا نعبد الا الله أمر ببناء  
هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد امير المؤمنين  
في ذى الحجة سنة سبع وثمانين» (٢)

أما طول هذا الجامع (وذلك من الشرق والغرب) فهو مئتا خطوة  
أو ثلاثمائة ذراع (٣) وعرضه من القبلة الى الجوف مائة وخمس وثلاثون  
خطوة. وأبوابه أربعة. أولها الباب الشرقي ويعرف بباب جيرون وعليه  
عمودان من الحجر في غاية الافراط في الطول والعرض يقال انهما من  
بقايا الكنعانيين (٤) اذ ليس في وسع أهل هذا الزمان قطعهما ولا نقلهما.  
ثم الباب الشمالى ويعرف بباب الناظفين وكان مدخل الكنيسة قديما. ثم  
الباب الغربى ويعرف بباب البريد. ثم الباب الجنوبى ويعرف بباب  
الزيادة وهو يفضى بالخارج منه الى دار معاوية (٥) المعروفة بالخضراء  
وكان قد نزلها مروان بن الحكم بعد واقعة مرج راهط كما هو معروف.  
وفيه ثلاثة مقاصير أشرفها المقصورة التي اتخذها معاوية رضى الله عنه

(١) ١٢٧ وياقوت ٢\*٥٩٣ (٢) القزوينى وياقوت والمسعودى (٣) ابن

بطوطة ١\*١٩٩ (٤) القزوينى ١٢٧ (٥) أبو الفداء ١\*٢٠٤



عند ما كان للمسلمين نصف الكنيسة وتعرف بالمقصورة الصحابية وهي  
 أول مقصورة صنعت في الاسلام (١) بناها هذا الرجل العظيم وقاية لنفسه  
 من الخوارج أن يغتالوه في أوقات الصلوة كما اغتالوا عليا عليه السلام  
 فكان اذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف (٢) والى جانب هذه  
 المقصورة خزانة مغطاة بالنقوش فيها المصحف الكريم الذي وجهه عثمان  
 ابن عفان رضى الله عنه الى الشام (٣) وأخرج الى منها صاحب الوقوف  
 خاتما من الفضة للوليد بن عبد الملك قد نقش عليه « يا وليد انك ميت  
 ومحاسب » وآخر لاختيه سليمان وكلماته « آمنت بالله مخلصا » (٤) فأخذتهما  
 لأطرف بهما المأمون عند عودتي الى بغداد ليضيهنهما الى مالديه من خواتم  
 الخلفاء . وعلى هذا الجامع قبة دورها ثمانون خطوة عليها رصاص يمتد منها  
 الى أن يغطي سطوح الجامع كلها بألواح طولها أربعة أشبار في عرض  
 ثلاثة وربما اعترض فيها نقص أو زيادة . وهيئة السقوف من الخارج  
 هيئة نسر قد نثر جناحيه وكأنما القبة رأسه وهي في سمو الارتفاع بحيث  
 تراها من أى موضع استقبلت دمشق . أما صحن المسجد فانه من أجل  
 المناظر وعلى جدرانها آيات من القرآن الكريم ورسوم بالذهب تدهش  
 البصر والبصيرة وهناك مجتمع الدمشقيين ومنزههم لا يزالون فيه بكرة  
 وعشية يقرؤون ويتحدثون

(١) ابن جبير ٢٧٥ وأبو الفداء ١٩٩\*١ (٢) الفخر ١٢٩ (٣) ابن بطوطة

٣٠٣\*١ (٤) المسعودي ١١٩\*٢ والخميس ٣١٤\*٢

ولهذا الجامع ثلاث صوامع (١) واحدة بالجانب الشمالي وهي  
 مذهبة من أسفلها الى أعلاها (٢) وفيها مقاعد ومجالس واثنان بالجانب  
 الغربي واحدهما أكبر الصوامع الثلاث . وقد وجدت في أروقتة  
 ودهاليزه وصحنه وفي المساجد المتشعبة منه ماء يجري بلا انقطاع وشاهدت  
 في البلاط القبلي قبالة الركن الايمن من المقصورة الصحابية تابوتا معترضا  
 من الاسطوانة وفوقه قنديل موقد أبدا في الليل والنهار يقال انه مشهد  
 رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام (٣) ومن حوله عمدة عجيبية قد ظهرت  
 فيها عروق أخرى من ألوانها تخيلها العين منزلة فيها بايدي الصنائع الى  
 غير ذلك من المحاسن التي حواها هذا الجامع المبارك وعظمت عن ان تحاط  
 بوصف فاني لاحسب الزائر لو تردد اليه زمانه لرأى كل يوم ما لم يكن قد  
 رآه قبل (٤) من جمال الرسم وأحكام الصنعة كما أحسب انه لا يزوره احد  
 الا ويجدد الدعاء لبانيه (٥) وان لم يكن له ميل في السياسة مع الامويين

﴿ المرور بعلبك وركوب البحر من بيروت ﴾

رجع الى اقتصاص الرحلة . ركبت من دمشق في غد اليوم الذي  
 سفرت فيه الغلمان الى بيروت فوصلت في منتصف الطريق الى بلدة غناء  
 ذات سور قديم يقال لها بعلبك « ومنها الى الزبداني وهي مدينة على  
 طرف وادي بردى ثمانية عشر ميلا (٦) » وهي ذات اشجار وانهار

ابن بطوطة ٢٠٣٤١ (٢) الشريفي ٢٠٨٤١ (٣) ابن جبير ٥٧٥ (٤) القزويني

١٢٧ (٥) ابن جبير (٦) تقويم البلدان ٢٥٥

وعيون وخيرات كثيرة (١) وفيها السكرم الخصب . ولقد لقيت فيها  
فيلسونا من النصارى يقال له قسطا بن لوقا (٢) صاحبني في زيارة الآثار  
الموجودة فيها وأخبرني عنها بأشياء كثيرة ربما أتيت على بعضها في  
سياق الحديث

وقد أخذت هذه الآثار العظيمة بمجامع قلبي حيرة و إعجابا وأعظمها  
هيكلان كبيران أحدهما أعتق من الآخر (٣) وفيهما من التنوش العجيبة  
المحفورة في الحجر مالا يتأتى حفر مثله في الخشب مع ارتفاع جدرانها  
وضخامة حجارتها وطول أساطينها واتساع فتحها وعجيب بنيانها (٤)  
مما يذهل العقول تعجبا من اقتدار الرجال على مثل هذه العظام . وقد  
أخبرني قسطا هذا الفيلسوف أنه لا يرى الا أن هذين الهيكلين من بناء  
أمة ماهرة في فن الهندسة كما أنه لا يرى الحنايا التي تحملها الا أعتق من  
الآثار الظاهرة وفي ذهنه أنها وضعت في أيام سليمان بن داود عليها السلام  
ولما جاءت الروم الاولى هدموا المعبد العتيق ورفعوا الهياكل المائلة مكانه  
أما الحجارة الثلاثة العظيمة التي تعد من عجائب الدنيا فقد رفعها الروم  
بأيدي عبيدهم على ماجرت به عادتهم من استخدام الاسرى في البنيان وليس  
كما تزعم العامة من أن الجن هم الذين بنوها لسليمان عليه السلام كدأ بهم  
فيما يتحدثون عن كل أثر (٥) من آثار الاولين فيه معجزة لا تخرب . وإنما

(١) ابن بطوطة ١\* ١٨٥ ٢، المقرئ في ترجمة يعقوب الكندي (٣) المسعودي ١\* ٢٩٦

(٤) المسعودي ١\* ٢٩٦ (٥) نجد في كثير من كتب العرب نسبة المباني العتيقة الى الجن

رفعها الروم بالحيل الهندسية والقوة الآدمية (١) استدلالاً مما نجد في أطرافها من الانقارة التي تقضى بأنها كانت ترفع جراً بالامراس بأن تمهد لها الأرض سطحاً مرناً التراب يرتفع شيئاً فشيئاً مع امتداده إلى أن ينتهي إلى حيث هي مرفوعة ثم تجر بالسلاسل على عجلات لها بكرات من الفولاذ عريضة الأطراف حتى لا تفوص في التراب صغيرة الجرم حتى تحتل الثقل وتكون أشد من البكرات الكبيرة التي لا بد أن تاتوى تحت هذه الحجارة الهائلة ولا تأتي بالمقصود من استعمالها لرفع الأثقال ولقد كانت سياسة الروم مع الأمم التي يتغلبون عليها أن يأخذوا دينها بالتعظيم والتبجيل ليستميلوها إليهم ويبيتوا في أمن من تحركها للفتنة على غير اضطرار إلى حراستها بالجند إذ تنبئ الأخبار السالفة أنهم كانوا يملكون معظم العالم فلو دعاهم حفظ البلدان إلى إقامة الجند فيها لزمهم آلاف الألوف وهذا بعيد عن أن تقوم دولة من دول العالم بكفالتهم . فلما دانت لهم الشام وكان يعمل (٢) معبوداً فيها من الصابئة وغيرهم كما قال الله تعالى « أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين » بنوا لعبادته هذا الهيكل العظيم على شكل غريب يقصدون به الإعجاز ليظهروا ضخامة ملكهم لأهل المشرق واقتدارهم على عظام الأمور . إذ ليس للظن بأنهم قصدوا إليه المنعة موضع في نظر العقلاء . فهذا أحد اللولبين اللذين يفضيان بالراقى عليهما إلى سطح الهيكل قد

اتخذ اعلاه بما هو زائد عن النصف من حجر واحد فصلت منه الدرجات  
والسقف والحائط الدائر من جميع جهاته وكذلك الحجارة الثلاثة العظيمة  
قد اتخذت في أعلى الجدار لتظهر للوافد على بعبابك من حيث هو  
مستقبل الهيكل فلو أنه أريد بها المنعة لاقتضى ذلك ان تكون في أسفل  
الجدار لا في أعلاه كما أنه لو أريد ذلك من اللولب لكان النصف المتخذ  
من قطعة واحدة قائماً فيما يدانى الارض أو يماسها حتى اذا وهى أعلاه  
بقي هو في موضعه أو تداعى جدار السور بقيت الحجارة الثلاثة مرداً  
لمهاجمة العدو

ثم انه لما اتقرضت الروم الاولى وانفرد ملك الروم الثانية بالقسطنطينية  
وسائر المشرق وقد أخذوا في تعظيم النصرانية رأوا أن بقاء هذا الهيكل  
محجة للناس تنشغف أفئدتهم بما فيه من الغريب ولا يقصدون الكنائس  
وهى دونه في البهاء والاشراق مضرٌ بالنصرانية وحابس لها عن أن تعم  
الشام فعمدوا الى تخريبه ومحو الأثر المائل منه . وكان في القسطنطينية  
فطريك ذو عقل ودهاء يقال له فم الذهب يحنا فأشار على القيصر أن  
يتخذ كنيسته لعبادتهم لتحصل المنفعة منه مع حفظ الأثر الجميل فاتخذ  
كذلك . وفي رواية أنه أشار عليه بأن يشغل فيه القووس ففعل أو يقال  
انه لم يفعل . فانظر الى هذا الهيكل كيف تقلبت به أغراض الامم فقد  
شاده الروم الاولى لغرضهم في الدنيا ثم خربت الروم الثانية لغرضهم في  
دينهم ثم مثل آثاره لهذا الزمان ناطقة بعزة الله شاهدة أن لا باقى سواه

ولما انفصلتُ عن بعلبك مررت بسهل أفيح يقال له البتاع وعرجت فيه على موضع يسمى بكرخ نوح (١) يزعم أهله ان فيه قبر صاحب السفينة عليه السلام . وكنت أرى بمقربة من كل قرية من قرأه ردوما قد تراكت أمثال التلال كأنها من بقايا أمة قد خلت . وصرفتُ من بعلبك الى بيروت يومين في جبل لبنان لصعوبة مسلكه وكنت أميل الى عيون القرى لتزيه النفس وارواء الظمأ وانها لكثيرة في هذا الجبل المبارك وهي تمدغ في شغفاته . وأقت في بيروت حرسها الله ثلاثة أيام أنتظر هبوب الريح الموافقة وهي مدينة جالية (٢) على ضفة البحر طيبة الاقليم عليها سور من حجارة (٣) تحف بها عمارة مشتبكة في سفح لبنان كان يستجدها الوليد بن يزيد المقدم ذكره فيقول . (٤)

رب بيت كأنه متن سهم      سوف نأتيه من قرى بيروت

ثم يقول (٥) والنفس تائقة اليها والقلب شغف بجهاها

ألا يا حبهذا شخص      حما لقياه بيروت

وهي فرضة دمشق ومعظم الشام وفي مرساها مجتمع كثير من سفن التجارة ويحلب منها حديد (٦) لبنان الى ديار مصر وفي شرقها نهر يغاظ في الشتاء قد بنى له قدماء أهلها قناة (٧) يجرون الماء فيها اليهم والى غربيها

(١) ابن بطوطة ١٣٣\*١ (٢) تقويم البلدان ٢٤٧ (٣) الادريسي (٤) الاغانى

١٢٢\*٦ (٥) الاغانى ١١٧\*٦ (٦) الادريسي وابن بطوطة ١٣٣\*١ (٧) تقويم

مشهد الاوزاعي رحمه الله وميلاده ببعابك (١) وهو فخر المحدثين من  
 أهل الشام وله في علم الحديث (٢) مدونات جمع فيها الصحيح المروى  
 عن الصحابة والتابعين ومن سمع منهم واستخرج الاحكام الشرعية على  
 مذهب انفرد به أهل تلك البلاد .

وقد كان لبيروت شأن عظيم في غابر الايام وكان عليها ملوك  
 من الكنعانيين ومن قام بعدهم باعباء الدول الجسام . وكان للعلوم فيها  
 سوق ليس بعدها غاية في الرواج حتى انهادعت بمدينة الحكمة . وكان  
 للروم فيها منازل وهياكل هجروها بعد الفتح وجلوا عنها جلاء لم يرجعوا  
 بعده . الى ان عاد اليها العمران في الاسلام بقيام الخلافة في دمشق اذ كانت  
 المدن لا تصلح الا بقيامها بالملك أو قيام الملك في جوارها حيث تتوارد  
 الخيرات وتتماطر الوفود ويحصل الامن للتجارة

ولئن كنت قد شهدت لهذه المدينة بطيب الهواء فاني لا أنكر ما في  
 ريحها الشمالي من الرطوبة التي تحدث في الرأس المألا يشعر به الا الغريب  
 الزائر (٣) غير أن هبوبه فيها ليس بالمتواصل حتى نعهده من عيوب الاقاليم .  
 بل الغالب على بيروت ريح الصبا التي تنعش النفس تأتيها من ناحية الرمال  
 المنبسطة على شاطئ البحر . فربما وجدت هذا الموضع أصلاح للسكنى من  
 البلد العتيق . وفي ظني انه اذا توفّر عمرانه عن أن يسمع أهله فلا بد أن يحدثوا  
 فيه بناءهم اذ هو أقرب وجهاً الى نسيم الصبا منه الى ريح الشمال .

(١) أبو الفداء ٧٥٢ والطبقات ٥٠٠\*١ (٢) ابن خلدون كان (٣) القزويني

وركبت البحر من هذا الثغر المحروس في أول يوم من شعبان وأفلعت  
 مركبنا بهواء شمالي لطيف ليس بالثقل ولا بالخفيف أرسله الله علينا  
 بكرمه ولطفه واستمر سيرنا في البحر نحو من عشرين يوماً إلى أن أقبلنا  
 على مالطة وهي جزيرة من أول بلاد الفرنجة وبها كنائس معظمة لأمم  
 النصرانية فبتنا يومين في مرفئها نتسوق منها الزاد ثم أفلعنا عنها إلى  
 مرسيلية في ساحل الديار الرومية إلى غرب اللنبردية (١)

❦ لقاء القيصر والمنصرف من الرسالة ❦

ولما أقبلنا على مرسيلية لم نر لها شيئاً من زخارف البنيان . ولا وجدنا  
 في أهلها أثراً من محاسن العمران . لأنهم كانوا قبل دخولهم في ولاية هذا  
 الانبرذور أهل جاهلية وخشونة تستعبدهم طائفة طاغية من انفسهم  
 تجرى فيهم القضاء بحسب هوى النفس فلما استولى على ممالكهم اقام  
 عليهم أميراً فوض إليه أمر الجند والقضاء وجباية الاموال وجعله بمنزلة الوزير  
 في الاسلام وأقام تحت يده طائفة من العمال يتولون المناصب في ولايته  
 ولهم القاب معروفة عندهم مثل الماركيس وغيره . وليس في مرسيلية  
 من البنايات الزخرفة سوى قصر مبنى على علوة تشرف على المدينة يظهر  
 انه كان مسكناً لبعض أمراء الجاهلية وكنيسة عليها قباب مرفوعة نصبها  
 هذا الانبرذور الذي نصرأتمته ونصر القسيسين والرهبان كما هو معروف



وقد نظر بعين العناية اليهم وأحسن بالنعم الطائلة عليهم واتخذ منهم أولياء  
يستشيرهم في أموره ويرجع في السياسة الى رأيهم اذ كان القوم من  
دونهم همجاً لا يعرفون القراءة ولا أميطة عن بصائرهم غشاوة الجهل  
ومعظمهم عبيد للمتمول من التجار يموتون جوعاً بين يديه وهم يبللون  
أرضه بعرق تعبههم وشقائهم ثم لا يحصلون على كسرة يرتقون بها على  
الحياة ذأين هذا من حضارة العرب وصلاح أمرهم واتساع المعاش بين  
أيديهم واحتذائهم أشرف السنن العادلة فكان الله تعالى قد خص هذه  
الامة من الفضل والنعم (١) بما حرم منه أمة المغرب . فان الرب أحلى منهم  
وأحلم . وأعلى وأعلم . وأقوى وأقوم . وأعطى وأعطف . وأحصى وأحصف .  
وأشرى للفخار وأشرف . وأزنى للعار وآنف . وحسبي بما تقلت اليك  
من أخبارهم في هذا الكتاب دليلاً على ما ركب الله في طبائعهم من  
الانفة وعزة النفس وما آتاهم الاسلام من المحاسن التي تشرفهم على جميع الامم  
وقد شاهدت في ديار القوم كثيراً من الامور التي أخاف ان  
أتيت على بيانها أن تجرّ الحديث الى الخروج عما أنا بصدده من ذكر  
الرسالة . وقد وجدت عاداتهم غير منطبقة على عادات الشرقيين بل كثيرها  
مستهجن أوباق على خشونة جاهليتهم . ومن الغريب المألوف عندهم ان  
النساء يمشين في الاسواق بلا تقاب ويحاسن مع الرجال سافرات الوجوه  
وهذا استرسال لا أظن أن تصان معه الاعراض صيانتها في المشرق

من وراء الحجاب . وقد وقع بيني وبين الامير الذي صحبني في مرسيانية  
 مذاكرة في هذا الامر وكان يظن ان المرأة ذليلة في ملتنا وان منع ظهورها  
 الى الرجال واقع عليها من جهة استصغارها والتحقير لها فلما ذكرت له ان  
 الله تعالى قد وفاهن حقوقهن (١) في الدنيا والدين ووعد الصالحات منهن  
 نعيام تيمما في الآخرة وأمر بأن تجرى عليهن الوراثة التي لم تكن لهن قبل  
 الاسلام قال ذلك صحيح ولكن العامة عندنا ترق طباعهم وتحسن  
 اشارتهم ويصلح كلامهم وتظرف لهم المعاشرة الى خلال محمود من الرقة  
 يكتسبونها من تلك المخالطة ولا توجد في المشرق الذي لا تجمع مجالسه  
 الا الندماء والغلمان

وكان أمير مرسيانية عند ما اتصل به خبر وصولي بالرسالة قد أخرج  
 الى الجند ولم يترك شيئا من مظاهر الاحتفاء الا اجرا في سبيل تعظيمها  
 والاجلال لها فلما سألته عن الانبرذور أخبرني ان له غيبة في رومة لا امر  
 بينه وبين الباب (٢) الذي هو خليفة الامم النصرانية وانه يمكنه عنده  
 أربعين أو خمسين يوما فاستطاعت هذه الغيبة منه وخفت ذوات الحج  
 ان بقيت منتظرا رجوعه فرأيت أن أوافيه برومية فركب معي من لندن  
 الامير رسول الى القيصر وجزنا عباب هذا البحر الذي لم تجزه بعدد

(١) قد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالنساء بقوله ان لنسائكم عليكم حقا  
 وان لكم عليهن حقا الى أن قال فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا . (٢) كنية  
 البابا بالباب مذكرة في تقويم البلدان ولفظها بتفخيم البائين وتشديد ههما

سفن المسلمين الى أن منَّ الله تعالى علينا بالوصول الى رومة بايمن طائر  
والطف ريح والحمد لله على جميل ما يوالينا من النعمة ويتداركنا به من اللطف  
ولما أقبلنا على رومة أبلغ الرسول الانبرذور خبر قدومي من لدن  
الرشيد فسير اليَّ أمراء دولته وأهل حاشيته وبطانته فساروا بي الى حيث  
هو مقيم في دار الباب وهو قصر بل قصور قد جمعت بين الضخامة  
والاحكام وعنى البابون من خلفاء بطرس كبير الحواريين في تجميلها  
وتزييقها حتى صيروها نزهة جمعت الجمال والحسن . وكنت حين جاوزني  
الامراء مقاصيرها الى مجلس الانبرذور قد رأيت على جدرانها صور  
ملوك وأئمة وعباد قد طحنهم رحي المنون من أملاك العصور الخالية فلما  
دخلت عليه وجدته جالسا على منصة من فوقها قبة عليها كتابة بالرومية  
وهي مجللة بالذهب وعلى رأسه تاج مرصع باللؤلؤ والياقوت والزبرجد وفي  
يده قضيب الملك وعليه حلة من الوشي كأعظم ما يكون من حلال الملوك  
وبين يديه حرس قد وقفوا بالسيوف المشهرة والحراب والاعمدة وبينهم  
جماعة من العلوج وأشراف العساكر وطائفة من الجثالثة والرهبان  
المقدمين قد لبسوا الوشي الذي يقيمون به الصلاة في أعيادهم ومواسمهم  
ولكن كالذي لم نره فيمن يجاورنا منهم في المشرق حسنا يغشى الابصار  
بريقه ولمعانه .

فلما مثلت بين يديه قمت بما وجب عليَّ من الاجلال له وبلنته  
سلام الرشيد على لسان المترجم فكأمني بترفع الملوك الذين توقع جلالهم

مهابة في قلوب الوافدين عليهم ولكن من غير أن يكون في نفسه  
 جبروت وشكر للرشيد مودته وأثنى عليه ثناء جميلاً وكان الامراء  
 والرهبان يمدون اليّ أعناقهم ويحدقون بي أبصارهم كأنهم لم يروا من قبلي  
 مشرقياً على دين الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم أشرت الى الترجمان أن  
 يذكر له هدية الرشيد وانه يطرف بها جلالتة لارتباط المودة بينهما  
 فشكرني على ذلك مرة ثانية ثم استداناني منه وأمرني بالجلوس وأخذ يسألني  
 عن رحلتى اليه عطفاً مال اليه بعد الترفع الذي استقبلني به فكنت أجيبه بما  
 تقتضيه الرسوم من حمد الله على ما آتاه من الملك العظيم والثناء عليه فيما  
 أوجد لرعيته من أسباب الخير والراحة . ثم سألتني عن الدولة في المشرق  
 وانه يروم أن يكون الدهر للرشيد في صفاء فأجبتة بما في الاشارة منه  
 تحفظ عن ذكر بني أمية والملأ من الاعيان والرهبان حاضرون فسألته أن  
 يأذن لي بالدخول عليه في خلوة وانفراد فأجابني الى ذلك وهو يظهر  
 اثتناسه بي وتوسمه الخير مما وقع بينه وبين الرشيد من التواد .

ولما انصرفت من حضرته أوقف لصحبتى أميراً من عطاء دولته  
 ملك قلبي برنة نفسه . وأحسن منقلبي بلطيف أنسه وأحل كرامتى  
 عنده بالمحل الارفع لم يترك أثراً مشهوراً في رومة من قصر منيف ولا  
 منزل مزخرف ولا موضع ذى حسن وبهاء الا سار بي اليه وأرانيه  
 ليعظم في عيني أمر الفرنجة فما كنت لا أكبر من مبانهم الا الكنائس  
 التي يعظمونها ويتأقنون في تمييقها بالرسوم التي تتناهى في الحسن وجمال

الزينة وهذا الرسم أثر لهم من الصناعة ينفردون به دون المشاركة (١) الذين ينهاتهم الدين عنه (٢) وانما يكونون في حاجة الى صناعتهم اذا بنوا مسجداً أو قصرًا مزخرفًا كما علمت الا أنه لا يصح انفرادهم بالحدافة فيه دونهم لبطلان الموازنة فيما يتركه البعض ويأخذ فيه الآخرون. وفي نفسى ان المسلمين لولا نهى الشرع عن التصوير لما بعد أن يفوقوا فيه الروم فقد رأيت من عمل الرسام في المشرق الاقصى ما يقرب أن يكون في جودة عمل الروم. ورأيت صوراً من بلاد الصين وصلت الى البرامكة وهي تمثل رجالاً ونساءً وأولاداً بحيث الناظر اليها يميز بين الضاحك والباكى حتى لقد يميز بين ضحك السرور وضحك الشماتة (٣) وهذه غاية في المهارة لم يبلغها الا كبراء ارباب العقول من صناع الروم. وأعظم ما شاهدت من كنائس رومة بيعة بطرس حواري المسيح عيسى عليه السلام وهي من عجائب الدنيا (٤) وفيها من الرسوم والنقوش والاصباغ والاعمدة والذهب (٥) ما أذكرني جامع دمشق في بهائه وجماله وهي ابداع

(١) لم يكن للمشاركة في زخرفة مبانيهم الا أن يتخذوا أشكال الخطوط دون الصور وقد ابتدعوا من رسومها اشكالا تقيد الابصار في الحسن والبهجة مع انه ليس أصعب على الرسام من ابداع شكل لا يتوسع فيه من غير الخطوط المتماثلة وبذلك يعلم مقدار فضاهم في الصناعة بما وضعوه من هذه الخطوط وما علقوا عليها من الكتابة التي اتخذوا فيها طريقة التزييق لتملأ العين بهجة وارتياحاً (٢) المقدمة ٢٢٨ (٣) الفرمانى ٢٢٤\*٥ (٤) المقرئزي والمحاضرة ٣١\*١ والفرمانى ٥٥\*٦ (٥) القزوينى

ما شاهدته من مباني الروم وامتدادها مع مقاصد يرها نحو ستمائة ذراع  
 (١) فيما سمعت وامتداد الكنيسة يبلغ نصف ذلك (٢) وهي مسقوفة  
 بالرصاص مفروشة بأفخر أنواع الرخام. وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها  
 حوض عظيم للمعمودية يجري فيه الماء دائماً من نهر يشق هذه المدينة  
 (٣) كما تشق دجلة مدينة الزوراء. وفي صدرها كرسى مذهب يجلس فيه  
 الباب في أيام المواسم والاعياد. وتحت باب مصفح بالفضة (٤)  
 يوصل الى سرداب فيه مشهد بطرس فيما يزعم أهل هذه البلاد ولكني  
 علمت ان أهل المشرق من أمم النصرانية يردون ذلك عليهم ويذهبون  
 الى أن بطرس إنما قبض في انطاكية لاني رومة وان كرسى انطاكية  
 عندهم هو المقدم على كرسى رومة وفي هذه الاقوال نظر لا محل لذكره  
 في هذا الكتاب. وخارج الكنيسة عمود من رخام قائم على قواعد  
 اربع من النحاس وفي أعلاه عمود من الصفر قد رفعت على رأسه كرة  
 مذهب يراها كل من في رومة كأنها علم موضع الكنيسة.

ولما كان الغد اذن القيصر لي بالدخول عليه فلقيته في ثياب من  
 الديباج وعليه تاج من الجواهر أعظم مما كان عليه بالامس كانه أراد ان

(١) تقويم البلدان ٩٩ (٢) ابن خردادبه ٩٣ (٣) تقويم البلدان ٢١١

(٤) كذا وجدت وصف هذه الكنيسة في أسفار العرب من أهل الاسفار وغيرهم

وذلك قبل الحروب الصليبية

يظهر لي عظم سلطانه (١) بما تحوى خزائنه من الجوهر والمبال . ولما  
أمرني بالجلوس بلغته مأوصاني الرشيد بلاغه من أمر أمية في الاندلس  
وما يروم من موافقته عليهم ولكن بايجاز أبعدت فيه التأكيد ليكون له  
إشارة الى المصاحبة لا غير فخاطبني بما يقرب معناه من كلام وزيرنا جعفر  
أعزه الله فأكبرت ذلك من غير أن أعجب منه إذ كنت أعلم أن عقول الحكماء  
قد تتوارد على الشيء الواحد ولو على اختلاف الآماد . وتتلاقى ولو على بعد  
البلاد . ولما ذكرت له قرابة العباسيين من النبي صلى الله عليه وسلم فكر في  
نفسه حتى ظننت أنه سيقول لي إن من الناس من هم أقرب منهم ومن بنى  
أمية إليه . ثم انبسط له مجال الحديث فقال اني لارى الاسلام اليوم أقل  
اجتماع عصبه منه في أيام الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) لتجزئته بين  
المشرق والمغرب . على أنى أرى دولة صاحبك أعظم هذه الدول وأوسعها  
رقعة مملكة . وأما أمر الامويين فانه وعمر المرام . لا يناله الاعلى تمادى الايام .  
اذ لا يدل الشقاق الواقع اليوم بين السلطان وعميه على ضعفهم عن رد  
العدو فلو شد صاحبك عليهم لحوطوه باطرافهم وقاتلوه بغرض واحد  
تدعوهم اليه الحالة التي يقعون فيها جميعا من الغرر والاشراف على الخطر  
ولقد كنت أرى تغلبه قسرا على الاندلس من قبل أن يوافيها الامويون  
وقد كانت قضاتها على أغراض متضاربة أفضت بما أجلت عن الحروب فيما

(١) ذكر صاحب الاغانى ٢١٥٢ أن كسرى لما أنفذ رسوله الى قيصر الروم  
حمله على البريد ليريه سعة أرضه وعظم مملكته فذكرت عن هذا القيصر مثل ذلك

يذهبهم الى تغلب الجيرة عليهم اما اليوم وقد وافوها بالاموال (١) فليس من  
السداد ان يبادئهم بالقتال على حين يأتون من أفريقية بالمرتزقة من الرجال  
« وهم الذين يكرون أنفسهم للحروب » (٢) وربما تعذر عليه مداهمتهم  
من المغرب بما هو واقع من الفرقة بينه وبين العلويين فيكون له عدوان  
من الأمويين وأهل البيت جميعا وقد قيل في الامثال « ان الزبير اذا جمع  
منه جبل يوثق به الفيل المغتلم » ثم انه ذكر لي عند ما استنهضته الى  
مظاهرة الرشيد ان بينه وبين الاندلس ملوكا يحب أن يبقى معهم على  
عهد المسالمة والموادعة وأنه يوجه همته الى مناصبة الملوك الذين هم في ناحية  
المشرق كانه يريد ان يستولى على القسطنطينية . هذا ما وقع بيني وبينه  
من الحديث وقد قال لي في خاتمة المفاوضات قل لامير المؤمنين اني عنيت  
بحاجته وسأكون ظهيرا له فيما يروم واقراً عليه السلام .

ذلك ما كان من أسرار الرسالة لم تتوسع المصاحبة منها الى ما وراء  
التواد الظاهر من السياسة كما رأيت ولبثت في رومة ثلاثة ايام متواليات .  
وكان الانبرذور قد اتخذ لي ولية دعا اليها عظماء دولته وتكرم على  
بخاتم من الياقوت في سبيل التعطف ثم طلب الى ان آخذ على تونس  
لاوجه اليه منها برمة عظيم من عظماء النصرانية يقولون انه من أهل الجنة  
(٣) فأجبتة بالامثال الى ذلك فسير في صحبتي مر كبا من اسطوله لتحميلها

(١) المقدمة ١٥٨ (٢) المسعودي ٤٠٩٥٢ (٣) هو قبر يانوس فيما يقولون



اليه واقفلت مركبنا عن ساحل رومة في يوم شديد الحر من شهر رمضان  
كأن الحرارة فيه تشمل الاناليم المرتفعة ايضاً وقد حق تسميته بـرمضان  
من الرمض وهو ان تحترق الرجال من شدة الحر (١)

وكان الفراغ من تقييد هذا الكتاب وانا على متن السفينة ويبنى  
وبين تونس مسيرة يوم وليلة . والله اسأل ان يبلغنا المقصد بالسلامة وهو  
الكفيل بالتيسير والتسهيل لارب سواه .

✽ الرسالة التاسعة ✽

( المرور بتونس من بلاد العرب )

كتبت اليك الرسالة التاسعة بعد الانصراف من الرسالة . واليوم  
اكتب اليك من المشاعر المباركة بعد بلاغها الى الرشيد . فاني لما قفلت من  
ديار الروم عرجت على تونس من بلاد المغرب فأكرم عاملها من لدن ابن  
الاعلب وفادتي واخرج الى زورقا حملني عليه الى المدينة لان البحر يبعد  
عنها نحو عشرة اميال (٢) وبينهما بحيرة قريبة الغور فسبق اهتمامي  
باخراج الرمة التي اوصاني بها القيصر الى مركب الروم لابعادهم  
عن مرفأ المسلمين اهتمامي بما سواه من الامور . ثم اني نظرت في شأن  
ابن الاعلب ابراهيم واتقطاع اهل الشيعة الى حوزة ادريس بن ادريس  
رضي الله عنه من غير ان اكشف عما بالنفس من الميل مع اهل البيت  
اذ كنت اوجبت على نفسي ان اقوم بصدق الخدمة للرشيد في هذه

(١) الكنز ١٤٦ (٢) تقويم البلدان ٣٨ و١٤٣

الرسالة التي حماني مجاشمها واستودعني فيها امانته فاتصل بي من اخباره معهم جسيم حمت خبره الى ملوكنا البرامكة اعزهم الله . وقد اذكرني حال العلويين في المغرب ايام علي وابي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهم من الصلاح والخير والبركة يتبعون الرسوم التي حفظوها عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا يقيمون من ابهة الملك الا ما تدعوهم اليه حاجة الخلافة وكذلك اهل الشيعة من التزام الخير واتباع السنن العادلة والمحافظة على القراءة التي قرأها علي عليه السلام . الا ان الاغلب دمر الله ملكه ينتم عليهم امر الدنيا والدين ولا ذنب لهم الا انهم يحرصون على الخير والصلاح ويميلون مع اهل البيت السلالة الشريفة الطاهرة .

وهذه القراءة التي ينتمها الاغلب على اهل الشيعة قد كان لها شأن عظيم في صدر الاسلام واسألت من دماء المسلمين بحارا بما تعصبوا له من الاغراض . كان صدور الخلفاء فيما بينهم على قراءة ابن مسعود وقراءة ابي بن كعب وكان اهل الشام في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه قد انقطعوا الى قراءة يعارضون بها قراءة اهل العراق وزعموا انهم اخذوها عن المقداد بن الاسود وكان عثمان يقرأ قراءتهم وينقم على اهل الحرمين والعراق قراءتهم على قراءة ابي موسى الاشعري (١) فنغص عليه ذلك علي عليه السلام . . . . وكان عثمان في خلافته قد عقد مجلسا من الصحابة على ان يحمل الناس على قراءة واحدة في جميع الاقاليم والاطراف

فجمع الرقاع والادراج واللخاف والعسب التي كان مكتوبا فيها القرآن  
 الكريم وأمر بأن تحرق كلها وأن ينسخ من الصحف التي كتبت في  
 خلافة ابي بكر رضى الله عنه وكانت مودعة عند حفصة (١) زوج النبي  
 صلى الله عليه وسلم اربع نسخ (٢) يبعث بها الى الديار الاسلامية فتولى  
 نسخها زيد بن ثابت الانصارى (٣) وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص  
 وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى . وقيل عبد الله بن عباس  
 ومحمد بن ابي بكر (٤) وقال لهم عثمان ان اختلفتم فى شيء أو كلمة  
 فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلغتهم . (٥) ولم نزل هذه المصاحف  
 المنسوخة محفوظة فى مكة والشام والكوفة الا المصحف الذى كان فى  
 المدينة فانه فقد فى الحرب التى اثارها يزيد بن معاوية

ولما انفصلت عن تونس ركبنا البحر توجا الى الاسكندرية وفى نفسى أن  
 ابلغها فى عشرين يوما فلما توسطنا البحر غلبتنا الرياح العاصفة ونكصت بنا  
 السفينة على الاعقاب مسيرة بضعة أيام الى أن هدا نأثر النوء وطابت لنا الرياح  
 فسربا بمعونة الله الى أن شاهدنا منار هذا الشجر المحروس . والقطر المائوس .  
 ليلال خلون من شهر شوال فلما طلع النهار انتصب امامنا فى عظمه وهول  
 مرآه (٦) حتى كأنه عمود يلقى القبة الزرقاء ويصل بين الارض والسماء .

(١) أبو الفداء ١٦٦\*١ (٢) الفخرى وابن جبير ١٩٥ (٣) أبو الفداء ١٦٦\*١

وابن جبير ١٠٢ (٤) الكندى (٥) أبو الفداء ١٧٦\*١ (٦) ابن بطوطة ٢٩\*١

وابن جبير ٣٧ وعبد اللطيف ٦٤

رسا اصله تحت الثرى وسمابه الى الجو فرع لاينال طويل  
 فهو من سمو الارتفاع بحيث يهتدى به أصحاب السفن عن بعد سبعين  
 ميلا وربما قدر الناس في ارتفاعه نحواً من مئة وخمسين باعا (١) وهم  
 يقولون ان بانيه الاسكندر الرومى الذى ملك معظم الدنيا أو ملك من  
 خلفائه يقال له بطليموس قاسى مع رومة حروبا صعبا فى البر والبحر  
 فبناه لارتقاب جندهم والاستعداد لمرآكبههم قبل وصولها. ويحدثون عن  
 الوليد بن عبد الملك الاموى (٢) انه سول له جهالة قومه أن يهدمه طمعا  
 فى الوصول الى ما حوى جوفه من الكنوز المخبأة فشرع فى الهدم والدمار.  
 حتى قوَض جانباً من هذا المنار. ثم تعاضت عليه النفقة ولم يجد ما يستعوض  
 به عنها فكف عن عجز لحقه ولؤم نراه يستحقه. وكان مقامى فى الاسكندرية  
 عند عامها الليث بن الفضل الايبوردى (٣) ثلاثة أيام و كنت أحب مع  
 مالقيت من أنسه ووجدت فيها من سعة العمران واستبحار المصر أن  
 أمد فيها بساط الإقامة لولا انى خفت فوات الحج فانصرفت عنها فى

(١) تقويم البلدان ١٠٥ وابن جبير ٣٧ وربما كانت المنارة قبل أيامهم أكثر  
 علوا مما ذكره يقول ابن الاثير فى حوادث سنة ١٨٠ انه كانت بمصر زلزلة عظيمة  
 سقط منها رأس المنارة وربما ذكر المقرئ شياً من ذلك فى كتاب الحطط والآثار.  
 ويقول الفرمانى ٦٤\*٦ ان طولها ألف ذراع الى غير ذلك (٢) المقرئى والمحاضرة  
 ٤٣\*١ والمستطرف ١٧٨\*٢ وتقويم البلدان ١٠٥ (٣) ذكر أبو الحسن ٥٢٢\*١  
 انه كان عامل مصر فى ذلك الوقت وهو سنة ١٨٦ للهجرة

اليوم السابع من شوال وكنت قد استقرت كثيرا من أما كتبها المشهورة  
ووقفت على ما اتسع لاهلها من طرق المعاش فرأيت ان اجمل الكتاب  
بذكرة ليبقى فخرا للمسلمين في استيلائهم على هذه المدينة التي ليس  
اعظم منها في ديار الروم

﴿ في ذكر الاسكندرية ﴾

الاسكندرية مدينة تجارة من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضما  
وأحفلها بنيانا واليها المنتهى في المنعة والحصانة اذ كانت مبنية على لسان من  
الارض والبحر محيط بها من جميع جهاتها ولذلك يصعب منالها على العدو  
وان لم يكن وراءها وعروا ولا هضاب يتعزز به جانبها من البر (١) ولقد كانت  
في قديم الزمان خاملة الذكر يقال لها رقودة (٢) فلما تبوأها الاسكندر  
الرومي (٣) وصارت كرسى الملك بعده تجللت بجلال الحضارة . وتحت  
بجلل الحضارة . واتصلت عمائرها تحت الارض (٤) آزاجا يجتمع فيها ماء  
النيل كاتصالها فوق الارض وأقيمت اسواقها في نهاية من الابداع  
(٥) وشوارعها في غاية من الاستقامة والاتساع بحيث ان الغريب الزائر  
يسير فيها نهاره أجمع فلا يضل (٦)

ولقد لقيت في كثير من أما كتبها وطرقاتها عمداً وألواحاً من رخام

(١) يقول ابن خلدون في المقدمة ٣٠٥ ضد ذلك وانه سهل طرق العدو لها

(٢) المقرئى ١٤٧\* (٣) القزوينى ٩٦ (٤) ابن جبير والمقرئى ١٥٠\*١

(٥) ابن جبير ٣٦ (٦) تقويم البلدان ١١٣

تُحمل العامة على الظن بأنها هي إرم ذات العماد (١) التي لم يخلق مثلها في البلاد (٢) واعظم ما شاهدت منها العمود المعروف بعمود السواري (٣) وهو مائل في العنان الى طرف المدينة تحف به غابة من النخيل وهو حجر صلد من الصوان الاحمر يبتدىء من قاعدة غليظة وينتهي الى تاج مكالم بالرسوم والناس يقولون انه كان في اعلاه قصر معلق في الجوّ لاهل العلم والرئاسة (٤) وانه كانت فيه خزائن كتب أحرقها عمرو بن العاص (٥) بإشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما اذ كتب اليه « الكتب التي ذكرتها ان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنها غنى وان كان فيها ما يخالفه فلا حاجة اليها فتقدم باعدامها » ولكن هذا قول يحتاج الى التدقيق والنظر. وخطى بهذا العمود انه نصبه الروم معارضة للعمدان التي اتخذها الفراعنة أمثال المسلات وطعما في تخليد آثارهم في مصر الى اتقضاء الدهر .

(١) المقرئ والمسعودي وياقوت وابن جبير (٢) هي المدينة التي زعم العرب انها من احدى الجنان ويقولون انه بناها شداد بن عاد باليمن بين صنعاء وحضرموت وأحاطها بسور عظيم معني بصفايح الذهب وأخذ فيها قصورا عظيمة على عمد من الياقوت وجعل في المدينة أنهارا كل نهر حافتاه من الذهب وحصاؤه الياقوت والجوهر وجعل على شط تلك الأنهار أنواع الاشجار التي جذوعها من الذهب وأوراقها وثمرها من الزبرجد والياقوت والعقيق وأنواع الجوهر وقد ذكر ابن خلدون في المقدمة هذا الحديث منكراله وانتقد على العلماء والمفسرين تصديقهم لما يقوله الناس عنها من الحكايات الموضوعة (٣) ابن بطوطة ١\*٣٠ والقزويني ٩٧ (٤) المقرئ ١\*١٥٩ (٥) أبو الفداء وأبو الفرج ١٨١ وابن العميد والمقرئ

وقد رأيت أهل الاسكندرية اصحاء الذوق لطاف الطباع واخلق  
لقرب مدينتهم من البحر وظهور الصبا عندهم واعتدال الحر والبرد في  
اقليمهم على أن أكثرهم مهازيل الاجسام وهان البنية (١). ووجدت لهم  
تصرفا واسعا في التجارة (٢) لان المال موفور عندهم والخيرات  
تأتيهم من مصر وجميع الامصار فيتصرفون في الليل بالبيع والشراء  
كتصرفهم في النهار (٣) وسمعت انهم بلغوا من سعة العيش الى أن بنوا  
في مدينتهم ألف حمام وأربعمائة ملهى واثنى عشر ألف دكان (٤) وهذا  
شيء من الكثرة لم يسمع بمثله في البلدان .

اما المسلمون في هذه المدينة فانهم على رأينا من القول بخلافة أهل  
اليث وتعبدون على مذهب الامام مالك (٥) ولكنهم يجهرون بالبسملة  
في صلاتهم ويبتدئون بها عوض الخطبة (٦) كافي بهم قد اقتدوا في ذلك  
باهل الشام اذ كانت المواصلة فيما بينهم مستمرة على غير انقطاع . وأما  
أهل الذمة فانهم يزيدون عن أربعمائة ألف (٧) بين نصارى ويهود وهم  
يؤدون جزبتهم الى الرشيد دينارا واحدا مؤمنا (٨) بعد ان ضربها عليهم  
عمرو بن العاص دينارين واستمرت على ذلك في عهد الخلفاء السالفة وهم

(١) المقرئى ٤٤\*١ (٢) المحاضرة (٣) ابن جبير ٣٩ (٤) المقرئى والمحاضرة

٥٩\*١ والقرماني ١٣٧\*٥ (٥) المقرئى (٦) المقرئى ٣٣٤\*٤ (٧) ابن خرداذبه

١٢١ والمحاضرة ٥٩ والمقرئى ١٦٢\*١ (٨) ذكر صاحب الاغانى ان هذه الدنانير

سميت بالميمونة نسبة الى ميمون بن عامر ٧٢\*١٧

في الاسكندرية وسائر الديار المصرية ملل كثيرة من النصرانية الا أن معظم سوادهم (١) روم يرجعون في أمورهم الى فطريتهم بالقسطنطينية وقبط ينكرون على الباب خلافته للمسيح ويرجعون في ملتهم الى بطرك لهم يسمى مرقص (٢) كرجوع المشاركة الى بطركهم في انطاكية (٣) كما مر في موضعه من الكتاب .

وهؤلاء القبط هم أهل مصر الاولون وفي أيديهم الكنائس المعظمة التي لا يوجد مثلها عند الروم اذ كانوا السابقين الى تشييدها والحافظين لها من نظامهم تحت ظل الاسلام . وأعظمها بيعتان احدهما كنيسة مرقص (٤) وهي بجوار الدار التي بناها الزبير بن العوام (٥) فيها رسوم عجيبة وصور تمثل الحواريين والعظماء الذين ظهرت عليهم الكرامات في ملتهم . والثانية كنيسة يوحنا المعمدان (٦) قد مرّ مرة سقفا بالذهب وصورت فيه ملائكة الله محفوفة بالسحاب . وفي جوارها دور كثيرة لهم قد رفعت على طباق ثلاث (٧) وارتفعت على دور المسلمين مع ان المطاولة عليهم في البناء محظورة على أهل الذمة . وهذا أمر يتقاضى عنه الولاة كما يتقاضون عن مجاهرتهم في ملتهم باشياء لو بدت منهم في العراق أو الحرمين جلبت عليهم الحين في أسرع من طرفة عين . وذلك مثل مجاهرتهم بالانجيل

(١) المقرزي ٤٩٢\*٢ (٢) ذكره المقرزي ٤٩٣\*٢ (٣) المسعودي ٢٧١\*١

(٤) المقرزي ٤٩٢\*٢ (٥) ذكرها ابن خلدون في المقدمة ١٧٨ (٦) المقرزي

٥١٩\*٢ (٧) القرمانى والمقرزي ١٦٢\*١



واخراج آيتهم الى الاسواق وحمل صلاباتهم على رؤوس الرماح (١) وغير ذلك مما لا ينقمة عليهم المسلمون (٢) وكانهم انما يتساحون في أمرهم تجنبا لاثارة السواكن أو طمعا في استمرار الخلطة التي وقعت بينهم وأشبهت أن تكون الفة وصفاء . بل مودة الى الاخاء . وقد وقع لهم وأنا في الاسكندرية موسم عظيم يسمونه عيد الميلاد يتخذونه في اليوم الذي ولد فيه المسيح عليه السلام وهو اليوم التاسع والعشرون من شهر كيهك (٣) وعادتهم يوم هذا الموسم في كل سنة أن يحيو اليهم كله بالسرور ويخرجوا آيتهم الى الاسواق وينوروا كنائسهم بالشموع المليحة الاصباغ . فكنت أرى كثيرا من المسلمين يتاعون لأولادهم من هذه الشموع المسماة بالفوانيس ويحرقونها في ازقة المدينة كأنهم يشاركون النصارى في أفراسهم ويظهرون الانس بهم الى اتقضاء العشاء الآخرة .

وقد وجدت القوم من الروم والتبسط وسائر ملل النصرانية يتأقنون بصنوف الملابس من الخز والديباج والوشى الذي يصنعونه في مدينتهم ويضرب به المثل في جميع البلاد (٤) ونوع من الكتان يتنافسون في لبسه الى أن يبيعوا الدرهم منه المخيط ثوبا بدرهم فضة (٥) وكنت أحب أن تظهر آثار النعمة في لباس المسلمين (٦) مثل ظهورها في أهل الذمة فقد حدث الرواة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه اتخذ جبة مكفوفة بالحرير (٧) ولبس ثيابا

(١) المقرئى (٢) المقرئى ٤٩٤\*١ (٣) المسعودى ٢٧٢\*١ (٤) الاغانى

٧٦\*٥ (٥) المقرئى ١٦٣\*١ (٦) تزيين الاسواق ١٥١\*٢ (٧) مجمع الانهر ٩٤

بأربعة آلاف درهم وصلى فيها (١) وكذلك حدثوا عن عائشة أنها خلعت  
 على عبد الله بن الزبير ثوبا من الخبز (٢) وعن جماعة من العلماء والفقهاء أنهم  
 لبسوا الثياب المهدبة (٣) فلا أرى موصفا بعد هذا لان يكون لبس الحلال  
 الفاخرة محظورا في الشرع (٤) كما أنى لأرى استخدام الذهب في الحاجة  
 اليه مثل شد الاسنان به من الكبر وغيره مخالفاً للنصوص الشرعية (٥)  
 اذا لم يقصد به الكبر والترف .

﴿ الديار المصرية والسيل ﴾

توسع بي الكلام الى ما خرجت به عن اقتصاص الرحلة ولكني  
 أعود الى ذكر الامور التي شاهدتها في ديار مصر فاني ركبت من الاسكندرية  
 أريد الفسطاط ثم اسوان ثم عيذاب الى طرف الصحراء من ساحل  
 البحر . فررت بدمهور وصا وبرمة وطنتدة وقيوب في أسرع مدة من  
 الزمان . اذ ليس في مصر جبل ولا مسلك وعري يعترض الركبان . وكانت  
 العمارة متصلة في طريقنا الى الفسطاط ومن حولها اخضرار في السهل  
 يمتد مع البصر الى أن ينقطع فأخبرني من كان يصحبنى من لدن الايث  
 أن البلاد تنوع مثل هذا المنظر أربعا في كل سنة فتكون ثلاثة أشهر  
 لؤلؤة بيضاء (٦) أولها شهر أيب المعروف بتموز عند المشاركة يركبها

(١) مجمع الانهر ٧٩٤ ونقل الشيباني عن ابن جريج ان ابن عباس كان يرتدى  
 برداء قيمته ألف درهم العقد الفريد ٣٣٣\*٣٤٣ (٢) الزرقاني ١٠٤\*٤ (٣) البخاري  
 وغيره (٤) ابن عابد بن ٥\*٤٤٤ (٥) ذكر ابن خلكان ١\*١٤٧ والعقد الفريد  
 ٢\*٢٦٣ شد الاسنان بالذهب من الكبر (٦) المتوفي

النيل الى أن تصير ضياعها في بحر من الماء ولا سبيل اليها الا في الزوارق. وثلاثة أشهر مسكة سوداء أولها شهر بابه وهو المعروف بتشرين أو أقطوبر (١) ينكشف الماء عن الارض ويترك عليها طينا علكا أسود فيه دسومة صالحة للزراعة يقال له الابليز (٢) وثلاثة أشهر زمردة خضراء أولها شهر طوبة الذي ير بنا اليوم ينجم الزرع ويظهر ربيع الارض حتى لا يبين الثرى من خلاله. ثم ثلاثة أشهر سبيكة حمراء تبتدى من برمودة المعروف بأبرياس عند الروم فيتورد الزرع يبلوغ الحصاد. ويكون كسبيكة الذهب في المنظر والمعاد.

وانما يجلب الخيرات الى مصر ويخرج الزرع اليافع من أرضها الجرز ما يحمل اليها النيل من الطين والدسومات ويفيض عليها من الماء في أيام من السنة معلومات فكأنما تستعويض بالمنفعة منه عن الشتاء الذي يجده الله عنها رفقا بمصالحها أن تختل. ومساكنها الطين أن تبتل. وقد قال سبحانه وتعالى في محكم كتابه (٣) «أولم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعاتاً كل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون». فجعله الله عز وجل من الغمورة والاستبحار بحيث يكفي البلاد كلها من غير أن يكون فيها نهر ولا عين ولا مسيل ماء غيره والناس يجمعون محاسنه في ثلاثة (٤) الاول غمورته الى أن يكون بحرا تسير فيه السفن. والثاني بعد

(١) في المسعودي ٢٧٢٥١ أسماء الاشهر الرومية مثلما هي اليوم عندنا (٢)

عبد اللطيف ٣ (٣) المتوفي (٤) المقرزي ٦١٥١ وتقويم البلدان ٤٥

منفجره الى ما وراء الخط من جبال القمر . والثالث طيب مسلكه على  
رمال تروقه وتأخذ الممزوجات الغربية منه . فربما انى وجدت له خلة من  
الخير والبركة أفضل من هذه المحاسن بأنه يزرع عليه مالا يزرع على  
نهر غيره من أنهر العالم (١) فكأن مما تجتمع فيه محاسن الغمورة وبعد  
المنفجر وطيب المسلك من الأنهر ثم لا تحصل المنفعة منه مثل ما يحصل  
لاهل مصر من بركة نيلهم .

وشأن هذا النهر المبارك في الفيضان أنه يبتدىء بالزيادة في شهر  
أبيب والقبط يقولون اذا دخل أبيب . كان للماء ديب . (٢) ثم يغلف في  
مسرى وهو شهر أب ويزيد بعد ذلك زيادة عظيمة الى أن يتف حدها  
في منتصف توت وهو شهر أيلول المعروف بسبتمبر عند الروم ثم لا يلبث  
بعد ذلك حتى يتراجع بالانحصار وقد كفى الناس سقاية زرعهم بمدوده  
على حد قولهم (٣)

كأن النيل ذوفهم ولبّ لما يبدو لعين الناس منه  
فيأتى حين حاجتهم اليه ويمضى حين يستغنون عنه

وصفوة القول في هذا الفيضان على أن منشأ السحب الماطرة (٤) الى  
ما وراء خط الاستواء من تلك البطاح وللقبط فيه أقوال كثيرة لا موضع  
لها في هذا الكتاب (٥) وهم يزعمون أنهم يعرفون قدر فيضه « قبل حدوثه »

(١) ابن بطوطة ١\*٧٧ (٢) المقرئ (٣) المقرئ (٤) تقويم البلدان ٤٥

(٥) راجع المجلد الاول من خطط المقرئ

من هبوب الريح في أول يوم من بونة وهو شهر حزيران عند المشاركة .  
وقد قرأت في بعض الكتب ان هذا النهر هو نهر العسل في الجنة (١)  
وان حائدا اليهودى الذى تاه في الارض دهرا لم يستقر فيه بموضع  
وصل الى الجنة مما وراء السودان (٢) فوجد أرضا ذهبيا وترعا ذهبيا  
وتلاعا ذهبيا (٣) ورأى النيل ينساب فيها من طيقان قد ارتفعت مثل  
قوس السحاب . وهذا تصور لطيف كنت أقرأ مثله في دواوين الشعراء  
فأحييت أن أذكره لك حتى اذا كنت بعيداً عن أن تعجب منه من حيث  
الحقيقة فلا أقل من كونك تعجب به من حيث المجاز .

ولما وصلت الى القسطنطينية نزلت على قاضيها عبد الرحمن بن عبدالله  
من ولد عمر بن الخطاب رضى الله عنه (٤) فلما أصبحت وكان يوم الجمعة  
أجمعت في جامع عمرو بن العاص الذى قاد الجيوش الاسلامية الى هذه  
البلاد وانتزعها من يد المقوقس كما هو معروف . وهو من المساجد المشهورة  
في الاسلام حسنا وتزويقا واحكام صناعة وجدت على حائطه القرآن  
الكريم مكتوباً على ألواح بيض من الرخام يقرأه الانسان وهو فاعد (٥)  
ثم زرت مشاهد كثيرة من مشاهد آل البيت والصحابة والاولياء  
والشريفات العلويات . ولما مالت الشمس ركبنا الى موضع غربى المدينة  
يقال له الجزيرة وهو مجتمع اللهو والنزهة لاحاطة الماء به وهناك المقياس

(١) المقرئى ٥١\*١ والزرقاتى ٣٧٥\*١ (٢) الاسحاقى ٢١١ (٣) المنوفى

(٤) المحاضرة ٨٩\*٢ (٥) القزوينى ١٥٧

الذي يعتبر به قدر زيادة النيل (١) بناه سليمان بن عبد الملك الاموي في آخر المائة للهجرة النبوية المشرفة وهو عمود رخام أبيض مفصل على اثنين وعشرين ذراعاً من الاذرع القديمة التي كان يتعامل الناس بها قبل أن يضع الرشيد الذراع السوداء التي تزيد عنها بأصبع وثلاثي أصبع (٢) وهو مبنى في موضع ينحصر الماء فيه فاذا انتهى الفيض الى ثمانى عشر ذراعاً منغمرة فيه كان ذلك الغاية في طيب العام (٣).

وقد أخبرني عبد الرحمن هذا القاضى النبيل ان ما يغمره النيل بمصر يبلغ مئة ألف ألف فدان (٤) والفدان عندهم اربعمائة قصبه والقصبه عشرة أذرع « وهو القدر الذي وجدته هشام بن عبد الملك عندما مسح البلاد » وكلها ذات خيرات كثيرة . وغلاة وفيرة . مما يحمل الانسان على ان يظن في أهلها اتساعاً بالنعمة واسترسالاً في الطيبات من بسطة العمران غير ان الامر على خلاف ذلك عند أهل الزراعة بالارياض حيث غلب على عامتهم الخمول (٥) وتولاهم الشقاء ولم ينفقوا المال الذي أعطاهم الله في مطالب السعة بل دفنوه تحت أطباق الارض وتظاهروا لدى ملوكهم بالمسكنة وعسر الحال ليسترقوا القلوب رفقاً في جباية الاموال.

(١) المقرئى وابن جبير ٥١ والمسعودى ١٦٤\*١ (٢) ابن خرداذبه ١٦١

والمسعودى ٤٠\*١ والمقرئى ٥٩\*١ (٣) ابن بطوطة ٧٨\*١ (٤) المقرئى ١\*

٨٠ (٥) المحاضرة ٢\*١٩١ (٦) المقرئى ٤٥\*١ قول الرحالة مائة ألف ألف فدان

اتقده ابن المدبر بأن ما يزرع في مصر هو أربعة وعشرون ألف ألف فدان

فما كانت هذه الحيلة لتفيدهم شيئاً من الرحمة . وربما انقلبت الغاية منها الى التثقيل عليهم بالخراج لما تسومع عنهم من تخبئة الكنوز بحيث رأينا لحكامهم اقتداراً في تكثير الجباية ما عرفنا مثله لغيرهم من ملوك الامم .

﴿ في وصف الاهرام ﴾

وفي غد اليوم الذي وصلت فيه الى الفسطاط ركبت الى أهرام الجيزة (١) وهي ثلاثة كبار موضوعة على خط مستقيم (٢) غربى النيل وهي من أهول ما بناه المتقدمون وأجله خطراً . وأبقاه على الايام أثراً . والعهد بجميع الاشياء يخشى عليها من الايام الا هذه الاهرام . فانها صبرت على طواريء الحدثان حتى راح يخشى منها على الزمان . اثنان منها عظيمان وواحد دونهما في العظم وهذان الهرمان الكبيران متناهما السمو يخيل للرائى انهما نهدان قد نهدا في صدر الديار المصرية (٣) وهما مبنيان بحجارة بيض صلبة قد اقتلعت من مغائر تحت الارض بعيدة يدخلها الفارس برمح فيرتاح فيها . ولقد تقدمت الى بعض من كان يصحبنى من لدن السلطان ان يطلق سهما الى أعلى الهرمين فرمى به عن قوس غليظة وساعد قوى فسقط السهم دون ثلثي المسافة (٤) أما وصف الهرم فهو بناء مخروط مضلع مثلث الزوايا مربعا يتدىء من قاعدة عريضة ويضيق مامثل في

(١) عبد اللطيف ٥١ والشريشى ١٠١\*٢ والمقرزى (٢) هذا تشبيه لطيف ذكره عبد اللطيف وغيره من الكتاب (٣) تقويم البلدان ١٠٨ (٤) ابن بطوطة

العنان الى أن ينتهي الى سطح صغير يكون مبرك بعيرين في الهرم الصغير ومبرك ثمانية في الهرمين الكبيرين . وهذا نمط في البناء يوثقه مائة يقوى بها على ممر الليال .

أما السبب الذي دعا الفراعنة الى نصب هذه الالهة . فلم يزل مستترا تحت ظل الابهام . فمن قائل انها بنيت مستودعا للعلم (٤) ومن قائل انها اتخذت لتحتجز الرمال الثائرة من القفر على الفسطاط . وفي وجه من التاريخ انها بنيت لدفن الكنوز (١) واحتكار الجيوب لأيام يوسف عليه السلام (٢) الا أن ما يذهبون اليه من هذه الآراء . بعيد عما لدينا من القياس الظاهر للاشياء . فان العلم لا تحفظه الحجارة ان لم يستوعب في صدور الرجال . والرمل لا يحجزه سد غير متصل العمارة وبين الهرم والآخرة فرجة واسعة المجال . والحب لم يحتكره فرعون الى دهر لا انقضاء له . وفي موضع لا يقدر منه أن يتناوله . ولست أظن الا أن هذه الالهة قد بنيت لحدود (٣) للفراعنة الذين كانوا يدينون بالرجعة الى هذه الدار ويعنون بتحصيل مدافعهم من عبث الادهار . ليحفظوا فيها حليهم وأموالهم الى يوم النثر كما كان يصنع في جاهليتهم أهل مصر اذ يجعلون مع الاموات مالهم وأشياءهم ليجدوها بين أيديهم يوم رجعتهم الى هذه الدار كما كانوا يزعمون (٤)

(١) المقرئ ٢٢\*٢ (٢) المحاضرة ٣٤\*١ (٣) المقرئ وتقوم البلدان

١٠٨ (٤) عبد اللطيف والمحاضرة



وقد قرأت في بعض الكتب أن باني الهرم الكبير من الفراعنة ملك يقال له سوريد وجهه زواياه الى بعض الابراج السماوية تيمنا بالبركة في اعتقادهم وزبر عليه « أنا سوريد الملك أكملت بناء الهرم في ست سنين فمن جاء بمدى وزعم أن له ملكا مثلي فليهدمه في ستين سنة (وفي رواية ستمائة سنة) والهدم أيسر من البنيان وقد كسوته بالديباج الصرف فليكسه هو بالحصر والحصر أهون من الديباج » (١) أما توجيهه زواياه الى بعض الكواكب كما يعتقدون فهو اقتراض ليس للرد عليه موضع مع ما نعلم من عبادة المتقدمين للنجوم وتعظيمهم لها . وأما الكتابة التي يعزونها الى فرعون فاني لم أجد لها أثرا على الهرم الكبير ولا الصغير ولا أعلم على فرض أنها مرسومة فيه أحداً من الناس يقرأها . حتى لو جاز أنها كتبت وقرأت كذا على الهرم فلا يصح ان تكون كسوته بالحصر مما يعجز عظماء الملوك وسعته من الركن الى الركن الآخر ثمانية وستون خطوة وإنما المعجز في هذه الآثار هو أحكام بنائها (٢) بهذا الشكل البالغ النهاية في الاستواء دون أن يتخلل الحجارة شيء تتلاصق به من الكلس ولا غيره من المواد ولو أن نجاراً أخذ صندوقاً من الخشب لما أحكم عمله (٣) ووصل قطعه مثل وصل هذه الحجارة الضخمة بالتصاق لا تنفذ فيه الابرة الصغيرة ورُبَّ زائر يقف الى هذه الالهة فتشغله الدهشة من عظمها وهو لها

(١) ابن بطوطة ١\*٨٢ والمقرئزي والمحاضرة (٢) عبد اللطيف ٥٣ (٣)

عن التأمل فيما هو حقيقى أن نعتبر فيه من آثار السلف . فأنا لأنكران  
الذين رفعوها من الفراعنة كانوا ضخام السلطة عظام الصول والحول .  
غير انى تمثلهم فى نفسى ملوكاً عاتية قد ظلموا الرعية بما آتاهم الله من  
السلطان واستخدموا العباد فى مشاق لا فائدة منها ولا طائل تحتها سوى  
أن تنطق بظلمهم على ممر الازمان . أو انى أمثلهم جبارة قد كثر المال  
تحت أيديهم فلم ينفقوه فى البر والاحسان . ولا انتفعوا به غرضاً من  
المران . بل رنعوا به جبالا شاهقة من الصوان . وليس فى أحد الأمرين  
منصرف عن لؤم بهم أو لؤم أوقعه عليهم فلئن أنفقوا المال فى غير  
سبيله فقد أسرفوا بالملك ولئن قبضوا الاجور عن العملة بعد أن أنهكوا  
أبدانهم بالغنت الشديداً فقد ضلوا سواء السبيل وباعوا رعاياهم بالبئس  
الاثمان .

ورأيت على مقربة من الهرم الكبير صورة عجيبة من الحجر قد  
قامت كالصومعة (١) ومثلت رأس آدمى وعنقا بارزة من الارض فى غاية  
العظم يسميها الناس بأبى الهول ويزعمون انها طلسم الرمل لثلا يغلب على  
أرض الجزيرة (٢) وهى تشهد لصناع ذلك الوقت من القبط بحذقهم فى  
فنون الرسم وصحة التمثيل لانهم اتخذوا صورة الوجه متناسبة الاعضاء  
على كبره وجعلوا عليه حمرة لا يزال دهانها محفوظاً مع الحجر (٣) وكان  
الزمان يعيره رونقا وجدة حتى انه ليخيل للناظر اليه انه ذو مسحة وجمال

(١) المقرئى ١٢٢\*١ وابن جبير ٥٠ (٢) القرمانى ٥٥\*٦ (٣) عبد اللطيف ٥٩

وان شفّيته تفتحان للابتسام وقد أخبرني حاجب الليث انه كانت له  
 لحية تكسرت على تمادى الايام وان جثته مدفونة تحت الارض ويقتضى  
 القياس بالنسبة الى رأسه أن يكون طولها سبعين ذراعا (١) الى حديث  
 طويل مما يتعلق بهذا الصنم وبغيره من آثار فرعون فيقول وهو أعرف  
 الناس بالبلاد (٢) ان بمصر ثمانين كورة في كل كورة مدينة عظيمة وفي  
 كل مدينة آثار حسان . ورسوم باقية على ممر الزمان (٣)

➤ الى عذاب فجدة فالبلد الحرام ➤

كان انفصالنا عن القسطنطينية في بكرة يوم قارس برده وكانت العمارة  
 متصلة في طريقنا على شاطئ النيل فاجتزنا ببلد يعرف بمنية ابن خصيب (٤)  
 فيه الاسواق والمرافق والحمامات ثم اجتزنا ببلدة يقال لها انصنا وهي  
 تبعد عنه مرحلة طويلة (٥) فيها شجر اللبخ (٦) الذي تصنع من السفن  
 وكثير من العبد والصخر المحمل بالنقوش والرسوم وفي بعض الكتب  
 انها كانت مسكنا لـ اـ حرة فرعون (٧) ثم اجتزنا بمحاذاة حائط عتيق  
 البنيان يقال له حائط العجوز (٨) وهو يمتد من القسطنطينية فما فوقه الى

(١) عبد اللطيف ٥٩ (٢) المقرئزي وكتاب المحاضرة للسيوطي (٣) قال  
 الجاحظ وغيره عجائب الدنيا ثلاثون أمجوبة عشرة منها في سائر البلاد وبقاياها في مصر  
 المقرئزي والمحاضرة والقرماني ٥٥٦ (٤) ابن جبير ٥٤ (٥) تقويم البلدان ١١٥  
 (٦) المقرئزي ٢٠٤ (٧) ذكر المسعودي ٢٨٤ الاسرائيليات من الاخبار  
 بمعنى الحكايات التي لا طائل تحتها وربما كان هذا الخبر لاحقاها (٨) المسعودي

جهات اسوان يزعم الاخباريون أنه بنته ملكة يقال لها دلوكة (٩) وقاية  
 لابنها من الوحش أن يهاجمه في مزاولة القنص (١) مع ان الاقرب الى  
 العقل أن يكون بناؤها له خوفا من الآدميين وغزواتهم لابن الوحوش  
 التي يصح أن تكون في هذا الجانب منه كما هي في الجانب الآخر . ثم  
 مررنا بمنفلوط في البر الغربي (٢) وفيها قح مشهور برزانه حبه (٣) ثم  
 بأسيوط وهي من النيل على ثلاثة أميال فيها الافيون المصرى الذى  
 يحمل الى سائر البلاد (٤) وهو عصارة الخشخاش الذى يزرع فيها (٥)  
 وفيما جاورها من البلاد ثم ركبنا مرحلتين الى اخميم وهو بلد مشهور فيه  
 البربى العظيمة التى صور فيها ملوك مصر (٦) وصورت فيها الافلاك  
 والكواكب حين كان النسر الطائر في برج العقرب (٧) وهى مرفوعة  
 من صخور منحوتة وفيها أربعون سارية مزينة بالرسوم والنقوش (٨)  
 وعليها سقف من الحجر مغشى بالاشكال العجيبة حتى لا يخلو مغرزا برة  
 منه من رسم أو نقش أو رمز بالخط المسند لا يعلم ما هو فسبحان من أباد  
 أمة اقتدرت على عظام الامور لاله الا هو رب العرش العظيم .

ثم تمادى بنا السير من هذه البلدة الى دندرة وهى مدينة عتيقة  
 يقال انها من بناء قفطريم بن مصرائم بن حام بن نوح عليه السلام وفيها

(١) المقرئى ٣٨\*١ (٢) المسعودى ١٧٢\*١ (٣) تقويم البلدان ١١٣

وابن جبير ٥٧ (٤) القزوينى ٩٩ (٥) تقويم البلدان ١١٥ (٦) الترمذى ٥٦\*٦

(٧) ابن بطوطة ١٠٤\*١ (٨) القزوينى ٩٤ وابن جبير

بَرَّبِي عَظِيمَةً مِنْ آثَارِ الْفِرَاعِنَةِ يَحْفَ بِهَا نَحْلٌ كَثِيرٌ (١) وَقَدْ تَحَقَّقَتْ فِيهَا  
رَأَيْتُ بِهَا وَبَغَيْرِهَا مِنْ آثَارِ الْقَبْطِ صِحَّةً مَا نَقَلْتَهُ الْإِخْبَارُ عَنْ قَدَمَائِهِمْ مِنْ  
بَلُوغِهِمْ الْغَايَةَ الْقِسْوَى مِنَ الْحَضَارَةِ فِي زَمَنِ كَانَ بِهِ ظَلَامٌ وَجَاهِلِيَّةٌ لِلنَّاسِ  
حَتَّى إِنْ الَّذِينَ كَانُوا يُطَلِّبُونَ الْعِلْمَ مِنَ الْيُونَانِ أَنْفُسَهُمْ لَمْ تَسْتَكْمَلْ آدَابُهُمْ  
إِلَّا بِاقْتِبَاسِ الْحِكْمَةِ عَنْهُمْ وَاسْتِخْرَاجِ الْفَلَسَفَةِ مِنْ كِتَابِهِمْ وَكَذَلِكَ قَوْمُ  
مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مَعْرِفَةٌ بِالْعُلُومِ إِلَّا بَعْدَ مَقَامِهِمْ فِي مِصْرَ  
وَمَحَاضِرَتِهِمْ أَهْلَ الْعِلْمِ مِنْ رَجَالِهَا . فَتَجَدَّ إِنْ لِقَبْطِ فِي فِلَسْفَةِ التَّارِيخِ نَكْتَةً  
شَغَلَتْ عَتُولَ الْحُكَمَاءِ مِنْ كُلِّ عَصْرِ وَأُمَّةٍ حَتَّى ذَهَبَ أَفْلَاطُونُ فِي بَعْضِ  
كُتُبِهِ إِلَى أَنَّهُ يَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ أَتَى عَلَيْهِمْ عَشْرَةُ آلَافِ سَنَةٍ حَتَّى تَمَكِّنُوا مِنْ  
بَلُوغِ الْغَايَةِ الَّتِي بَلَّغُوهَا مِنَ الْإِدْبِ وَالصَّنَاعَةِ وَدَلَّتْ عَلَيْهَا الْآثَارُ الْبَاقِيَةُ  
عَنْهُمْ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ

وَلَئِنْ كَانَ قَدْ غَابَ عَنَّا مَعْرِفَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ سِرِّهِمْ وَأَسْرَارِهِمْ فَلَا لَوْمْ  
نُوجِّهُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبِيلِ التَّعْصِيرِ أَوِ الْإِهْمَالِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَغْفُلُوا عَمَّا وَجِبَ عَلَيْهِمْ  
نَحُونًا بِمُحَقِّقِ الْإِخَاءِ فِي الْبَشَرِيَّةِ مِنْ تَأْدِيَةِ عِلْمِهِمُ الْيُنَابِلِ اجْتِهَادُوا بِأَنْ  
يَسْتَبْقَوْهُ عَلَى الْإِيَّامِ صَلَاةً دَائِمَةً فِيمَا يَبْنِي وَيُنْهِيهِمْ حَيْثُ حَفِظُوهُ لَنَا فِي مَا هُوَ  
أَصْبَرُ الْأَشْيَاءِ عَلَى الزَّمَانِ « الْحَجَرِ » لِأَيُّ مَنَّا اتَّصَلَ بِنَا وَأَفَادَتْنَا بِهِ الْغَرَضُ  
الَّذِي شَغَلَهُمْ قَبْلَنَا مِنَ الْحِكْمَةِ وَالغَوْصِ عَلَى أَسْرَارِ الطَّبِيعَةِ . وَإِنَّمَا أَفْسَدَ  
هَذِهِ الصَّلَاةَ عَلَيْنَا الْعَفَاءُ مِنْ سَنَةِ الْغَلَبِ فِي النَّاسِ إِذْ يَتَعَاقَبُونَ فِي الْأَرْضِ

دولاً بعد دولٍ وأجيالاً تحيي بموت أجيالٍ وتحتاج لحفظ نوعها أن تبديد  
الجيل الذي كان من قبلها وتسبب على حطامه ستر المجر والعفاء وهذا  
هو السبب الذي قطع الآخرين عن الأولين وعمى علينا قراءة رموزهم  
ان تبد لنا غوامضها تفدنا علماً واسعاً من حكمتهم ونبأ صادقاً من سيرهم  
وأعمالهم . فكم رأيت لهؤلاء القبط من صور على الحجارة مودعة هذا  
العلم تنظر اليها بعيون قد غابت تحت غبار القدم . وتبتسم بشفاه تكاد  
تنطق لو لم يصمتها الرجم . كأني بها تنتظر أن نحاطبها بلسان تعرفه  
واشارة تفهمها من رموز أهلها لتبيح لنا بما استودعوها من هذه  
الاسرار الثمينة

على ان أكثر ما وجدت في آثارهم من الصور ( غير الاوثان التي  
كانوا يعبدونها والحيوان الذي دخل في ملتهم بطريق التكريم الى أن  
صار له تعظيم يشبه أن يكون عبادة والعباد بالله من جاهلية الناس ) انما  
هو رسوم هيئات مختلفة للملوك وسوقة منهم تمثلهم في معاشهم وأعمالهم  
وفروض دينهم وصنائعهم وسائر أشيائهم وليس بينها صور تمثل أناسا  
غيرهم من الامم مثلما نرى في آثار الفرس الذين صوروا اليهود والنبط  
والكنعانيين والقبط والروم والهنود وغيرهم . فيظهر انه لم تكن لهم  
خلطة مع الامم ولا اتسمت لهم الفتوح في دولتهم اتساعها للفرس  
والروم من بعدهم . وكأنهم خلدوا الى السكون والدعة بما كثر لديهم من  
الخيرات وأغناهم مصرهم عما سواه من الامصار . وهذا مما يخالف طبائع

العرب الذين يطمحون بأبصارهم الى بلدان الخصب ليتوسعوا فيما لا تثمره  
باديتهم الجذبة من نعمة العمران

عود الى الحديث عن الرحلة . ثم ركبنا من دندرة الى قوص من  
البر الشرقى وهى من أعظم مدائن مصر (١) فيها قبائل من عربان عدن  
وغيرهم (٢) وليس بمصر أرض يسكنها العربان الا قوص واسوان  
وجهات بلبيس (٣) وربما كانوا في اسوان أكثر منهم في بادية قوص اذ  
كان يمازجهم فيها قبائل من قريش وقحطان ونزار بن معد من ربيعة  
ومضر (٤) وليس هذا أول عهد العربان بمصر فقد أنبأت الاخبار السالفة  
(٥) انهم غزوها في عهود الفراعنة الاولين واستقروا بها زمنا فيما لا كفاء  
له من عز الدولة ونفوذ السلطان . وقوص هذه المدينة فرضة التجار اليمنيين  
والمصريين والحبشيين وفيها جبال وحجارة يجرى فيها النيل من غير أن  
يكون ثمت سبيل لجريان السفن عليه (٦) وهى المعروفة بالجنادل  
والصخور) فتنتقل بضاعات المسلمين الى مراكب الحبشة وتنقل بضاعات  
الحبشة الى مراكب المسلمين فوقع فيها العمران من هذا القبيل باجتماع  
التجار فيها وتوارد الحجاج اليها في ذهابهم وايابهم على مراكب النيل .  
ولما انفصلنا عن قوص ابتدأت صحراء عيذاب بالامتداد وهى

(١) المقرئى ٢٣٦\*١ وابن بطوطة ١\* ١٠ (٢) تقويم البلدان ١١١ (٣)

المقرئى ٨٠\*١ (٤) المسعودى ١\* ١٩١ (٥) المسعودى (٦) المسعودى ٤٧\*١

مفازة قاحلة لاعمارة فيها ألبتة فكنا نبیت فيها حيث جن الليل علينا  
 (١) ثم نفرز الى ورود الماء على آبار أو مناهل نكاد أن لا نترك فيها  
 جرعة ماء بعد سقاية دوابنا وكنت اذا أصابنا رقدة من حر أجلس في  
 هودج على ظهور الجمال وأرخی علیه الاستار محر كالهواء فيهن علي احتمال  
 عنتها الشديد . الا أن صحبي من لدن السلطان كان يبرح بهم العطش  
 ويجهد دوابهم في الايام الآتة لان السموم كانت تنشف المياه في الاسقية  
 فكانوا يحتالون لذلك بأن يستصحبوا أبرة فارغة من الاحمال ويعطشوها  
 قبل الورد ثم يوردوها على الماء نهلا وعللا حتى تمتلأ اجوافها ثم يشدوا  
 أفواها كيلا تجتر فتبقى فيها الرطوبة فاذا نشفت الاسقية نحرنا بضعة  
 أبرة من هذه الجمال وسقوا خيلنا بما في بطونها (٢) وفي هذا من المشقة  
 ما لم ينزل بنا أشد منه في جميع ما طرقناه من البلاد ولم نزل في مكابدة عنائه  
 الشديد وقد أضر بنا الحر وأخذ منا مأخذه حتى سهل الله وصولنا  
 بالسلامة الى عيذاب والحمد لله على جميل ما أولاه . حمدا يبلغ رضاه .  
 ويستفيض النعمة من علياه

وهذه المدينة هي آخر بلاد مصر (٣) وعاملها مفوض من لدن الليث  
 ابن الفضل اليبوردي وهي موسعة باسباب الكسب من الحجاج الا  
 ان مبانيها أشبه بيوت القرى منها بيوت المدن (٤) وكل ما فيها مجلوب

(١) ابن جبير ٦٣ (٢) القزويني ١٢ (٣) ابن جبير وابن بطوطة ١٠٩٥١

(٤) تقويم البلدان ١٢١



اليها حتى الماء (١) وليس لاهلها حرفة للتعيش الا تعمير سفن للحجاج يسمونها  
الجلبات واحدها جلبة وهي ملتفة الانشاء ولا يستعملون فيها المسامير  
وانما يخيطون الاخشاب بالليف ويتخللونها بدسر من عيدان النخل ثم يطلونها  
بالشحوم والنورة (٢) فتستمر عرضة للخطر وآفة لحجاج البيت يفرق  
الكثير منهم بسببها في بحر فرعون ذى الاهوال الموصوفة (٣)

ولما اخذت فيها نصيبا من الراحة ركبت البحر ثلاثة ايام الى جدّة  
من ساحل اليمن وهي قرية كبيرة تجتمع فيها مراكب الحجاج وفيها آثار  
كثيرة تدل على قدم اختطاطها وتنطق بأنها دخلت في ولاية الفرس. وفيها  
قبة مشيدة يقال ان موضعها كان منزلا لحواء عليها السلام ومسجد بناه  
عمر بن الخطاب رضى الله عنه وجامع بناه الرشيد منذ ثلاث سنين (٤)  
وهو أحفل بناية في المدينة فكثت فيها بقية النهار ثم ركبت عنها تحت  
الليل الى القرين وهو محط رحال الحجاج (اسراعا في موافاة الرشيد بالمدينة  
المنورة على ساكنها أفضل السلام وأزكى التحية اذ كنت علمت بركوبه  
اليها من مكة في صباح اليوم الذى وصلت فيه الى جدّة) فبلغته في جوف  
الليل ثم سررت منه الى مكة المكرمة مهوى الافئدة الصالحة فقضيت  
الواجب من زيارة المشاعر المباركة وابتهلت الى الله تعالى في موضع

(١) المقرئى ٢٠٣\*١ (٢) ابن جبير ٦٨ والمسعودى ٧٨\*١ (٣) المقرئى

٢٠٣\*١ وابن جبير ٧١ (٤) أي سنة ١٨٣ للهجرة وقد ذكره ابن جبير ٧٣

استجابة الدعاء (١) من البيت العتيق والحمد لله عز وجل على أن شرفنا  
بالوفادة على هذا البيت الكريم

﴿ في ذكر المشاعر المباركة ﴾

أما مكة شرفها الله فانها بطن واد (٢) بين الجبال تسع من الخلق  
مالا يعلمه الا الله سبحانه (٣) لان الحجاج الوافدين اليها قد يزيدون عن  
مئتي ألف في الموسم اذ كان الحج مفروضا على المسلم المستطيع في العمر  
مرة لقوله تعالى « والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » (٤)  
فلو قدرنا في عدد الرجال ثلاثين ألف ألف وقد رنا العمر أربعين سنة  
لاقتضى أن يكون نصيبها منهم في كل سنة اكثر مما ذكرنا ممن  
يحج اكثر من مرة في زمانه ويقال في اجتماع الناس اليها من جميع  
الاطراف انه لو جمع بها ما يباع ويشترى من السلع والمآكل والبضاعات  
في ثمانية أيام بعد الموسم لاقام الاسواق (٥) في العراق كله وعم كل واحد  
من أهله نصيبه من حاجته .

ولها كرمها الله تعالى ثلاثة أبواب اولها باب المعلى (٦) وهو الى الشرق  
الشمالى ومنه يذهب النهاب الى الحجون وهو جبل باعلى مكة له ذكر  
في الاشعار وفيه صلب الحجاج بن يوسف قبجه الله جثة عبد الله بن الزبير

(١) ابن بطوطة ٣٠٠\*١ وابن جبير ٨٠ (٢) ابن بطوطة ٣٠٣\*١ وتقويم

البلدان ٨٧ (٣) ابن جبير ١٠٨ (٤) سورة آل عمران (٥) ابن جبير ١١٩ (٦)

ابن بطوطة ٣٠٤\*١ وابن خاسكان ٣٩٨\*١

لما غلبه على الخلافة التي كان يناصب عليها الامويين . ثم باب المسفل وهو الى الجنوب ومنه دخل خالد بن الوليد يوم الفتح . ثم باب العمرة وهو الى الغرب على طريق الشام وأمامه جبال مكة قد مثلت بلا ارتفاع وكأنها أهوت تواضعا لبيت الله . أشهرها جبل حراء وهو الذي اهتز حين كان فوته النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما فقال له اثبت حراء فما عليك الا نبي وصديق وشهيد (١) وكان صلى الله عليه وسلم يختلف اليه ويتعبد فيه وعليه نزلت أول آية من القرآن الكريم وهي قوله تعالى اقرأ باسم ربك الذي خلق (٢)

وكفى هذه البلدة شرفاً أن بناها آدم عليه السلام (٣) وهبط اليها جبريل الملك الكريم ونزل فيها الوحي على النبيين وخصها الله بالشاهد المباركة والمواقع التي هي معدن الطهارة ومظهر نور الملائكة مما ليس مثله في جميع العالم . فما تبركت بزيارته من مواضعها الميمونة محل مولد النبي صلى الله عليه وسلم وقبة الوحي (٤) التي فيها نبى النبي صلى الله عليه وسلم بخديجة أم المؤمنين رضى الله عنها والموضع الذي كان يقعد فيه سيد ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم تبركت بلمسه وتقبيله وزرت دار أبي بكر ودار جعفر بن أبي طالب ذى الجناحين ودار الخيزران التي قدمت لك ذكرها في الرسائل السالفة وهي على باب زقاق الخيزران بمقربة من القصر

(١) ابن جبير ١١٢ (٢) المسعودى ٣٠٧\*١ و ابو الفداء ١١٧\*١ (٣) وربما

لم يجد ابن خلدون خبراً صحيحاً كما في المقدمة ٣٠٦ (٤) ابن جبير والازرقى

المعروف بمنزل الابجر (١) وكنت أحب أن أزور المشاهد المباركة التي في الجبال  
والغار الذي آوى اليه النبي صلى الله عليه وسلم المسمى بغار ثور (٢) الوارد  
ذكره في القرآن ولكن لم يتيسر لي ذلك لقصر الوقت معي فيما لم يتيسر  
لي مزاره من المواضع الميمونة التي هي في نفس البلدة

وأما البيت الحرام فقد بناه ابراهيم عليه السلام حضين الملائكة  
لقوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل (٣) وقد أخذ  
الناس في تعظيمه والحج اليه من الجاهلية والفرس والعماليق والتبابعة  
وغيرهم ممن دناونأى ثم صارت الولاية عليه بعد ولد اسماعيل الى جرهم  
وكانت سدانة البيت ومفاتيحه معهم والى ذلك يشير مضاض بن عمرو بن  
الحارث الجرهمي بقوله (٤)

وكنا ولاية البيت من بعد ثابت      نطوف بذلك البيت والامر ظاهر  
كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا      أنيس ولم يسمر بمكة سامر  
ثم صارت ولايته الى خزاعة ثم الى قريش بعدهم وكانت صورة ابراهيم

(١) الاغانى ٣\*١١٦ (٢) ابن جبير والانس الجليل (٣) المقدمة ٣٠٦  
والمسعودى (٤) الاغانى ١٣\*١٠٨ و ابو الفداء ١\*١٢٠ وابن جبير ١٠٩ والعقد  
الفريد ٣\*٢٧ وفي مروج الذهب ١\*٢٠٣ انه ثابت بن اسماعيل وليل في احدى  
الروايتين أو كليهما تحزيفا وفي هذه القصيدة بيت آخر مشهور وهو قوله  
فألفت عصاها واستقر بها النوي      كما قر عينا بالاياب المسافر  
وفي العقد الفريد ١\*١٣٩ ان راشد بن عبد الله أنشد هذا البيت وكان في زمن  
النبي صلى الله عليه وسلم

واسماعيل مائة (١) فيه لأيامهم فاحسنوا ولايته وجددوا بناءه كما أشار  
الى ذلك زهير بن أبي سلمى في قوله  
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوّه من قريش وجرهم  
ثم صارت ولايته بعد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم الى عبد الله بن  
الزبير رضى الله عنهما فنزع عنه كسوته المسوح والانطاع وكساه الديباج  
الملون واتخذ له المفاتيح وصفائح الابواب من الذهب وكان يطيبه حتى  
يوجد ريح المسك من خارج الحرم (٢) فلما رماه يزيد بن معاوية بالمنجنيق  
بعث الى صنعاء في الفضة والكاس فحملها ثم شرع في البناء على أساس  
الخليل ابراهيم عليه السلام فما كاد يستكمل بناءه حتى وفد الحجاج لقتاله  
بعد يزيد وحاصره بالزحوف والترامى وأحرق مكة ورماها بالمنجنيق  
حتى تصدعت جدران الكعبة نسأل الله السلامة من شرور الانفس  
وسنيئات الاعمال فكتب اليه عبد الملك بن مروان أن يعيد بناءها على  
الصفة التي بنتها عليها قريش (٣) في أيام النبي صلى الله عليه وسلم قبل  
النبوة (٤) فبناها على ذلك الرسم وهي باقية عليه الى أيامنا .

وهذا البيت المكرم مبنى بالحجارة الصماء السوداء مفروش بالرخام  
المجزع وفيه عمدة ضخمة من الساج وسقفه مغشى بالحرير الملون وهو  
قريب من التربع ونصفه الأعلى من الفضة المذهبة (٥) وله أركان أربعة

(١) المسعودى ٣٠٥\*١ (٢) الابشهي ١٥٥\*١ (٣) المقدمة ٣٠٧ (٤) ابوالفداء

أولها الركن الشرقى الذى فيه الحجر الاسود . ومنه ابتداء الطواف ولا يدرى قدرا استتر من الحجر فى الركن (١) وسعته الظاهرة ثلثا شبر وطوله شبر واحد وقد وضعه النبي صلى الله عليه وسلم بيده (٢) على ما هو معروف عند الكل ثم الركن العراقى وهو شمالى . ثم الركن الشامى وهو غربى . ثم الركن اليمانى وهو جنوبى . وارتفاع هذه الاركان ثمانية وعشرون ذراعا الا الركن الشرقى فانه يزيد عنها ذراعا فى الارتفاع (٣) لانصباب السطح الى الميزاب (٤) وطول الكعبة سبع وعشرون ذراعا (٥) وبابها فى الصفح الذى بين الركن العراقى والركن الشرقى على أحد عشر شبرا من الارض وهو من الساج الملبس بالفضة والذهب المنقوش (٦) وطوله ست أذرع وزيادة وعرضه أربع أذرع وهو قريب من الحجر الاسود ويسمى ما بينهما الملتزم وهو موضع استجابة الدعاء يتزاحم الناس فيه عند طوافهم بالبيت بحيث لا يخلو منهم ساعة من نهار أو ليل وقد أخبرنى أمير مكة انه لا يوجد من يخبر انه رآه خلوا من طائف به أو مصلّ وأخبرنى وهو غاية ما يكون من احترام الدين وشعائره المقدسة ان فى مكة من الصالحين من لم يدخل الكعبة تعظيما لها (٧) اذ كانت أول بيت وضع للناس فيه آيات بينات « مقام ابراهيم » ومن دخله كان آمنا .

(١) ابن بطوطة ٣١٣٥١ (٢) المسعودى ٣٠٥٥١ (٣) ابن بطوطة ٣٠٧٤١

(٤) ابن حبير ٨٠ (٥) الكنز ١٢١ (٦) المقد الفريد ٣٥٩٤٣ (٧) القزوينى ٧٧

وفي الركن العراقي المذكور باب يسمى باب الرحمة ينتهي بالراقي  
 عليه الى سطح البيت وتحتة قبو فيه حجر مغشى بالفضة (١) تبركت  
 بزيارته ولمسه وهو مقام ابراهيم الخليل عليه السلام وتحت الميزاب المذهب  
 في صحن الحجر قبر اسماعيل عليه السلام وموضعه رخامة بل رخامتان  
 خضراوان فيهما نكت تميل لونهما الى الاصفرار (٢) حتى يخيل للناظر  
 ان ذلك تجزيع بايدي الصنائع والى جانبه مما يلي الركن العراقي قبر هاجر  
 أم اسماعيل عليه السلام وموضعه رخامة خضراء أيضا . وفي مقابلة ركن  
 الحجر الاسود الميمون قبة بثر زمزم (٣) وهي البئر التي شرب منها الخليل  
 عليه السلام (٤) وداخلها مفروش بالرخام وعمتها فيما يقال احدى عشرة  
 قامة أربع فضاء وسبع ماء وماؤها لمن شربه كما ورد عنه « طعام طعم  
 وشفاء سقم . »

أما الحرم فانه يحدق بالبيت العتيق من جميع جهاته وهو قائم على  
 عمد من الرخام (٥) وله صوامع سبع أكبرها في دار الندوة (٦) وأصغرها  
 على باب الصفا وهو أكبر أبواب الحرم ثم بعده باب السلام وباب السدرة  
 وباب الندوة (٧) وشاهدت في بعض مقاصير الحرم الشريف مصحفا

(١) الماوردي ٢٧٨ (٢) ابن جبير ٨٦ (٣) تقويم البلدان ٨٧ والشريشي

١١٤٥٢ (٤) في العقد الفريد ٣٦٠\*٣ ان سقفها قبو مزخرف بالنسيفساء على أربعة

أركان تحت كل ركن منها عمودان من رخام متلاصقان (٥) في العقد الفريد ٣٥٨\*٣ ان بين

كل عمودين نحو عشرة أذرع (٦) ذكرها الاتليدي ٧٦٠ (٧) ابن جبير ٨٩ والكثير ١٠٣

بخط زيد بن ثابت الانصارى (١) نسخه بأمر عثمان بن عفان رضى الله عنه سنة ثمان عشرة للهجرة كما تقدم بيان ذلك ولا أدري فى أى موضع كان قبل أن يوضع هناك لانه لم يكن للحرم فى تلك الايام جدار وانما كان موضعه دور (٢) لم تتم زيادتها فيه الا فى خلافة الوليد بن عبد الملك كما انه لم يتم بناؤه على ما هو اليوم الا فى خلافة المهدي رحمه الله وهو الذى زينته بالرسوم (٣) وكتب اسمه فى مواضع كثيرة منه تبركا بالخير الذى صنع . ومما كتب على سارية خارج باب الصفا « أمر عبد الله محمد المهدي أصاحه الله بتوسعة المسجد الحرام مما يلي باب الصفا لتكون الكعبة فى وسط المسجد فى سنة سبع وستين ومائة »

﴿ موافاة الرشيد بالمدينة ﴾

وكان انفصالى عن مكة المكرمة لسبع بقين من ذى الحجة . ومررت فى طريقى الى المدينة المنورة بمنازل عربان لم يتغربوا بالأسفار . ولا سبق لهم عهد بحضارة الامصار . فوجدتهم (٤) يقولون بالقيافة والزجر والعنقاء والبومة التى تأخذ بشار المقتول وغير ذلك مما كان يقول به أهل الجاهلية وبلغنى أن بجوارهم عربانا لم يدخلوا فى دين الاسلام لا يختلفون عنهم الا بتعظيم عيسى عليه السلام وينطقون بالجيم كافا مخففة فينادون الرجل

(١) الكندي وابن جبير ١٠٢ (٢) المقدمة ١٠٨ (٣) ابن الاثير والحميس

٣٣٠\*٢ وابن جبير ١٠٧ (٤) راجع مروج الذهب والاعانى وتزيين الاسواق



ياركل (١) فوصلت من مكة الى بطن مرّ (٢) وهو واد خصيب ذوعين فوارة ثم عطفت منه الى عسفان وهي مدينة تحف بها الجبال وفيها كثير من شجر المقل وآبار منسوبة الى عثمان بن عفان (٣) رضى الله عنه ثم ركبت الى الخليص وهو موضع في بسيط من الارض وفيه خيام لقبيلتين كبيرتين من العرب يقال لهما كنانة وخزاعة وهم متقاربون في المنزل وبينهم نسب لم ترم فيه العصا (٤) ثم امتد بنا السير من خليص الى بدر وهي قرية كثيرة الخيرات كانت بازاء موضع من مواضعها يقال له القلب وقعة النبي صلى الله عليه وسلم المباركة التي اعز الله تعالى بها الدين وقهر المشركين (٥) ثم اقلعت الى الصفراء في صدر النهار وهي تبعد عن بدر بریدا ثم الى الروحاء وهي موضع بئر يقال في الحكاية أن عليا عليه السلام قاتل فيها الجان (٦) ثم رحلت أفوز في الهضاب والبطاح حتى اقبلت على المدينة المنورة حرسها الله وزادها شرفا بمنه وكرمه .

وبعد أن تبركت بزيارة المسجد المكرم وصايت في الروضة التي بين القبر المقدس والمنبر الذي كان موطن الرسول صلى الله عليه وسلم ركبت الى قصر الامارة حيث حلت ركاب الرشيد فاصبته في مجلس يشبه أن يكون من مجالس قصر له في بغداد يقال له قصر الفرجة وهو مزخرف

(١) الاغنى ١٣٩٥٩ (٢) تقويم البلدان ٩٤ وابن جبير ١٨٥ (٣) ابن جبير ١٨٦ والازرقى (٤) تزيين الاسواق ١١٤ (٥) ابن الاثير وأبوالفداء وابن جبير ١٨٩ والفزوينى ٥١ (٦) ابن جبير ١٩١

بالصدف (١) الابيض وفيه كتابة بالصدف الاحمر والاخضر كأنها لعين  
الناظر يا قوت وزبرجد (٢) فلما وقفت بين يديه بادرنى بالسؤال عن أمر  
الرسالة وما كلمنى به الا بزرور فأخبرته بما توسم في غايتها من الخير وما  
وجدت في البلاد من عدل العمال ودعائهم له في مساجد مصر والغرب  
وذكرت له من كلام الفيصر ما اقتضته جلالة الخلافة فشكرنى على حسن  
القيام بهذه المهمة ولكن من غير أن يظهر اليّ ذلك الصفاء الذى كان  
يشرفنى به من قبل . ولما أذن لى بالانصراف ذهبت الى موضع البرامكة  
فوجدت فى نفوسهم ما وجدت فى نفس الرشيد ليس من تجافيهم اليّ عن  
المصافاة بل من ادمان فكرتهم فى أمر ظننت انه وقع بينهم وبينه فى  
المشاعر المباركة بحيلة المدالسين . التى تصادف محلا فى قلوب العباسيين .

هذا ختام رسالتى اليك عزى ر- التى الى الفيصر وأحب قبل أن  
أفارق هذه المواطن المقدسة أن أذكر لك شيئا عن المدينة المنورة تبركا  
بذكره فأقول . انى وجدت المسجد المكرم قائما على أعمدة من الحجارة  
اللامعة وسقفه من الساج المزين بالرسوم (٣) وجدرانها منزلة بفصوص  
من الفسيفساء (٤) تمثل أشجارا وثمارا وأزهارا بأبداع ما يكون من  
الصناعة وهى من عمل الروم والقبط (٥) فيما رسم لهم عمر بن عبد العزيز  
بأمر الوليد بن عبد الملك (٦) ووجدت الروضة التى تجاور القبر المقدس

(١) المقدمة (٣٥٧، ٢) ابن خلكان \* ٣٨٣ (٣) ابن جبير والسيوطى (٤) العقد الفريد

\* ٣٦٢ (٥) القزوينى (٦، ٧١) ابن الاثير \* ٤ وأبو الفداء \* ٢٠٩ وابن بطوطة \* ٢٧١

مؤذرة الى ثلثها برخام بديع النحت غريب النعت وأعلها مضمخ بالمسك  
والطيب (١) ورأيت القبر المقدس مبنيًا برخام يقال انه من عمل وردان (٢)  
وعلى رأسه صندوق من الابنوس مختم بالصندل مصفح بالفضة طوله  
خمسة أشبار في ارتفاع أربعة وعرض ثلاثة . والى طرف القبر مما يلي  
أقدام النبي صلى الله عليه وسلم رأس أبي بكر أما عمر بن الخطاب فمدفون عند  
رجلي أبي بكر رضى الله عنهما وعليهما قناديل من فضة وذهب (٣) وبين  
الركن الجوفي والركن الغربي من المسجد موضع عليه ستر مسبل يقال  
انه مهبط جبريل (٤) عليه السلام

أما المدينة المنورة فانها بمكان من العظم والاتساع وتدل تسميتها  
بيثرب بن وائل من ولد سام (٥) بن نوح مع ما هو فيها من الآثار العتيقة  
على قدم اختطاطها وعلو شأنها بين مدن الحجاز . ولها أربعة أبواب  
أعظمها باب الحديد وهو من الحديد (٦) ثم باب البقيع حيث الآثار  
المذكورة والمشاهد المباركة الميمونة (٧) وفيها قصور ليس فيما نقله السفر  
المخبرون أعظم منها في ديار العرب وأعظمها قصر للمقداد بن الاسود  
في الموضع المعروف بالجرف (٨) وهو مخصص الظاهر والباطن (٩) وقصر  
لعثمان بن عفان مشيد بالحجر والكاس وأبوابه من الساج والعرعر (١٠)

(١) ابن جبير ١٩٢ (٢) الاغانى ١٧\*٨٤ (٣) ابن جبير وابن بطوطة ١\*٢٦٤ وتقويم  
البلدان ٨٧ ٤ ابن جبير ١٩٣ (٥) الاتقان في تفسير القرآن ٢\*١٦٧ (٦) ابن جبير ٢٠٠ (٧)  
ابن بطوطة ١\*٢٦٨ (٨) المسعودى ١\*٣٣٣ (٩) المقدمة ١٧٨ (١٠) المسعودى ١\*٣٣٢

وفيها مشاهد كثير من الصحابة والتابعين والانصار وأهل البيت الكريم  
شرفهم الله تعالى (١) وقد زرت منها قبر السلالة الطاهرة ابراهيم بن  
النبي صلى الله عليه وسلم وقبور أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده  
ومشاهد أولاد علي عليه السلام وموضعها رخامة مكتوب عليها (٢)

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« الحمد لله مبيد الامم . ومحبي الرمم . هذا قبر فاطمة بنت رسول الله  
صلى الله عليه وسلم سيدة نساء العالمين . وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب  
رضي الله عنهما وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ومحمد بن علي وجعفر  
ابن محمد رضي الله عنهم أجمعين » . فيا لها من قبور ما أشرفها وأكرمها .  
والى مقربة من المدينة المنورة موضع يقال له قباء (٣) وفيه كان  
مبرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم وموضعه المسجد المبارك الذي أسس  
على التقوى والرضوان (٤) وفي صحته شبه محراب علي مصطبة يقال انه  
أول موضع ركع فيه (٥) النبي صلى الله عليه وسلم وفي قبته بئر معروفة  
ببئر أريس يقال ان النبي صلى الله عليه وسلم تفل فيها فعاد ماؤها عذبا  
صافيا بعد أن كان آجنا أجاجا وفيها سقط خاتمه صلى الله عليه وسلم من  
يد عثمان بن عفان رضي الله عنه . هذا بعض الخبر عن المشاعر المباركة

(١) ان جبير ١٩٧ و ١٩٩ والمسعودي ١٨٢\*٢ (٢) ابن جبير ١٩٨ (٣)

ياقوت وتقويم البلدان (٤) أبو الفداء ١٣٠\*١ (٥) ابن جبير ١٩٩

والمواطن المقدسة والقليل دليل على الكثير . وقد خص الله تعالى تلك  
البقاع المباركة من الشرف والتكريم بما لم يخص به غيرها من البلاد .  
وهو مالك الملك لا رب غيره ولا معبود سواه .

﴿ الرشيد والبرامكة في مكة ﴾

هذا ذيل للرسالة اكتبه اليك من ظاهر الحيرة وأنا منفصل عن  
البرامكة في كتاب أحمله الى الرقة من لدن الرشيد لاعلمك بما هو واقع  
بينه وبينهم من الامر العظيم . كان انفصالنا عن المدينة المنورة في غد  
اليوم الذي كتبت فيه هذه الرسالة وعلمت فيما نقل الى أبو زنج  
الهمداني صاحب جعفر (١) أيده الله أن الرشيد انما تحول على البرامكة  
خوفا من ميل الناس اليهم بما وسعوا له من الجود والكرم فانه كان  
اذا جلس في مكة للمطاء جلس معه يحيى فأعطى مثل عطاءه واذا جلس  
الامين جلس معه افضل فأعطى مثل عطاءه واذا جلس المأمون جلس  
معه جعفر فأعطى مثل عطاءه ثم استرسلوا هم وأولادهم من بعد في  
سعة الهبات حتى ذهبت أعطياتهم مثلا بين الناس فانصرفوا عن مدح  
الخليفة الى صوغ الشعر في مدحهم على الكرم وكانوا يقولون والله هذا  
عام الاعطيات (٢) وينشدون

اذا نزلوا بطحاء مكة أشرفت      يحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر  
فما خلقت الا لجود أكفهم      وأقدامهم الا لأعواد منبر

فأحدث ذلك في نفس الرشيد غيظاً من تمام النعمة عليهم وانطلق المجال  
 لاختصاصهم من آل الربيع فيما كانوا يرتقبون من فرصة تهويل أمرهم على  
 الرشيد فخوّفوه استتقوا بهم بالمال والرجال واستعانوا برقعة من الشر  
 رفعوها اليه وزعموا انها تدور بين الناس وفيها هذه الايات (١)  
 قل لامين الله في أرضه      ومن اليه الحل والعقد  
 هذا بن يحيى قد غدا مالكا      مثلك ما بينكما حد  
 أمرك مردود الى أمره      وأمره ليس له رد  
 وقد بنى الدار التي ما بنى الـ      سفرس لها مثلاً ولا الهند  
 الدرّ والياقوت حصباؤها      وتربها العنبر والند  
 ونحن نخشى انه وارث      ملكك ان غيبك اللاحد

فأدخلوا عليه الخوف منهم على ساطانه . فاستدعى من كان بمكة من بني  
 هاشم وبعث الى المدينة يستقدم أهل الحل والعقد وجدد البيعة بحضرتهم  
 للمأمون بعد الامين وكتبها من بعدهما لحمد القاسم ولقبه بالمؤمن .  
 فصير ولاية العهد الى ثلاثة من اولاده يتعاقبون فيها كما قالت الشعرا في  
 مديحهم له (٢)

أبو امين ومأمون ومؤتمن      أكرم به والدآبراً وما ولدا  
 ثم انه ولي المأمون خراسان وهمدان الى آخر المشرق وأحضر القضاة  
 والشهود وأشهدهم ان جميع ما في عسكره من الاموال والخزائن والسلاح

والكرع وغير ذلك للمأمون وليس له فيه شيء (١) وضم إلى القاسم الجزيرة والثغور والعواصم وفرق في الناس نحواً من ألف ألف دينار (٢) ليظهر اقتداره على العطاء الكثير ويحط من قدر البرامكة ما وقع في نفوس الناس من انفرادهم بسعة العطاء دون غيرهم من خائفة أو سلطان. وهو يظن أنه يفعل هذا أمناً لمكروهه من ناحيتهم ورداً للمكيدة خافها من وراء ما كانوا يعارضونه من قبل في قسمة الملك بين المأمون والمؤمن. مع أنهم إذا لم تجر لهم موافقة على هذه القسمة فلم يكن ذلك إلا حجاباً به ومنعاً لوقوع الشقاق بين أولاده

وكان معاً في قلبه من الموجدة يصانهم ويوهم استرسال نفسه إليهم حتى لا يفطنوا إلى ما يريد بهم من المكروه فإذا جلسوا إليه أظهر الرضى عنهم وأقبل بالعاطفة عليهم ليوهمهم أن الأمر على ليالي الجلاء. فكان يعرفهم ذلك منه إلا جعفرًا حفظه الله لأنه كان أعلم الناس بما في نفسه من حب الأثرة حتى إذا أهداه مسروقاً غلامه (٣) قال لي والله إن في إهدائه إلى هذا الغلام حيلة لم يخف على أمرها. فانه يوهمنا برضاه حتى لا نظن به سوءاً فيما داخله من الحسد... وقد أخبرني جبريل بن يحنثشوع أن الرشيد إنما تحول عليهم بمحل الفضل بن الربيع الذي كان يذكر له ما على بابهم من الجيوش والاعوان ويخوفه استقوائهم في فارس وخراسان وتعميرهم خطط الدولة بمن يعرفون فيه حجاباً لأهل البيت ويشكهم لديه

(١) ابن الأثير ٦٨٠ (٢) ابن الأثير ٦٢٠ (٣) الأغاني ١٤٠٣ والآن يدي ١٦٨

باحتيال مال الجباية (١) وتصرفهم في الامور بما يشاؤون والملوك لا تصبر  
 على مثل ذلك فأوغر صدره خوفا منهم بعد ان ملأ قلبه عداوة لهم (٢)  
 هذا ما اتصل بي في مكة من أمر الرشيد بالبرامكة (٣) وقد تحول  
 عليهم لأمرين لا أرى له مندوحة في أحدهما . فأما استفحال ملكهم في  
 الاسلام وتزلف الملوك اليهم بالهدايا الفاخرة والاموال الطائلة فانه غير  
 مضر بالرشيد وله بهم سند للدولة وفخر في الملة الا ان يكون ضعيف  
 البصيرة فآثر الهمة وقد مضى لهم من تعظيم شأنه وتقويم سلطانه ما يشهد  
 بان سيفهم خادمٌ لنصره . وأما وفور المال تحت أيديهم وانبساط الجاه  
 لديهم وكثرة الضياع عندهم فذلك لهم بعد ان تولوا المراتب خمسين سنة  
 في الوزارة والولاية وقيادة الجيوش وليس فيه في من أموال المسلمين  
 كما يزعم الواشون بهم الى السلطان فكان أولى بالرشيد وأكرم لنفسه  
 أن يذكر بلوغه المجد والصولة بهم لا ان يدب فيه الطمع ويمد عينه الى  
 ما أدخروا والولدهم بعد ان دبّروا دولته هذا التدبير العظيم

ولما اجتمعت بالبرامكة بعد ذلك وخالوت بجعفر النفس الزكية علمت  
 مقدار النفرة التي وقعت بينه وبين الرشيد . فقال لي جعفر انظر كيف  
 انه يركب هذا المركب الوعر . ما كفاه اننا اقمنا ملكه ومهدنا أمره حتى  
 صار يحسدنا على ما آتانا الله من النعمة فوالله لئن لم يرجع عن غيه ليكون

(١) المقدمة ١٤ (٢) ابن الاثير ٦٢\*٦ (٣) في الاغانى ١١٣\*٥ ان الناس

كانوا يتخذون بتحويل الرشيد على البرامكة قبل نكبتهم بأيام



ذلك وبالاً سريعاً عليه (١) فقلت ياسيدي ليس للرشيد عنكم مرغب  
ولا أذنه يحرم دولته من عنايتكم فقال تمهل عن نفسك ان لنا فارس  
وخراسان فان يجاهرنا بالعدوان يقم في وجهه من يغالبه على السلطان .  
فلما رأيت ما بنفس جعفر من التأير أخذت في تهدئة خاطره وقد كنت  
أعرفه سريع الرجوع من غضبه فلم يهدأ نأثر صدره وانما أدمن الفكرة  
فيما يشغله من القلق وأمرني بان لا افارق بابه في ذلك الوقت

وكان الفضل بن الربيع لا يفتر عن السعاية به الى الرشيد ساعة من  
ليل أو نهار ويخوفه منه التحمل في مؤامرة جارية بينه وبين الفرس فكان  
الرشيد يحتمل باستبقاء جعفر عنده والميل اليه بتصنع من العاطفة ليوهمه  
زوال ما بنفسه من الموجدة وكان جلوسى اليه في ذلك الوقت قد أفلقه  
كل القلق فرأى ن يفصاني عن البرامكة بوجه لا يرد على الملوك بان  
يوجهني الى الرقة في كتاب من لدنه الى عاملها وهو يقول لي ان بنا من  
جميل الاعتماد بك ما نرتاح الى أنفاذك برسائلنا فكن عند رجائنا فيك  
فادركت الحيلة من ذلك الامر ولكن أشار الى البرامكة ان لا أخالف  
أمره حتى نطمع في حسن النجاح ونحصل من المراد بما تم عليه العزم من  
أثارة خراسان والناداة بخلافة أهل البيت .

فانفصلت عن البرامكة بالحيرة في اليوم الذي نزل الرشيد فيه السفن  
الى العمر الذي بناحية الانبار (٢) وكان الرشيد قد غلب عليه الخوف في

ذلك الوقت حتى كان اذا تناول الطعام يخشى أن يكون فيه سم (١)  
 فاستبقى الاطباء على مائدته ممن كان مخالف للبرامكة الاجبريل بن بختيشوع  
 (٢) وقد طوى عنه سرما عزم عليه من اقصائهم عن المراتب الا كلمة  
 حسد قلها له حين رأى اقبال الملوك على بابهم (٣) وأنا اليوم أسير  
 الى الرقة سيراً حيثما حتى لا يفوتني الرجوع الى بغداد قبل وصول جعفر  
 بموكب الحجاج .

الرسالة العاشرة

﴿ أصبت بسادة كانوا عيوناً بهم نسق اذا انقطع الغمام ﴾  
 اكتب هذه الرسالة اليك والدمع جارفي الآفاق ليس على البرامكة وهم  
 احياء في الناس ولكن على الدنيا التي ذهب خيرها وعفت البلية رسوم  
 محاسنها حتى كأنها طلل من هذه الاطلال التي يهجرها الأتس ولا يقف  
 عندها الا الباكون النادبون .

كنت قبل الوصول الى الرقة قد وافاني من قبل البرامكة رسول  
 يستقدمني اليهم ويعلمني أن الكتاب الذي أحمله الى عاملها يأمره فيه  
 الرشيد بان يستبقيني عنده ويعنني من الرجوع الى الحضرة لما داخله في  
 من الرية نفضت الكتاب فوجدت فيه تلك الاشارة فأصابني من  
 الانقباض ما يصيب الرجل المستسلم لاجين لاني ما كنت أراني ناجيا من

(١) المسعودي ٢١١\*٢ (٢) ذكر ابن خلدون في المقدمة ١٦ أنه كان ينظر

في طعام الرشيد (٣) الاتيدي والنفخري

وقوع الغدر بي ووصول المكروه الي . ووقفت أتساءل فيما قام بنفس  
 الرشيد من سوء المظنة بي بعد ان أدت رسالته حقها من الاخلاص  
 وخدمته خدمة الناصح الامين فلم أجد على نفسي علةً عندد الامودة .  
 التي بيني وبين البرامكة (١) فاتاني ان انضم اليهم فقامت لساعتي وتبدلت  
 زبي بزى الحجاز الجاف ثم ركبت الي بغداد متكررا كيلا يعرفني أحد  
 من الناس .

فلما وصلتها وجدت في أهلها ذلك الخمول الذي يقع في الجماعة  
 من هول عظيم فاستدلت بذلك على وقوع الامر بينهم وبين الرشيد  
 فأسرت الي منزلهم فوجدتها مغلقة وعلى أبوابها حرس الخليفة قد وقفوا  
 بالسيوف فاسودت الدنيا في عيني وامتلأ قلبي من الوحشة وكدت أنقد  
 احساس رجلي من الجهد الا أنه لم يكن لي وأناطبة الخليفة أن أطيل الوقوف  
 تلقاء دورهم فرجعت أمشي على غير دراية لي لي أصادف صديقا أتوجع اليه  
 واستطلع أخبارهم من قبله حتى وصلت الي دار اسحق النديم (٢) فدخلت  
 الدار وحسرت اللثام عن وجهي فلما عرفني تفرقت عيناه دموعا وقال بم  
 أندب البرامكة أعزيك أم أعزي نفسي أم أعزي الأيام بتقدمهم وبكي  
 حتى خنقته العبرة وكنت في ذلك الوقت لا أعى من شدة الهول ولم يكن

(١) ذكره الاغانى ٢٥٥١ و ١٢٣٥٢ وقبض الرشيد على صنائع البرامكة ومن

هو مشهور بمخالطهم مذکور في كتب التاريخ (٢) في الاغانى ٥ أن اسحق بقى ميلا

مع البرامكة بعد مقتل جعفر

اسحق يكلمني عن أمرهم مع الرشيد الا كلاما متمطعا مزوجا بالزفرات ...  
 قد علمت مما مضى اليك في الرسالة السالفة موقف البرامكة مع  
 الرشيد هو يحاول الايقاع بهم حسدا على ما صار اليهم من النعمة وهم  
 يسلكون معه مسلك المودة ليرجع عما قام بنفسه من الخقد والا اثاروا  
 الخراسانيين خروجا عليه في دعوة أهل البيت . وعلمت أن الفضل بن  
 الربيع كان موقنا بزوال النعمة عنه مع بقاء البرامكة وانه كان يخوف الرشيد  
 مؤامرتهم مع الفرس ويذكر له أن الخلافة في موقف بعيد عن التخلص  
 من دهائمهم اذ كانت الملوك طوع أمرهم وأموال الدولة كلها بأيديهم  
 حتى ملأ صدره من عداوتهم . ثم علمت ان الرشيد كان قد أهداهم  
 مسروقا غلامه ليوهمهم رضاه ولكنك لم تعلم انه كان بينه وبين هذا  
 الغلام مواطاة على نقل أحاديثهم اليه وعدة أنفاسهم عليهم ومراقبتهم في  
 جميع حركاتهم خديعة منه حتى اذا نقل اليه الكلام الذي كان يحدثني به  
 جعفر في المشاعر المباركة عمد الى هدر دمه الزكي ووجهني الى الرقة أمثال  
 المجرمين الذين في نفوسهم تبعه من شر نعوذ بالله من سخطه .

وقد حدثني اسحق أن الرشيد كان قبل اليوم الذي نكبهم فيه قد  
 ركب الى أرباض المدينة ومعه اسماعيل بن يحيى الهاشمي وجماعة من أقاربه  
 وبينما هو يسير اذ نظر الى موكب عظيم قد اعترضه بالبعد فقال لاسماعيل  
 يا اسماعيل لمن هذا الموكب قال لاختيك جعفر فالتفت يمينا وشمالا الى  
 الى من معه فاذا هم شرذمة قليلون ثم نظر الى الموكب الذي فيه جعفر

فلم يره فقال يا اسماعيل ما فعل جعفر وموكبه فقال ياسيدي قدمضي أخوك  
 في طريقه ولم يعلم بموضعك فقال مارآنا أهلا لان زيننا بموكبه ويحملنا  
 بجيشه فقال عفوا يا أمير المؤمنين انه لو علم بموضعك ماتعداك ولا سار  
 الا بين يديك . ثم سار حتى انتهى الى ضيعة عامرة ومواش كثيرة وعمارة  
 حسنة فقال يا اسماعيل لمن هذه الضيعة فقال لاخيك جعفر فسكت الرشيد  
 وتنفس الصعداء ثم صار وما زال يمر بضياح بعضها أعمر من بعض وكلما  
 مر بضيعة سأل اسماعيل عنها فيقول هي لجعفر ولاخوته حتى وصل  
 الحضرة فلما خلا مجاسه قال يا اسماعيل انظر الى البرامكة أغنيناهم وأنقرنا  
 أولادنا وأهل بيتنا فاني لأعرف لأحد من أولادنا ضيعة من ضياح  
 البرامكة (١) على طريق واحد بقرب هذه المدينة فكيف بما هو لهم  
 من غير ذلك على غير هذه الطريق في جميع البلدان فقال اسماعيل يا أمير  
 المؤمنين انما البرامكة عبيدك وخدمك والضيعات وأمواهم وجميع ما  
 يملكون هولك فنظر اليه نظرة جبار وقال والله يا اسماعيل ما عد البرامكة  
 بنى هاشم الا عبيدهم وخولهم وان الدولة لهم ولا نعمة لني العباس الا وهم  
 المنعمون بها عليهم فقال أمير المؤمنين أبصر من غيره بخدمة ومواليه فقال  
 والله يا اسماعيل المك لتعلم اني قلت هذا وكأني بك تخبرهم به فتتخذ به  
 يداً عندهم واني آمرك أن تكتم هذا الامر فانه لم يعلم به أحد غيرك ومتي  
 بلغهم شيء مما جرى بيني وبينك علمت أنه ما أفسناه الا أنت فقال يا أمير

المؤمنين أعوذ بالله أن مثلي يفتنى بسرك ثم ودعه وجاءه من الغد وهو في محل من قصره يشرف على دجلة وبازائه منازل البرامكة التي كانت محفوفةً باليمن والبركة فقال يا اسماعيل هذا ما كنا فيه بالأمس أنظر كم على باب جعفر من الجيوش والعلمان والقواد والمواكب وليس على باب داري أحد فقال يا أمير المؤمنين ناشدتك الله أن لا يعاقب نفسك شيء من هذا فانما جعفر خادمك ووزيرك وصاحب جيوشك وبابه باب من أبوابك فاذالم يكن الجند على بابه فعلى باب من يكون فقال والله ان البرامكة قد ملكوا الدولة واحتجفوا أموال الجباية وانصرفوا عن خدمتي الى محبة العلويين وتعزيز شيعتهم وأنا لا أصبر على ذلك (١)

وكان جعفر في ذلك الوقت قد عزم على الركوب الى خراسان (٢) وهو عالم بما أضمر الرشيد له ولاهل بيته من سوء فما أحب أن يتركهم بغير حراسة وانما أبتى في يد الفضل رجلا يعرف فيهم الامانة ليقمهم من مكائد الرشيد حتى اذا قدم الحرمين في دعوة أهل البيت وجد في العراق من يستعين به على العباسيين . غير أن الرشيد قد فطن لما كان يباشره من تعبئة الجند فأيقن بالاشراف على الخطر الا أن يتمحل في أمر يغلبه به قبل ركوبه الى خراسان . فأرسل الى بنى هاشم تحت الليل أن يضموا اليهم جماعاتهم وأمر الفضل بن الربيع أن يحوط دور الخلافة بما

(١) أبو الفداء ١٧٥٢ (٢) ذكر الاتليدي ان جعفرا كان عازما على الركوب

الى خراسان في ذلك الوقت

بين يديه من الحرس والغلمان وأرسل الى يزيد بن يزيد الشيباني (١) انه اذا ركب جعفر من الغد الى دور الخلافة يبعث بمن يحوط البرامكة ويقبض عليهم (٢) واستبقي الامر سرّاً لم يستخدم في قضائه الا جماعة من أقاربه (٣) دون الغلمان الذين كان يغمرهم جودهم وكرمهم ثم أرسل في تلك الليلة الى جعفر من يقول له انه يمكنه من بيوت المال أن يتناول منها ما يشاء ويأخذ من الجند الى خراسان من ينتخبه ويريده وأن أمانته فيه فوق كل أمانة وأمثال هذه المصانعة حتى لا يفطنوا لما أخذ في تدبيره من اغتيالهم . وكان جعفر يعلم بما في تحمل الرشيد من المصانعة والرياء ولكنه ظن انه يريد استمالتهم اليه ورجوعهم الى الثقة به لأنه يريد نكبتهم في صباح تلك الليلة .

ولما أصبح الرشيد استدعى خادمه مسرورا (٤) وقال له قد انتخبتك لامر لم أر له محمدا ولا عبد الله ولا القاسم (٥) فحقق ظني فيك واحذر أن تخالف فتهلك فقال مسرور لك على امره مطاعة فرنى بقتل نفسي أفعل فقال له امض الساعة الى الحديقة وحوطها بالحرس وضم الى جماعة من الغلمان ثم اذهب الى جعفر وجئني به وقل له انه وردت كتب من

(١) وقد تقدم انه كان منحرفاً عن البرامكة (٢) ابن الاثير وأبو الفداء والعقد

الفريد (٣) ابن خلدكان ٥٢٥١ (٤) الاتليدي والاغاني ١١٠٤٤ وابن خلدكان

١٥٢٥١ وابن الاثير ٦٣٥٦ (٥) قوله محمد وعبد الله والقاسم يريد بهم الامين

والمأمون والمؤمنين وأولاده

خراسان فاذا دخل الباب فلا تدع من معه يدخل بعمده فاذا تمكنت منه  
فخذ رأسه ولا تراجعني في ذلك واياك اياك أن يفوتك الامر . فسار  
مسرور الى جعفر فأصابه في داره قد طرح نفسه ليستريح فقال له ياسيدي  
أمير المؤمنين يدعوك لرسائل وردت الساعة في خريطة البريد من  
خراسان . فلبس جعفر ثيابه وتقلد سيفه ثم ركب في جماعة من الحرس  
والجنود لانه لم يكن بمأمن من غدر العباسيين به فلما دخل الباب طلع  
عليه من في الحديقة من الحرس وحاولوا رد غلما نه وهم غير مأمورين  
بالقتال فاستفرد مسرور وبضعة عشر رجلا دخلوا معه الباب فجرد عليه  
السيف وضاح بمن معه من العبيد والخصيان فأهدروا دمه . واني لست  
أنسب الشر الى مسرور هذا الخادم اللئيم فما هو الا ذئب قد استرعاه  
الرشيد ومن استرعى الذئب فقد ظلم ومع ذلك فاني لا أبرئه من تبعة  
ذلك الاثم الفظيع ولا أرى بينه وبين شديد العقاب الا الموت الذي  
يساق بعده الى دار العذاب .

هذا ما بلغني من اسحق ثم سمعت في أحاديث الناس ان جعفرا  
لما صار في وسط الحديقة ولم ير معه الجنود ارتاع وندم على ركوبه في تلك  
الساعة فقال مسرور يا أخى ما القضية فقال ياسيدي ان أمير المؤمنين قد  
أمرني بقتلك فيقولون ان جعفرا بكى حينئذ وجعل يقبل مسرورا ويقول  
له أنت تعلم اكرامى لك دون خول الرشيد وان حوائجك عندي مقضية  
في جميع الاوقات وأنت تعرف مكانتي عند الرشيد وما يوجه الى من



الاسرار ولعل أن يكون بلغوه عنى باطلا وهذه ألف ألف دينار وفي  
رواية عشرة آلاف ألف دينار أدفعها اليك الساعة وخذني أهيم على وجهي  
فقال لا سبيل الى ذلك فقال احملني اليه وأوقفني بين يديه ولعله اذا وقع  
نظره على تدركه الرحمة فيصفح عنى فقال وهذا أيضا لا سبيل اليه (١)  
ولا تمسكنى مراجعته فقال توقف عنى ساعة وامض اليه وقل له انك  
فرغت مما أمرك به واسمع ما يقول ثم عد وافعل ما تريد وانى أشهد  
الله وملائكته على أن أشاطرك نعمتى وأوليك من الامور جسيما ان  
فعلت ذلك وسلمت لى نفسى ولم يزل به وهو يبكى فيما يقولون طمعا في  
الحياة حتى قال له ربما يكون ذلك ثم انه وكل به غلمانا من السودان  
يحفظونه ووضى الى الرشيد وهو جالس يقطر غضبا فلما رآه قال له  
شكلك أمك ماذا فلت فقال يا أمير المؤمنين قد أنفذت أمرك قال فأين  
رأسه قال فى قبة الحديقة قال فأتى به الساعة (٢) فرجع مسرورا وجعفر  
يصلى وقد ركع ركعة فلم يمهل أن يصلى الثانية بل سل سيفه وضرب عنقه  
وأخذ رأسه وطرحه بين يدى الرشيد يشخب دما فيقولون ان الرشيد  
تنفس الصعداء وبكى بكاء شديدا وجعل يقول كالمعاتب نفسه يا جعفر  
ألم أحلك محل نفسي يا جعفر ما كافأتى ولا عرفت حتى ولا حفظت  
عهدى ولا ذكرت نعمتى ولا فكرت فى صلاح أمرى يا جعفر قد  
غررتك نفسك فدار عليك الدهر وكان يقول هذا وهو يقرع أسنانه

بالفضيب بعد الكامة والسكامة وكان ذلك بين سلع المحرم (١) وأول  
صفر (٢)

﴿ وقوع التواني في الدولة بعد نكبة البرامكة ﴾

ولما اتصلت بي هذه الاخبار الفاجعة انهمات عيناى بالدموع لقتل  
جعفر النفس الزكية بقضاء لا حيلة بعده الا اللوعة والندم . فكنت مثل  
الرجل الذي يرى في منامه هولا ينزل به وهو لا يدرك سره . ولا  
يجد لنفسه مرداً يتقى به شره . وان كان يسوءنى من الرشيد احتياله في  
مصانعة البرامكة (٣) قبل ركوب جعفر الى خراسان ليذهلوا عن تدبير  
ما يتقون به مكايده ذنبا بزوال ما عنده من الموجدة مع انه كان يضم  
قتلهم (٤) والياذ بالله من شرور النيات . فاني ليسوءنى أكثر من ذلك  
تبعه النعمة فيمن أخذه منهم كشف الله الغمة عن قلوبهم . فقد بلغنى عن  
يحيى والفضل واخر قناه جهد شديد يقاسيانه في الحبوس فانهما ليطلبان  
الماء الفاتر للوضوء فلا يحصلان عليه ويشتهيان الطعام تأتيهما به الخراس  
فلا يجدان من يطبخه لهما فيتوليان طبخه بأنسهما ويتومان على القدر (٥)  
مع جلاله قدرهما . فيارحمه هؤلاء الملوك الذين أخذهم الرشيد غدرا (٦)  
تنعيه عليه الايام . ويسأل عنه في يوم القيام . واني لاحسب جعفرأ مع

(١) ابن خلكان ١٥٢٥١ (٢) أبو الخان ٣٠٥٢٦٥١ في الاغانى ٤٤٥١٢

وغيره أن الرشيد كان يصانع البرامكة (٤) في العقد ٣١٥٣ انه كان يريد قتلهم (٥)

الاتيدي ١٧٨ (٦) الفخرى

ما أصابه من الامر الفظيع أكبر حظاً من أبيه واخوته اذ قدم على ربه شهيداً في دعوة أهل البيت ولم يصر الى هذا الهوان (١) الذي صاروا اليه وهم الذين عرفتهم عظماء الملة . والرؤساء من أهل التجارة . والذين آتوا الرشيد بحكمتهم منعة لم يكن مثلها لدولة من دول الاسلام .

ولقد كنت أحب أن أتوصل الى موضع البرامكة أو استنبط حيلة لا تقاذهم مما يعانون من الشدة غير اني رأيت الامر لا يتم على الوجه الذي أرومه الا بالقوة التي تغالب الحرس . ولما كانت جماعتنا في بغداد فئة قليلة من الرجال وأكثرهم داخل في جيش الخليفة وتحت أمره العباسيين أيقنت أن مجاهرة الرشيد بالعدوان قبل العودة الى فارس ليست من الرأي الصواب ولم يكن احجامي عن ذلك خوفاً على نفسي من القتل لان النفوس لا يعظم بذلها في سبيل البرامكة ولكن رحمة بهم من جور الرشيد الذي يضيق عليهم بقدر ما يرى من ميل الناس الى الوصول اليهم أو الثأر بدمهم فقد بلغني انه لما قام عثمان بن نهيك ليثأر بجعفر وهو يقول والسيف صلت في يده . يا ضلّ ما تجرى به العصا واجعفر اراه واسيداه والله لاقتلن قاتلك ولأثأرن بدمك (٢) عزم الرشيد بعد قتل عثمان هذا المبرز سيفه الكريمة نفسه على التضيق عليهم وتفريقهم في الجبوس المنقطعة

(١) ذكر هوان البرامكة في محبسهم ابن الاثير وابن عبد ربه والابشيهي

والاثلبيدي . وابو الفرج وغيرهم (٢) ابن الاثير ٦٦٥٦

وقبض ضياعهم عن أهل بيتهم (١) حتى يقتلهم بالشدة التي هي أمر من القتل .  
 وقد مضى على اليوم في بغداد وأنا متقطع النفس سبعة وأربعون  
 يوماً لم آل فيها جهداً للوصول إليهم فلم أحصل على ذلك مع وفور ما بذلته  
 من المال وكنت أحب أن ألقى أحداً من خدمهم وحجابهم فلم أظفر بواحد  
 منهم في بغداد وكأني بهم قد تصدّعوا في الآفاق (٢) في جملة من هرب  
 من غلمانهم وجواريتهم ومغنياتهم (٣) ومن هو معروف بمخالطتهم من  
 العلماء والشعراء والندماء وأهل الأدب غير أني رأيت فيمن بقي من  
 الطامعين إليهم دموعاً يسترونها عن العيون وما وجدت منهم إلا منقبض  
 النفس ومن يذّيبه الأسف عليهم حتى كأنهم صدع واحد في لوم الرشيد  
 على قتلهم (٤) فما أذكر أني نزلت مرة إلى السوق إلا ونظرت رفاع  
 الأشعار معلقة على الحيطان رثاء لجمفر وندباً للدنيا في ما لحق أهله من  
 النكبة الفظيعة . ومما بقي في ذهني من هذه الأشعار قول بعضهم وأظنه  
 الرقاشي أو أبانواس (٥)

الآن استرحنا واستراحت ركابنا      وأمسك من بجدي ومن كان يجتدي  
 فقل للمطايا قد أمنت من السرى      وطىّ الفيا في فدفاً بعد فدفاً

(١) أبو الفداء ١٨٥٢ والاعاني ٧٩٠\*١٨ والاتليدي ١٧٤ وابن الاثير ٣٦٥٦  
 (٢) الاتليدي ١٧٤ (٣) الاعاني ١٨٣\*٣ (٤) أبو المحاسن ٥٢٧\*١ والفخري وابن  
 الاثير ٦\*٧ والعقد الفريد والاتليدي (٥) ابن الاثير ٦٤\*٦ وأبو الفداء ١٨٥٢

وقل للمنايا قد ظفرت بجمفر  
 وقل للعطايا بعد فضل تعطى  
 ودونك سيفاً برمكياً مهتداً  
 وقل للظفري من بعده بمسود  
 وقل للرزايا كل يوم تجددى  
 أصيب بسيف هاشمى مهتداً  
 وقولهم (١)

يامنزلاً لعب الزمان بأهله  
 ان الذين عهدتهم فيما مضى  
 أصبحت تفرع من رآك وطالما  
 ذهب الذين يعاش في اكنافهم  
 فأبادهم بتفرق لا يجمع  
 كان الزمان بهم يضر وينفع  
 كنا اليك من المخاوف تفرع  
 وبقي الذين حياتهم لا تنفع  
 وقرأت رقعة مكتوب عليها هذه الايات وأظنها من نظم أنس بن أبي  
 شيخ النصرى (٢) صاحب جعفر برّد الله مضجعه وسقى ضريحه صيدب  
 الرحمة والرضوان

لعمرك ما في الموت عار على الفتى  
 ومن كان مما يحدث الدهر جازعا  
 فلا يبعدنك الله عنى جمعفرا  
 فأليت لأنفك ابكيك مادعت  
 اذا لم تصبه في الحياة المعابر  
 فلا بد يوماً أن يرى وهو صابر  
 بروحى ولو دارت على الدوائر  
 على فنن ورقاء أو طار طائر (٣)  
 وقال على بن أبي معاذ (٤)

(١) الاتليدي ١٨٠ (٢) ذكره صاحب الاغانى ١٧\*٣٣ وقال صاحب العقد

الفريد ان الرشيد قتله بعد نكبة البرامكة ١٨٨\*١ (٣) الاغانى ١٥\*٣٦

(٤) المسعودي ٢\*٢٢٩

يأبها المغتر بالدهر  
 لاتأمن الدهر وصولاته  
 ان كنت ذا جهل بتصريفه  
 وخذ من الدنيا صفا عيشها  
 كان وزير القائم المرتضى  
 وكانت الدنيا باقطارها  
 يشيد الملك بأرائه  
 فينما جعفر في ملكه  
 يطير في الدنيا بأجناحه  
 اذ عثر الدهر به عثرة  
 فغودر البئس في ليلة الـ  
 وجىء بالشيخ وأولاده  
 والبرمكيين وأتباعهم  
 كأنما كانوا على موعد  
 وأصبحوا للناس أصدوثة  
 والدهر ذو صرف وذو غدر  
 وكن من الدهر على حذر  
 فانظر الى المصلوب بالجر  
 واجر مع الدهر كما يجرى  
 وذا الجحى والفضل والذكر  
 اليه في البر وفي البحر  
 وكان فيه نافذ الامر  
 عشية الجمعة بالقمر  
 يأمل طول الخلد والعمر  
 ياويلنا من عثرة الدهر  
 سبت قتيلاً مطلع الفجر  
 يحيى معاً في الغل والاسر  
 من كان في الآفاق والمصر  
 كموعد الناس الى الحشر  
 سبحان ذى السلطان والامر

وقال سلم الخاسر

خوت أنجم الجدوى وشلت يد النوى  
 هوت أنجم كانت لابناء برمك  
 وقال أشجع السلمى  
 وغاضت بحجار الجود بعد البرامك  
 بها يعرف الهادى طويل المناسك

ولى عن الدنيا بنو برمك      فلو توالى الناس ما زادوا  
 كأنما أيامهم كلها      كانت لاهل الارض أعياد  
 وقال فيهم أيضا

قد ساد دهر بنى برمك      ولم يدع فيهم لنا لقيا  
 كانوا أولى الخير وهم أهله      فارتفع الخير عن الدنيا  
 وقال فيهم صالح الاعرابي

لقد خان هذا الدهر أبناء برمك      وأى ملوك لم تخنها دهورها  
 ألم يك يحيى والى الارض كلها      فأضحى كمن وارته منها قبورها  
 وقال واحد من بيت البرامكة في رثائهم وقيل بل هو سليمان الاعمى  
 أخو مسلم بن الوليد

أصبت بسادة كانوا عيوننا      بهم نسقى اذا انقطع الغمام  
 فقلت وفي الفؤاد ضريم نار      وللعبرات من عيني انسجام  
 على اللذات والدنيا جميعاً      ودولة آل برمك السلام  
 جزعت عليك يا فضل بن يحيى      ومن يجزع عليك فلا يلام  
 هوت بك أنجم المعروف فينا      وعز بفقدك القوم اللثام  
 وما أبصرت قبلك يا ابن يحيى      حساماقده السيف الحسام  
 الى أن يقول

ألهو بعدكم وأقر عيننا      على اللهو بعدكم حرام  
 وكيف يطيب لي عيش وفضل      أسير دونه البلاد الشام

وجعفر ثاويا بالجسر ابلت محاسنه السمائم والقنم  
 أمر به فيغلبني بكائي ولكن البكاء له اکتام  
 أقول وقت منتص با لديه الى أن كاد يفضحني القيام  
 أما والله لولا خوف واش وعين للخليفة لاتنام  
 لطفنا حول قبرك واستامننا كما للناس بالحجر استلام (١)

فكان الرشيد يخاف من كثرة البكاء عليهم وقوع الفتن في الدولة فلذلك  
 منع الشعراء من رثائهم (٢) وجعل عقاب من يقدم على ذلك القتل (٣)  
 وأمر الحراس أن ينزعوا الرقاع التي علق في الاسواق لئلا يشور تأثر  
 الشعب من الشعب (٤) ولكنه لم يبلغ من ذلك الغاية التي كانت يرومها  
 من محو ذكرهم (٥) وطمس معالمهم بعد ان زينوا الخلافة بمحاسنهم  
 خمسين سنة وانطبعت في قلوب الناس محبتهم (٦) بما صنعوا من  
 المعروف وبذلت أيديهم من العطاء . ثم ان خوفه من فوائل هذا الامر  
 لا يقف عند ما كان يراه من وقوع الفتن في الدولة فربما وصل اليه أن فارس  
 قد قامت فيها القيامة وان خراسان (٧) قد عصفت فيهارح الفتنة والمغرب  
 قد تضعع حكمه في يد بن الاغلب والروم قد جاشوا في بلدهم وامتنعوا  
 عن تأدية الجزية لعلمهم باختلال الدولة بعد نكبة البرامكة وضعف آل

(١) الاغانى ٣٦٥١٥ (٢) الفخرى والنواجى والاتليدى (٣) الاسحاقى ٩٨

(٤) اعلام الناس ١٧٤ (٥) ابن الاثير ٧٥٥٦ والعقد الفريد ٢٦٥٣ وابن خلكان

(٦) الاتليدى وابن الاثير والفخرى وأبو الفداء (٧) الاتليدى ١٧٤



الربيع الذين تولوا الوزارة بعدهم ولا أرى لهم بها استمتعا طويلا كما  
يشير أبو نواس الى ذلك بقوله (١)

مارعى الدهر آل برمك لما أن رمى ملكهم بأمر فظيع  
ان دهرالم يرع عهدا ليحيي غير راع زمام آل الربيع (٢)

حتى اذا اتصل بهم خبر الروم والتوائهم عن الخراج لم ينبههم العزم ولا  
الحزم على ابلاغ الرشيد بأنفسهم (٣) بل اتخذوا طريقة البلاغ على السنة  
الندمان وفي ذلك يقول الشاعر استخفافا بالامر وهذا بعيد عن سياسات  
الدول (٤)

نقض الذي أعطاه تقفور فعليه دائرة البوار تدور  
أبشر أمير المؤمنين فانه غم أنك به الاله كثير

فتأمل رعاك الله في هذه الدولة التي كانت زينة الدنيا في أيام البرامكة (٥)  
كيف صارت الى رجال لا رأي عندهم ولا عزيمة فان يبلغك عن ومنها  
خبر فيما بعد فاعلم ان صدور هذا الفتور ناشىء عن فتور الصدور . وهذه  
الجنود التي تراها في قبضة الرشيد لا تنفع دولته ما لم يكن عنده عقل

(١) كان أبو نواس منحرفا عن الفضل بن الربيع وفيه يقول .

أيها الراكب المجد إلى الفضل ترفق فدون فضل حجاب

ونعم هبك قد وصلت إلى الفضل فهل في يدك إلا التراب

(٢) المحاضرة ١١٤\*٢ (٣) الاغانى ١٧\*٤٦٠ (٤) السيوطى وابن خلدون وابن الاثير

٦٦\*٦ والاغانى ١٧\*٤٥٠ والمسعودى ١٠٨\*١ (٥) الاتليدي

يدبر به سياسته فكم رأينا من دولة كانت في العالم عظيمة فأعمى ساستها  
 الجهل فأنحطت لفقدان الحكمة . ودولة كان أمرها في توان فتولاها  
 رجال كبراء أصلحوا ما فيها من الاختلال . وصعدوا بها من العزة المقام  
 الذي لا ينال . وتأمل في الدولة الاموية كيف قامت بمعاوية بطل السياسة  
 والتدبير اذ ضم الاسلام الى مصلحة واحدة مرتب طرف المشرق الى  
 أقصى المغرب (١) ثم أقام دولته على هذا الاساس المتين ثم تأمل فيما صنع  
 الحجاج بن يوسف وكيف أصلح ما فسد من العراق وأزال ما وقع بين  
 أهله من الشقاق حتى جعل الجزيرة والحرمين أقرب الى طاعة الامويين  
 من الشام ومصر . ثم انظر الى الدولة العباسية كيف قامت على أثر تلك  
 الدولة بتدبير أبي مسلم رحمه الله وكيف عجز أبو جعفر بعد مقتله عن رد  
 الفرس والاكراذ الا بسياسة خالد البرمكي الذي ضمن له الكفاية عليهم  
 بالرأى (٢) دون الجنود . وانظر الى دولة الرشيد كيف زهت في وزارة  
 البرامكة بما لم تزه به دولة (٣) الهادي ووزراؤه أغفال من آل الربيع .  
 فهذه دول لم تزه بقوة الجند كما يسبق الى وهم الناس لانه لم يكن لابي  
 مسلم من الرجال ما كان لملوك بني أمية . ولم يكن للرشيد ما كان للهادي  
 قبله . وانما كان المعزز لها رجال يرسلون من عقولهم على الناس أشعة كاشعة  
 الشمس بها يستنيرون . وفي ضوئها يسرون . ولا سيما هؤلاء البرامكة

(١) نذكر هنا انه ماتوطد للاسلام ملك في أفريقيا الا في خلافة معاوية بن

أبي سفيان (٢) ابن خلكان ١٤٩\*١ (٣) الزمخشري في ربيع الابرار

الامجاد الذين أحرم الرشيد دولته من مساهمتهم له فيها وتدير شؤونها  
ولست أعلم ما يكون من أمره مع صهب السبيل (١) ولقد قام به اليوم  
من الندم والاسف (٢) على جعفر والتلف على ما سبق به القضاء ما يشغله  
عن الدنيا فاطبة فقد أخبرني من هو مقرب إليه أنه يذكره لكل طلوع  
شمس . ويكي عليه بتحرق نفس . ولا يستطيع الخلوة بنفسه على انفراد  
بعد مصرعه الا ان يكون عنده جماعة يلهو بمسامرتهم عما فرط منه  
في أمره (٣) واذا خلا مجلسه أمر الحجاب أن يدخلوا عليه من يجدونه من  
الندمان (٤) ليستأنس بهم ويتسلى بمناذمتهم عما هو فيه من البلاء وقد  
رأى خلل السياسة في دولته وكثرة الراجيف .

﴿ فيما يتحدث به الناس من أسباب نكبة الرشيد للبرامكة ﴾

ولما كان الحديث عن هذه النكبة الفظيعة دائراً على السنة الناس  
اختلفت آراؤهم فيما دعا الرشيد اليها وان كانت خواطرهم متوافقة في  
لومه والبكاء على جعفر . فمن قائل انه نكبه وأهل بيته لاستبدادهم بأمر  
الدولة واحتجافهم أموال الجباية حتى لقد كان يطلب اليسير من المال فيما  
يزعمون فلا يصل اليه ومن قائل انه حنق على جعفر لتطاوله عليه  
في الكلام اذ كان يقول لي لئن لم يرجع الرشيد عن سوء ظنه بهم ليكونن

(١) هي لقب للروم (٢) الاغانى ١٧\*٧٤ (٣) العقد الفريد ٣\*٢٨ (٤) ابن

خلكان ٣٢\*١ وذكّر غيره ان الرشيد كثيراً ما كان يوجه خادمه في طلب بعض

خواص الدولة ومن يكون عندهم وقياً يطلبهم

ذلك وبالا سريراً عليه (١) ومن قائل أنه تنغص من الفضل ان يكون اكرم  
من اولاده ومن جعفر أن يكون أفصح منهم لساناً وأحكم سياسة ومن  
محمد أن يفضلهم في المروءة ومن موسى ان يفضلهم في الشجاعة فنكبتهم  
لذلك . ومن قائل انه مانكب جعفراً الا غشيانه العباسية أخت الرشيد  
(٢) ويروون لذلك من الاخبار أن الرشيد كان له مجلس معه بالليل فقال  
له يا جعفر لا يطيب لي ذلك المجلس الا بمحضر أختي العباسية ولكن لا  
يجوز لك النظر اليها الا بالعقد عليها على شريطة أن لا تقر بها فيقولون انهما  
اتفقا على ذلك وأن الرشيد عقد له عليها وصارت تحضر كل ليلة الى أن  
بلغ عشقها جعفر مبلغاً عظيماً فيزعمون انه كانت لجعفر امرأة تزين له  
الجواري كل ليلة فجاءت اليها العباسية واستألتها بالمال الى أن تزينها له  
وتدخلها عليه في جملة جواريه ففعلت وظن جعفر انها جاريتته فواقعها غير  
عالم انها العباسية فلما أصبحت قالت له أنا العباسية وقد كنت أسألك ان  
تساعدني على مودتك فتأبى فلما أيست منك احتلت عليك بما رأيت في  
هذه الليلة ولئن لم تواظب لا يكون سبباً في زوال نعمتك وهل أنت الا  
زوجي فقال لها جعفر ويحك أهلكتي وأهلكتي تنسك فيزعم الذين  
يتناقلون هذه الحكاية انه لم يزرها بعد حتى ظهر أمرها للرشيد .  
هذا ما يتحدث به العوام من أسباب نكبة الرشيد لهؤلاء الملوك

(١) الاتليدي ١٦٨ (٢) ابن الاثير ٦٢٠\*٦٦ والفخري والاتبدي ١٦٥ وابن

خلكان والدميري ١٥٣\*٢ وأبو الفرج ٢٣٣ وأبو الفداء ١٧٠\*٢ والمسعودي ٢٢٥\*٢

الذين كانت تزهو بهم الايام وكانوا نكتة محاسن الدولة كما علمت . أما  
 الخواص فينكرون خبر العباسة ليس لتزويه جعفر عن المعصية بل لانه  
 غير ممكن الوقوع (١) لمكان العباسة من جلالة القدر وشرف السلالة  
 واهبة العبايين الذين هم عظماء الدولة . ولو أنهم علموا شرف البرامكة  
 في المسمى (٢) واتصال أنسابهم بجدهم الاكبر في الفرس حتى ينتسق  
 شرف نسبهم في العجم انتساقا عظيما وأن العشق ميل يملك النفس حتى  
 يرجع الى قسر الشهوة النفسانية لصاحبها ولا يبقى موضعاً لتقامات والرتب  
 ويخرج بصاحبه عن حيد الاعتدال لما ظننتهم ينكرون هذا الامر من  
 حيث يحاوزون القصد بل كانوا يجوزون وقوعه ولو على بعد . وكنت  
 أحسب من تداول بعض الاحاديث المتقدمة أن لارشيد يدا في اشاعتها  
 بين الناس ليعمى عليهم أمر البرامكة وانهم راحوا شهداء دعوة أهل البيت  
 (٣) فليتمتع من الدنيا قليلا فان أيام الشباب فيه سريعة الزوال . دارسة الطلال  
 ويعلم في الحساب اذا التقينا غداً يوم النشور من الظلوم (٤)

ولست أطيل عليك الكلام في أمر هؤلاء الملوكة الذين رماهم الدهر  
 بالارزاء وسحب عليهم أذيال الغناء . ولو أني كتبت اليك غير ما ذكرت  
 لما بقي لدي الا البكاء والنحيب على أني أحب ان أختم رسالتي اليك عنهم  
 بذكر مآثرة من بعض ما صنعوا الى الورى من الجميل . وهى أن

(١) المقدمة ١٣ (٢) المسعودى (٣) الفخرى وأبو الفداء ١٧٥٢ والدميري

١٥٣٢ وابن خلدون وابن الأثير ٦٢٦ (٤) الأتليدي ١٧٨

الرشيد (١) مع تشديده في النهي عن رثائهم بلغه ان رجلا يحضر ليلاً الى دورهم وينشد أشعاراً ويذكر محاسنهم وما أثرهم وينسبهم ويبيكي عليهم ثم ينصرف فدعاه مسروراً هذا الخادم اللثيم وسارته بالامر وأمره بأن يمضي تحت الليل حتى يرد تلك المنازل الدارسة التي كانت مظهر الانس بما آتى الله أهلها من سعة الملك وان يستتر خلف بعض الجدران هو واثنان من الخدم سماهما له وأظنهما ياسرا ومروان (٢) حتى اذا جاء ذلك الشيخ وبكى وندب وأنشد الاشعار قبضوا عليه وجاؤا به اليه . فأخذ مسرور الخادمين ومضى بهما آخر الليل الى تلك المنازل فاذا هم بغلام قد أقبل ومعه بساط وكرسی حديد وأقبل بعده شيخ له جمال وعليه مهابة وآثار نعمة فجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول (٣)

ولما رأيت السيف جنـدل جعفرأ      ونادى مناد للخليفة في يحي  
بكيت على الدنيا وزاد تأسني      عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع آيات أطلها فلما فرغ قبضوا عليه وقالوا له أجب أمير المؤمنين ففرغ فزعاً شديداً وقال دعوني حتى أوصي بوصية فاني لأوقن بعد اليوم بحياة ثم تقدم الى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصيته وسلمها لغلامه ثم سار به مسرور الى دار الرشيد فلما مثل بين يديه زجره وقال له من أنت وبم أتوجب البرامكة منك ما تفعل في خربات دورهم فقال يا أمير المؤمنين ان للبرامكة أيادي خطيرة عندي أفأذن لي أن

(١) هذه القصة قد وقعت للمأمون لالرشيد وانما ذكرناها ههنا تيمناً لحسن البرامكة

أحدثك بحالي معهم قال قل فقال يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من  
أولاد الملوك وقد زالت عني نعمتي كما تزول عن الرجال فلما ركبنى الدين  
واحتجت الى بيع ماعلى رأسى ورؤس أهلى وبيتى الذى ولدت فيه أشاروا  
على بالخروج الى البرامكة فخرجت من دمشق ومعى نيف وثلاثون امرأة  
وصبياً وصبية وليس معنا ما يباع أو يوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا فى  
بعض المساجد فدعوت بثياب كنت أعددتها لاستترها فلبستها وخرجت  
وتركتهم جياعا لا شىء عندهم ودخلت شوارع بغداد فاذا بمسجد  
مزخرف وفى جانبه شيخ متزى بأحسن زى وزينه وعلى الباب خادمان  
وفى الجامع جماعة جلوس فطمعت فى القوم ودخلت المسجد وجلست بين  
أيديهم وكنت أقدم رجلا وأوخر أخرى والعرق يسيل منى لانها لم تكن  
صناعتى واذا بخادم قد أقبل ودعا القوم فقاموا وقت معهم حتى دخلنا  
جميعا دار يحيى بن خالد واذا هو جالس على دكة فى وسط بستان فيه  
أطيب الرياحين فسلمنا عليه فرد علينا السلام وهو يعدنا مائة وواحدا  
وبين يديه عشرة من ولده واذا بسلام أمرد قد عذر خداه قد أقبل من  
بعض المقاصير وبين يديه مائة خادم متمنطقون فى أوساطهم بمنطقة  
من ذهب يترب وزنها من ألف مثقال ومع كل واحد بحجرة من الذهب  
فى كل بحجرة قطعة من العود كهيئة الفهر قد قرن بها مثلها من العنبر  
فجلس الغلام بجانب يحيى ووضعت تلك الحماير بين يدى الغلام ثم قال  
يحيى للقاضى زوج بنتى عائشة من ابن عمى هذا فخطب القاضى خطبة

النكاح وأجرى صيغة العقد وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالبخار من  
 بنادق المسك والعنبر فالتقطت والله يا أمير المؤمنين مليء كمي ونظرت  
 فإذا الحاضرون بالمجالس مابين يحيى وأولاده والمشايخ والغلام مائة وأتى  
 عشر رجلا وإذا بنئة وأتى عشر خادما قد أقبلوا يحمل كل واحد منهم  
 صينية من فضة عليها ألف دينار فوضعوا بين يدي كل واحد مناصينية  
 فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في أكمامهم ويجعلون الصواني  
 تحت آباطهم ويقوم واحد بعد واحد حتى بقيت وحدي لأجسر على  
 أخذ الصينية فغمزني خادم فجسرت على أخذها وجعلت الذهب في كمي  
 وأخذت الصينية بيدي ثم قتت وجعلت ألتفت خلفي مخافة أن أمنع من  
 الذهاب فبينما أنا كذلك في صحن الدار ويحيى يلحظني إذ قال للخادم  
 ائتني بهذا الرجل فرددت إليه فأمرني بصب الدنانير والصينية وما في  
 كمي ثم قال اجلس فجلست فقال لي ممن الرجل ولم أتفت خلفك  
 فقصصت عليه قصتي فقال للخادم ائتني بولدي موسى فأني به فقال يا بني  
 هذا رجل غريب فخذك إليك واحفظه بنفسك ونعمتك فقبض موسى  
 عليّ وأدخلني إلى دار من دوره وأكرمني غاية الأكرام وأقت عنده  
 يومى وليتي في ألد عيش وأتم سرور فلما أصبح دعا أخاه محمدا وقال له  
 ان الأمير قد أمرني بالعطف على هذا الرجل وغير خاف عليك اشتغالي  
 اليوم في دار أمير المؤمنين فاقبضه إليك وحوطه بنعمتك ففعل ذلك  
 وأكرمني غاية الأكرام فلما كان من الغد تسلمني أخوه العباس فبت



ليأتى عنده بين غناء وأنوار وبهجة ثم تسلمني أخوه خالد (١) ولم أزل في  
أيدى البرامكة يتداولوتني مدة عشرة أيام لأعرف خبر عيالي وأهلي  
أني الاموات هم أم في الاحياء فلما كان اليوم الحادي عشر جاءني خادم  
ومعه جماعة من الحشم والعمان فقالوا لي قم فاخرج الى عيالك بسلام  
فقلت واويلاده سلبت الدنانير والصينية وأخرج الى عيالي على هذه الحالة  
انا لله وانا اليه راجعون فرفع الستر الاول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع  
ولما رفع الخادم الستر الاخير قال لي مهما يكن لك من حاجة فادفعها  
الي فاني مأمور بقضاء جميع ما تأمرني به ثم بدت لي حجرة كالشمس  
بهاء واشراقا واستقبلني منها رائحة الند والعود ونفحات المسك واذا  
بصبياني وأهلي يتقبلون في الحرير والديباج وحمل الي ألف درهم  
وعشرة آلاف دينار ومنشوران بضيعتين من عمل السواد وتلك الصينية  
التي كنت أخذتها بما معها من الدنانير والبنادق وأقت ياأمير المؤمنين مع  
البرامكة في دورهم ثلاثة عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا ام  
رجل غريب اصطنعوني فلما نزلت بهم الفاجعات احجفني عاملك على  
العراق وأزمني في هاتين الضيعتين مالا يفي دخلهما به . ولما تحامل عليّ  
الدهر كنت في آخر الليل اقصد منازلهم فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم  
اليّ واشكر جميل عطفهم اليّ . فقال الرشيد كم اخذ منك هذا العامل  
قلت كذا وكذا قال هو مردود عليك وسبتيتي انت وعيالك من بعدك

(١) ذكره صاحب العقد الفريد ٢٨٥٣ من أولاد يحيى بن خالد

على ما كان لك في أيام البرامكة . فعلا نحيب الرجل حتى كاد يقع من شدة  
الحزن فلما رأى الرشيد شدة بكائه قال له يا هذا قد احسنا اليك برد  
ما قد سلب منك فإيبيك فقال يا أمير المؤمنين وهذا أيضاً من  
صنائع البرامكة اذ لو لم آت منازلهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبري  
بأمر المؤمنين وفعل بي ما فعل فن ابن كنت أصل الى أمير المؤمنين  
فدمعت عينا الرشيد وظهر عليه الحزن وقال لعمرى هذا من صنائع  
البرامكة فعليهم فابكوا واياهم فاشكر (١) والله درّ ابى نواس حيث يقول  
في وداع الدنيا التي اوحشت لفقدهم

سلام على الدنيا اذا ما فقدتمُ بنى برمك من رائحين وغاد (١)

﴿ خاتمة الكتاب ﴾

أودعت رسالتى اليوم اليك سطوراً قد كتبتها بدموع العين وأنا بين  
حزن على هؤلاء الشهداء . وخوف من الرشيد أن يعلمه بموضى الرقباء .  
فيقطعنى ما ينالنى منه عن الاستصراخ الى دعوتهم في خراسان وفارس  
وسائر بلاد الخير واليمن لاني علمت من بعض المقرين اليه انه يطلبني  
طلباً حثيثاً وقد جعل لمن يأتيه بي مالا جزيلاً وربما كان هذا الكتاب  
آخر عهدى بمراسلتك بعد اليوم . . . . . وان كنت قد رأيت فيما تقدم  
اليك من الكتب السالفة أن العرب قد حصلوا في زماننا هذا ما لم يختلف  
في صدورهم زمن الخلائف . ونبغوا النبغة التامة في جميع الفنون والصناعات

(١) الفخري والالتيدي ١٩٩ والابشيهي ٢٤٣٥١ (٢) الطواط ١١٣

والمعارف . وتبحروا في حكمة الروم والفرس على اجتهاد . ودونوا أصول  
 الشريعة في مذاهب صحيحة المبدأ جميلة المعاد فانما الفضل في ذلك كله  
 عائد الى البرامكة وهم الذين رفعوا منار العلم وقربوا اليهم الادباء وأجزلوا  
 أعطيتهم بالمال الكثير وكان عصرهم تاجا (١) على هامة الدهر ونورا  
 أضاء به المشرق حتى انقلب من الضعة الى سمو الارتفاع . ومن عماية  
 الجهل الى نور الاطلاع . فما هو عندى الا الزمن الذى يبتى محمودا عند  
 الدرب بالعلم والصلاح وكثرة الخير وسعة أسباب المعاش ولا تنفعا بعلوم  
 الاعاجم ومحاسن هؤلاء الملوك (٢) الذين كانوا جمال المشرق وحصن  
 الاسلام وزينة العالم (٣) ومنعة هذه الدولة التى لم تقم من قبلهم الا بالحليل  
 والمسكيد فانك لتعلم أن الدعوة التى قام باعبائها أبو مسلم رحمه الله انما  
 كانت لذرية النبي صلى الله عليه وسلم وهم اولاد الحسن والحسين رضى  
 الله عنهم لم يكن للعباسيين غرض فى انضمامهم اليها الا للمقارعة بنى أمية فى  
 جملة من انضم اليها من أهل البيونات حتى اذا خدمهم السيف رأوا أن  
 ينفردوا بالخلافة دونهم ويصرفوهم عنها بالحيلة التى كان يمزجها أبو جعفر  
 باشتداده على العمال وظلم الرعية فى الخراج (٣) حتى يوقع فيهم الفشل  
 ويقعدهم عن الخروج عليه فى دعوتهم فكان عظاما الملة يرون ذلك منه  
 ولكنهم لم يروا ان يحملوا الامية على الخلفا ضنا بالنفوس الصالحة أن

(١) العقد الفريد والفتوح والسيوطى وابن خلكان (٢) الزمخشري فى

ربيع الابرار (٣) يقول الحصرى ١٠٣٠٢ ان أيامهم كانت روض الازمنة

تسيل دماؤها في قتال المسلمين بالمسلمين فثبت له الملك من هذا الوجه  
لم ينازعه فيه الا جماعات متفرقة من اهل الدعوة ومن كان لا يضمهم  
الغرض الى جامعة واحدة في جميع الانحاء فلم يستطيعوا مقاومته ولا  
بانعوا من غرضهم به الا ان جعلوا له سبيلا الى غلب جماعة منهم بعد جماعة  
فلما مات وكان قد اعماد حب الولد حتى خلع ابن عمه عن ولاية العهد وصيرها  
للمهدي من بعده لم يكن في الناس الا من ينغص ذلك عليه فيما كانوا  
ينغصون عليه من الظلم وسياسة القتل فخاف الربيع ان تذهب الخلافة من  
ولده وله في مصيرها الى المهدي مصالحة لا تكون له في دولة غيره من  
اهل البيت ولا من العباسيين انفسهم ففقتى له عقله تلك الحيلة التي تسارع اهل  
الحل والعقد الى تنفيذها خوفا من ابي جعفر لظنهم انه حتى لم يمت فلما  
استوثق له الامر استهل خلافته باستمالة الناس بالاحسان والمعروف حتى  
لا تنزمنه قلوبهم ولا يظنوا به متابعة لسيرة ابيه من الظلم والجبروت واقام  
لهم ديوان المظالم ورفع عنهم ضرائب الخراج ووسع لهم اسباب المعاملة  
بعد ما ضاقت نفوسهم من اساءة ابيه اليهم حتى استمالهم لغرضه وصاروا  
طوع يمينه فلم يبق عليه بعد ذلك الا ان يأمن خروج اهل الدعوة في جمع  
غير متفرق فرأى ان يستميل اليه الحرم الآمن وهو الموضع الذي ينادى  
فيه بالحقوق المقدسة لأربابها من اهل البيت ففرق في أهله الاموال  
الجسام . ووالى على عامتهم جزيل الانعام . وجدد لهم بناء البيت الحرام  
وعهد الى عظامائهم بالولايات والامارات وأجرى الارزاق الواسعة على

من استخدم في الجند من أولادهم كما علمت. فلما آلت الخلافة الى الهادي وصارت ارثاً في بيت أبي جعفر رأى البرامكة برأيهم الصواب أن ليس للعلويين بعد ذلك كله مطمع في المشرق بازاء العباسيين الذين يستخدمون الحيلة من وراء السيف لقهر اخصائهم فانصرفوا عن تدبير أمر الحرمين لهم الى تمهيد الطريق لخلافتهم في المغرب وراموا تعظيم دولة الرشيد بضم المشرق كله الى جناحه حتى ينصرف عن مقارعة أهل البيت في أفريقيا ويقنع بما دبروا له من السلطان العظيم الذي لم يكن مثله لاحد من خلفاء قبله فكان بعض ما أشاروا به عليه لتعميم هذا السلطان أن يأخذ الرية باللين والعاطفة بعد ان أمنوه خروجهم في دعوة أهل البيت وبنى أمية وغيرهم فجرى على مارسمواله من سياسة الرفق والحلم برهة من الزمان ثم غلب عليه حب الأثرة فرجع الى العسف والغلظة ووقع بالناس من الشدة ما اصاب اقبحه من كان احب الناس اليه

هذه هي دولة العباسيين التي اشرقت شروق الشمس في البهاء والعظمة وانها لتحتاج الى رجال عقلاء يديرون سياستها لانها لو سقطت على يد خليفته قليل الخبرة بأمور الملك لما قامت لها قائمة بعد ذلك اذ كانت دولة حيل ومكايد وكانت الحقوق فيها لاربابها من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم. فاليوم أترك الاسلام بين رايات خضر وسود وبيض فأما العلويون فانهم أهل البيت ومن لا تخرج محبتهم من قلوب المسلمين. وأما العباسيون فانهم جائزون على أمر المشرق وهم أهل سيف شديد الوطأة. واما

الامويون فانهم يرتقبون للخلافة من وراء البحار ويرومون اعادة الملك  
الذي ذهب من ايديهم بغفلة صبيانهم في دمشق والمسامون في عرض ذلك  
يتمزقون بالفتن والشقاق فاذا كان هذا حال الدولة من العظمة وهي متفرقة  
على اغراض لا تضمها الى الوحدة فما الظن لو جمعها عصبية الدين الى جامعة  
الاسلام ففي المسلمين ملوك عظام احسبهم ينتهبون الى ما بهم من الانقسام.  
ويقيمون على اساس الجامعة دولة تهتز لها دول الروم والله يؤتي الملك من  
يشاء وينزع الملك ممن يشاء لا اله الا هو رب العرش العظيم .

— — — — —  
﴿ كلمة للمؤلف ﴾

هنا ينتهي الحديث الذي حكيمته على لسان الرحالة في عصر لم يدل  
بما ناله من عظمة الرشيد على ما صار اليه بمسده من الانحطاط . فان  
الاغراض لم تزل كاملة في الذنوس حتى وقع التجزؤ في الاسلام الى أن  
أتاح الله له رجوع صولته على يد السلاطين الظافرين من آل عثمان .  
وهم الذين جموا اليهم كلمة المسلمين وأقاموا على اساس الجامعة دولة تملك  
المشرقين والمغربيين وتضم البرين والبحرين . لا زالت أيامهم محفوفة  
بالنصر الميين وسلاطينهم غرة في جبين السلاطين ما توالي الملوان  
وتعاقب القميران

الاسفار التي وجدت بين يدي وأسندت اليها رواية الرحالة

علوم الدين والشرع

١٢٨٧	طبع بولاق	الاتقان في تفسير القرآن للسيوطي
١٨٥٣	بن	الاحكام السلطانية لاماوردى
١٢٨٦	بولاق	رد المختار على الدر المختار لابن عابدين
١٢٧٦	القسطنطينية	مجمع الأنهر على ملتقى الابجر لشيخ زاده.
١٢٧٩	بولاق	شرح الزرقاني على موطأ الامام مالك
١٢٨٧	مصر	كليات أبي البقاء

ومطالعات في صحيح البخاري وتفسيرى الزمخشرى والبيضاوى

علم اللغة

صاح الجوهري . المحيط للفيروزابادى فقه اللغة للثعالبي

الممالك والبلدان

١٨٧٧	ليدن	أحسن التقاسيم في معرفة البلدان والاقاليم للمقدسى
١٨٧٢	»	المسالك والممالك لابن حوقل
١٨٥٢	»	الرحلة (الى المشرق) لابن جبير
١٨٦٦	لييسيك	معجم البلدان لياقوت
١٨٤٠	باريس	تقويم البلدان لابي الفداء
١٨٦٥	»	المسالك والممالك لابن خرداذبه
١٨٣٧	»	الفيض المديد في النيل السعيد لأحمد المنوفى
١٨٧٠	ليدن	مسالك الممالك للاصطخري
١٢٧٠	بولاق	الخطط والآثار للمقرئى
١٧٨٩	توبنك	آثار مصر لعبد الطيف
	رومية	نزهة المشتاق في اختراى الآفاق للادريسي

- ١٨٥٣ طبع باريس تحفة النظار في عجائب الاسفار لابن بطوطة  
 ١٨٤٨ غوتنبرغ » أخبار العباد وآثار البلاد للقرظيني  
 جواهر البحور . ووقائع الدهور لابراهيم بن وصيف شاه  
 (خط)  
 ( » ) نشق الآثار . في عجائب الاقطار لمحمد بن اياس

﴿ السير والاخبار وأيام الناس ﴾

- ١٢٩٠ بولاق » الكامل لابن الاثير  
 ١٨٨٠ ليدن » يارنج الملوك واعمارهم لطبري  
 ١٢٨٤ بولاق » ديوان المبتدا والخبر لابن خلدون  
 ١٢٨٦ القسطنطينية » تاريخ أبي الفداء  
 ١٨٥٨ غريفزولد » الآداب السلطانية والدول الاسلامية للفخري  
 ١٢٨٣ بولاق » مروج الذهب للمسعودي  
 ١٢٧٩ » » نفع الطيب في غصن الاندلس الرطيب للمقرئ  
 ١٢٧٥ » » وفيات الاعيان لابن خلكان  
 ١٦٦٣ اكسفور » تاريخ الدول لأبي الفرج الملقب  
 بولاق » أخبار الدول والاسلام (الخميس)  
 (خط) تاريخ الخلفاء للسيوطي  
 ١٢٨٣ مصر » الأانس الجليل في تاريخ المقدس والخليل للسيوطي  
 مصر طبع حجر حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي  
 ١٨٥١ ليدن » النجوم الزاهرة . في أخبار مصر والقاهرة لابن المحاسن  
 ١٢٨٠ بولاق » اعلام اناس فيما وقع للبرامكة مع بني العباس للاتليدي  
 (خط) فتوح الشام للواقدي  
 ١٢٩٠ بولاق » آثار الأول للقرماني  
 ١٧٨٢ » » فوات الوفيات لمحمد بن شاكر  
 ١٢٨٣ طبع بولاق العقد الفريد لابن عبد ربه

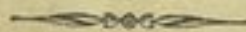


- ١٢٨٦ « تونس  
(خط) المونس في أخبار أفريقية وثونس لابن أبي دينار  
قضاء الشام لشرف الدين الانصارى  
لغاتف الاخبار الاول . فيمن تصرف  
١٣٠٠ مصر في مصر من ارباب الدول . الاسحاق  
١٣٠٠ مصر تحفة الناظرين . فيمن ولى مصر من السلاطين . للشرفاوى  
مطالعات في ابن الوردى والازرقى وابن كتيبة

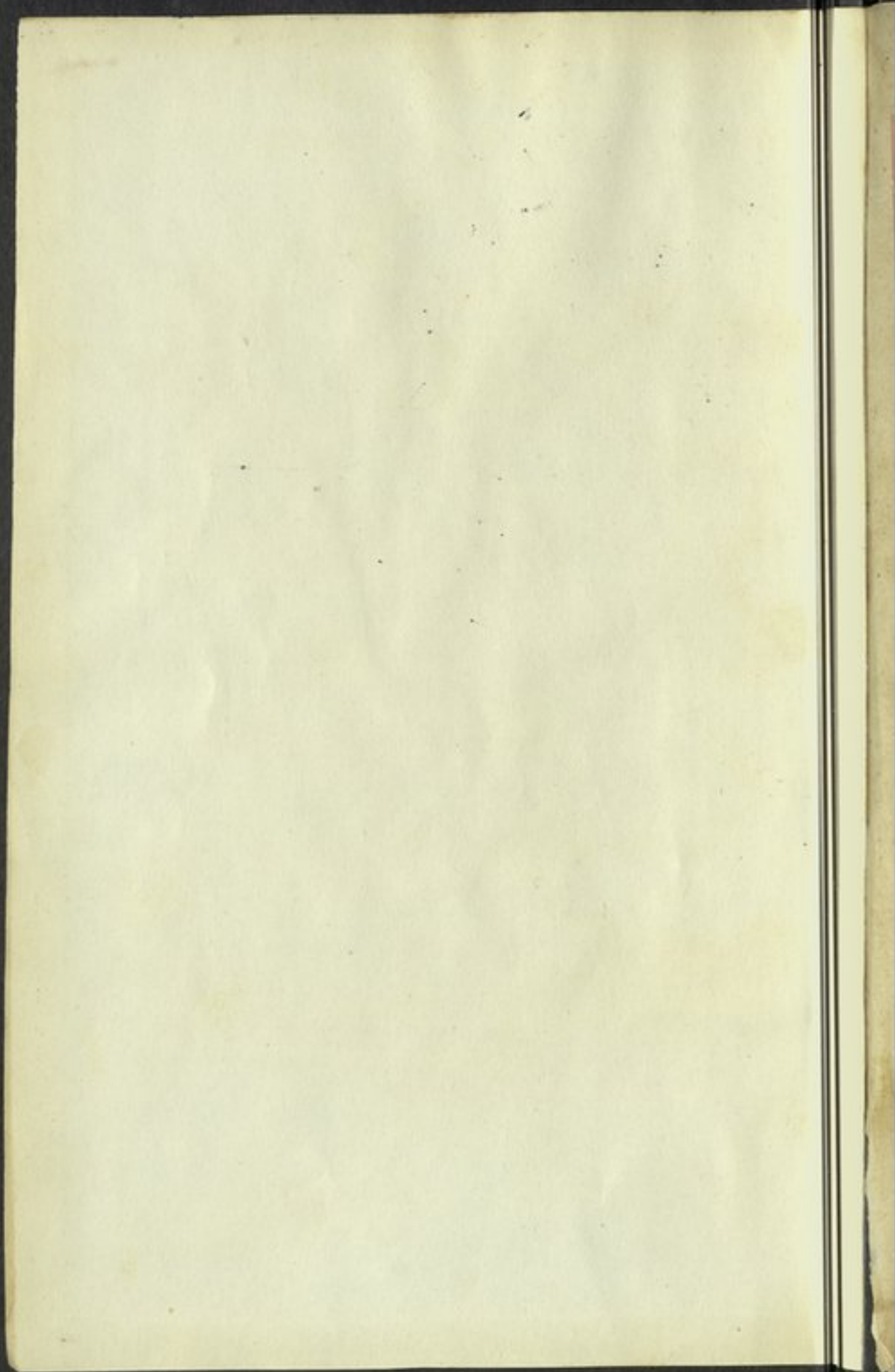
﴿ العلوم الادبية ﴾

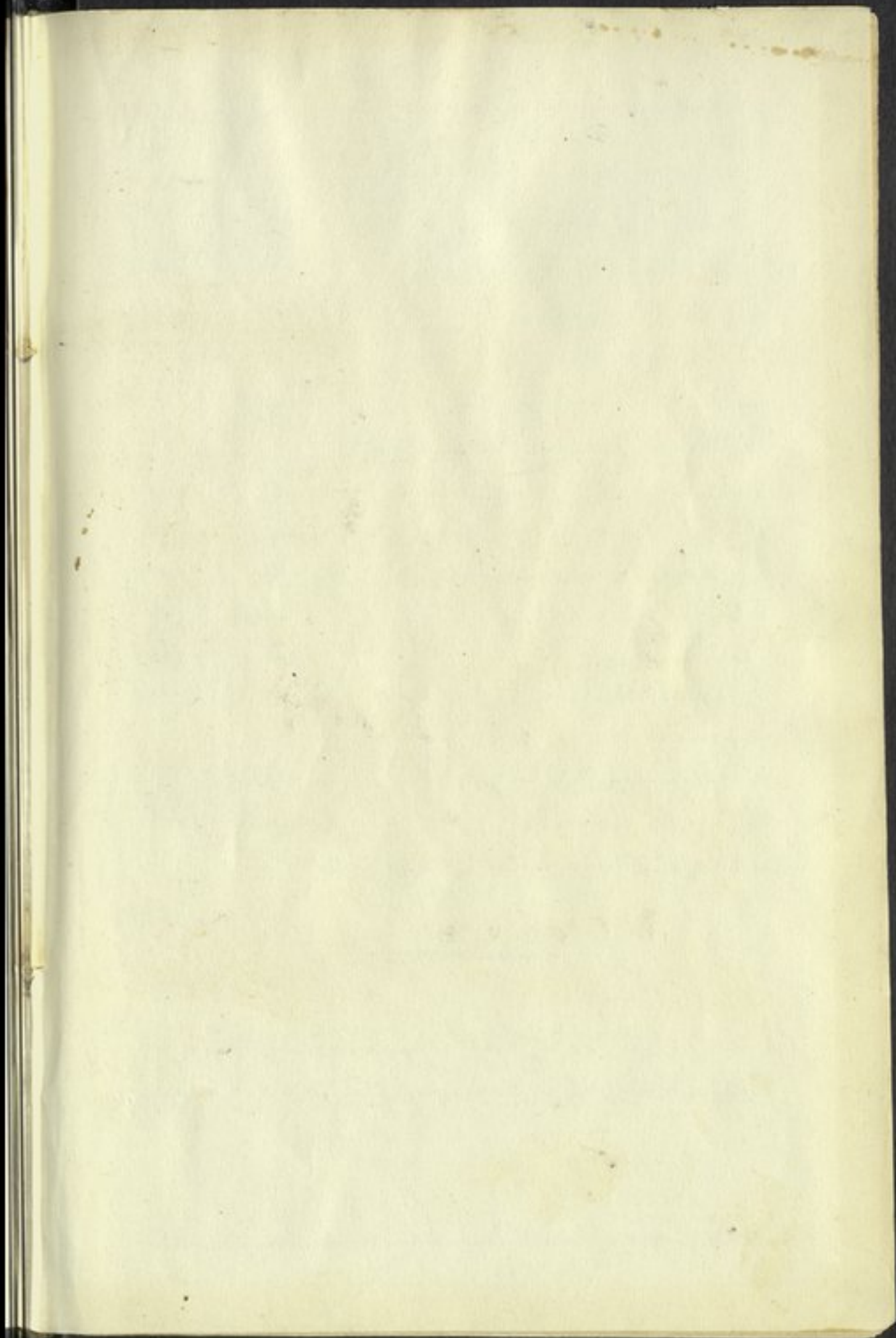
- الفهرست لابي يعقوب الوراق  
١٨٦٣ « لندن حجبى خلفه . كشف الظنون . عن العلوم والفنون  
١٢٨٥ « بولاق الاغانى لابي الفرج الاصبهانى  
١٨٧٩ « بيروت المقدمة لابن خلدون  
« بولاق المثل السائر لابن الاثير  
١٢٩٩ « قسطنطينيه أدب الدين والدنيا للماوردى  
١٢٧٥ « بولاق حياة الحيوان للدميرى  
١٨٤٩ « كوتسكن عجائب المخلوقات للقزوينى  
١٢٩١ « بولاق خزائن الأدب لابن حجة  
« بيروت مقامات الحريري  
١٢٨٤ « بولاق مجمع الامثال للميدانى  
١٢٧٧ « باريس فلاندا لعقيان . للفتح بن خاقان  
١٢٧٩ « بولاق المستطرف فى كل فن مستظرف للابشيبى  
« حجر نهج البلاغة للامام الامام على كرم الله وجهه  
خط طبقات الشعراء لابي عبيدة  
١٢٧٨ « مصر شرح لامية ابن الوردى للقناوى  
١٢٧٩ « بولاق سراج الملوك للطرطوشى  
١٢٨٦ « « الطبقات الكبرى للشعرانى

- ١٢٦٢ » باريس » مختصر كتاب الخراج لقدامة بن جعفر
- ١٢٨٨ » بولاق » الكنز المدفون . والفلك المشحون للسيوطي
- ١٢٨٤ » » شرح مقامات الحريري للشريشي
- (خط) الكشكول لبهاء الدين العاملي
- » دمشق » يتيمة الدهر . في شعراء أهل العصر لالتعالي
- » زهر الآداب وثمر الآداب بهامش العقد الفريد لالحصري
- ١٢٨٤ » بولاق » غرر النصح الواضحة لأبي اسحق الوطواط
- خط سرح العيون لرسالة ابن زيدون لابن نباتة المصري
- ١٢٩١ » بولاق » تزيين الاسواق . في أحوال العشاق لداود بن عمر
- ١٢٦٩ » الموصل » فاكهة الخلفاء لابن عمر شاه
- ١٢٥١ » بولاق » كتاب ألف ليلة وليلة
- ١٢٩٠ » » نور الابصار في مناقب آل بيت النبي المختار للشبلنجي
- » باريس » كئيله ودمته لابن المقفع
- » بولاق » حلبة الكعبيت لشمس الدين النواجي
- ١٢٨٧ » القسطنطينية » الموازنة بين أبي تمام والبحرّي
- مطالعات في لطائف العرب وبيع الابرار لزمخشري وغير ذلك



( تذييل ) في السطر الثاني من الصحيفة ٩٠ ست كلمات وقعت فيه زائدة وهي قوله « وانفريط فان مروان بنحويل يرضن بماله » وموضعها في السطر الذي بعده وقد ذكرت فيه





CA / 297.09:M94hA:c.2

المدور، جميل نخله

حضارة الإسلام في دار السلام

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01010781

American University of Beirut



AMERICAN  
UNIVERSITY OF BEIRUT

